العمالقة

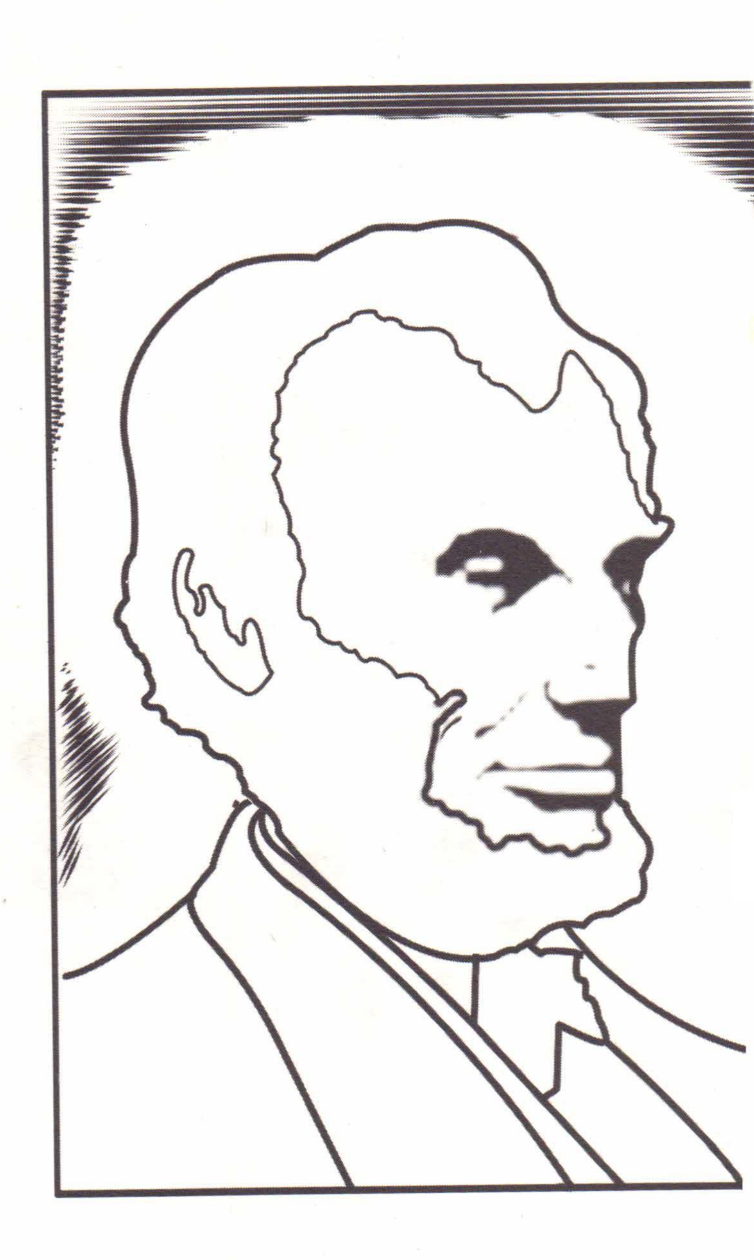
جون ستوفر

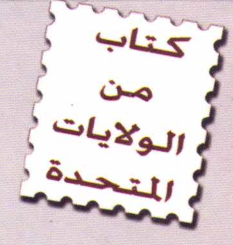


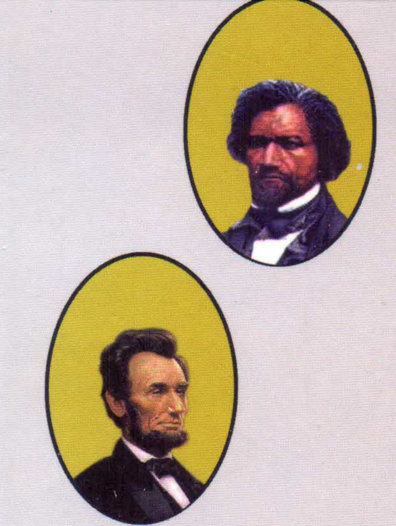


وكالة سفنكس






كتاب
من
الولايات
المتحدة










وكالة سفنكس

العمالقة

هذه الترجمة الكاملة لكتاب

John Stuffer

Giants

The parallel Lives of Fredrick Douglas and Abraham Licolin

صدر العمل الأصلي عن دار نشر
Grand Central Publishing

جون شتوفر

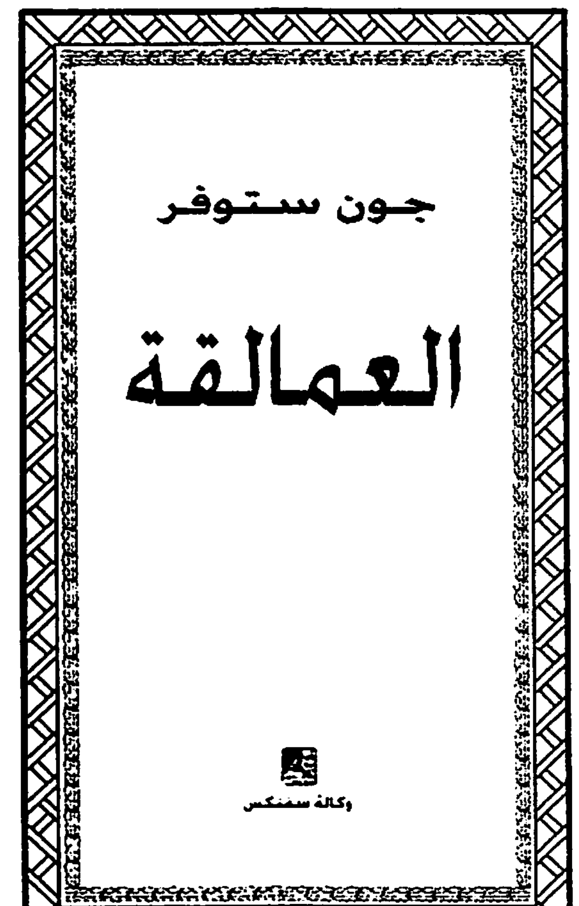
العمالقة

ترجمة / محمد المغربي
الغلاف / هانيبال – هيبو
سلسلة من كل بلد كتاب - كتاب من الولايات المتحدة الامريكية
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠١٠

رقم الإيداع:١٣٤١٢/ ٢٠١٠
ISBN: 978 – 977 – 6299 –27-6



وكالة سفنكس
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد ـ القاهرة
ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com



جون ستوفر

العمالقة

وكالة سفنكس

مفتتح

أود أن أشير بالنسبة لأبراهام لنكولن. .أن الأمر كان مسالة حفظ للتوازن داخل ذاته بين فكرتين متناقضين، أولاهما أننا يجب أن نتحاور وان نصل لدرجة من التفاهم المشترك، وتحديداً لأننا جميعاً غير كاملين ولا يمكننا العمل مطلقاً ونحن على يقين كامل بأن الله معنا، ومع ذلك فإنه يتعين علينا أن نتصرف- في بعض الأحيان وبالضرورة –كما لو اننا على يقين وأن العناية الإلهية وحدها تحمينا من الخطأ.

إن أفضل ما يمكنني عمله في مواجهة تاريخنا هو أن أذكّر نفسي أن النزعة العملية رحمة لم تكن أبداً ولا صوت المنطق، ولا قوة التوافق هي التي خلقت الظروف المواتية من أجل الحرية، إذ إن الحقائق القاسية الباردة هي التي تذكرني بما كان عليه رجال مثل فردريك دوجلاس الذي أدرك أن القوة لن تثمر دون كفاح.

باراك اوباما

جرأة الأمل. . أفكار حول استرداد الحلم الأمريكى ٢٠٠٦

تمهيد

يعد كل من فردريك دوجلاس وأبراهام لنكولن أبرز رجلين عصاميين في التاريخ الأمريكي، حيث ولد لنكولن في فقر مدقع، ولم يحصل إلا على أقل من عام واحد من التعليم الرسمي، ثم أصبح واحداً من أعظم رؤساء الأمة الأمريكية . في حين قضى دوجلاس أول عشرين سنة من حياته عبداً، ولم يحصل على أي مستوى من التعليم الرسمي، أصبح أكثر الرجال السود شهرة في العالم الغربي وواحداً من أعظم حملة الأقلام في الأمة.

ما كنت لأحلم- بأية صورة - قبل بداية مشروعي هذا أن أجدهما قد عاشا حياتين متماثلتين بشكل مذهل، فقد تعلما القراءة وصنعا نفسيهما من نفس المنهل ونفس مجموعة الكتب كالكتاب المقدس، وما كتبه شكسبير ولورد بايرون وروبيرت بيرنز، وخرافات يعسوب ومجموعة موضوعات "الخطيب الكولومبي"؛ وهي مختارات من الخطب الملائمة للنشء، وقد اجتنبا - معا - تدخين التبغ وشرب الكحول في عصر كان الناس فيه يحتسون الخمور ويمضغون

النبغ أثناء عملهم. صبحا- معاً - أكثر خطباء المجتمع إبهارا حينما كان الخطاب العام واحداً من الأشكال القليلة للترفيه "الاجتماعي"، مساوياً لرياضة المحترفين أو الموسيقى الشعبية اليوم. كانا- كذلك- من أطول الرجال قامةً على الأقل بنصف قدم أطول من نظرائهم، حينما كان التكوين الجسماني هو الذى يحدد النجاح أو الفشل أو حتى الحياة والموت . . وحينما نقوم بتفسير قدريهما نجد أن كليهما قد اقتبس نفس السطر الذي كتبه شكسبير في هاملت: "هناك يد إلهية تشكل غاياتنا وتنحتها بدقة للشكل الذى تصير إليه". كما جسدا- معا - حلم أمريكا بالتمسك بحقوقهما الشخصية الفردية وإعادة صياغة نفسيهما باستمرار، وقاما بالغوص في الماضي لتشكيل طريقهما قدماً للأمام ، إذ كانا مصلحين يؤمنان بأن التاريخ هو ملهم نشطاء المجتمع ومحركيه.

خلال تقدمهما، خاضا في وحل التفرقة العنصرية. وبالتالي، أصبحا أعداء تارة وأصدقاء تارة أخرى، فأكثر من مرة أطلق دوجلاس على لنكولن مسمى "ممثل العنصرية" و"أكبر عقبة أمام الحرية في أمريكا"، حيث عرض بذكاء حدود قدرات لنكولن كبطل للحرية، في حين قضى لنكولن معظم حياته مؤملاً في تخليص بلاده من السود والعبودية معاً . . كانا أيضا برجماتيين، قادرين على التجاوز عن الاختلافات الهائلة ليقتربا من بعضهما كأصدقاء . . في عام

١٨٦٠م ساعد دوجلاس في انتخاب لنكولن رئيسا، وفى زمن كان معظم البيض لا يمكن أن يدعوا رجلاً اسود يمر عبر عتبات بيوتهم، قام لنكولن باستقبال دوجلاس ثلاث مرات بالبيت الأبيض. . كانت صداقتهما قائمة على المنفعة بصورة أساسية حيث احتاج لنكولن لـ دوجلاس في تحطيم اتحاد الولايات الإحدى عشرة التى انفصلت عن الولايات المتحدة عام ١٨٦٠ ، وعرف دوجلاس أن لنكولن يستطيع معاونته في إنهاء العبودية، وأيضاً كانا يحملان التقدير لبعضهما البعض . .وعند مقارنة حياتيهما واحدة مقابل الأخرى، ولتمييز إحداهما عن الثانية، فإننا نحصل على صورة أكثر اكتمالاً لمسيرة كل منهما وشخصيته ، وكذلك نصل لفهم أفضل لتأثير الأصدقاء والخلصاء والمستشارين بل والمنافسين في تشكيل حياتيهما، كما نكتسب إحساساً أكثر ثراء بطبيعة تحولاتهما الشخصية وحدودها،وبعدئذ فإن الاعتماد على كلماتهما وتصرفاتهما يوفر منظوراً واقعياً يبين كيف أثر الاختلاف العرقي في تشكيل النسيج العام لحياتيهما وزمنيهما .

وتعقد بعض المفارقات العنيفة أفكارنا المسبقة سلفاًحول هذين الرجلين، وحول الرجال العصاميين بوجه عام، فدوجلاس ولنكولن من بين أعظم مفكري أمريكا، رغم أنهما نشأ وسط عالمين فاسدين وكان يشار لإلى انهما شكلا نقطة تحول في مسرتيهما . .كانا من



صناع الكلمة الذين لم يتعلموا مطلقا لغة أجنبية واحدة. وبدلاً من ذلك، تطوروا من الحديث بلهجة محلية - تكاد تكون بلسان أجنبي- إلى التحدث بلغة إنجليزية مهذبة رغم أن اغلب الناس اليوم يظنون أن لنكولن واحداً من أعظم خطباء الأمة حيث كان دوجلاس- في وقته- يُعدّ نموذجاً للأدب. أقر كلا الرجلان بأن الخطاب العام يهم المجتمع أكثر من صلات النسب أو العلاقات الشخصية كمدخل للحياة العامة . .كما انتصرا على اليأس بمزاجهما المرح. كما أن كلاهما تزوج، وأصبحت المرأة - جزئياً - مسئولة عن نجاح كل منهما .

جسّد دوجلاس ولنكولن مفهوم الإنسان العصامي حتى قبل ابتداع هذا المصطلح عام١٨٣٢ إذ بينما كانا يقومان بصنع مكانتهما دفعا الآخرين للاقتداء بهما، فهما ينفصلان عن الناس عندما يستغنيان عنهما ، ثم يعودان للتواصل معهم عندما تلاقى طرقهم، حيث لاشيء ساكن وثابت بالنسبة لهما في أمور الصداقة أو المصلحة الشخصية . . تسمى واحدة من أشهر خطب دوجلاس "الرجال العصاميون" ألقاها أكثر من خمسين مرة وكان ينقحها باستمرار خلال تطور حياته، مثلما كتب سيرته الذاتية ثلاث مرات. كان صلب الخطاب يدور حول كيف يمكن للرجال والنساء تحسين ظروفهم عبر العمل الجاد والتعلم الذاتي . . وقد آمن لنكولن

أيضا بتلك المبادئ باعتبارها الوسائل الأولى المرء لنفسه بجهده الخاص . .لكن الهدف النهائي لتلك التحولات كان تحسين المجتمع لا الوصول للثراء، ففي إعادة صنع النفس إصلاح للمجتمع.

كان وجود العبودية- سواء في صورة "عبودية الأجور المدنية" بالنسبة لإلى الرجال البيض أو عبودية الأقنان بالنسبة إلى السود- يقف حائلاً أمام إمكانية صنع المرء لنفسه إذ شكل وجود المرء ثابتاً وساكناً من الناحية الاجتماعية مدى حياته مأساة قومية في قناعة كل منهما . لقد ضم لنكولن السود إلى حلمه في إتاحة الفرصة للمرء لصنع نفسه قبل أن يصادق دوجلاس بزمن طويل : "أريد لكل إنسان فرصته . .والإنسان الأسود يستحق ذلك في اعتقادي أيضا، حيث يقوم من خلال هذه الفرصة بتحسين أوضاعه" . . لكن لنكولن كانت لديه قناعة أيضاً بأن على السود مغادرة البلاد لتحسين أحوالهم ،وساعده دوجلاس على تغيير وجهة نظره.

أدرك لنكولن ودوجلاس أن صناعة النفس "العصامية" تتناقض مع العنصرية، وكان ذلك لأن فكرة "بياض البشرة" كعلامة على التفوق ومبرر لقهر السود اعتمدت على الإيمان بأن الذات ثابتة لا تتغير. لقد تجاوز دوجلاس ولنكولن الفكرة التقليدية التي تعد "الشخصية" ظاهرة ساكنة ثابتة ومؤسسة على الوراثة والمكانة الاجتماعية، إذ رأيا بدلا من ذلك أن الذات في حالة من التدفق

الدائم . . وقد تمسك دوجلاس بأهمية ذلك التطور في مدح لنكولن: "كلما ارتقينا في المرتبة الإنسانية والسمو الأخلاقي، ابتعدنا عن الأحكام المسبقة، فالجمود يقود لضيق الأفق والتفاهة."

كلاهما وقف في مقدمة النقلة الرئيسية في تاريخ الثقافة التي رفضت الوضع القائم بشأن الأوضاع الاجتماعية الثابتة وأدرجت السود والبيض - والنساء نادرا- في إطار المثل القومية للحرية والمساواة. لكن ذلك التحول كانت له حدوده، إذ ظهر دوجلاس ولنكولن في عصر الاحتفاء بالعصاميين. في الوقت الذي كانت حكايات " القفز من الفقر إلى الغنى" وقائع حقيقية تروى،ومع ذلك فقد كان امتلاك العبيد في الجنوب أضمن طريقة لصناعة الذات. . ولسخرية القدر، برز لنكولن ودوجلاس كأصدقاء خلال حرب غيرت المجتمع الامريكى، وأعاقت أثناء مسيرتها احتمالات صناعة الذات، فالحرب أنهت العبودية ومنحت الرجال السود حق التصويت اسمياً، لكنها جلبت موجة عارمة من العنصرية، وانتكاسة آثمة ضد السود، كوسيلة لإعادة توحيد الشمال والجنوب، مع كمّ هائل من البيروقراطية وسوء توزيع الثروة مما أعاق الحراك الاجتماعي بين الطبقات الدنيا، ففي عصر ما بعد الحرب الأهلية أضحت فكرة الإنسان العصامي أسطورة عامة ، وبهذا المعنى صعد دوجلاس

ولنكولن من قاع المجتمع إلى قمته بطرق أصبح من الصعب بعد ذلك تصديقها بخمسين عاما .

تفتح تلك السيرة الذاتية الجماعية نافذة على تحول المجتمع الأمريكي بسبب الحرب الأهلية حيث توازى صراعات الرجلين- غالبا- مع صراعات الأمة، ويعكس اضطرابهما الداخلي الإضطراب الذي ساد أمتهما، وفى الواقع يزودنا تفاعل الرجلين معا بخارطة طريق للمشهد السياسي المتغير، فقد تكرر فقدان دوجلاس لثقته في لنكولن لكي يستعيدها مره أخرى، إذ لا ترسم رؤاه المتغيرة المسيرات السياسية لكلا الرجلين، وإنما تبرز مسيرة الأمة نحو الثورة الثانية، وتعد قصتهما المتشابكة في التغير وصناعة الذات وتحالفهما وصراعاتهما قصة الأمة.

مقدمة

لقاء الرئيس

١٠أغسطس١٨٦٣



حلم فريدريك دوجلاس بعودة حميدة لموطنه أفضل من تلك التي رآها . ففي الليلة الحارة الرطبة من العاشر من أغسطس عام١٨٦٣، دلف قطاره إلى محطة بالتيمور، المدينة التي هرب منها على نفس الطريق قبل ذلك بخمسه وعشرين عاما . غادرها متنكراً بواسطة قطار الأنفاق ليعود إلى بالتيمور وأوهايو في قطار النوم بالدرجة الأولى، وبينما كان يقترب قطاره من محطة بريزدنت ستريت ، تطلع بشغف عبر "شيش" النافذة نحو الشوارع المألوفة– الخالية الآن– والحدود القاتمة لملامح المباني، وعقد أمله على وقفة قصيرة، فالعبودية مازلت قانونية في ماريلاند، وكان قد قرأ عن المزارعين الذين يخطفون السود الأحرار ويقومون بتشغيلهم كعبيد .

كان يمر مرورا عابراً متجهاً نحو واشنطن إلى العاصمة ،حيث كان الكونجرس قد قام بإلغاء العبودية هناك منذ عام. كان البيت الأبيض هو مقصده ،وكان أمل ذلك العبد السابق مقابلة الرئيس لنكولن. لم يكن لدى دوجلاس موعد محدد مع الرئيس، وفى الحقيقة كانت رحلته عفوية التخطيط. لكنه رغم ذلك سعى لمواجهة لنكولن لإبلاغه شكاواه حول سوء معاملة الإدارة للجنود السود . إذ كان يُخطر لنكولن منذ بداية الحرب من خلال خطبه وكتاباته الصحفية بضرورة تسليح السود، وظل خلال الأشهر الست السابقة – وبعدما

سمحت الحكومة أخيراً للسود بالخدمة في الجيش - يحرض ويجند "الملونين" للإنضمام للقوات المسلحة كوسيلة للقضاء على المتمردين وتحقيق حرية السود وحقوق المواطنين ، فساعد على حشد سجلات متطوعي القوة الرابعة والخمسين لولاية ماساتشوستس وهى أول كتيبة من السود من ولاية حرة . . وكان اثنان من أبنائه من أوائل المسجلين بها، وجرح ابنه الأكبر خلال هجوم يائس على حصن فورت واجنر. لكن الجنود السود كانوا يتقاضون نصف أجر الجندي الأبيض، ولم يكن يسمح لهم بالترقية للمراتب المميزة . بل الأسوء أن السجناء السود كانوا يُغتالون أو يُستعبدون بواسطة الاتحاديين. وبسبب هذا الظلم هجر دوجلاس مسألة تجنيد السود وقرر الذهاب إلى واشنطن لتقديم شكواه للرئيس. فقد تلاشى إيمانه تقريباً- بأن لنكولن رجل أعمال لا أقوال، كما أعلن أنه كان يأمل أن يستعيد إيمانه بذلك الرجل "الرئيس" وبالأمة .

كانت الرحلة الطويلة من روشيستر على وشك الانتهاء، ورغم اعتياد دوجلاس على السفر بالقطارات وتحسنالخدمة بشكل ملحوظ منذ ركوبه الأول في بالتيمور عام ١٨٣٨، فقد كانت رحلة غير مريحة. فالأسرة في كبائن النوم كانت أساساً مقاعد قلبت إلى ألواح ضيقة ، ومع الاهتزازات المستمرة وتأرجح العربات اصبحت النتيجة "كمحاولة للنوم على ظهر حصان هارب "، إذ كان الاهتزاز

حاداً لدرجة أن القراءة والكتابة- عملياً اصبحت مستحيلة؛ وانهمرت خلال الرحلة الأتربة والشرر ودخان الفحم عبر فتحات التهوية .وبينما اقترب دوجلاس من نهاية رحلته التي استغرقت عدة أيام، كان التعب قد أنهك قواه وآلمته عضلات جسمه من قلة حركتها، وغطته طبقة رقيقة من السناج- الهباب الأسود- إلا أن ملابسه القاتمة وسحنته "السوداء" أخفيا ذلك. كانت هذه إحدى اللحظات القليلة التي تشكل فيها البشرة السوداء ميزة ما . ومع نهاية الرحلة، بدا كل واحد "أكثر سواداً من حبشيّ أسود"، مثلما ذكر احد المعاصرين، ولم يكن هناك مكان "لغسل أنفسكم مثل كل الناس" .

ومع اقتراب القطار من واشنطن، تساءل دوجلاس عما إذا كان يجب علية القدوم لهذه الزيارة أم لا، حيث كان من الخطر على رجل أسود السفر إلى بلاد مازالت العبودية قائمة بها .عندئذٍ، هدأت حدة غضبه وضيقه إلى حد ما، لأنه عندما ترك مسألة تجنيد السود علم أن لنكولن وقع على أمر يستهدف منع الاتحاديين من اغتيال السود، ينص على "أن كل جندي يقتل- منتهكاً لقوانين الحرب - جندياً متمرداً سوف يُنفذ فيه حكم الإعدام. "كان يجب اصدار هذا الأمر قبل عدة أشهر من اغتيال المئات من الجنود السود. "لقد صدر متأخراً، لكنه صدر على أية حال."

كان الوقت يوشك على الفجر عندما غادر دوجلاس محطة بى آند أو ، عند ميدان نيوجيرسي وشارع سى، على بعد عدة بنايات من مبنى الكابيتول، إلا أن المدينة كانت مزدحمة، ولم يملك نفسه من ملاحظة الأعداد الكبيرة من السود . بعضهم آخذون في العمل فعلاً، والقليل منهم كانوا ينامون في العراء . إذ خلال فترة تزيد قليلاً عن العام تدفق أكثر من أحد عشر ألفاً من السود المحرّرين، رجالاً ونساء- وكانوا يسمونهم مهربات الحرب - إلى وسط المدينة بينما قطن ثلاثة آلاف آخرون ضاحية الإسكندرية "بالقرب من نيوجيرسي" .

لم يشبه دوجلاس أياً من أولئك السود "المسمون مهربات الحرب"، فهو- صاحب الخمسة وأربعين عاماً- كان يحمل شكلاً مميزا . فهو طويل يتجاوز الستة أقدام ورياضي ويرتدى زياً رسمياً مع معطف داكن اللون وقميصا أبيض ذا ياقة عالية، وقد اختلط اللون الرمادي بشعره الذي يحيط برأسه مثل كرة أرضية سوداء رغم أنه قام بتصفيفه للخلف وتمتد أعلى عينه اليمنى من فروة رأسه خصلات بيضاء تمتزج بانتظام حتى تتحول للون الرمادي عند مؤخرة الرأس، ولحيته رفيعة مشذبة بعناية فحمية اللون، تضيف جاذبية لهيئته ويبدو بها كلها "عظيماً في هيبته" وفقاً لما ذكره احد الراقبين . في المقابل، كان بقية السود يرتدون خرقاً بالية وملابس مهلهلة



أخذوهاحينما هربوا من أسيادهم السابقين، وكان بعضهم عارياً، وأغلبهم حافياً، وبدا على العديد منهم المرض والإعياء . .كان دوجلاس يعرف أن الجدري قد انتشر بين هذه الجماعات التي كانت تقطن ثكنات للجيش تسمى داف جرينز رو و تقع إلى شرق مبنى الكابيتول، وانتشرت بينهم الحصبة كذلك والدفتريا والحمى القرمزية وحمى التيفود. كانت تسجل - في بعض الأيام- عشرات الموتى بديف جرينز خلال أربع وعشرين ساعة. ومقارنة بدوجلاس، كانت تلك الجماعات صنفاً مختلفاً من البشر. كان يعلم أن معظم البيض يربطون بينه وبين أولئك بسبب لون بشرته فحسب .كانت جموع من يعتبرن من المهربات قد اختلطن بجنود الاتحاد في الشوارع.كان بعضهم في نوبة عمله، والبعض الآخر يمضي بجراحه الواضحة أو بساق أو ذراع مبتورة ولا يزال مع ذلك مرتدياً بذلته الرسمية، ويظهر على البعض الآخر معالم المرض أو التشرد. كانت المدينة تعج بالمستشفيات، التي كانت من قبل كنائس وكليات وفنادق مع مجمعات أضخم على ميداني آموري و جودتشياري . حتى مكاتب براءات الإختراع تحولت إلى مستشفيات. وفيما بين تجمعات "المهربات" وبين المستشفيات، بدت المدينة مدينة للموتى والمحتضرين.

لم يكن في الأرجاء سوى قلة من البيض الذين يملكون مالاً، إذ ساهمت درجة الحرارة المرتفعة والرطوبة تدفق مئات من المحررين الجدد رجالاً ونساءً في جعل المدينة حضانة للأمراض . وقد غادر الأثرياء المدينة إلى منتجعاتهم الصيفية. كتب جون هاي- سكرتير لنكولن- لأحد أصدقائه قبل وصول دوجلاس بثلاثة أيام عن ذلك قائلاً: "أصبحت هذه المدينة كئيبة كشاهد قبر مشوه، فالجميع رحلوا بعيداً، إذا ما توافرت لهم الوسيلة للرحيل ه." مما يعنى أن كل إنسان كان يجد مكاناً آخر فإنه يغادر على الفور، وكان هؤلاء يشكلون نسبة ضئيلة وسط مواطني واشنطون البالغ عددهم خمساً وسبعين ألف نسمة.

بينما كان دوجلاس يمضى قاصداً البيت الأبيض، لم تكن لديه أدنى فكرة عما إذا كان سيحصل على موافقة على اللقاء أم لا، وإذا ما تم ذلك اللقاء فما نوع الاستقبال الذي سيلقاه. لأن كل ما كان يملكه كوسيلة لتحقيق هذا كان مجرد علاقات واهية مع قليل من أعضاء الكونجرس المناهضين للعبودية، وسمعته كداعية لإبطال الرق ومؤلف وصحفي مع خطاب يحمله في جيبه من جورج ستريمز، وهو مثقف من الطبقة العليا كان يقود حركة التجنيد في الشمال وله علاقات جيدة بالمسئولين في واشنطن، ويصرح جورج لدوجلاس في خطابه بأن يذهب لواشنطن "كوكيل عنه للقيام بالأعمال المتعلقة

بالتجنيد ولم يكن ذلك أكثر من مجرد خطاب للتعرف والرعاية يشمله الغموض حيث كان جورج لا يعرف لنكولن جيدا، وبالنسبة للتصريح بدخول البيت الأبيض، كان دوجلاس يأمل في أن يحدث اسمه تأثيراً أكبر من خطاب ذلك المثقف ، وانقلب حظه فجأة عندما التقى مصادفة بـ صامويل بوميروى- عضو الكونجرس المعارض للعبودية عن ولاية كانساس والمولود في ماساتشوستس والذي تلقى تعليمه في كلية أمهيرست. كان بوميروى خليطاً من التهذيب السائد في نيو انجلند وبدائية مدينة دودج. و"كان ضخماً وسميناً بالرغم من عدم طوله"، برأس أصلع عدا بضع شعيرات تمتد عبر فروة رأسه إلى الخلف حيث تتناثر في تعرجات من الخصل حول أذنيه ولحية مكتملة تكاد تخفى شفتيه الرقيقتين، اللتين حينما كان يغلقهما تبدوان كابتسامة باهتة أو ساخرة لا يمكن تحديدها .

صنع بوميروى لنفسه اسما - في البداية - كوكيل تمويلي لشركة تقديم العون لمهاجري نيو إنجلند، التى كانت تصرف مايربو على مائة ألف دولار على المستوطنين الذين كانوا يرغبون في الاحتفاظ بكانساس آمنة من العبودية. والتقى بدوجلاس في العقد السادس من القرن التاسع عشر عندما كان يحاول "انقاذ" كانساس من العبودية. كان دوجلاس وبوميروى يتشاركان الهدف مع جون براون. لكن بينما كان دوجلاس وبراون صديقين حميمين كان الحب مفقوداً بين

بوميروى وبراون إذ كان الأخير نافذ الصبر مع الرجال الثرثارين، ومن هنا شبّه بوميرى بديك يمشى مختالاً.

لكونه سيناتوراً تمتع بوميروى بسمعة هى أنه ذو وجهين ، فمن ناحية كان معروفاً بمعارضته العنيدة والضارية للعبودية، لأنه بالفعل كان قد قدم مشروع القانون الذي أصبح قانون المصادرة في السابع عشر من يوليو عام ١٨٦٢، والذي أدى لتحرير العبيد الذين هربوا من سادتهم الذين خانوا الإتحاد إلى حدود ولايات الاتحاد، وقام بتشجيع لنكولن لإصدار إعلان التحرير من الرق في الأول من يناير عام ١٨٦٣ الذي أكد أن العبيد في الولايات المتحدة هم "دوماً أحرار". من ناحية أخرى، كان اسمه قد ارتبط في الآونة الأخيرة بالصفقات السرية والفساد والرشوة. وسواء عرف دوجلاس ذلك الجانب السيئ لبوميروى أم لا، فقد قبل بسرور عرض السناتور بمرافقته في مهمته .

ذهبا أولاً إلى مبنى وزارة الحرب بالقرب من البيت الأبيض في منزه الرئيس، حيث طلب دوجلاس لقاء إيدوين ستانتون " وزير الحرب " وكان مشهوراً بإجراء مقابلات "طيارى ان ام تقل جافة " ، وكان موظفاً كفئاً بارعاً يشبه أساتذة الجامعة و يسهل التعرف عليه بسبب بدانته المماثلة لشرائح اللحم السميكة ولحيته الطويلة المستقيمة المتأرجحة فوق صدره. كان يعرف دوجلاس،

فأتاح له مقابلة تمتد لثلاثين دقيقة اعتبرها دوجلاس ميزة خاصة.

وجد دوجلاس ستانتون "رجلاً بارداً وعملياً لكنه جاد". شرح دوجلاس له أن على الحكومة أن تتفهم أمراً تبيّن له أثناء عمله في تجنيد واستخدام السود وهو أن "الزنجي كان ضحية لرأيين متطرفين"، ففي النموذج الايجابي فاق السود البيض في ورعهم وطبيعتهم وسماحتهم وإيثارهم . لذا كانوا يمثلون العم توم، وبعبارة أحرى يشلهون المسيح. بذلك أصبحوا مصدراً للخلاص الفردي والوطني بالتضحية بأنفسهم. وفى النموذج السلبي، كان السود هم الشيطان مجسداً، إذا ما تم تسليحهم سوف يقتلون الرجال البيض ويغتصبون نسائهم. يتجه النموذجان نحو اعتبار السود عديمي الكفاءة أو الشجاعة كجنود .

رأى ستانتون أنه ينبغي أن لا يُنظر إلى الرجل الأسود باعتباره شيطاناً أو ملاكاً، ويضيف دوجلاس مؤكداً على ذلك بقوله:

" إنه إنسان ويجب أن يُعامل على أنه كذلك بصورة مجردة" فالجنود السود- شأنهم شأن البيض- بعضهم شجاع، والبعض الآخر جبناء، بعضهم طموح وملهم، والبعض الآخر متبلد الإحساس، وعند تشكيل قوات من السود، على الحكومة أن تتوافق مع تلك "الحقائقالجوهرية" .



هنا قاطعه ستانتون فجأة متسائلا:

- كيف تتعارض الظروف الحالية المحيطة بقوات الجنود السود مع ما تبينه من آراء؟

وكان رد دوجلاس بهدوء:

لدى الجنود السود مشكلات في الأجر غير المتساوي الذي يتقاضونه، ولا يوجد ما يحفزهم. كما أن التنظيمات تحصرهم عند مستوى "النفر" - الجندي العادي - أو مستوى صف الضباط.

وجد ستانتون نفسه الآن في موقف دفاعي فاضطر لشرح الصعوبات والأحكام المسبقة التي يجب تخطيطها قبل تحقيق المساواة المطلوبة، وقدم وصفاً لجهوده في سبيل صرف نفس المرتبات والمقتنيات والملابس النظامية والمعدات للسود مثل البيض . وبالفعل ادعى أنه قدم مشروعا للكونجرس بنفسه في هذا الشأن وقبله البيت الأبيض، لكنه هُزم في تصويت بمجلس الشيوخ .وهنا كان ستانتون يكذب فلم يكن هناك مثل هذا القانون مقدما منه في السجلات.

الأكثر من ذلك، لم يخبر ستانتون دوجلاس بأنه في أغسطس سنة ١٨٦٢ منح الجنرال روفروس ساكستون في جنوب كارولينا صلاحية حشد وتجميع خمسة آلاف جندي أسود سوف يتلقون "نفس راتب ودرجات الجنود البيض "، وكان من الواضح أنه كان عصبياً عند إصدار القرار لأنه ألحقه بمذكرة يصر فيها على "أن ذلك



القرار لا يجب أن يرى النور لأنه يتقدم الرأي العام بدرجة كبيرة لا يتحملها." وكما لو كان يقدم نصيحته الخاصة، تراجع أمره بمنح "الراتب المتساوي" لاتذا بقانون الميلشيا الأهلية الصادر في يوليو عام ١٨٦٢ الذي يمارس التفرقة ضد المتطوعين السود بمنحهم راتبا كعمال فقط (وهو سبعة دولارات في الشهر)، لا كجنود (ثلاثة عشر دولاراً شهرياً). ولو كان صريحا مع دوجلاس لأخبره بما قاله لمنتقديه من البيض: "إن بعض سرايا الجنود البيض قد شكوا من مساواتهم بالجنود الزنوج وإن ذلك (الراتب المتساوي) سيمنع تطوع الجنود البيض." وادعى- بدلا من ذلك- أنه كان يبذل كل ما في وسعه لمنح السود نفس راتب البيض.

شعر دوجلاس بأن ستانتون يراوغه في الحديث وأن مجرى الحديث قد يتحول إلى عراك، ولإنجاح مهمته قرر التوافق. لذا أخبر ستانتون أن الراتب على المدى البعيد ليس له أولوية حالية، فالجنود السود لهم قضية بعيدة تماماً عن الراتب أو الرتبة، فإنهم يسعون لنيل حرية جنسهم والإقرار بأنهم مواطنون أمريكيون.

هنا جاء دور ستانتون ليتوافق مع ضيفه، فهو يرغب حقيقة في توفير أجور متساوية من أجل السود- وكرر ذلك مرات- وسعى لجعل الكفاءة معياراً للترقية بغض النظر عن الجنس، وقد أقسم على ترقية كل رجل أسود يوصى به ضابطه الأعلى. عندئذ، وليبين

لدوجلاس كم كان صادقاً ، عرض عليه العمل معه كضابط يحمل رتبة ووعده بوظيفة مساعد للقائد للمعاونة في تجنيد الرجال المحررين في الجنوب.

وأكد ستانتون لدوجلاس احتياجه له وتساءل متى يكون جاهزاً للعمل ، فأجابه دوجلاس "خلال أسبوعين " و"يمكن لك أن ترسل لي التكليف في روشيستر" .

عندئذٍ، أمره ستانتون "بتقديم نفسه إلى: الجنرال لورنزو توماس" المسئول عن تنظيم القوات السوداء في فيكسبرج بولاية مسيسيبى والتعاون معه في حشد هذه القوات. كما أمره بلقاء جون أشر وزير الداخلية للحصول على تصريح مرور يسمح له بالسفر بحرية عبر خطوط الاتحاد. بهذا، أنهى ستانتون المقابلة.

أصاب دوجلاس الذهول ، فهو قد ناقش وجادل عشرات من المسئولين لكنه لم ير مثل ستانتون رجلاً نافذاً، إذ لم يمدحه ستانتون حتى ولا مرة واحدة، وإنما طلب منه أن يصبح أول ضابط مساعد للقائد أسود في تاريخ الجيش الامريكى، وكان ذلك أقصى تقدير يمكن لستانتون تقديمه، وبذلك يمكن للشرائط الذهبية- رتبة الضابط- على أرضيتها الزرقاء أن تعلو كتف رجل أسود !

تمالك دوجلاس نفسه بصعوبة بينما أصابت الدهشة بوميروى الذي كان حاضراً طوال اللقاء، والذي أدرك أنه ليس له مكان

بجانب مهارة دوجلاس في مخاطبة الجماهير في عصر كان الخطباء العظام يتساوون مع نجوم الرياضة، فقام بتدوين بعض الملاحظات الفكرية بشأن تحسين وتطوير أسلوبه الخطابي.

ثم اقتاد دوجلاس إلى مكتب أشر رغم أنه كان لا يزال تحت تأثير صدمة ذلك الرجل الأسود، في حين قام أشر- الذي كان قد أُخطر بزيارة دوجلاس من أحد المساعدين – ليقابلهما في الحال وكتب المذكرة التالية:

"وزارة الداخلية

واشنطن العاصمة . العاشر من أغسطس ١٨٦٣

إلى من يهمه الأمر/ ________

حامل هذا التصريح، فردريك دوجلاس معروف لنا كرجل حر مخلص. لذا، فهو مخول بالسفر دون إعاقة، ونحن واثقون أنه سيكون محل ترحيب في كل مكان كرجل حر وسيد مهذب.

مع وافر احتراماتي

ج . ب . أشر

وزير الداخلية"

أضاف بوميروى اسمه وتوقيعه لذلك التصريح شاعراً أنه قد أُهمل في هذا اللقاء في وثيقة بمثل تلك الأهمية.



وبينما كانا يغادران وزارة الداخلية التقيا بمونتجومري بلير مدير عام البريد فشرح له دوجلاس ما حصل عليه من تفويض وأراه التصريح فأضاف بلير اسمه للوثيقة مع تذييل مختصر يقول: " اسمحوا بمرور حامله، فردريك دوجلاس، الذي أعرفه كرجل حر!"وبذلك حصل دوجلاس خلال ساعة أو نحوها على إقرار وتأييد ثلاثة من أكثر رجال الأمة قوة.

أصبح دوجلاس الآن أكثر إصراراً- عن ذي قبل- على مقابلة الرئيس فأسرع إلى البيت الأبيض، ومعه بوميروي ينفخ ويتعرق محاولاً مجاراته. رغم أن الوقت كان لا يزال مبكراً، فإن الطريق إلى مكتب لنكولن كان قد امتلأ فعلاً بالساعين للحصول على رعاية الرئيس، وكانوا جميعهم من الرجال البيض، ولم يبدُ عليهم السرور لوجود رجل أسود بينهم. أرسل دوجلاس بطاقة تعريفه وجلس على السلم، كان قد اجتاز بالكاد عائقاً حاسماً. لكن القادم أكثر اختلافاً تماماً في الأهمية، فقد يطول الانتظار كثيراً.

كان لنكولن يغادر البيت الأبيض أثناء تلك الليالي الحارة من أغسطس لقضاء المساء في"بيت الجنود"، وهو منتجع لقدامى المحاربين يقع في التلال المشجرة شمال شارع باونداري. ورغم أنه يبعد أميالا قليلة فقط، فإنه يوفر راحة قصيرة من روائح وعرق المدينة ومن تلك الصفوف التي لا تنتهي من طالبي لقاء الرئيس. الذين



كان بعضهم ينتظر طوال الليل، وكان الرئيس يعود أغلب الأيام صباحاً وسط كوكبة من الفرسان "شاهري السيوف المرفوعة عاليا فوق أكتافهم" .

لقد كان والت وايتمان – الذي يعمل كممرض خاص وكان بيته يطل على نفس الطريق- يشاهد هذه المسيرة الرئاسية "يوميا تقريبا"، ولم يبدِ لنكولن لوايتمان كرئيس لأنه كان يرتدي معطفاً أسود اللون" صدئاً ومعفراً بالتراب إلى حد ما، وقبعة جافة سوداء، وبدا عادياً في مظهره" مثل "عامة الناس " . ذكر وايتمان ذلك كنوع من المديح، وعلى أية حال بعد كل ذلك دعا وايتمان نفسه بأنه "واحد من الرجال ذوي المشاعر الصلبة." وفي الواقع، كان وايتمان مسرفاً في عاطفته لتقدير شخص لنكولن، يتلصص عليه ويدون آراءه في يومياته. وكان وصفه للرئيس يشير أحياناً إلى ولعه به :"وجاءت سحابة فريدة صغيرة بيضاء،الوحيدة الموجودة في ذلك الجزء من السماء وحلقت كالطائر فوقه تماما." وادعى وايتمان وجود علاقة حميمة مع لنكولن بدرجة معينة: "كانت بيننا علاقة حتى أننا كنا نتبادل انحناءات الترحيب، انحناءات ودودة جداً." لكن الشاعر والرئيس لم يلتقيا أبداً.

ربما لم يعرف لنكولن وايتمان وإن كان قد قرأ له، وكانت الانحناءات الودودة– ربما- ميلاً لدى لنكولن اعتاده لإمالة رأسه

للأمام. إذ كان قبلها بيوم- أي في التاسع من أغسطس عام ١٨٦٣- يجلس في استديو أليكساندر جاردنر لالتقاط صورة له وقد أحنى رأسه فوق يده، وهو وضع كان يحب تكراره كثيرا. وربما كانت تلك العادات ناتجة عن الإرهاق حيث كان ينام ساعات قليلة أثناء الليل، وقد أجهدته الحرب تماما. ووفقاً لما ذكره أحد رفاقه من قدامى أصدقائه، فإن "المحامى البشوش" لنكولن"يبدو الآن شاحبا، وهيئته أكثر انحناء، وسحنته باهتة، وتبدو نظراته خارجة من عينيه المجوفتين الواسعتين."

كانت الأسابيع الستة الأخيرة مزعجة على وجه الخصوص، إذ كان لنكولن قلقا لتوقف الجنرال مييد عن التحرك عقب هزيمة الجنرال "لى" عند جيتسبرج يوم الرابع من يوليو، تاركاً"لى"ينسحب متراجعا إلى فيرجينيا وتلك سقطة من أعظم أخطاء الحروب. كتب لنكولن خطاباً إلى الجنرال مييد، لكنه لم يرسله أبداً إليه قال فيه: "لقد كان "لي" في قبضتك وكان بإمكانك أن تسد عليه المنافذ، فذلك كان سينهى الحرب، ولكن ما آلت إليه الأمور الآن سيجعل الحرب تمتد بلا نهاية." بل، وعبر عن إحباطه الأكبر لابنه روبيرت بقوله: "لو كنت هناك . . لألهبت ظهورهم بالسياط بنفسي." ثم قال لجون هاى: "لقد أمسك جنود جيشنا الحرب في قبضة يدهم، ولم يغلقوها جيدا".

أما الانتصار العسكري الآخر في يوم الرابع من يوليو باستيلاء جرانت على فيكسبرج، فقد كان أكثر مدعاة للتشجيع إذ كان واحداً من أهم انتصارات الحرب، حيث أمّن جرانت حوض نهر المسيسبي قاسماً الجنوب إلى جزئين، واضطر ثلاثون ألفاً من جنود قوات الولايات المنشقة إلى الاستسلام غير المشروط ، وأخبر لينكولن جرانت بأنه قد قدّم للبلاد خدمة لا تقدر وقال لهاى: "إن جرانت هو رجلى وانا رجله لبقية أيام الحرب."

وعقب هذين الانتصارين مباشرة، أعلن لنكولن الاحتفال بيوم قومي "هو عيد الشكر" دعا فيه الأمريكان للإقرار بدور الله في تحقيق الانتصارات الحالية وللصلاة من أجل هؤلاء الذين عانوا في سبيل وضع نهاية سريعة للحرب.

وأصبح اقتراحه بيوم الشكر تظاهرة دعائية نوعاً ما، وذلك لأنه في اليوم الذي اتخذ فيه القرار وهو الخامس عشر من يوليو أطلقت الطبقة العاملة في نيويورك عنان غضبها العارم ضد قانون الحكومة بالتجنيد الإجباري، وقتلت واعتدت على السود فقد اشتكى الدهماء ـ غالباً من الديمقراطيين الأيرلنديين – من أنهم يجبذون "القتال من أجل الزنوج" الذين قد يأتون إلى الشمال ويحتلون أماكنهم في العمل، إذ بدأ ضباط التجنيد في اختيار أسماء المستجدين، فقد أشعلوا ثورة وهياجاً استمر أربعة أيام يقتلون ويعزقون كل أسود تصل

أيديهم إليه، فشنقوا بعضهم بجوار أعمدة النور بدم بارد، بل أنهم قاموا بشيّ أسود آخر حيا في ميدان ماديسون .

ثم أحرقوا ملجأ للأيتام الملونين وسووه بالأرض، وهي أحداث قتل فيها أكثر من مائة نفس (معظمهم من السود) قبل أن تتمكن قوات الاتحاد من فرض النظام في المدينة.

وقد لخص فريدريك دوجلاس المزاج العام وقتها بأن صرخة العامة كانت "اضرب . . أطلق النار . . اشنق . . اطعن . . اقتل . . احرق ودمر كل زنجي" ، وحث الحكومة على تقديم الحماية للسود ومطاردة المجرمين وعقابهم، ولكن لنكولن شعر بالعجز عن فعل أي شيء حيال أسوأ شغب في تاريخ أمريكا .لقد كانت معارضة الطبقة العاملة للتجنيد الإجباري وللحرب التي جعلت السود أحرارا ، عنيفة لحد جعلته يقرر عدم اعلان قانون الطوارئ أو عدم مطاردة المجرمين. وقال "إن تحركا كهذا سيكون بمثابة إلقاء عود كبريت على برميل بارود .لذا لم يفعل شيئاً لأن:"تمرداً واحداً فقط هو كل ما يمكننا التعامل معه في وقت واحد" .

لكن، أضحت الأمور أكثر هدوءاً الآن، وتم تأجيل اجتماعات الكونجرس. كان عدد قليل من الناس هم فقط الذين يقلقونه الآن. لذا، كان في حاله معنوية أفضل، فعندما ذهب إلى استوديو جاردنر لالتقاط صور له، أخبر جون هاى أن "قوى التمرد بدأت أخيراً في

التشتت"، و"أنهم سوف يتساقطون لو بقينا صامدين"، وبدأ حينئذ في التركيز بصورة أشد على دور السود في الحرب والأمة لأن مصير العبيد السابقين - كما كان يعتقد - كان"أكبر قضية تواجه قيادة الدولة عملياً."

بعد عامين ونصف العام على انتهاء الحرب، قدّر لنكولن قيمة السود في دولة الاتحاد، فقبل أسبوع كان جرانت قد كتب يقول: "إن تسليح السود وإعلان تحريرهم معاً كانت الضربة القاصمة الموجهة لقوة الولايات المنشقة في الجنوب"، وقد وافقه لنكولن وأضاف أنه "والآن قد أصبح نهر المسيسيبي مفتوحاً لآخره..." . "أظن أن مائه ألف (من القوات السوداء) على الأقل يمكن- بل ويجب - تنظيمها بسرعة على ضفافه." وأضاف:" إن الجنود السود يمثلون موردًا إذا ما تم استخدامه بهمة، سوف ينهى ذلك الصراع عاجلاً بإضعاف ذلك العدو وتقوية صفوفنا." لقد كان ذلك بياناً مدهشاً: السود يمكنهم كسب الحرب من أجلنا، وتأكيد حريتهم الشخصية كما كان يقول.

رغم الثقة الجمة التي وضعها لنكولن في السود، فإنه ظل متشككاً في قدرتهم على العيش كمواطنين متساويين وأحرار في الولايات المتحدة .ذلك أنه ظل لعدة سنوات يشجع حركة الاستعمار كحل لمشكلات العبودية والعنصرية، لأن إرسال السود إلى أراضٍ بعيدة قد



يحرر الأمة من مشكلة العبودية والأحكام المسبقة، وقد خصص مبلغ ٦٠٠٠٠٠ دولار لتوطين السود في مستعمرات، وكان يعلم أنه يستطيع الحصول على أموال أكثر إذا احتاج لذلك. لكن المشكلة أن معظم السود لم يرغبوا في الرحيل .

في عام ١٨٦٢ قام بتوقيع عقد بين الولايات المتحدة وبين شركة تسمى "شيريكى للتحسين والتقدم" على أمل إرسال السود إلى جمهورية كولومبيا . وعيّن صامويل بوميرى كوكيل رئيسي لتنفيذ الخطة، وذلك بسبب نجاح بوميروى في إرسال مستوطنين إلى ولاية كانساس، وقد سلم لنكولن ٢٥,٠٠٠ دولار لبوميروى لتطبيق هذه الخطة وبحلول شهر أغسطس ١٨٦٢، رتب بوميروى أموره لإرسال خمسمائة مواطن أسود إلى برزخ شريكى (الآن هو جزء من بنما) .

وللترويج لمشروعه، قام لنكولن بدعوة مجموعة من أهالي واشنطون من السود إلى البيت الأبيض لتشجيعهم على مغادرة الولايات المتحدة ليصبحوا عمالاً بمناجم الفحم بمنطقة شريكى قائلاً: "نحن وأنتم من جنسين مختلفين، إن ما بيننا هو اختلاف واسع أكثر مما يوجد بين أي جنسين آخرين. . فجنسكم يعانى - في رأيي - من أعظم خطأ يقع على أي شعب آخر، لكن وإن لم تعودوا عبيدا فقد نحيتم بعيدا جدا عن أي موقع للمساواة بالجنس الأبيض"، وأضاف لنكولن أن وجود السود ذاته في البلاد كان هو السبب في نشوب

الحرب بالرغم من أن الناس على كلا الجانبين لا يهتمون بكم بصورة أو بأخرى مختتماً كلامه قائلاً: "من الأفضل لكلينا ان ننفصل." وقد نشر كلامه على مدى واسع - وفقاً لما انتواه - ولكن معظم السود سخروا منه، وجاءت أقسى صورة للنقد من فردريك دوجلاس الذى دبّج حملة معارضة ضده. ففي أمريكا الجنوبية والوسطى تعيش أجناس مختلفة معاً بسلام مستمتعين بحقوق متساوية دونما حرب أهلية، كما سخر من فكرة أن السود كانوا سبباً للحرب، فلص الجياد لا يعتذر عن سرقته بإلقاء اللوم على الجواد.

لذا دعى لنكولن قائلا "لا. .يا سيدي الرئيس، ليس الجواد البريْ هو الذي صنع لص الجياد، لكن الشراهة القاسية والوحشية لأولئك الذين طمعوا في امتلاك الجياد والنقود والزنوج بواسطة السرقة واللصوصية والتمرد. وأطلق على لنكولن أنه نموذج أصيل للأحكام المسبقة للأمريكي الذى يمتلك قليلاً من مبادئ العدالة والإنسانية. لذا، كان الشكل مغلوطا مثل المحتوى" فالسيد لنكولن أظهر خلطا شديداً في تمكنه من اللغة الانجليزية في كل ما كتب."كان على لنكولن أن يهجر المشروع بعدما اعترضت عليه البلدان المجاورة مثل هندوراس ونيكاراجوا وكوستاريكا، هددت بإرسال قواتها لمنع المستوطنين. ولم يسترد لنكولن مبلغ ال٢٥,٠٠٠ دولار التي أعطاها لبوميروى لتنفيذ المشروع أبدا. ومع ذلك سرعان ما تشبث بموقع

آخر هو كاو آيلاند (جزيرة البقر)جنوب شبه جزيرة هايتي. إذ كان يائساً جدًا لإيجاد مكان للسود لدرجة أنه تجاهل ما ترمز إليه عملية شحن "السود" إلى مكان فحص حيوانات النقل "جزيرة البقر". وقد عرض بعض رجال المال بنيويورك تمويل عملية شحن خمسمائة مواطن أسود إلى جزيرة البقر هذه مع توفير بيوت ومدارس ورعاية صحية وأراض زراعية لهم مقابل رسم قدره خمسين دولاراً لكل مهاجر أي ما جملته ٢٥,٠٠٠ دولار. ورغم أن معظم مستشاريه قد عارضوا تلك الخطة، فقد وافق عليها لنكولن، وفي منتصف ابريل١٨٦٣ أبحر ٤٥٣ عبد سابق على السفينة أوشن رانجر تنفيذاً لذلك.

بدا كل شيء خطأً، فطوال الشهر الماضى علم لنكولن أن مرض الجدري قد انتشر فوق السفينة، وعندما وصل المهاجرون حوصروا بحمى الملاريا التي تسببها الحشرات. وفوق كل ذلك فقد خدع المموّلون لنكولن والمهاجرين معا، إذ لم يجدوا بيوتا ولا مدارس ولا مراكز صحية فوق أرض الجزيرة، وكانت التربة فقيرة، ولم يحصلوا على موافقة على ذلك من حكومة هايتي.

بعد سماع تلك الأنباء من جزيرة الكاو، هجر لنكولن فكرة الاستعمار، ففي منتصف يوليو اخبر لنكولن جون إيتون - وهو قس يقوم بتنظيم الرجال المحررين حديثا - كيف أن مهاجري الكاو آيلاند كانوا يعانون بشدة من وباء الطفيليات البحرية الذي لا فكاك منه ولا

حماية. كان حزن لنكولن حاداً وصادقا واعتبره إيتون "دلالة على طيبة قلبه" وحقيقة، أثاره مشهد رئيس الولايات الذي حزن للاضطراب الذي أصاب مجموعة صغيرة من الزنوج بسبب حشرة لا تزيد عن رأس الدبوس. وبدا ذنب لنكولن من كارثة المهاجرين ملموساً حيث أمر بإعادة نقل المهاجرين إلى الوطن.

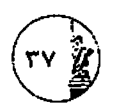
كان لنكولن يحاول الحلم بمجتمع يمكن للسود والبيض الحياة فيه معاً في حرية وسلام ومساواة. لقد وافق إيتون على أن الاستعمار فشل في حل مشكلة الزنوج، وسأل القس أسئلة عديدة حول الناس المحررين الذين أتوا داخل حدود اتحاد الولايات مثل: ماذا كان هدفهم؟ كيف كانوا يفهمون الحرية؟ وماذا يمكنهم أن يفعلوا من أجل أنفسهم؟ وقبل ذلك بأيام كان ناثانييل بانكس، وهو قائد منطقة لويزيانا التي يحتلها الاتحاد معبراً عن آماله بأن الولاية "سوف تتبنى نظاماً عملياً، يتمكن من خلاله الجنسان من العيش معاً بالتدريج بعيدًا عن علاقتهم القديمة تجاه بعضهم البعض." يجب أن تشمل الخطة تعليم السود، بما في ذلك التدريب على العمل بموجب عقود بدلاً من السياط. لكن بعيدًا عن ذلك، ظل غير متأكد من شكل العلاقة الجديدة بين السود والبيض. إذ اعتقد أن الزنوج – شأنهم شأن الناس الآخرين – يتصرفون وفقاً لدوافع، فلماذا إذن سيفعلون شيئا من أجلنا بينما لانفعل نحن شيئاً من أجلهم؟

ربما كانت تلك القضية تحتل مكاناً في ذهن لنكولن عندما أخبره حارس بابه أن فريدريك دوجلاس قد أرسل بطاقة تعريف تَوًّا وأنه مع زميله بوميروى ينتظران عند الطابق الأول للقاء، فأمر لنكولن بإدخالهم فورا .

***

سمع دوجلاس عن أناس انتظروا أسبوعًا كي يروا الرئيس. وبدا بعض طالبي اللقاء أمامه في الصف منتظرين هذه المدة بالفعل، وبعضهم الآخر بدا متشوقاً وقادماً لتوه .وتوقع أن ينتظر نصف يوم على الأقل، لكن ما حدث هو أنه خلال دقيقتين من إرساله بطاقة التعرف عاد الساعي ليطلبه. وبينما كان دوجلاس يشق طريقه عبر السلم يتبعه بوميروى، سمع أحدهم يعلق على الموقف بقوله: "نعم . .اللعنة ! . . كنت أعلم أنهم سيسمحون للزنجي أولاً . "

عندما دخل دوجلاس وبوميروى مكتب الرئيس لنكولن، كان الرئيس جالساً بشكل غير رسمي على مقعد يصغر كثيراً عن جسمه البالغ ستة أقدام وأربع بوصات طولاً، وكان يحرك قدميه ببساطة في عدة اتجاهات داخل الحجرة. هذا ما لاحظه دوجلاس. نهض لنكولن لتحيته ماداً يده قائلاً: "سيد دوجلاس! إني أعرفك . . لقد قرأت عنك. اجلس! أنا مسرور لرؤيتك. "



وبالتالي وضع دوجلاس في حالة ارتياح في الحال. لكنه تجاهل بوميروي – عملياً – وهو ما جعله يظل صامتاً خلال معظم اللقاء.

انتقل لنكولن في الحال إلى موقف الدفاع وهو يعلم أن دوجلاس كثيرا ما انتقده. لذا، سعى إلى توضيح موقفه، فرغم أن الرئيس لم يشر إلى مستعمرات للسود ولا دوجلاس انتقدها، فقد أشار إلى خطاب لدوجلاس كان قد ألقاه في بوسطن في بدايات عام ١٦٨٢– وانتشر سريعاً قال فيه: "إن معظم الملامح التى تدعو للأسى للحرب لم تكن في الكوارث الحربية، ولكن في السياسة المترددة البطيئة وغير الثابتة للرئيس، خاصة سياسات الرئيس حول تسليح وتحرير السود." وقد أقر لنكولن بأنه أحياناً كان بطيئاً في اتخاذ القرار. لكنه أنكر عدم ثبات قراراته: "عندما أتخذ قراراً، لا أتراجع عنه."

وذلك ما منح دوجلاس ثقة إذ شعر بأن "أي شخص آخر يمكنه التخلي عن سياسة تحرير العبيد لكن الرئيس سيتمسك بها بجسم." ولم يفكر لحظة في وقت قد يتراجع فيه لنكولن عن موقفه. وقدم دوجلاس الشكر للرئيس على إصداره أوامر بالرد الفوري على المتمردين الذين قتلوا أو استعبدوا الأسرى من الجنود السود، وسأله لماذا استغرق إصدار الأمر كل هذا الوقت، فأجابه لنكولن: "لأن الوطن كان يحتاج لمناقشة الأمر، فلو أنه أصدره في عجالة فتلك هي اللحظة التي سيرتفع فيها صوت العامة بأحكامهم لمسبقة وكان الناس

سيقولون: " آه . . . لقد قدرنا أن المسالة ستصل لهذا الحد، سيُقتل البيض من أجل الزنوج. " لذا انتظر لنكولن حتى يثبت أن الجنود السود الذين قتلوا أو استعبدوا كانوا- من هنا- أضحيات ضرورية. " إذ مهدوا الطريق لصدور قراره بملاحقة المتمردين.

عندما أثار دوجلاس قضية الأجور غير المتساوية برر لنكولن ذلك بأن وجود الجنود السود أثار "تعصب العامة". لذا فالأجر غيرالمتساوي - وقتها- كان تنازلاً ضرورياً "لتسجيل السود في الجيش. الأكثر من ذلك أنه كان لدى السود من الدوافع والحوافز ما يحضهم على أن يكونوا جنوداً أكثر من البيض، و"كان عليهم أن يكونوا راغبين في الخدمة تحت أي ظروف". إلا إن لنكولن أكد لدوجلاس أن الجنود السود - مستقبلاً - سيتقاضون نفس الأجر مثل البيض، ووعد بتوقيع أية ترقيات لهم يرفعها إليه الجنرال ستانتون.

على الرغم من أن دوجلاس لم يكن راضياً تماماً عن آراء لنكولن، فقد ذهل لصدق وإخلاص الرئيس فقال: "لم أر أبدا محياً شفافاً مثله، إذ لم يخامره أدنى ظل من الشك بعد أول لحظة من اللقاء. " لم يتصرف لنكولن بتعال ،لأنه كان ببساطة من البيض" .

" لم يذكرني - بأية صورة - بأصلي المتواضع أو بلوني المختلف" . . لان افتقاد لنكولن للمشاعر العنصرية كان بادياً عليه

بصورة ملحوظة وذلك لأنه لم يعتبر نفسه راديكاليا أو من دعاة تحرير العبيد أبداً، وعلى العكس، فقد كانت تظهر بين أصدقاء دوجلاس البيض من هم من دعاة إلغاء الرق،لحظات ضعف وتخاذل- خاصة خلال لحظات الجدل في القضية- ينسبها دوجلاس إلى الاختلافات العرقية كما أدهشته طلاقة لنكولن بقوله: "لقد تحدث بحماسة وطلاقة لم تثر في نفسي أية ريبة منه."

بدا على الرئيس ارتياح عميق لدوجلاس، وذلك ما دعا دوجلاس للارتياح أيضا، وفعلاً في نهاية اللقاء أخبر دوجلاس الرئيس بأن الجنرال ستانتون قد أناط به تفويضاً وظيفياً، وأنه "ينوي الذهاب للجنوب والمعاونة في عمليات تجنيد الرجال المحررين." ثم اظهر- بفخر- تصريحه الرئاسي للمرور فقرأه. ثم أخذه وأداره جانباً ليكتب عليه "أوافق. .أ .لينكولن في العاشر من أغسطس ١٨٦٣." في صبيحة ذلك اليوم، تلقى دوجلاس توقيعات من الرئيس، وعضوين من مجلس الوزراء، ونائب من الكونجرس على تصريح بالسفر عبر خطوط ولايات الاتحاد ممثلاً لجيش الولايات المتحدة. استقل دوجلاس القطار التالي من واشنطون، إذ لم يكن يريد إطالة مكوثه ضيفاً ورغب بشدة في الاستعداد للسفر جنوباً، وحالما وصل إلى منزله تسلم خطاباً من ستانتون يأمره بالتوجه إلى فيكسبرج وتقديم نفسه إلى الجنرال توماس، فرد عليه دوجلاس يوم

الرابع عشر من أغسطس طالبا بعض الإيضاحات بشأن مهمته ومعرفة رتبته وراتبه وما ستكون عليه واجباته.

وبعد يومين ودّع قراء الجريدة، اذ ظلّ طوال عشرة أعوام مكرساً نفسه لجريدته الأسبوعية ذات الصفحات الأربعة التي أصبحت شهرية عام ١٨٦٠، وبرغم مشكلات التمويل وجدول الندوات المكثف، أصبحت جريدته من أشهر دعاة إلغاء الرق في البلاد . وكان ذلك الجزء العاطفي حيث كتب لقرائه: "لن أتوقف مطلقاً عن اعتبار تلك السنوات، سنوات الكدح في تحرير الجريدة من جانبي، والتعاطف والدعم من جانبكم، أكثر سنوات السعادة والفرح في حياتي. " ذلك ما تضمنه موضوع بعنوان "الوداع" الذي ألحقه بالصفحة الأخيرة من عدد أغسطس لذلك العام. ثم شرح باعتزاز لماذا سينقطع عن صحيفته: "إنني ذاهب للجنوب لمساعدة ضابط التجنيد الجنرال توماس في تنظيم قوات السود الذين سوف ينتصرون من أجل أن يحظى الملايين المستعبدين بالخير الذي لا يقدر في الحرية لهم وللوطن. "

بدأ دوجلاس يقلق في الأيام القليلة التالية، لأن ستانتون لم يرد على طلبه بشأن المعلومات التي سعى إليها، وقد قال دوجلاس في أحد خطاباته لأصدقائه أن ستانتون أبقاه بعيداً عن المعلومات الأساسية فظل في "الظلام بشأن كل الأمور الأساسية . . وكل ما

فعله أن أمرني بالذهاب مثلما فعل الملك لويس [في مسرحية شكسبير "هنري السادس") إذ كان يعتقد أن أي مواطن عليه واجبات وليس له حقوق، ولسوف أطيعه على أي حال أملاً في أن يتم كل شيء على خير." بعد عدة أيام، تسلم الخطاب المنتظر، وبموجب واجباته طلب منه ستانتون "مساعدة الجنرال توماس بأية صورة تجعل نفوذك بين الملونين (السود) جاهزاً للتأثير في مجال جهود التجنيد"، وكان هذا أمراص غامضاً بالتأكيد، ولم يأت ذكر في الخطاب عن مهمته أو رتبته العسكرية. أما بالنسبة للأجر، فقد أفاد الخطاب دوجلاس بأنه سوف يستمر في تلقى راتبه من جورج ستيرنز الذي كان مستمراً في إرساله له من تبرع خاص مخصص لعمليات التجنيد للسود في الشمال. وكان ذلك أمراً غريباً، فلماذا لا يأتي راتبه مباشرة من مكتب وزارة الحرب؟

لم يأت تكليف دوجلاس أبداً ولم تصدر أية كلمات بشأن وزارة الحرب ولا حتى كلمة واحدة من البيت الأبيض، إذ إنه مع وجود مثل هذا الكم من البيروقراطيين كان الرفض يأتى في صورة صمت مطبق، لذا قرر ألا يذهب للجنوب على الرغم من عرض ستيرنز له بإرسال راتب قدره ١٠٠ دولار شهرياً مضافاً إليه النفقات الشخصية مما يصل تماماً لراتب ملازم أول. لقد أنعشه الأمل. لكن نظراً للخطر المتزايد، رفض أن يكون ختلباً للحكومة التي خدعته،

وأن يذهب فقط كضابط تجنيد خاص. "أنا اعلم كثيراً جداً عن حياة المعسكرات وقيمة تلك الشرائط على الأكتاف داخل الجيش مما لا يجعلني أذهب للخدمة العسكرية دون إشارة واضحة لرتبتي. "واستنتج دوجلاس أن ستانتون قد تغير كليةً وقرر أن "الوقت لم يحن بعد لاتخاذ خطوة جذرية". كان ستانتون رجلاً "ذا طبيعة هوائية، يعطي وعوداً متعجلة سرعان ما يتراجع عنها دون أسف أو اعتذار."

لم يلق دوجلاس لوماً على لنكولن مطلقاً رغم أن الرئيس علم بالمهمة وكان يجب عليه أن ينتظر خطاباً من ستانتون لإقراره، وفى محاضرته في شهر ديسمبر ١٨٦٣ أشار دوجلاس بفخر إلى لقائه مع الرئيس، وبدلاً من انتقاده في مسألة "التردد" بشأن مهمته أو ارتكابه لكذبة ما بشأن إهماله الاتفاق أعلن أنه كان هناك يوما للقاء الرئيس واعتبر رسوخ اسم لنكولن شعبياً مسألة صحيحة: "لسوف يتقدم نحو النجاح وعند تمام إنقاذ البلاد باسم (أبراهام الأمين)."

وفجأة، بدا الأمر كما لو أن دوجلاس تذكر ما حدث له فعلاً في قلب واشنطن، لأنه مع أول كلمة تالية قال: "لن يتم إنقاذنا على يد أبراهام لنكولن، وإنما بواسطة تلك القوى الكامنة خلف سدة الحكم"، قاصداً بذلك السود ودعاة إلغاء الرق،

إن الاتّحاد كما كان لا يمكن ولا يجب إنقاذه "إننا لا نريده. لقد تجاوزنا الاتّحاد القديم". كان دوجلاس قد تجاوز الاتّحاد القديم منذ زمن طويل،الذى كان قد أقر العبودية والأحكام المسبقة العنصرية الرهيبة ، وكان "يشعر بالخجل منه".

ومع ذلك كان من المدهش أن يبرئ دوجلاس لنكولن ويتذكر لقاءه به بإعجاب . وعلى الرغم من خلافاتهما الكبيرة الاستراتيجية والرأى وخلف الوعد، فقد كان دوجلاس يشعر دوما بالراحة إزاء لنكولن أكثر من أى أبيض آخر، بمن فيهم دعاة الغاء الرق.

وبالفعل لمس دوجلاس روحا طيبة في لنكولن كما لوكان الإعجاب متبادلاً. "سيد دوجلاس، لا تأت لواشنطن دون الاتصال بي أبداً!" هكذا طلب منه لنكولن عند لقائهما الأول في العاشر من أغسطس عام١٨٦٣، إذ كان يعتبره "واحداً من أكثر الناس جدارة، إن لم يكن أجدرهم على الإطلاق في الولايات المتحدة." في حين دعا دوجلاس لنكولن بلقب"ملك رجال أمريكا العصاميين".

والسؤال هو لماذا قام الإعجاب والود والاحترام المتبادل رغم وجود الفروق الشاسعة بينهما ؟؟ فلقاؤهما كان الأول، حيث يقابل فيه رجل أفريقي أمريكي رئيس الولايات المتحدة عن قرب. تساوى فيه الإثنان بمعنى أن كلاً منهما كان سفيراً ثقافيا لجنسه، واستطاعا مساعدة بعضهما لقهر العبودية وخلق وحدة جديدة، إذ أرادا أن

يحب كل منهما الآخر ويحترمه. كانا متشابهين في العديد من الجوانب وتشاركا بصورة غريبة في خلفية ثقافية متشابهة . .

الفصل الأول

عبدٌ مميزٌ وأبيضٌ بائس

{{ قفز الصبي للرجولة في البرية، وصنع لنفسه بيتاً من بلاد خيالية فشربت روحه أشعة شموسها . }}

لورد بايرون[1] من قصيدته (الحلم) ١٨١٦

في عيدرأس السنة الجديدة عام ١٨٣٤، مشى صبى متمرد عمره ١٥سنة سبعة أميال إلى مزرعة قمح فقيرة في مقاطعة تالبوت على الشاطئ الشرقي لولاية مارى لاند،وأثناء مروره بطريق قذر ممهد على شبه جزيرة مثل مخلب ثلاثي الأظافر، شعر بقلق وإحباط. تردد صدى ريح يناير القارصة مع شتاء نفسه الشاحبة، وشبّه نفسه بسمكة وقعت في الشباك "وسُمح لها باللعب لوقت ما" لكنها الآن "يتم سحبها نحو الشاطئ بسرعة، والشبكة مؤمّنة من جميع أركانها . "

---

[1] جورج جوردون بايرون "لورد بايرون ولد عام ١٧٨٨ وتوفى عام ١٨٢٤، شاعر إنجليزي، أول أعماله "ساعات الفراغ" وأخرها "رؤى الأخرة" عام ١٨٢٣- المترجم

كان فريدريك على وشك أن يبدأ حياته كعامل زراعي، وهو أكثر صور العبودية شيوعاً وأشدها وحشية في الولايات المتحدة، كان قوياً وسليماً و طوله حوالي ستة أقدام، لكنه لم يكن يعرف شيئاً عن الزراعة إذ كان يعتبر نفسه "ابن المدينة" الذي مازال يرتدي ملابس قطنية من بالتمور، وان كانت حينذاك قد تهلهلت وتمزقت من طول الاستعمال بدلاً من القميص الكتان الجعد والبنطلون الذان يشتريهما العامل الزراعي. وبينما كان يقترب من مزرعة القمح، شعر بنفسه صبياً ريفياً أخضر العود يدخل المشاهد المفزعة للمدينة للمرة الأولى.

كان استهلال عمله الزراعي تعميداً بالدم، لأنه في اليوم الثالث لعمله، أمره سيده الجديد إدوارد كوفى بربط إحدى العربات بثورين وجلب حمل من الخشب من الغابة. بدا العمل مهمة بسيطة بصورة كافية، لكنه لم يكن قد اقترب من أي ثور من قبل ، كان الثوران غير مروضين تقريباً ،وأعطوا له تعليمات بالسيطرة عليها بواسطة ألفاظ مثل"وا"، "باك"، "جى"،و"هيزر"، وكان الثور "باك" هو الذي يتم ربطه أمام العربة والثور" داربى" هو الذي يتم ربطه بجانبه، وبدت كل تلك الألفاظ مثل اللغة اليونانية على سمعه. وما أن بدأ قيادة العربة، حتى انطلق باك وداربى بأقصى سرعة نحو الغابة، متعثرين بالشجيرات، مصطدمين ببعض الفروع والأوراق فتفككت العربة عن

هيكلها ، وأخيراً أوقفتهما شجرة ضخمة، واستغرقت إعادة تجميع العربة وتخليص الثورين من شراكهما عدة ساعات، فقام بتحميل العربة بشحنة ثقيلة لمنعها من الاندفاع الطائش، وعاد قاصداً طريق المزرعة. لكن لم تكن لديه أدنى فكرة عن مدى قوة الثورين؛ فعندما اقتربا من البوابة بدأ الاندفاع من جديد وهجم الثوران محطمين البوابة والعربة معاً، بل وسحقاها تقريباً.

حاول فريدريك شرح ما حدث. لكن السيد كوفي لم يلق بالاً لشرحه، وإنما أمره بالعودة إلى الغابة معه حيث لاحظ فريدريك - أثناء قيامه بقطع الحطب - وجود ثلاثة أفرع ضخمة لشجرة صمغ تمثل عصياً مصقولة وقوية نزع عنها لحاؤها بمهارة ومعقودة عند أطرافها. هنا أمر السيد الصبي بخلع ملابسه، وعندما رفض فريدريك الأمر انفجر السيد في هياج مندفعاً نحوه كذئب ضار ومزق ملابسه وألهبه ضرباً على فترات حتى أبلى عقد العصا كلها على ظهر الصبي، ويتذكر فريدريك أن "تحت ضرباته العنيفة تدفق الدم غزيراً تاركاً ندوباً بارزة على ظهري بحجم إصبعي الصغير."

كانت تلك هي أقسى ضربات تلقاها في حياته، فبدأ يتعاطف مع الثورين رغم أنهما السبب في جلده، لأن هذه الحيوانات كانت عبيداً بائسة للإنسان وفقاً لأعراف تعود قديماً حتى أرسطو. هنا يخلص فريدريك إلى قول: " إنهم من ملكية الإنسان، وهكذا أنا

أيضاً، وهي مخلوقة للانكسار وهكذا أنا، كاسراً ومكسوراً .هذه هي الحياة!" هو أيضاً حيوان نقل، ورياضة لآلهة العبيد، لم يعرف كثيراً أن التعميد بالدم سيضعه على طريق الحرية، فتراه يمزق قميصه ويعرض ظهره المتشقق عارياً أمام المشاهدين البيض الذين يصدمهم المشهد، مبيناً "البرهان الذي لا يدحض"مؤكداً على مروره بتجربة "الجحيم الحي" للعبودية.لكنه كان في ذلك اليوم مجرد عبد آخر سيجلد .

وحتى تلك اللحظة كان فريدريك عبداً مميزاً، لأن سنواته الست الأولى تماثلت مع سنوات ولد أبيض بائس، إذ عاش في كوخ خشبي مع جدته عند حافة خليج صغير يدعى توكاهو بمقاطعة تالبوت حيث نشأ في البرية، ونادرا ما رأيا ناساً من البيض، وكان "متحرراً من أية ضغوط." أما الشيء الوحيد الذي كان يميزه عن أي طفل أبيض فقير، فهو أنه لم يكن يعرف تاريخ ميلاده.(وفقا لسجلات مالكه، كان ميلاده في فبراير١٨١٨)

كان مالكه الأول آرون أنتوني نسخة جنوبية للرجل العصامي، فهو ابن يتيم لمزارع أميّ.أصبح أنتوني رباناً لسفينة، ثم مشرفاً رئيسياً في احدى شركات أسرة إدوارد لويد وهي عائلة كبيرة من ماري لاند . وكان إدوارد لويد الخامس رب عمل ادوارد واحداً من أغنى أغنياء الولايات المتحدة، فهو يمتلك١٣مزرعة وخمسمائة عبد ينتشرون على

مساحة عشرة آلاف هكتار. وقد ارتقى أنتوني لطبقة السادة في الوقت الذي ولد فيه فردريك،فكان يمتلك مائتي هكتار وحوالي ثلاثين عبدا، وفي تلك الضيعة يمكن لأصحاب المزارع ترك أطفال عبيدهم ينشأون في البرية تحت إشراف امرأة عجوز منهم حتى يصبحوا كباراً بما يكفي لقيامهم بالعمل.

كانت أول وظيفة لفردريك هي خادم منزلي يتركز عمله حول البيت الكبير في حدائقه واسطبلاته. كان ذلك العمل من الأعمال المحببة في التسلسل الهرمي في المزارع. وبعد سنوات قليلة، انتقل لموقع أفضل إذ أرسلوه إلى بالتيمور ليكون رفيقاً في اللعب لولد أبيض قريب لأنتوني. هناك، كان يأكل أكلاً جيدًا ويلبس جيدًا، حتى أنه تعلم القراءة، وإلى أن وصلت به الحياة إلى مزرعة القمح كان نادرا ما يُجلد، وكان يمكنه أن يفخر بأنه لم ينتقل سوى بين ثلاثة ملاك؛كلهم من نفس الأسرة، ولم ير مطلقاً مزادا للعبيد. كان ذلك نادراً بالفعل بالنسبة لعبيد منطقة تشيسابيك حيث كان من الشائع أن يباعوا مثل بالات القطن في أسواق ألاباما والمسيسبي ولويزيانا المزدهرة حيث لا تتوقف الطلبات على العبيد

حتى اسمه تمتع برنة مميزة: فردريك أوجسطوس واشنطن بيلي. كان لقبه غير عادي بين العبيد يعود إلى القرن الثامن عشر، فنجد أن اسميه الأوسطين عكسا تقاليد القادة الجمهوريين العظام. كانت

أمه- هاريت بيللي- سيدة غير أميّة معتزة بنفسها، تحمل آمالاً كبيرة لمستقبل ابنها – على الرغم من أنه كان يعرفها بالكاد. كانت تعمل مزارعة في مزرعة تبعد ١٢ ميلاً، وماتت وهو في السابعة من العمر، وقد سرت بعض الشائعات بأن هاريت كانت من أصل هندي، وقد ألمح فردريك لذلك في وصفه الغريب لها"إنها تبدو رزينة ومعتزة بكرامتها على نحو ملحوظ ، تماماً كهندية من الهند ."في وقت ساد الاعتقاد خلاله أن الهودوس ذوو قرابة عرقية وثيقة بالسكان الأصليين لأمريكا .وعندما بلغ النضج، كانوا يسألونه"إذا ما كانت له جذور هندية أو أفريقية أو قوقازية؟" في إحدى خطبه أمام السكان الأصليين لأمريكا صرح بقوله:"لقد اشتهرت بكوني زنجيًا، لكنني أتمنى أن تعرفوني هنا والآن كهندي!"

بعيدا عن تلك الإيماءات الخطابية، كان فردريك دائماً ما يُقدّم نفسه إلى الجمهور كرجل أسود، وكانت التقاليد الاجتماعية في ذلك الوقت تمنع الناس من التصريح بأنهم سود تارة، ثم إعلان أنهم هنود حمر تارة أخرى؛ أو تمنعهم من توصيف أنفسهم سوداً وهنودًا معاً، فالعرق يحدد بالعرف الاجتماعي ويعتبر ثابتًا لا يتغير. وعلاوة على ذلك، نزع الهنود والسود للإحتفاظ بمسافة بينهما، إذ إن معظم الهنود أعلنوا أنهم يفضلون الموت على الاستسلام لقيود العبودية، ومعظم السود اعتقدوا أن الهنود ينقرضون لأنهم غير قادرين على

التعايش مع الحضارة، ودون إقرار صريح بأي نسب هندي . عبّر فردريك عن فخره بأمه وبجنسها، وغالباً ما صرّح بأن ما ورثه من خصال كان منها .

لم يعرف أبداً من كان والده، لكن بعض الهمسات ترددت بين العبيد، بأن أبيه كان آرون أنتوني نفسه، فلم يقم انتوني بجلده أبداً، وإنما كان يعامله بشكل أبوي كما يذكر فردريك:"كان يقودني بيده بلطف، ويربت على رأسي، ويخاطبني بصوت ودود ناعم، ويناديني باسم(الهندي الصغير) . "كما عرف فردريك أن أنتوني كان يتقرب من النساء من العبيد وكان يضربهن عندما يقمن برفضه . وتلك المعاملة الأبوية فسرت المنزلة المتميزة التي تمتع بها فردريك، وبعدما مات أنتوني أصبح فردريك من أملاك ابنته لوكريشيا التي ماتت ١٨٢٧ . ومن لحظتها، انتقل الملكية توماس أولد- زوج لوكريشيا- وكان واضحا أن أنتوني ولوكريشيا ، اللذان ربما كانا ابن واخته غير الشقيقة قد عاملاه بعطف ورعاية.

لم يعترف فردريك دوجلاس الشهير بأنه كان عبداً مميزاً أبداً لأن تلك الصفة "عبدُ مميزُ" تحمل تناقضاً معنوياً كمصطلح، إذ تعني ضمناً أن "سيداً ما" يمكن أن يكون إنساناً، في حين سعى دوجلاس لإقناع قرائه أن العبودية شر أينما كانت وحتى"السادة الطيبون"هم وحوش يعتمدون على التعذيب للحفاظ عل النظام القائم، وكان أقرب إقرار



بما امتاز به كعبد حين صرح: "إن مشاكله منذ البداية كانت أقل من الناحية البدنية المادية منها من الناحية المعنوية "، ذلك أن رعب العبودية بالنسبة لشاب قوى سليم أشد على العقل منه على البدن.

بيد أنه فجأة أصبحت مشكلات فردريك جسمانية فعلاً. فوضعه المميز وصل لنهاية مفاجئة. فقد تلقى قبل تسعة أشهر مضت أمراً بالعودة إلى بلده سانت مايكل على شبه جزيرة يشله المخلب على الشاطئ الشرقي ليعيش مع توماس أولد. كان قبل ذلك، قد أمضى سبع سنوات في بالتيمور يعمل لصالح شقيق توماس هيو أولد وزوجته صوفيا .لكن عراكاً نشب بين الأخوين، وطلب توماس استعادة عبده. كره فردريك العودة للشاطئ الشرقي لأن سانت مايكل بدت مملوءة بالجهلة والرعاع البيض الذين افتقروا للطموح والذين يتجولون حاملين زجاجة من الخمر إلى كل مكان يقصدونه، ويعيشون في بيوت قبيحة غير مطلية ، وياله من تناقض مع بالتيمور حيث تعامل مع أناس كانوا يسعون لتحسين أحوالهم بالعمل الجاد والملابس الخشنة والقراءة! كره الحياة مع توماس أولد وهو رجل رقيق الشفتين أبيض الشعر في الأربعين من عمره. كانت من خصاله —حسب راى فريدريك— "الأنانية الشديدة" والنفاق الديني، ففي كل صباح يصلى داعيا الرب أن يبارك بيته بالخير والخبز، ثم يترك فردريك ليعانى الجوع بينما يتعفن الطعام في مخزن اللحوم.

ظن توماس أولد أن الحياة في المدينة قد أفسدت فردريك، فالعبد السعيد الذى أرسله لأخيه عاد وقحاً وغاضباً حيث رفض فردريك مخاطبته "بالسيد"، ودائماً ما كان ينسى اتباع الأوامر، وواتته الجرأة لينظر في عينه مباشرة تحدياً، ولم يكن لدى أولد أدنى فكرة عن كيفية ضبط سلوك فردريك لأنه قضى فترة طويلة من حياته يعمل مع البيض ولم يكن قد استوعب بروتوكول إدارة العبيد، ولأنه تردد في جلد فردريك قرر تأجيره لمدة سنة إلى سيد يجيد فن ضبط سلوك العبيد.

اشتهر سيد فردريك الجديد- السيد إدوارد كوفي بأنه "كسارة العبيد"، وكانت حيلته السادية هى أن يأمره بإحضار الخشب من الغابة باستخدام ثورين غير مروضين، نموذجاً لأساليبه السادية. وبعكس أقرانه،كان كوفى رجلاً عملياً هدفه أن يحقق الثراء عبر ممارساته المشهورة. كان في أواخر العشرينيات من عمره حين تزوج،كان أفقر من أن تكون لديه مزرعته الخاصة. لذلك، عمل بجهد قاس واستغل تأجير العبيد جيداً في زراعة محصول القمح في مزارع الجيران، امتلك عبداً واحداً وكانت أنثى، واستنسلها بحبسها مع عبدٍ مستأجر آخر كل ليلةٍ، فولدت توأماً، وهكذا ضاعف استثماره ثلاث مرات.

كان لكوفى دهاء الحية وبراعة الثعلب وذلك وفقاً لوصف

فردريك. كان كوفي معروفاً بين السود باسم "الثعبان" وهو أشبه به جزئيا. كان أقصر من فردريك ببضع بوصات، نحيلاً لكنه قوي، بعينين صغيرتين يختلط فيهما الرمادي بالأخضر غائرتين في تجويف جبهته. يقول فردريك إنه بدلاً من أن يصدر هسيساً كالثعبان كان يتحدث من جانب فمه محدثاً زمجرة منخفضة ككلب ينبح "عندما يحاول أحد الاستيلاء على عَظمته". كان كوفي- في جوهره- أستاذاً في تعذيب وإرهاب العبيد، واعتبره أولد مستأجراً مثالياً "للملكية"، وكان يتقاضى ١٠٠ دولار سنوياً من الإيجار وهو مايعادل ٧٥٠٠ دولار اليوم، وما كان كوفي ليتورع عن كسر إرادة فردريك من أجله.

في البدء تحققت أمال أولد. إذ كان فردريك يُجلد كل أسبوع لمدة ستة أشهر بصورة طقسية سواءً بسوط مجدول من جلد البقر معقود عند أطرافه مُلحق بيد طويلة لتسريع عملية الجلد، أو بواسطة هراوة خشبية غير مستوية بطول مضرب كرة البيسبول لكنها أخف وزناً، وغالباً ما كانت الضربات أكثر إيلاماً من ضربات المواجهة الأولى في واقعة الثورين، إذ لم يتوافر للجروح القديمة وقت كاف للشفاء قبل أن يتحول لحم فردريك كله إلى جروح دامية من جديد. كان يعمل ستة أيام في الأسبوع من الفجر حتى الغروب وأكثر، تبعاً لموسم العمل، وجعله كوفي يشعر أنه مراقَب باستمرار من خلف

الشجيرات أومن وراء الأشجارالكبيرة ليتأكد أنه لاإنبساطاً في العمل.
هنا يقول فردريك: "بعد أشهر قليلة تحت هذا التهذيب تم ترويضى، حيث نجح كوفي في كسر إرادتي. لقد كسر في جسدى ونفسى وروحى." أفكر أحياناً في قتل كوفى وقتل نفسه. لكن منعته مجموعة من الآمال والمخاوف "إذ أمل في شىء أفضل في الحياة وخاف من الموت."

كان يوم الأحد يوم راحته الوحيد، كان يقضيه في إغفاءة شبه حيوانية بين النوم واليقظة في ظل شجرة ضخمة "وغالباً ما كان يبدو مترنحاً ثملاً، لأن السادة كان من عادتهم منح عمالهم بعضاً من الويسكى والخمر طيلة السبت وخلال الأسبوع فيما عدا الكرسماس ويوم رأس السنة، وكان فردريك "يحب الشراب" لأن هذا كان واحداً من مجالات متعته، فاستهلك أكثر من نصيبه خمراً. فبعد أن يعمل من أجل كوفي طوال الأسبوع، كانت ليلة السبت هى الشىء الوحيد الذى كان يتطلع إليه متشوقاً، فالخمر يُشعره بأنه "كالرئيس" واثقاً من نفسه و"مستقلاً". ذات ليلة، شرب كثيراً وكان يمر بجوار حظيرة للخنازير، وغفا عندها قليلاً ليصحو مرتعشاً من البرد "فزحف إلى داخل الحظيرة" وعاد للنوم، وعندما عادت الخنزيرة ورضيعها حاولا إزاحته خارجها فاستيقظ منزعجاً وهو يصرخ: "النظام!..النظام!" كما لو كان مشرفاً أو رئيساً لاجتماع غير

منظم، وبعد سنوات عندما أصبح من معارضي الخمور أدرك سبب منح السادة الخمور لعبيدهم؛ لأنها تبقي أولئك العمال "في حالة من البلاهة" خلال أيام إجازتهم كيما لا يفكروا في حريتهم، أو يقارنوا بينها وبين السُكر والترنح، وعلى أية حال فإن الخمر تكبح الباعث على الهرب.

وبعيداً عن الخمر، كان عزاؤه الوحيد الآخر أن يذهب لضفاف تشيسابيك قرب منزل كوفي في أيام الآحاد صيفاً ويشاهد السفن تبحر عبر الخليج نحو كل أركان من الكرة الارضية. لقد هزه التناقض بين جسده المُقرّح وحالته في العبودية وبين تلك السفن الجميلة المرسَلة، المتحركة بحرية مثل "ملائكة مجنحة سريعة"، وكان غالباً ما يتحدث للسفن يبثها شكوى روحه لها مغمغماً: "أنتم تتحركون بمرحٍ أمام الرياح الناعمة ، وأنا أسعى للأسف أمام سوطٍ دامٍ. "كانت تبدو جميعا كالأثير وهو يشاهدها تنزلق بجواره، تلهمه الصلاة ليقول: "يا إلهي، أنقذني! يا إلهي، ساعدني! دعني أتحرر!" كانت صلاته للسفن أشبه برثاء عميق ومصدراً للعزاء والأمل. وفي حديثه إليهم، أقسم أن يصبح مثلهم ويبحر بعيداً، فصرخ بقوله: "سوف أهرب، وليساعدني الله! سوف أفعل. لا يمكن أبدًا أن أحيا وأموت عبداً ."وصفيَ هذا التصريح ذهنه، وأوضح له مستقبله، إلا أن تلك الصلاة– شأنها شأن بقية الصلوات– بقيت

مجرد صلاة غير مرئية مثل قطرة دمع وسط مطر غزير، وأحياناً ما تساءل هل سمع صلاته أحد ؟وإذا حدث ذلك، فهل أُجيبتْ ؟

ذات يوم من شهر أغسطس عام ١٨٣٤، كان فردريك وثلاثة آخرون يدرسون القمح.كان ذلك على شكل خط تجميع يحتاج يتطلب من الجميع العمل معاً ؛ إذ كان واحد منهم بنشرِ القمح فوق الأرض بشكل مستوٍ في فناء الدرّاس ويقود آخر جواداً فوق حبات القمح ليفصل بين الحبوب وسيقانها، ويذري الثالث الحبوب ثم ينخلها من خلال سلة كبيرة مخصصة لفصل الحبوب عن قشورها، وكانت مهمة فردريك جمع الحبوب المنفصلة من فناء الدرّاس وجلبها إلى المذراه ،كان كوفي قد وعد الرجال بأنهم إذا ما أنهوا عملهم قبل الغروب يمكنهم عندئذ الذهاب للصيد وذلك ما حفزهم للإسراع. وعند منتصف الأصيل، حيث لم يكن يبق على نهاية العمل سوى ساعات قليلة، شعر فردريك بالإعياء فجأة حيث كان الطقس حاراً جداً . كان واحداً من أشد أيام السنة حرارة، وأصابه الدوار وارتعد بدنه بشدة، ودقت رأسه بقوة حتى إنه لم يعد قادراً على الرؤية إلا بصعوبة. حاول الاستمرار في العمل. لكنه انهار تحت ضربة الشمس. تساند ليقف، فترنح قليلا ثم سقط في النهاية وزحف التماساً لظلٍ قريب من السور، وأدى مرضه إلى توقف العمل كله.

أسرع كوفي الذى كان يتابع المشهد من منزله المريح وسأل عما يحدث، وبينما حاول فردريك شرح المسألة، ركله كوفي بوحشية وأمره بالعودة للعمل. حاول فردريك النهوض لكنه لم يستطع، فركله كوفى ثانية والتقط قطعة ثقيلة من شجر الجوز وضربه بها على رأسه وهو يزوم: "إذا كنت تعانى من الصداع، لسوف أشفيك منه." وبينما كان الدم يتدفق على وجهه وملابسه، تركه كوفي لمصيره وحل محله في دراس القمح.

سرعان ماشعر فردريك بالتحسن، فالضربات أزالت أثر الألم من رأسه بصورة غريبة، وقرر أن يعود ماشياً الأميال السبعة عائداً لمنزل توماس أولد ليخبره بوحشية كوفي وساديته، طالباً سيداً جديداً، وقد ملأه الأمل أن أولد حين يراه دامياً ومضروباً هكذا ستأخذه الخشية على فقد ما يملك ويوافق على عتقه من سيطرة كوفي. كان الظلام قد حل عندما وصل الفتى لمنزل أولد. لقد حاول كوفي مطاردته، لكن فردريك التزم السير في الغابة ليتجنب كشف مكانه. بدا كما لو كان هارباً في التو من وكر للنمور؛ وقد اختلط شعره وقميصه بالدم الجاف، وكانت دماء جديدة تتقاطر على ساقيه من الأشواك والنباتات البرية. صدم أولد لمرأى الصبي، ولمح فردريك لمسة إنسانية في عيني مالكه، فعاوده الأمل من أجل نفسه؛ وبينما كان أولد يخطو عبر المساحة ظهرت عليه بصورة

واضحة معاناة أزمة أخلاقية عميقة، ثم وقف فجأة فقد توصل لقرار حاسم.

قال أولد:

إنك تستحق الجلد، لأن مرضك كان ادعاءً، والدوار الذى أصابك كان كسلاً.

أجابه فردريك:

- المؤكد أن عودتي للحياة مع السيد كوفي ثانية تعنى أننى سوف أُقتل على يديه ... إن كوفي لن يغفر لى أبداً مجيئى اليك لأشكو منه.. لقد حطم روحى تقريباً. لو عدت إليه سوف يدمرنى في الخدمة مستقبلاً، فحياتى لم تعد آمنة بين يديه.

قال أولد:

- هراء! ليس هناك خطر باحتمال قيام السيد كوفي بقتلك. إنه رجل طيب، مجتهد ومتدين، وماكنت لأفكر في إبعادك عن بيت كوفي، لأنك تخص السيد كوفي لمدة عام وعليك العودة إليه مهما حدث. بالإضافة إلى أنك لو تركت كوفي الآن، ولم يمر من العام سوى نصفه، سوف أفقد أجرك عن العام كله.

كان أولد يميل إلى المخاطرة بما يملك مقابل الإيجار السنوي الذى يتقاضاه عن ذلك العبد. كما لم يكن يريد إلغاء العقد مع رجل طيب مجتهد ومتدين وجار له في نفس الوقت. بيد أنه قرر أن يترك

فردريك للبقاء هذه الليلة وأمره أن يشرب جرعة كبيرة من "شربة الملح الانجليزي"[2] وهو تقريباً الدواء الوحيد الذى يُصرف للعبيد " ثم عُد لكوفى في الصباح قبل أي شيء !"

رغم الإرهاق الذى طغى عليه، لم يستطع فردريك النوم ليلته تلك. كان متأكداً، مثلما هو متأكد أن الليل يلي النهار، أن كوفي سيقوم بضربه بوحشية تبدو معها كل مرات الجلد السابقة تافهة، وشعر كأنه سجينٌ مدان يواجه لحظة إعدامه. ملأه ذلك بالإشفاق على نفسه، وأحس بكراهية للعالم بسبب كونه بلا مستقبل واستخلص العبرة: "إن محاصرة المرء كلية في ماضيه وحاضره مسألة تثير اشمئزاز العقل الإنسانى ..."و "ذلك كالسجن للجسد، بالنسبة للروح التى لا تتوقف حياتها وسعادتها عن التطور، مأساة ودمار. جحيم من الرعب."حتى عند احتمال مواجهة ضربات تهدد حياته، بدا أكثر اهتماماً بعذاباته الذهنية عن اهتمامه بسلامته الجسمانية، وما كان ليحب شيئاً أكثر من حبه لزجاجة ويسكى تلك الليلة حتى يدفع روحه للصمت و أحاسيسه للتبلد. لكن لم يبدُ بصيص من الأمل في جرعة منسية من الشراب لأن تلك الليلة كانت الجمعة لا السبت ولا يوجد أي أثر للشراب في المكان.

---

[2] "شربة ملح" Epsom salt: مركب دوائي يستخدم لإفراغ الأمعاء تماماً من أي طعام مع البراز كنوع من التطهير الداخلي. المترجم.

في الصباح التالي، كان كوفي ينتظره، يحمل حبلاً في يد وبالأخرى سوطاً من جلد البقر. عندما رآه فردريك، انطلق كالسهم نحو الغابة واختفى طوال اليوم وسط أحد حقول القمح. حاول الصلاة فلم يستطع، وفكر في كل من كوفي وأولد، فوجدهما متدينين، يصليان لنفس الإله الذى يصلى له أيضاً. صعب عليه أن يتجاهل أن الإله كان إلى جانبهما وأدى به "تدينهم الزائف" إلى الشك في "جميع الاديان". مازال جسده ملطخاً بالدماء ولم يذق طعم النوم طوال ثمان وأربعين ساعة. منذ تناول شربة الملح لم يأكل شيئاً، وكان يعلم بما فيه الكفاية أن أكل القمح غير الناضج سيصيبه بالإسهال. إذا بقي داخل الغابة قد يموت جوعاً، وإذا ما عاد إلى المزرعة فسيجد جسمه قد تمزق إرباً، فمكث هناك آملاً لو يستطيع تبادل بشريته "مقابل حيوان أو ثور." عندما حل الليل صنع لنفسه فراشاً من أوراق الشجر محاولاً أن ينام.

عندئذ بدأ حظه في التغير. إذ كان ساندى جنكيز– وهو عبدٌ يعمل في مزرعة مجاورة– في طريقه لقضاء ليلة السبت مع زوجته التى كانت امرأة سوداء حرة، وعندما لمح فردريك راقدا وسط أوراق الشجر عرفه فمال نحوه عارضاً إيواءه. كان ذلك موقفاً نبيلاً وخطراً في الوقت نفسه فلو قُبضَ عليه سوف يتلقى تسعاً وثلاثين ضربة سوط وتُسجن امرأته. وبينما كان فردريك يغسل دماءه من

جسمه، قامت زوجة ساندي بطهو وجبة من فطيرة تخبز على الرماد مصنوعة من دقيق القمح والماء والملح، عليها شذرات رقيقة من الرماد ، والتهمها فردريك. كان دائما ما يتذكرها كألذ وجبة تناولها في حياته.

وعندما امتلأت معدته عاد إليه الأمل وسأل ساندي عن فرصة للهرب إلى الشمال سعياً للحرية. ولما كان ساندي يعرف المنطقة جيداً، فقد أخبره استحالة ذلك، فلا مجال للهرب من مطاردة صائدي العبيد في تلك الارض الضيقة كالمخلب من شبه الجزيرة هذه. لكن ساندي لم يعدم حلاً لمأزق فردريك، فقام باعطاء فردريك - باعتباره من المؤمنين بالسحرالأفريقى- جزءًا من جذور عشب شائع قائلا:

ارتدِ هذا على جانبك الأيمن، وسيكون من المستحيل أن يستطيع كوفى ضربك ثانية.

رآها فردريك نصيحة سخيفة، لكن ساندى بدا صادقاً في إيمانه وممتلئاً بحب الخير لدرجة أن فردريك وضع الجذور في جيبه ليسعده. ومن يدرى؟ ربما قادته العناية الإلهية لمساعدته وربما "كانت بركة الله في تلك الجذور". هكذا كان تفكيره إذ إن الله يُدَبر الأمر بطرقٍ لاندركها ولها أشكالٌ شتى.

ويبدو أن الجذور آتت أكلها، ففى صباح يوم الأحد سار فردريك



بجرأة عائداً إلى المزرعة وقابل كوفي وزوجته اللذين كانا في طريقهما إلى الكنيسة، وسأله كوفي- وابتسامة تعلو وجهه كالملاك- باهتمام حقيقي "كيف حالك ؟" وطلب منه بأدب شديد أن يقود الخنازير إلى حظيرتها . أدهش سلوك كوفي المهذب فردريك. لقد جعل سلوكه غير المعتاد فردريك يظن أن في جذور ساندى شيئاً ما . لكنه تذكر أن كوفى يعتبر نفسه مسيحياً طيباً، وذلك يعنى أنه رفض جلد عبده في العطلة المقدسة.

قرر فردريك - متشجعاً بالجذور التى يحملها وبالتغير الطارىء في سلوك كوفي- أن يضع "ربه" في اختبار وأن يقوم بتخييره بين مالك العبد والعبد، فهو سوف يطيع كل أمر يصدر مهما كان غير معقول، إذا كان ممكناً لكنه أقسم لو استمر كوفي في محاولات ضربه"لأدافعن عن نفسي وأحميها لأقصى حدود طاقتى." بمعنى آخر، سوف يرفض مبدأ رئيسياً من مبادىء العقيدة المسيحية عند مُلاَّك العبيد يقول: "لا تقاوم سيدك أبداً !" لكنه سوف يتصرف وفقاً للمبدأ الذى ينص على أن عين الله ترى كل البشر متساوين.

مع صباح يوم الإثنين والوقت مازال مبكراً، عادت الزمجرة المنخفضة بصوت كوفي. كان فردريك في الاسطبل يطعم الخيول وفقاً للأوامر عندما هبط عليه كوفي وأمسكه من قدمه محاولاً تقييده وتراجع فردريك موقعاً بكوفى أرضاً . كتب فردريك ملحوظة هنا:

"استولى عليّ جنون القتال، ووجدت أصابعي القوية ممسكة بزور كوفي بشدة، ذلك الجبان الذى عذبني كثيراً، متجاهلاً كل النتائج كما لو كنا نتواجه ندين متساويين أمام القانون."

كان يدرك جيدا أن عقوبة مقاومة السيد هي الموت. لكنه يقول: "لقدوصلت إلى مرحلة لا أخشى معها الموت."لقد شعر"بأنه مرن كالقط وجاهز لمواجهة ذلك المخلوق الثعباني عند كل محاولة." كان يمكنه قتل كوفي بسهولة لأنه كان أكبر حجماً وأقوى وأفضل هيئة، لكنه التزم مباشرة "تكتيك الدفاع ليمنعه من إلحاق أي إذى به"، وبدلاً من أن يؤذيه هو قام بإلقاء كوفي أرضاً عدة مرات كمصارع يحتقر خصمه أو كقط يلعب بفأره، وذات مرة ألقى بكوفي على روث إحدى الأبقار، ومرة أخرى"أمسكت به من زوره بشدة لدرجة أن دماءه سالت على أظافرى." لكنه لم يؤذه بدرجة خطيرة.

استمر القتال ساعتين، قتالاً غريباً وملحمياً دونما انتصار أحدٍ منهما. "كنت أمسك به وكان يمسك بي."سأله كوفي وهو يرتعد خوفاً وإرهاقاً:

هل ستستمر في المقاومة؟

أجاب فريدريك بأدب:

– نعم يا سيدى.

في منتصف المعركة طلب كوفي المساعدة مدركاً أنه لن يتمكن من



هزيمة فريدريك وحده، فأتى ابن عمه بيل هيوز- الذي يعمل ويعيش معه. لكن فريدريك انتابه هياج العداء وركل هيوز في خصيته "فاقعده"، وابتعد مترنحاً ثم تكوّم من الألم الشديد ولم يتدخل بعدها. هنا صرخ كوفي مستنجداً ببيل سميث - وهو عبد مستأجَر آخر- آمراً بقوله :"أمسكه! أمسكه!" لكن بيل لم يكن مستعداً لقتال فريدريك لصالح كوفي فأجابه:

إن سيدى أجرنى لك للعمل وليس لمعاونتك في جلد فريدريك.

وعندما رأى كوفي خادمته الخاصة كارولين، أمرها صارخاً "أمسكيه!" لاحظ فريدريك أنها كانت امرأة ضخمة وقوية "يمكنها السيطرة علي"- خاصة أنه أصبح مُرْهَقاً من قتال دام أكثر من ساعتين- لكنها رفضت التدخل كذلك .وهذا التضامن الزنجى جعل فريدريك فخوراً بانتمائه لذلك الجنس الأسود، ودفعه ذلك قدماً.

بعد ساعتين كان على كوفي أن يتوقف من الإجهاد محاولاً التقاط أنفاسه قائلاً: أيها الوغد، عليك الآن أن تعود لعملك! أنا ما كنت لأجلدك نصف ما فعلته بك الآن لو أنك توقفت عن المقاومة.ملأت فريدريك الرغبة في الضحك من ذلك الادعاء إذ إن "الحقيقة أنه ما استطاع جلدى أبداً يومها. كان هذا أسلوب كوفي في حفظ ماء وجهه، وقد علم تماماً أنه هُزم ولم يلمس الفتى بعدها.

وغالباً ما كان فريدوْيك يقول إن قتاله مع كوفي كان نقطة تحول في حياته كعبد، ثم يشرح: "لقد شعرت بما لم أشعر به في حياتي. إنها قيامة مجيدة من مقبرة العبودية إلى سماوات الحرية النسبية. لقد ارتفعت روحي التي تحطمت كثيراً، وارتحل الجبن ليحل محله تحدٍ مقدام. لقد قررت أنه مهما طال زمن بقائي في العبودية شكلاً، فإن زمن بقائي عبداً في الحقيقة قد ولى، فالعبد الذي يرفض الجلد والضرب أصبح الآن أكثر من نصف حر."

بالطبع كان وصف فريدريك للحظة قتاله أنها "نقطة تحول في حياته" مسألة إعادة نظرأساسية في الماضي منطلقاً من ميزة تحطيمه لقيود العبودية باحثاً في ماضيه عن مفتاح يفسر سطوع نجمه. ففي ذلك الوقت، أمده القتال بالأمل. إن ذلك النصر قد يصبح المد الجديد بعد سلسلة من الهزائم، وأشبه كثيراً بما يحسه الرياضي عقب تحقيقه فوزا كبيراً. كان ذلك الأمل "أو الإيمان" يهم فريدريك كثيرا ،يشكل سلوكه ويبث فيه الثقة في مواجهة لحظات الضعف.

تلقى فريدريك من ذلك الشجار درساً قيما سيبقى معه طوال الحياة، دائماً عليك بمقاومة الطاغية ولا تخشَ الموت من المحاولة، لكن كن براجماتياً في مواجهة ذلك! لم يقم كوفي بإخطار السلطات بموضوع عبده المتمرد الخاضع لمسؤليته إذ كان يستطيع إخضاع فريدريك للجلد العلني أو قتله أو كليهما معاً. لكنه سعى لإبقاء القتال سراً،

وقد انتاب فريدريك الشك أن كوفي خجل من التصريح "بأن ولداً صغيراً في السادسة عشرة تمكن من السيطرة عليه." فوق كل ذلك، أراد كوفي الحفاظ على سمعته المعروفة باعتباره "كسارة العبيد" التى مكنته من استئجار العبيد بأسعار متدنية عن أسعار السوق، كما حاول أيضاً الحفاظ على كرامته؛ فالرجل الأبيض لا يفترض أن يهزمه فتى أسود في عراكٍ ما. خلال الفترة المتبقية له مع كوفي، كان فريدريك يرمقه باحتقار محاولاً إثارته للعراك، وقال في نفسه مرة أن المرة القادمة سوف يؤذيه حقاً. لكنه في الواقع كان يتباهى فقط، فلو وقعت مواجهة أخرى فلا شك أنه كان سيعارك كوفي بنفس الأسلوب الدفاعي بتجنب الضربات والرد على القليل منها فقط إذ كان يعلم أن كوفي إذا ما قُتِلَ أو جُرِحَ، لن تكون هناك وسيلة للتكتم على خبر العراك الذى لو وصل للعامة لأدى ذلك إلى التعذيب أو الموت، وكما حدث فقد تركه كوفي لحاله وتظاهر بأن شيئاً لم يتغير في حين بدا عالم فريدريك أكثر اشراقاً بالفعل.

وعلم العراك فريدريك درساً قيماً بقي معه طوال حياته: "قاوم الطاغية دوماً، لا تخف من الموت وأنت تحاول. لكن كن عملياً في ذلك"، لأن الهدف هو أن تكتسب احترام عدوك وأن ترسخ الكرامة في ذاتك، إذ عندما يحترمك العدو فإنه يخشاك أيضاً. لذا، لاتدرْ خدك الأيمن وتُسلم مبكراً، أوتصادق عدوك (ما لم يتحول هو أولاً

لصف قضيتك) ! إذ سيؤدى ذلك إلى الرضا بالواقع من جانبك وإلى فقدان السيطرة عليه. ومثلما حدد فردريك فإن "إنسان بلا قوة، هو إنسان بلا كرامة. "فالسادة يهينون العبيد بعدم السماح لهم باستخدام القوة. لذا، على العبيد أن يقاوموا دائماً باستخدام القوة.

***

وقد قام فردريك باختبار فلسفته هذه مع سيده الجديد، فبعدما انتهت فترة عقده مع كوفي تم تأجيره لمزارع قمح آخر يدعى ويليام فريلاند، الذى كان عكس كوفي في صفاته، ففى حين كان كوفي فقيرا ووضيعاً وفاسداً، كان فريلاند "سيداً مهذباً طيب النشأة" وكما يقول فردريك كان صاحب سلوك جيد لا أموال جيدة. كان صريحاً وأميناً مع عبيده يقوم بإطعامهم جيداً ولا يرهقهم بالعمل، ولما لم يكن من رواد الكنيسة لم يحاول تغطية الجرائم المرتكبة ضد الإنسانية باسم الدين المسيحي لأبناء الجنوب. كان سيداً مثالياً بالفعل ولم يضرب فردريك أويجلده مطلقاً .لكنه مازال سيداً، ولذا يُعد طاغية تجب مقاومته، ولكونه مختلفاً في أسلوب تسيده عن كوفي، كان يقتضي ذلك شكلاً جديداً من أشكال المقاومة، وهو الشكل الذى لخصه فردريك في الآتى: "امنح العبد سيداً ستراه يأمل في سيد طيب، واعطه لسيد طيب، هنا سيتمنى أن يكون سيد نفسه. هذه هى الطبيعة الإنسانية."

ما أن بدأ العمل مع فريلاند حتى أقسم على الهرب. كان ذلك أشبه بنوع من القرارت المتأخرة للعام الجديد عام ١٨٣٦، وخلال الشهور الأربعة التالية خطط للهروب وأقنع خمساً من العبيد بالتعاون معه، بمن فيهم "ساندي جنكنز" رجل الجذور الذى سبق الحديث عنه.

كانت الخطة بسيطة نسبياً. في ليلة السبت المقدسة والبيض مشغولون بالإعداد لمناسبة عيد الفصح، سيقومون بسرقة قارب صغير والتجديف عبر تشيسابيك متجهين إلى بالتيمور. ثم يرحلون مشياً حتى يصلوا إلى أراضى بنسلفانيا الحرة، وحيث أنه لم يكن معهم خريطة للطريق، ولم يدروا أين سيقودهم ذلك، قام فريدريك بكتابة تصريح مرور لكل واحد منهم يقول إن السيد قد أعطاهم كامل الحرية للذهاب إلى بالتيمور للاحتفال بالفصح. كادت الخطة أن تنجح لولا وجود خائن. لم يعرف فريدريك من كان ذلك الواشى، ولكنه شك في رجل الجذور، ساندي، لأنه قد انسحب من المشروع ليلة إحدى أيام الجمع بعدما غشيه حلمٌ سيىء رأى فيه "فريدريك يطير به طائرٌ ضخم يمسكه بين مخالبه متوجهاً نحو الجنوب"، وقد عدها فألاً سيئاً فقال لفريدريك: "يا عزيزى، انتبه لحلم يوم الجمعة! هناك مخاطرة كبرى. اختر حياتك، لأن الخطر هناك ياعزيزى! دعك من الخطة!" وأضاف: "وإلا سوف يقبضون عليك ويرسلونك

إلى آخر الجنوب. "من المحتمل هنا أن يكون ساندي قد قام بافشاء سر الخطة لسيده ويحاول الآن أن يحمى فريدريك.لم تكن مثل تلك المخادعات أمرًا نادراً، فأيسر وسيلة في الجنوب الأمريكي أمام العبد ليصبح حراً ليس المشاركة في خطة للهروب ولكن إفشاء سر تلك الخطة لسيده. فالواشى عندئذٍ إما أن ينال حريته أو يتلقى معاملة خاصة نظير إخلاصه.

كان واضحاً لفريدريك أن شخصاً ما قد خانه، ففي يوم تنفيذ خطة الهروب أُحيط به وبرفاقه الأربعة. وأُلقى بهم في السجن. فقاموا بتمزيق تصاريح مرورهم وأنكروا محاولة الهرب.لكن كل الرجال البيض تقريباً أكدوا أن هذه الجماعة مذنبة وأن فريدريك هو زعيم الجماعة إذ صرخت امرأة بيضاء في وجهه:"أيها الشيطان الأصفر طويل الساقين! أنت من زرعتَ في رؤس العبيد الآخرين تلك الفكرة كيما يهربوا. " ورأى بعض البيض أن فريدريك "يجب ان يُشنق"وقال آخرون:"اشووه حياً، فتلك هى العقوبة الصحيحة. " واتفق الجميع على أنه إذا لم يُقتل، فيجب أن يُباع في حقول القطن في منطقة المسيسيبى أو ألاباما حيث يستحيل الهرب هناك.وفي الواقع، قام أحد الجيران بتحذير توماس أولد أنه إذا لم يبعد فريدريك فوراً من الشاطيء الشرقي فإنه سوف"يطلق عليه النار بنفسه"، لأن فريدريك كان خطراً جداً حين يُسمح له بالتأثير على العبيد

الآخرين.

عندما استعاد توماس أولد فريدريك من الحبس أخبره – في الحال – بأنه يخطط لإرساله إلى ألاباما. لكن ذلك كان إما كذباً أو أنه غيّر رأيه فيما بعد لأنه أمره– فجأة– بالعودة إلى بالتيمور للعيش مع هيو وصوفيا أولد كيما يتعلم "حرفة" كما قال. الأكثر من ذلك أنه إذا ما سلك فريدريك سلوكاً طيباً فإن توماس "سوف يعتقه عند بلوغه سن الخامسة والعشرين." لم يصدق فريدريك حظه "إذ بدا ذلك أروع من أن يكون حقيقياً." لأن أغلب السادة كانوا ليقتلوه أو يحطموا إرادته أو يقوموا ببيعه عند مصب النهر، وعامل زراعى مثل فريدريك يساوي حوالي ١,٠٠٠ دولار (أي يساوى ٧٥٠٠٠ دولار اليوم). وبينما كان فريدريك يبحر عبر تشيسابك متوجهاً لبالتيمور، بدأ يشعر بوجود ما هو أكثر من الحظ ووجود ما هو أكثر من الصدفة "تفسيراً للظروف التى تحيط به، وذات يوم اقتبس من شكسبير قوله إن هناك "عناية إلهية تقرر مصائرنا." لكن في تلك اللحظة كان سعيداً لمجرد أنه رحل إلى الشاطيء الشرقي.

***

بدت بالتيمور عالماً جديداً يمتليء بالحرية جزئياً،وكان هيوأولد– كمرب أغنام محترف– جاف الطباع لكنه يمتلك قلب الانسان الحق، كما وصفه فريدريك. كان يحمل هيئة الأب إلى حد ما، في حين



كانت صوفيا (التي كان يناديها بالآنسة صوفا) أمرأة طيبة القلب عاملته – عادة – كابن لها . لا ريب أن هيو و صوفيا كانا لهما عيوبا إذ :كان هيو يشرب كثيراً مما يجعله مزاجيا ومتهوراً، وحاول أن يمنع فردريك من القراءة والكتابة. كذلك، عندما يتأجج مزاج الآنسة صوفيا غضباً تصبح عندئذٍ سليطة اللسان. لكنهما لم يقوما بضرب فردريك ولا بتبرير سيطرتهما عليه بأسباب دينية ورعة. وأظهرا قدرا من التواضع يفتقر إليه أغلب ملاك العبيد .

حصل هيو لفردريك على عمل كصبي للعامل الذي يسد ثقوب السفن بالقار في حوض بناء السفن بالتيمور .كان عملاً سهلاً نسبياً يحتاج إلى القوة الجسمانية والتحمل أكثر مما يحتاج إلى المهارة، وفردريك الآن يصل طوله إلى ستة أقدام مع صدرٍ مفتول وساقين قويتين من العمل بالحقول لثلاث سنوات طوال. تعلم فردريك بسرعة كيف يخلط الزفت "القطران"مع الألياف ويسد بها الثغرات في السفينة لمنع التسرب ، وأصبح عاملاً ماهراً في هذا المجال خلال عام عمل فيه في حوض السفن حيث كان هيو يعمل مشرفاً للعمال. كان يكسب أكثر من تسعة دولارات في الأسبوع أكثر من أي"صنايعي" آخر، مقترباً من أجور الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى. لكنه مع نهاية الأسبوع كان عليه أن يُسلم كل "مليم" قبضه لسيده هيو، وعندما كان هيو يمنحه منها البنسات الستة علامة على شكره،



كان يفسر تلك الهبة بأنها الإقرار بحقه في امتلاك المبلغ كاملاً، "فرغم إنسانية هيو النسبية فقد رآه فردريك لصاً وطاغية.

"كره فردريك العيش مع هيو وصوفيا، فاتخذ خطوة جديدة في مايو ١٨٣٨ "باتجاه تحديد مستقبله في عالم الحرية" وفقاً لنص كلماته. لم يكن نادراً ف بالتيمور، كعاصمة سوداء تحوى نحو ١٠٠٠٠ آلاف من العبيد السود، أن يكون للأرقاء - رجالاً ونساءً- الحق في تأجير أنفسهم في أوقاتهم إذ كان لهم أن يعيشوا ويعملوا حيثما شاءوا ويتمتعوا بحرية نسبية طالما يسددون لملاكهم مبلغاً متفقاً عليه كل أسبوع. وكل دخلٍ إضافى زائد كان لهم أن يحتفظوا به، واستطاع بعض العبيد ادخار مبلغ كافٍ لشراء حريتهم، فنظام المجتمع حفز العبيد على العمل الشاق لإمداد سادتهم بدخلٍ مضمون. لكن ذلك كله يعتمد على ثقة السادة في عبيدهم. هنا يقول فردريك عن سمعته بين السادة: "لم تكن سمعتي جيدة جداً" وياللعجب! وافق هيو على ترك فردريك كي يؤجر نفسه طالما كان قادراً على سداد ثلاثة دولارات مساء كل سبت مع تغطية جميع نفقاته.

سار النظام لأربعة أشهر على خير ما يرام، وتمتع فردريك بمزيد من الاستقلال أكثر مما شعر من قبل. "ثم انزلق في الخطأ"، ففى أغسطس ذهب مع أصدقائه من الأحرار السود للقاء عقد بأحد المخيمات، وهو شكل شعبي من أشكال التعبير الديني والترفيهى

يشمل الغناء والاعترافات وحضور المؤمنين حديثاً ممن يرتعشون ويتمايلون ويتمددون أرضا مُسَلِمِين أرواحهم وأجسادهم لله. ورغم أن فردريك كان يعتبر مُلاك العبيد من المسيحيين أكثر السادة وحشية، كان هو نفسه مسيحياً والتحق بالكنيسة الوطنية، وكانت بؤرة إيمانه رسالة المسيح حول الحرية، وأتاح له لقاء المخيم الانضمام لمجموعة من الأخوة المسيحية من متشابهي الإيمان. لكن ذهابه لحضور اللقاء أخره يومين عن تسليم عوائد عمله لهيو وانتهك عقده معه. انتاب هيو غضب شديد وعامل فردريك كابنٍ عاق غادر منزله لقضاء إجازة نهاية الأسبوع، لكنه عاد متأخراً عن موعده ودون كلمة اعتذار، والأب وهو يتخيل أسوأ مصيرٍ لابنه لايكاد يلمس النوم عينيه إذ ظن أن فردريك قد فر بنفسه بعيداً فصرخ فيه: "أيها الوغد! الآن تسيطر عليَّ فكرةُ ضربك بالسياط، لن أسمح لك بتأجير نفسك بعد الآن، وأول شيء أتوقع أن أسمعه بعد الآن سيكون هروبك."

كانت لمخاوف هيو مبرراتها إذ بمجرد حرمان فردريك من حريته الجزئية حاول الهروب مرة أخرى. فقبل ذلك بعام – أى سنة ١٨٣٧– كانت شركة بالتيمور وأوهايو للسكة الحديد قد أكملت خطاً جديداً يشق طريقه شمالاً من بالتيمور إلى ويلمنجتون بولاية ديلاور"وهى ولاية تقر العبودية" مارا بوصلة مع فيلا دلفيا بواسطة

سفينة تجارية. وكانت شركة بالتيمور أوهايو تحمي أملاك السادة حماية شرسة كما ذكر فردريك "فحتى المسافرين السود الأحرار كانت الشركة تستبعدهم"، وكان على أي مسافر أسود مغادرة بالتيمور نهاراً وتقديم "مستندات حريته" وهي تماثل جواز سفر يحوي تفاصيل عن المالك الأصلي. رغم تلك الصعوبات أدرك فردريك أن خط الشركة يوفر أكثر الطرق أماناً نحو الحرية، فاستعار تصريح مرور خاص بأحد البحارة "مبيناً أن حامله يحظى بمنزله الحر" من صديق يشابهه إلى حد ما. ثم اشترى قميصاً أحمر، وربطة عنق سوداء، وقبعة "البحارة" ليبدو مثلهم، وكذلك تذكرة قطار، واستأجر حمالاً لتوصيل أمتعته إلى المحطة صباح يوم الإثنين ٣ سبتمبر"

ورغم أن فردريك لم يرتحل يوماً بالقطار إلا أنه سمع عنه كثيراً بما يكفى لتوقع كل الاحتمالات. كانت خدمة المسافرين لاتزال في مهدها، ولم تكن هناك درجة أولى للسفر أو مركبات نوم بعد، ولم يدّع أحدٌ أن ركوب القطار مريح، إذ كان يجلس بكل عربة حوالى ثلاثين شخصاً في صفين متقابلين على مقاعد خشبية. كانت تبدو كالصندوقالخشبي المستطيل معتم به فتحات قليلة بمثابة النوافذ. وكان هناك أيضاً الاهتزاز والتمايل الذى يجعل القراءة أمراً مستحيلاً تماماً، وكانت الضجة المثارة عالية لدرجة تجبرك على

الصراخ عندما تتكلم، وقد قال أحد المعاصرين حينها أن تلك العربات أكثر ملاءمة للماشية عنها للناس، كما لاحظ مسافر آخر أن غبار الفحم المتطاير عبر النوافذ كان كثيفاً لدرجة تعوق التنفس، وعلى عكس سنوات الحرب الأهلية، فرضت الشركة العزل مع عزل السود في أكثر العربات صخباً وقذارة.

استغل فردريك اهتزازات القطار وتعجل "كمسارى" القطار في عمله لصالحه. وصل إلى المحطة يوم ٣سبتمبر قبل دقائق قليلة من قيام القطار ليتجنب تدقيقات عامل التذاكر. وبينما كان القطار يطلق صفيره، ألقى الحمال حقيبة فردريك الصغيرة داخل عربة القطار، ولحظة مغادرته للمحطة قفز فردريك داخلها. وعندما دخل "الكمسارى" عربة الملونين كانت الرحلة عند منتصف الطريق إلى ديلاور. كان فردريك يعرف يتقمص شخصية بحار من الترسانة، ورغم انفعاله وتوتره إلا أنه تلبسَ دور الحُرِ الواثق والمعتاد الذى ينتظر "الكمسارى" ليسأله عن أوراقه.

سأله الكمسارى:

لديك أوراق تثبت أنك رجلٌ حر، أليس كذلك ؟

قال فردريك:

نعم يا سيدى، أحمل مستنداً موثقاً بخاتم النسر الأمريكى الذى سيحملني عبر العالم.



كانت ذلك هو الرد المثالي مستغلاً احترام الآخرين للبحار الأمريكي وهو ما شاع حينذاك في بالتيمور، فألقى الكمسارى مجرد نظرة مجردة إلى أوراقه، وتسلم الأجرة ومضى في طريقه.

واجهته صعوبات قليلة، فعلى سطح العبارة التى تمخر عباب نهر ساسكويهانا رآه أحد معارفه من السود وسأله أسئلة خطيرة مثل: "متى تعود ؟" مما عرض رحلته لافتضاح أمره. كذلك عندما ركب قطار فيلادلفيا وكان يتطلع عبر النافذة، رأى في عربة مجاورة في القطار المواجه له ربان الباخرة التى عمل عليها منذ يومين مضيا . لكن الرجل رمقه ويبدو أنه لم يره جيداً . كما واجه ما هو أكثر مدعاة للفزع حين التقى بحدّاد ألمانى يعرفه جيداً "ونظر إلىّ مدققاً" لكنه لم يتفوه بكلمة. تذكر فردريك ماحدث بقوله: "أعتقد أنه عرفنى حقيقة، لكن قلبه لم يطاوعه لخيانتى" إذ بالنسبة للهاربين تعد مدينة كبالتيمور- حتى لو كانت ضخمة- قرية صغيرة. ثم مرت بقية الرحلة دون حوادث تذكر. واستقل فردريك سفينة تجارية من ويلمنجتون إلى فيلادلفيا ثم قطاراً ليلياً إلى مدينة نيويورك.

فى أقل من أربع وعشرين ساعة تحول نفسه من عبد إلى رجل حر، من رجل جنوبى إلى رجل شمالى. كان يتذكر تلك الرحلة كأعظم أربع وعشرين ساعة مرت بحياته كلها، كما لو كان وُلدَ من جديد. "إذ انفتح أمامى عالم جديد." كان يرى كل حادثة أخرى أو

كل إنجاز آخر ضـئيلاً مقارنة بتلك اللحظات "لقد عشت خلال يوم واحد أكثر مما عشته في عام كامل من أيام عبوديتي، لأن أحلام صباي ورجولتي تتحقق الآن."، وظل باقي عمره يحتفل بيوم ٣سبتمبر بديلاً ليوم مولده المجهول.

***

لم يُعبر فردريك عن اعترافه بالجميل نحو توماس أولد لأحقاب طويلة حين أرسله شمالاً بدلاً من بيعه في الجنوب كما كان يفعل معظم السادة، ولم يُظهر أبداً أى تقدير تجاه هيو وزوجته صوفيا لطبيعتهما العطوفة نسبياً نحوه، رغم أنه سعى سراً للتراضى مع هيو فقد كتب إليه عام ١٨٥٧ يقول: "إننى أحبك لكنني أكره العبودية." مع كل ذلك، فقد صرح في نفس الوقت أن "لو قتل عبدٌ سيده، فإنه يحاكي أبطال الثورة فحسب."وحتى قيام الحرب الأهلية كان يُشهّر علانية بتوماس وهيو وصوفيا، ورغم أن أياً منهم لم يمتلك عبداً بعد عام ١٨٤٨ إلا أنهم لم يصبحوا من دعاة تحرير العبيد أبداً. لذا بقوا أعداء عموميين بالنسبة له. ظل الوضع هكذا إلى ما بعد قيام الحرب حين تراضى فردريك مع مالكه السابق حيث أخبر توماس أولد بما في نفسه:"لم أهرب منك وإنما هربت من العبودية."إذ ظل داخل شخصيته العامة مؤمناً بالدرس الذى تعلمه من قتاله مع كوفى، فدائما ما كان يقول: "قم بمقاومة العدو– حتى لو تراضى معك– إلى

أن يؤمن بقضيتك." وبعد انتهاء العبودية أدرك أن أولد لم يعد عدواً له.

بالنسبة لإدوارد كوفي- الثعبان- فقد أثمرت شهرته "ككسارة للعبيد"إذ مع قيام الحرب الأهلية أصبح مزارعاً ثرياً مرموقاً يمتلك العديد من العبيد والأملاك التي تقدر بـ ٢٣٠٠٠ دولار (أى ما يساوى مليوني دولار بحسابات اليوم). وبينما هو يتحول نحو الثراء،جعله فردريك مشهوراً بتقديمه إلى عالم الأدب كشرير كبير مساوٍ لكل من سيمون ليجرى وفاجين. ففى سيرته الذاتية ثلاثية الأجزاء شبّه كوفي بالشيطان الذى لا يُنسى خلال قصة حياته. لكن مزارعي الشاطيء الشرقي اعترضوا أحياناًعلى ذلك التشبيه، حيث هاجم أحد الجيران عام ١٨٤٧ تصوير كوفي بالثعبان داعياً إياه بالطيب الأمين الجاد في عمله كما أنه "عضو مخلص ضِمْن شعب كنيسة الظهور" ممن يعاملون رجالهم جيداً، وقال "انه بسبب كدّه واجتهاده الصاده اشترى كوفي مزرعة جميلة ويحصد الآن مكافأة كَدّه". لكن رسم فردريك لشخصية كوفي التصق به إذ ظل بيت كوفي القديم معروفاً باسم[3]جبل البؤس.

***

[3] منزل جبل البؤس يملكه الآن دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الاسبق.

ذات يوم شديد البرودة من شهر مارس ١٨٣٠ كان شاب عمره واحد وعشرون عاماً يقود زوجاً من الثيران مربوطين بنيرٍ واحدٍ عبر إنديانا متوجهاً لإلينوي، وقد كانت الطرق قد تجمدت ليلاً وتحولت إلى طين موحل خلال النهار، مما جعل السفر بطيئاً وشاقاً. سار بجوار الثورين مرتدياً قبعة من الفراء وسروالاً من جلد الغزال يصل إلى ركبتيه، وهو يضرب بسوطه قرون الثورين أو فوق جلدهما، وهو يصيح آمراً: "جي جي اهو هو! وي جيلانج !وهاي ذار!" إلخ، ليبقيهما مستمرين للأمام. بينما كانوا يعبرون مجرى مائياً ساطهما بمزيد من القوة، ولم يكن الثوران قد فقدا قوتهما تماما فاستخدم السوط ليمنعهما من السرعة التي قد تؤذيهما أو تقتله، ولم يكن قد تمكن من فرض الانضباط على كلبه تماماً بعد، الذي فاجأه بالقفز في الماء وبدأ يغرق، فخاض بنفسه في الماء البارد حتى ارتفع لوسطه "فأمسكتُ به وأنقذتُه" فيما يتذكر مكملاً: "لم أستطع أن أتحمل فقد كلبي."

كان أبراهام ينتقل إلى مقاطعة ماكون بولاية إلينوي بالقرب من نهر يسميه الهنود (سانجامونو) يعنى "الأرض كثيرة الخيرات لتناول الطعام منها" ولم يكن لديه أي شك في صدق هذه المقولة، فهو ببساطة شديدة يقتفي خطى عائلته مبتعدا نحو الغرب باتجاه مستوطنات ماوراء الغابات شاعراً بأنه كقطعة الخشب الطافية التي يدفعها القدر وتيارات الحياة التي تمر بها العائلة، وقليلاً ما كان يعرف أن هذا

الانتقال سيجعله حر الحركة، ويمنحه إحساساً بوجود هدف أمامه.

كان والده- توماس لنكولن- قد وضع يده على أرض شمال ضفة نهر سانجامون تبعد أميالاً قليلة غرب ديكاتور، وطلب من أبراهام أن يقود عربة القافلة (حيث كان الناس ينادونه "ايب" لكنه كان يفضل اسم أبراهام في حين كان لقبه لنكهورن وباللهجة الشائعة لينكيرن). كانت القافلة تتكون من أبراهام ووالده توماس وزوجة أبيه سارة بوش جونستون لينكولن وأسرتيَّ ابنتيَّ سارة من زواج سابق وزوجين من الثيران، وقد جلست النسوة داخل العربات المغطاة بالمشمع التى ساعد أبراهام في صناعتها، بينما سار الرجال بجوار الثيران. كانوا يغادرون منطقة بيدجون كريك وهى مستوطنة تقع جنوب إنديانا يعكس اسمها بداوة حياة الغابات. لم تكن بيدجون كريك كريمة مع أبراهام، إذ عاش هناك أربعة عشر عاماً بعدما انتقل من هاردن كونتى من كينتوكى حيث كان قد قضى أول سبع سنوات من عمره، لأنها كانت "منطقة برية تمتلىء بالدببة والحيوانات المتوحشة الأخرى التى مازالت تعيش في الغابات". ويتذكر أنها حتى لم تكن قرية بل كانت مستوطنة يقطن بها حوالى أربعين أسرة تقريبا يتناثرون في دائرة قطرها خمسة أميال تحيط بمنزل لنكولن، ومثلت حياته هناك مأساة تعقبها مأساة، حيث ماتت أمه من مرض ينتقل عن طريق تناول اللبن "وهو البروسيلا" وكان في الثامنة من

عمره، وماتت أخته الوحيدة وقت ميلادها، وكاد هو نفسه أن يموت جراء ركلة حصان بدا بسببها على وشك الموت، وكل ما تعلمه من مهارات كانت الزراعة، وبناء الأسوار، وقليلاً من أعمال النجارة التى كرهها بشدة وقد قرر والده الرحيل إلى "الأرض كثيرة الخيرات"سانجامون بعد عودة مرض اللبن إلى بيدجون كريك. أسعد ذلك أبراهام لأنه كره المكان لدرجة أنه عندما زاره عام ١٨٤٦ أبدع قصيدة تعكس أسفه نحو هذه الأرض يقول فيها:

أجوب الحقول بخطى متأملة

وأخطو عبر المسافات الفارغة،

واشعر "كرفيق للموتى"

أنى أعيش داخل المقابر.

أما عن الأمر الوحيد الذى عده جيداً وحدث له في منطقة بيدجون كريك، فهو وصول زوجة أبيه سارة بوش جونستون، تلك الأرملة التى جاءت ومعها أطفالها من زوجها السابق، وقد تزوجها توماس بعد وفاة أم أبراهام. كان أبراهام حتى ذلك الوقت"قذراً رث الثياب همجي السلوك."وسرعان ما لاحظ التغيرات التي طرأت بعد قدومها إذ جلبت للبيت أسرّة بها فراشاً محشواً بالريش ومكتباً من خشب الجوز بالإضافة لمنضدة وبعض المقاعد وعَجَلة للغزل، وبعض الفضيات، وكلها من وسائل الرفاهية بالنسبة إلى أبراهام. كما قامت

بتنظيف البيت ثم أمرت توماس ببناء حائط لاستكمال الحجرة الصغيرة ذات الحوائط الثلاث، وقد أحبت أبراهام وأطعمته جيداً وعاملته بصورة لاتختلف عن معاملتها لأبنائها . لذا، كانت "أفضل أصدقائه في الدنيا" وفقاً لوصف أحد أقاربه الذى أضاف بقوله: "لم يحب إنسان أمه أكثر مما أحب هو تلك المرأة."

في حين كانت أم أبراهام الحقيقية- واسمها نانسى هانكس لنكولن - مصدراً دائماً للحرج إذ أخبر أصدقاءه بذلك مؤخرا: "كانت أمي ابنة غير شرعية لنبيل دَعي من فرجينيا ." حتى فيما بين أبناء الطبقة البيضاء البائسة الفقيرة، كان ابن "المولودة من زنا" مصدراً للعار، ويمكننا أن ندرك رغبة أبراهام في إبقاء هذه المعلومة سراً، وكان له عزاء وحيد فيما يشاع عن أصله فيقول: "أبناء الزنا أكثر ذكاءا وتمردا وفكرا- بصفة عامة- عن بقية البيض الفقراء ."لذا، فهو يعتبر أمه أكثر ذكاءً من أبيه، لأنها ورثت صفات ذلك الرجل النبيل "وبالتالى فقد ورثتها أنا ." لقد أوقد اعتقاده في نُبل أصله طموحاته وأخذ يسخر من فكرة قناعة الفقراء البيض بنصيبهم، وفي لاحق أيامه حاول نسيان أيام فقره الأولى حين قال لأحد مدوني سيرته الذاتية: "من الحمق محاولة استخراج شىء له قيمة من حياتى المبكرة ... ويمكن تلخيصها في جملة واحدة

(نقتبسها من كتاب توماس جراى (رثاء)[4] "إنها الحوليات البسيطة القصيرة للفقراء" وكان فقره، مثل أمه، مصدراً للحرج.

لم يتفق أبراهام مع والده إذ عده جاهلاً ومسلوب القوى ، وهكذا كان حكم جيرانه حيث دعاه أحدهم بقوله: "إن توماس لينكولن نموذج مثالي لنفاية بيضاء بائسة... كسولة ولا قيمة له" في حين تذكره آخرون على أنه كادحٌ يرتاد الكنائس وقد تم تعميده جيداً، إلا أنه رجل أعمال فاشل. "كان عجيباً بلا طحنٍ، عمل كثيراً لكنه لم يعمل شيئاً له قيمة." قضى توماس الذى كان نجاراً بحكم حرفته أغلب أوقاته يقوم بالزراعة. أما من ناحية السلوك فكان صعلوكاً أو "هلفوتاً" حسب نص ما كتب. كان- بالكاد- يستطيع القراءة والكتابة، وكان يعتبر ابنه أبراهام كسولاً لأنه كان يكره العمل الجسمانى، وأحبَ القراءة ودائماً ما كان "يخدع نفسه بالتعلم" ظاناً أنه سيحقق تقدماً ما بواسطته. هنا كان يضرب أبراهام لقيامه بالتصرف كأنه ذكي ومتفوق. ذات مرة، أوقعه ضرباً من فوق أحد الأسوار بسبب فضوله، ولم يرد أبراهام الضرب أبداً. لذا كان توماس يفضل ابن زوجته- الذى كان يستمتع بالعمل اليدوى- أكثر من حبه لابنه الذى كان من صلبه.

---

[4] توماس جراى - شاعر انجليزى شهير ولد في لندن عام ١٧١٦ ومات ١٧٧١ ومن أعماله انشودة لايتون كوليدج، وقصيدة "رثاء".. المترجم

كانت أكبر مخاوف أبراهام أن يشبّ مشابهاً لأبيه .إذ كان يحتقر افتقار أبيه توماس للتعليم مدركاً في نفس الوقت أنه هو نفسه قد تلقى أقل من عام من التعليم الرسمى. لقد كره استقرار والده في مناطق "لا يوجد فيها مايثير الطموح من أجل التعليم مطلقاً ." وبنص قوله. ورغم ذلك، ها هو يقتفى خطى والده لمكان آخر من تلك الأماكن.

ولو شاء لانطلق بعيداً على مسئوليته. فمنذ شهر مضى وتحديداً يوم١٢فبراير- بلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً، مما يعنى أنه "وصل لمرحلة الرشد" .فالآن أصبح مواطناً حراً ولأول مرة في حياته لن يتمكن من التصويت في الاقتراعات العامة فقط، بل سيكون من حقه الاحتفاظ بدخله من عمله وألا يعطيه لوالده كذلك، وسيكون له الحق في الذهاب لأى مكان دون حاجةٍ إلى تصريحٍ من والده. لكن مرة أخرى، قام توماس بتأجير ابنه أبراهام، تماما مثلما قام توماس أولد بتأجير فردريك. كان على أبراهام أن يؤدي أعمال الحرث في الحقول وشق الطرق، وحصاد القمح ومع نهاية الأسبوع يقوم بتسليم كل "مليم" كسبه لأبيه.والأسوء أن والده أخرجه من المدرسة لتأجيره تخفيفاً لأعبائه المالية، ويتذكر أبراهام ذلك فيقول: "لقد اعتدت أن أكون كالعبد . .لكنني الآن حرٌ. "وإلى أن بلغ أبراهام الحادية والعشرين من العمر، لم يكن يشعر بانه يختلف عن الأولاد

السود حيث أن "كلنا نكون عبيداً في وقت أو في آخر." لكن إذا كان أبراهام قد أضحى الآن حراً، فلماذا يظل يتبع والده، ويعمل من أجله بلا مقابل؟

ربما فكر في ذلك السؤال وهو يخطو أول ميل في مسافة المائة ميل- أوأكثر- في ذلك اليوم من شهر مارس عام ١٨٣٠، حاثاً الثيران على عبور الأنهار والطرق التى أوحلها المطر، وهو يسمع السكان يخبرونه هو وذويه عن مدى صلابة تربة إلينوي لدرجة أنها تكسر سلاح أي محراث. لكنه رأى بعضَ أشياء قليلة في الطريق ملأته بالأمل مثل آلة للطباعة (ولم يكن قد رأى واحدة من قبل)، و"مهرجاً" يؤدى بعض الحيَل الخداعية بيديه، وتلك علامات تشير إلى أن الحياة هنا يمكن أن تكون مختلفة عن حياة الزراعة.

عندما كان ابراهام لايغرق في تأملاته، كان يلقى بعض النكات والقصص، فهذه من تقاليد العائلة، وكان أبراهام لنكولن يميل كثيراً لسرد النكات الخفيفة، فيقول في واحدة منها أن زوجة وزوجها شعرا أن يوم القيامة حان وقته واتفقا معاً على الاعتراف بخطاياهما، فقالت المرأة:

- حسناً، إن صغيرنا سامى ليس ولدك ياعزيزى.

فقال الزوج :

- مَن يكون إذن؟



فأجابت :

- للإسكافي الأعور. حين جاء لرؤيتي ذات مرة ولم تكن أنت بالبيت، وفي لحظة ضعف استسلمت له. فقال الزوج:

- حسناً، هل باقي الأولاد لي؟

فأجابته:

- لا، فهم للجيران.

عندما وصلت العربات أخيراً إلى سانجامون، لم تبدُ تلك الأرض "أرضاً تمتلىء بالخيرات"، فقطعة الأرض التى تخصهم كانت قائمة على جرف عال يطل على النهر وتتكاثف به الأشجار. كانت قرية ديكاتور مكونة من حفنة من الأكواخ الخشبية، ولم تبدُ أكثر اختلافاً عن بلدات الغابات الآخرى التى سكنها من قبل، بل بدت أشبه بمكان "تملأه صفوة المجتمع التي تفخر بقدرة رجالها على جلد إنسانٍ ما" كما قال أحد الجيران يوماً. وقد قام نفس الجار بتلخيص عادات الذكور الإجتماعية في مناطق الغابات هذه بقوله: "أوامر اليوم: اضرب، وانهض، واشرب واتخذ أصدقاء، وسوف تمضى الأمور جيداً!"

لقد كبر أبراهام وسط عالم يعد القتال والإغراق في الشراب وسيلتين لقضاء أوقات الفراغ وكان ذلك هو المصدر الأول لمعنى الرجولة والقدرة على المخالطة الاجتماعية، ففى مواجهات العراك

التى يدعونها "كن خشناً واطرحه أرضاً!" لم يكن الخروج من تلك المشاجرات بكسور في إصبع أو أنف أوجرح في شفة أو اقتلاع خصيتين أو انتزاع عينٍ من محجرها والاحتفاظ بها كذكرى للمنتصر، أمراً نادر الحدوث. بالطبع، لم تكن كل المشاجرات من نوع عراك الخشونة والطرح أرضاً "المطلقة بلا حدود"، وإنما كانت معظمها جولات من المصارعة أوالملاكمة التى تحكمها نظم وقواعد. لكن حتى في المنافسة المنظمة "لو اشتبكت مع خصم غير مكافىء، فقد تخسر عيناً أوأذناً في شجار يعتبره كل واحدٍ غير عادل." لم تكن تلك المواجهات مجرد شكل من أشكال التسالى الشعبية للذكور فقط، بل كانت السبيل للوصول للمكانة الاجتماعية وحفظ الشرف وتقدير الذات، وفي حين كان الأثرياء يقومون بعماركهم وكان رجال الغابة يقومون بمشاجراتهم .ولحفظ ماء الوجه، كان عليك أن تقبل فقد جزءً من ماء وجهك.

كانت أسرة لنكولن عائلة مقاتلة، فنانسي هانكس- أم أبراهام- كانت قادرة "على أن تطرح أرضاً الرجال الذين حاولوا وضع قوتها موضع اختبار." ونظراً لطولها الذى يصل إلى خمسة أقدام وعشر بوصات ووزنها الذى يصل إلى ١٤٠ رطلاً، كانت تفوق معظم الرجال الذين يصل طولهم عموماً إلى خمسة أقدام وسبع بوصات. كان والد أبراهام أيضاً مقاتلاً أسطورياً إذ كان بطول نانسى نفسها مع جسم

عضلي يصل إلى ١٩٠رطلاً، "ولم يكن هناك مجال للشك في وجود أي درجة من الجبن عنده." وفي إحدى مشاجرات "الخشونة والطرح أرضاً"، اقتلع أنف خصمه، وفي أخرى قام بجلد خصمه دون أن يناله خدشٌ واحد، وبعد لحظات "صارا صديقين مخلصين". خلال فترة ما دعاه أصدقاؤه بطلاً، وفى المقابل انتشرت شائعات أن توماس كان قد سبق إخصاؤه ربما بسبب القتال، أو بسبب تحوله عقيماً وسواءُ كانت تلك الشائعات حقيقية أم لا فهى تؤكد نقطة قوته، لكن مايُعدُ أكثر أهمية هو أن ثقافة العنف التى يتعرض فيها المرء لفقدان خصيته في مشاجرة ما، تؤدى حتماً إلى تذكي اوار تلك الأقاصيص المشكوك في صحتها.

عندما لا يكون الرجال منشغلين بتحطيم أنفسهم كانوا غالباً ما يقتلون أنفسهم غرقاً في الخمر، وفي بيدجون كريك وساجامون كان الخمر المقطر محلياً يفيض أكثر من الماء. في الواقع، كانت أمريكا – فترة تنشئة أبراهام – جمهورية "الخمور" إذ كان متوسط ما يعبه الرجل منها حوالي ثمان جرعات من الويسكى أو أية خمر أخرى في اليوم وعادة خلال ساعات قليلة، وكان أكثر من ربع السكان من الذكور البالغين يجرعون اثنى عشرة جرعة أو أكثر. كان التنافس في ذلك جزءًا من منزلتهم في المجتمع. كان الهدف أن تشرب أكثر وتبقى متيقظاً واعياً أكثر من منافسك.

ورغم أن تجرع الويسكى والاشتباك في أي شجار قد يبدوان لنا مسألة همجية اليوم، إلا أنهما كانا من طرق التعبير عن اللامبالاة أو إخفاء الشعور بالخوف من المخاطر التى تكمن وراء الغابات، ففى أية لحظة تمر يمكن أن يطرحك أرضاً وحشٌ بري، أو أحد الهنود أو إعياء المرض، وكان وجود الأطباء أو المسعفين متخصصين نادراً لعلاج تلك الآلام. كانت تلك التسالي أيضاً تجليات للديموقراطية، تعكس الفرص المتكافئة وروح الحرية. لكنها في الغالب كانت سُبلاً للجهلاء والوضعاء كيما يصبحوا قادة وسط مجتمعاتهم.

كان أبراهام تابعاً لتلك الثقافة ونابعاً منها، لكنه حين تقدم في العمر بدأ يرفضها بالتدريج، ففي بيدجون كريك نال حظه من المشاجرات وكئوس الخمر، بل إنه خلع كتف أحدهم في مشاجرة منها . لكنه مع وصوله لولاية إلينوى هجر الشراب والشجار واكتفى بالاشتراك في مباريات المصارعة المنظمة فقط التى كانت أقل دموية لكنها ماتزال عنيفة . كانت مباريات المصارعة وجولات الشجار وسهرات الشراب تبدو له من سمات الطغيان لا الديمقراطية. ورغم أنه نادراً ما ارتاد الكنيسة، فقد توصل إلى اعتقاد أن العناية الإلهية المُهيمنة تطلب منا الرصانة والسلام. بالإضافة إلى أنه قد عاين الكثير جداً من آثار هذه التسالي ، وجوه تشوهت وامتلأت بالندوب، ورجال ضاعوا أو ماتوا في الخامسة والثلاثين. يذكر ليلة

شتوية مرّ فيها على رجلٍ ثمل راقداً على أرضٍ غطاها الصقيع، ولما أدرك مدى تعرض حياته للخطر حمله أبراهام إلى منزله وأوقد ناراً بجواره كيما يتمكن من النوم متخلصاً من آثار الويسكي. وفيما بعد، أفاد ذلك الرجل أن لنكولن قد أنقذ حياته.

كما أن أبراهام لم يحتج إلى الدخول في شجار لإثبات تفوقه الجسماني، فمعظم الرجال يتحدون نظراءهم من نفس الحجم، والقليل هم الذين كانوا يطاولون أبراهام حجماً، لأنه عند وصوله لمنتصف عمر المراهقة كان طوله يتخطى الستة أقدام. أما الآن وطوله ستة أقدام وأربع بوصات ووزنه يفوق مائتي رطل، فهو يمشي مرتفعاً عن الناس . كان معروفاً بقدرته على رفع ألف رطل من الحجارة المعبأة داخل صندوق وكان يمكنه أن يطرح ويقذف ويسبق كل المتفوقين، وهذه المظاهر البينة للقوة كانت تجعل الرجل من هؤلاء يفكر مرتين قبل تحديه في القتال، وعندما يفعلون يقوم بإيضاح قوته قبل البداية. ذات مرة، قام رجل نحيف قصير بدعوته للقتال فوافق أبراهام طالباً من الرجل أن "يقارن أولاً حجمه" بجسم لنكولن وأن يحسب أية ضربة يوجهها خارج علامة يحددها بنفسه على أنها خطأ منه، وقد آتت كلماته آثارها إذ أدرك الرجل فجأة أنه ليست لديه فرصة أمام مثل ذلك العملاق فانسحب بحكمة وتعقل. فبمجرد رؤيتك لأبراهام، تدرك أنك قد تخسر أمامه.

قضى العملاق الصغير الربيع والصيف- الأخيرين - في مساعدة والده وابن عمه في إخلاء عشرة أفدنة من الأشجار وبنى معهما كوخاً خشبياً وسوراً، وزرع فيها قمحاً. كانت ذراعاه وأكتافه قوية- جراء عمله بقضبان السكة الحديد- لدرجة تُمكنه من رفع فأس ثقيل على مستوى أفقي بيدٍ واحدة ممسكاً بها بثبات دون أن يرتعش. لكنه كان لا يزال يكره العمل وبدأ يتطلع إلى فرصة ترفعه باعتماده على نفسه. لذا، كان سيقبل بأيّ شيءٍ طالما كان بعيداً عن الفلاحة والنجارة، وهما مهنة والده.

على ضفة النهر وجد أبراهام الحرية. ففي شتاء ١٨٣٠-١٨٣١ احتاج رجل أعمال- ممن يتكلمون بسرعة- اسمه دينتون أوفوت، من يعاونه في الحصول على قارب يملأه بالمؤن للذهاب إلى نيوأورليانز عبر نهر المسيسيبي. وقد عرض أوفوت- وهو رجل سكّير متهور وقاسٍ- مبلغ عشرة دولارات شهرياً لبناء القارب وإنجاز الرحلة. بدت الصفقة مُربحة، ووقّع أبراهام عقد العمل، وكذلك فعل ابن عمه وأخوه غير الشقيق.

قد يكون السفر عبر النهر خطراً، حيث قام أبراهام بذلك مرة من قبل في سن التاسعة عشر، عندما قبل والده تأجيره كعامل على قارب مسطح متجه إلى نيو أورليانز مقابل ثمانية دولارات في الشهر، وذات ليلة وهم يرسون عند شاطيء "السُكّر" بالقرب من باتون

روج، هاجم بعضُ العبيد قاربهم محاولين سرقة حمولته وقتل بحارته فالتقط أبراهام هراوة ضخمة وبدأ يضربهم بها ليدفعهم بعيداً وسرعان ما نجح في قطع حبل الهلب وواصلو إبحارهم. وأثناء الموجة، أصيب بضربة عصا في رأسه تركت ندبة فوق عينه اليمنى وأثراً دائماً.

لقد أحب كثيراً الإبحار عبر النهر، إذ كان ذلك العمل يمنحه وقتاً يفرغ فيه للقراءة أو رواية الأخبار أوتأمل النجوم أو حتى الإنصات إلى نقيق الضفادع الصاخبة على الشاطىء. وبعد عودته من رحلته الأولى عبر نهر المسيسيبى، وتسليم مكسبه لوالده، طلب من أحد أصدقائه معاونته في الحصول على عمل بأحد القوارب البخارية، موضحاً: "أريد بداية." لكن صديقه رفض شارحاً: "إن ألف باء العمل، هى أن الصبى الذى لم يتعدَ الواحدة والعشرين ويعمل بدون تصريح من والده . . يصبح عمله غير قانونى." وانتهت الرحلة الثانية عبر المسيسيبى بسرعة بعدما بدأت إذ حينما كانوا عند نهر سانجامون بقاربهم المسطح الممتلىء ببراميل القمح والدقيق، "شَحَطَ" قاربهم عند مدينة نيو سالم عند سدّ مائى في نيو سالم يستخدم لتدوير الطواحين حيث كان عمق الماء ضحلاً، فاستقر القارب على سطح السد مثل جذع شجرة اعترضه عائق وسط شلال منهمر. ارتفعت مقدمة القارب وأخذ الماء يتدفق

لمؤخرته ببطء. ولو لم يسارع هو لإخلاء القارب لغرق وتحطمت حمولته. أقنع أبراهام أوفوت بنقل الحمولة من القارب إلى قارب آخر لتخفيف وزن قاربهم المسطح. ثم حفر ثقباً في مقدمته لتصريف المياه بعدها أستطاعوا تثبيت القارب فوق سطح السد. أقبل سكان نيو سالم لمشاهدة هذه المحنة من ناحية الشاطيء، واستولت الدهشة على بعضهم لمهارة ذلك العملاق الغريب الذى يرتدي بنطالاً من الجينز مطوياً حتى ركبته، وقميصاً مخططاً من القطن (يدعونه "شجرة الجوز") مع قبعة من القش.

ماكادت تلك الكارثة تمضى، حتى قرر أوفوت شراء حوالي ثلاثين خنزيراً ليبيعها خلال الرحلة. لم تكن المشكلة هى كيف العيش على ظهر قارب مسطح مع ثلاثين خنزيراً حياً وإنما كانت كيف تدخل تلك الخنازير إلى سطح القارب بداية. لم تُجْدِ أية محاولة في حل هذه المشكلة، وأخيراً خرج عليهم أوفوت بفكرة مجنونة، هى خياطة جفون الخنازير لغلق أعينها آملين أن تتصرف الخنازير كالجياد حين تُغمى أعينها. قام أبراهام بإمساك رؤسها جيداً في حين تولى أوفوت وضع الأبرة والخيط خلال جفونها. هنا ثارت الفوضى فصرخت الخنازير- مرتعبة- وهي عمياء تماماً، ورفضت التحرك لأي مكان. و تمكن الرجال في النهاية من إدخالها القارب بعد ربط أرجلها وحملها عنوة في عربات يد صغيرة.

وبمجرد أن ساروا في المسيسيبي مروا بالعديد من القوارب والبواخر والسفن .إذ كان النهر شُرياناً رئيساً للتجارة الأمريكية، وسوقاً شاسعة دائمة التحول تجرى فيها كل أشكال التجارة والنقل: من الكتب المقدسة إلى طلقات الرصاص ومن النساء إلى الخمور، وقد "أتاح ذلك أعمالاً كثيرة لجموع الرجال الجادين الأقوياء "ممن كانوا مشهورين بالسُكر ومعتادي الشجار، ويذكرهم مارك توين بأنهم "كبار المتباهين" . كان أولئك البحارة معروفين بحكاياتهم الطويلة، ومن أكثرهم شهرة- على سبيل المثال- مايك فنك، وهو من معاصري أبراهام وربما كان أكثرهم شهرة، وكان بطلاً في انتزاع أعين خصومه وصيادا جريئاً . عاش بجوار النهر- أو عليه- وقد سما بمهارة الحكي الطويل إلى شكل فنى جديد، وتباهى بذلك قائلاً: "أنا حكاء منتظم قادمٌ من نهر المسيسيبى العجوز... أنا هذا الطفل الذي رفض الرضاعة قبل أن تتفتح عيناه وطلب زجاجة من خمر الرأي المعتق! يمكنني أن أتفوق في القفز، والعدو، وإطلاق الرصاص، والحكي، والشرب، والمقاتلة، وطرح الخصم أرضاً، والشجار بلا قيود، على أي رجلٍ يسكن على ضفتي المسيسيبى."كان أبراهام يعرف أخبار فنك ويعلم مستوى اللغة المستخدمة في ولايتي كينتاكى وإنديانا وأنه لايوجد مثل طلاقتها، كما كان يعرف أن بحارة النهر كانوا أكثر وضاعة وغدراً من أوغاد الشاطيء . لذا، حافظ ومعه

باقى بجارته على بقائهم دوماً على مبعدة من القوارب الآخرى، فأي حديث طويل ينشأ يمكن أن يتحول إلى جولةٍ دامية.

وبدت نيو أورليانز، كبلد أجنبي يسكنها خمسون ألف نسمة تشمل ثلاثين ألفاً من الأمريكيين الأفارقة، وعدّها أبراهام مدينة سوداء ففى كل من مقاطعة هارين وكنتاكى لم يكن يوجد سوى نحو ألف فقط من العبيد (يمثلون ١٠% من السكان)وكانت بيدجون كريك وإنديانا كلها مجتمعات بيضاء. حقيقةً أن كلاً من إنديانا وإيلينوى قد قيدتا هجرة السود، إلا أن المستوطنين كانوا غالباً من البيض الفقراء الذين كرهوا السود تماماً.

في الواقع،كانت نيو أورليانز أكبر مخزن للعبيد في شمال أمريكا وكانت تمتلىء بالعشرات من أسواق النخاسة حيث كان الناس يُباعون ويُشترون مثل الخيول.كان من المستحيل تقريباً أن تتواجد في تلك المدينة ولاتمر بمشاهد العبودية وأصواتها: لسع السياط والصراخ، وقعقعة السلاسل عبر الأرصفة، ونظرة نهمة من رجل أبيض لأمرأة سمراء البشرة. وقد كتب أبراهام عن رؤيته للسود المكبلين في الأغلال وسوء معاملتهم وأن"قلبه نزف دماً"من أجلهم.لم يكن كل هذا العنف هو ما أزعجه، لأنه رأى كثيراً من حوادث العراك القذرة. لكن في تلك الإشتباكات التى كان البيض يمارسونها كان الرجال يقومون بتشويه بعضهم البعض بإرادتهم ورغبتهم، وسعياً

للدفاع عن كرامتهم بصورة جزئية. أما العبيد فلا كرامة لهم في عقول السادة، فهم في ثقافة العنف هذه مشاركون بلا إرادة. الأكثر من ذلك، ولكونه حديث التحرر - بوصوله لسن الاستقلال عن والده- كان حساساً بصورة خاصة نحو مشاهد العبودية فيقول: "إن الصور المفزعة لا تزال راسخة بذهنى حتى الآن." وما أدى لصدمته عندئذٍ ما أدركه بأن مأساة الآخرين تبدو في الذين يبقون غير أحرار للأبد.

وعند نهاية الرحلة، وصل دينتون أوفوت إلى درجة من الإعجاب بلنكولن لدرجة أنه عرض عليه وظيفة كاتب المتجر العمومى الذى كان يجري افتتاحه في نيو سالم، فقبل لنكولن العرض فوراً، فالوظيفة ستسمح له بأن يهجر حرفة الفلاحة وقطع الأخشاب وتتيح له فرصاً أكثر في نيوسالم لأنها كمدينة كانت أكبر من أي مجتمع آخر عاش فيه من قبل. كانت تحوي حوالي مائة إنسان، "ودستة" من المنازل والمخازن. كانت تماثل في ضخامتها مدينة شيكاغو عام١٨٣١، وعملت كسوق مركزي للفلاحين الذين يأتونها لبيع حبوبهم وشراء الخمر والمواد التموينية الآخرى،وكانت بها كنيسة ومدرسة وطبيبان. كلهم على مسافات متقاربة، فهى موئل راحة بالنسبة لأبراهام، وبدا أن سكان نيو سالم أكثر تهذيباً من أولئك في بيدجون كريك، كما كان هناك الكثير من الكتب في كل مكان مع قليل من السكارى

والمشاجرات لأنها مازالت تعد مدينة عمرت حديثاً وسرعان ما وجد أبراهام نفسه في خضم عراك آخر.

انتشر الخبر بسرعة عن وصول الفتى الجديد للبلدة. كان جزء من ذلك يرجع إلى ثرثرة أوفوت ومباهاته بحجم وقوة هذا الموظف. وعندما تناهى الخبر إلى جاك أرمسترونج أراد أن يختبره ويهزمه دفاعاً عن مركزه أمام تفاخر أوفوت، إذ كان أرمسترونج قائداً لعصابة محلية في مستوطنة قريبة اسمها كلاري جروف. كان قوياً كالثور متنمراً منتظماً يبحث دوماً عن العراك والقتال. كان- ومعه عصابته- يجتذبون الغرباء للعب "الكوتشينة" ثم يضربونهم ويسلبونهم الأموال، بل هو كان أكثر وضاعة من ذلك إذ اشتهر بقيامه بشي خنزير وهو حي مستمتعاً- بشكل ظاهر- بصرخات آلامه قبل أن يأكله.

كانت تلك التصرفات الوحشية تجاه الحيوانات أمراً سائداً، ومعها حلقات صراع الديكة ونزع رقبة الأوز: "أي فصل رقبة الأوز وهو حيّ بخبطة واحدة"، وتحطيم سلحفاة على جذع شجرة أو قذفها في النار ومشاهدتها تتلوى. كل تلك المشاهدات كانت جزءاً من طبيعة المكان. كان لنكولن قد اعترض كثيراً على تلك التصرفات في منطقة بيدجون كريك بقوله: "إن حياة النملة بالنسبة إلى النملة تعادل حلاوة حياتنا بالنسبة إلينا." وبعكس أرمسترونج، كان قادراً

على التعاطف مع المخلوقات حتى لو كانت مختلفة تماما عنه.

كان لينكولن متردداً في خوض القتال. لكن أوفوت حرضه على ذلك لأنه كان يرغب في كسب بعض النقود من تلك الجولة، فوافق لينكولن لكن بشروطه الخاصة فقط وهي قيام مباراة مصارعة يمسك فيها المرء خصمه شالاً حركته ليمنعه من تحول المصارعة إلى ملاكمة مع منع العض، لكيلا نصل إلى الأسوأ مثل انتزاع مقلة العين أو الإخصاء، والهدف هو طرح الخصم أرضاً حتى تلامس كتفه واحد وركيه الأرض، في حين أراد أرمسترونج مباراة تمتليء بالتدافع والتشابك وتكون أكثر وحشية. لكن لنكولن تمسك بشروطه.

جاء الناس من كل حدب وصوب لمشاهدة المباراة، وتراهنوا بالخمر والمُدى، وراهن أوفوت على كاتبه بعشرة دولارات. كان ميدان المصارعة أمام مخزنه (وهذا يساعد على إنعاش مبيعاته لاشك) . التفتّ الجماهير حول المتصارعين، مُشكلين حلقة، وما حدث بقي- بالفعل- غامضاً، بسبب ضباب الذاكرة وحقيقة أن جمهرة من الناس كانت تتكالب على المشاهدة، جعلت قليلين منهم فقط يتمكنون من الرؤية الواضحة. لكن في لحظة ما كسر أرمسترونج القاعدة وأعلن لينكولن أن ذلك يُعد خطأً، وربما يكون أرمسترونج قد قذف لينكولن بعيداً، وربما يكون لينكولن أمسك بأرمسترونج قابضاً على زوره، وربما حاول رفاق أرمسترونج التكتل



ومهاجمة لنكولن الذى ظل ثابتاً وتحداهم أن يواجههم واحداً واحداً ورفض قتالهم دفعة واحدة. بكل المعايير، كاد أرمسترونج أن يقرّ بخطئه. ثم اتفق الطرفان على إعلان نتيجة المباراة بالتعادل، ولم يُصَبْ أيُ منهما بجراح خطيرة، ولم يخسر أحد أمواله في تلك المنافسة.

كانت تلك الواقعة "نقطة تحول" في حياة الصبي لنكولن، وذلك تبعاً لما ذكره شريك لنكولن في المحاماة مستقبلاً، ووافقه لنكولن على ذلك ضمناً. بعد عدة سنوات، أطلق كاتب سيرته الذاتية على ذلك القتال "أنه واحد من أهم أحداث حياته المبكرة" وقد قرأ لينكولن النسخة الخطية مصححاً أخطاء بعض الوقائع وبعض التفسيرات على هامشها وترك هذه الخُلاصة لواقعة العراك تلك دون مساس بشأن أهميتها. بالطبع، كانت تلك إطلالة على الماضى خلال حملته للحصول على منصب الرئيس، وحتى في ذلك الحين كان لنكولن يتمنى أن يؤدى هذا العراك إلى تحسين موقفه أمام المجتمع. على أية حال، كان عندما وصل إلى هناك تقريباً غريباً تماماً؛ فهو "دخيل، بلا أصدقاء، وغير متعلم، وصبى، ومفلس" وذلك وفقاً لما ذكره بنفسه.

نصّبت تلك المعركة لينكولن قائداً في نيو سالم، واكتسب احترام جاك أرمسترونج وفتية كلاري جروف اذين كانت لهم



سيطرة ونفوذ ولهم شأنهم ، وأعجبوا بقوته وشجاعته وجرأته. بعد أقل من عام - أي في ربيع عام ١٨٣٢- ساعد فتيان كلاري جروف في انتخاب لينكولن كقائد لجماعة متطوعى نيو سالم في فترة حرب الصقر الأسود (البلاك هوك)[5] ، ورغم أن جماعة لنكولن لم تخض أية معارك قتالية- إذ استمرت تلك الحرب ثلاثة أشهر فقط- فقد قام لنكولن بمحاربة البيض بديلاً عن الهنود حيث قام بمصارعة الرجال من الجماعات الآخرى وفاز بكل الجولات عدا جولة واحدة، واتخذه رجاله مثالاً للقائد والمقاتل، وقد كرر لنكولن قوله إن انتخابه كقائد "كان نجاحاً منحَنى السعادة أكثر من أي شيء آخر حصلت عليه." كانت تلك مقولة غير عادية لأنه حين قالها كان شخصاً مشهوراً على المستوى القومي، وخدم دورة كاملة بالفعل في مجلس نواب الولايات المتحدة الأمريكية "الكونجرس" وهزم ستيفن دوجلاس. لكنه فضل أن يحترمه أندا:ه على أن يحترمه غيرهم، فالمقاتلة والقيادة جعلاه زعيماً يؤمَن كرامته داخل المجتمع، مُدعما ثقته وموقداً طموحه، وأثبت الفتَى الجديد في المدينة مكانته.

وفور انتهاء موضوع العراك. واستجابة لتشجيع رجال مدينته، رشح لنكولن نفسه للمجلس التشريعي للولاية ولم تكن لديه خبرة سابقة. لكن تلك كانت سياسة تلك البلدات المتخلفة حيث

[5] زعيم هندي حارب الامريكيين في ١٨٣١ – المترجم

تضيف أنباء الشجار والسُكْر نسيجاً حياً لمجالات النقاش، ورشح نفسه ببرنامج ينصّ على تحسين الملاحة على نهر سنجا مون أملاً في زيادة نمو مدينة نيو سالم وفرص تجارتها. وكان يقول أنه مؤهل بصورة فريدة لمناقشة ما يتعلق بالنهر لأنه يعرفه جيداً، ومر بكارثة كبيرة على سطحه في وقتٍ ما ويمكنه مخاطبة السلطات بشأن سُبل تطويره.

كما أكد لنكولن على أهمية التعليم كوسيلة للتطهر من رزايا تلك البلدات المتخلفة عند أطراف الغابات رغم أنه لم يكن يملك خطة محددة لتحقيق ذلك حيث قال في نشرة دعائية انتخابية- طبعها وكتبها مجهول من أجله:" إنني أود رؤية التعليم-ومعه بحكم الارتباط الأخلاق والوعي - والاستثمار والصناعة وقد أصبح أكثر انتشاراً مما هو عليه الآن! . .إن ذلك أكثر الموضوعات أهمية يجب علينا أن نعمل عليه كبشر. .(إذ كان طموحه أن يكون) محترماً أمام رفاقه."

لقد جلبت له معركته مع أرمسترونج بعضاً من التقدير وأضحى يأمل حينذاك في أن يضيف إلى ذلك نوعاً جديداً من الانتصار. لكنه خسر تلك الجولة رغم حصوله على أغلبية كبيرة من الأصوات في دائرة نيو سالم الانتخابية. ومن الواضح أن صداقة لنكولن وأرمسترونج تطورت سريعاً، حيث أسفرت مهاراته وقدراته القتالية وميل أرمسترونج للإقرار بخطئه نحو صديقه عن الاحترام والتقدير

المتبادل، ولو استجاب لنكولن لتحدي أرمسترونج في البداية بملاكمته وتشويه وجهه، وهو ما كان محتملاً حدوثه، لوقع في مخاطرة إهانة أرمسترونج ولاكتسبه عدواً أبدياً له، وكما هو متوقع استضافه أرمسترونج في بيته ومنحه "طعاماً وكساءً" بعد العراك وأدى الخدمة كضابط صف في جماعة لنكولن أثناء حرب الصقر الأسود.

تواصلت صداقتهما لعدة عقود، وأرمسترونج يقدم الدعم والتأييد لمسيرة لنكولن السياسية في حين قام الأخير بتوفير مساعدات حاسمة لأسرة أرمسترونج. ففي عام ١٨٥٧ حينما اتهم "دوف" ابن أرمسترونج بجريمة قتل، هب لنكولن لإنقاذه. فقد خرج دوف- فظاً كوالده- ذات ليلة يلهو مع صديقين له، فنشبت بينهم مشاجرة، وهنا قام دوف وصديقه بتهشيم رأس صديقهما الثالث، ومات الأخير بعد أيام قليلة من الواقعة. كان عدد من الناس قد شاهدوا عملية القتل، وتمت إدانة ما فعله شريك دوف (الذى قدم للمحاكمة أولاً بتهمة القتل العمد وحكم عليه بالسجن ثماني سنوات. وباعتبار لنكولن محامياً شهيراً أنذاك بولاية إلينوى، فقد وافق على الدفاع عن دوف، وتوصل إلى استخلاص ثغرات في شهادة الشهود مع التأكيد على طيبة وصلاح أسرة أرمسترونج حيث كانوا "طيبين معه حينما كان صغيراً وحيداً بلا أصدقاء." هكذا قال لهيئة المحلفين. من هنا رأوا أن دوف ليس مذنباً وأطلق سراحه

رغم الأدلة الوثيقة ضده، بما فيها سلاح الجريمة الذى صنعه بيديه، وكان عبارة عن كرة من الرصاص تقذف بواسطة شريط من الجلد يسمى "مقلاع بحبل" وقد علق وكيل النيابة على ذلك بقوله: "إن أرمسترونج الصغير لم يبرأ بسبب أي نقص في الشهادة ضده وإنما كانت مرافعة لنكولن وقبول هيئة المحلفين هما ما أنقذاه فعلاً. لم يتقاضَ لنكولن أية أتعاب عن ذلك من أسرة أرمسترونج، واستطاعة الصداقة والوفاء أن يُبرءا قاتلاً.

علم عراك لنكولن ثم الصداقة الناشئة مع جاك أرمسترونج درساً مثل مبدأً أساسياً في عمله. نجده يقول عن ذلك بعد عدة سنوات تالية من الواقعة: "إذا أردت أن تكسب امرءاً ما في جانبك، أقنعه أولاً أنك صديق مخلص ... قم بالتراضي مع عدوك حتى تصلا لنقطة ما. عندها ثبت قدمَك بالأرض وابدأ القتال!"وفي حين كان لنكولن على استعداد للتضحية بالمبادىء في سبيل الصداقة، كان الصبي فريدريك بيلى يتعلم درساً آخر شديد الاختلاف من عراكه مع كوفي، يقول: "لا تصادق - عمرك-عدواً ما لم ينتقل إلى جانبك أولاً لأن الصداقة تعتمد دوماً على القضايا والمبادىء المشتركة، وسوف يقوم كلاهما- لنكولن وفريدريك - بتطبيق تلك المبادىء خلال سنوات الاختبار في الحرب الأهلية.

لم يقم للنكولن أبداً بعقد علاقة وثيقة بوالده. إذ بعد انتقاله إلى نيو سالم لم يراه إلا نادراً رغم أن والده توماس كان يعيش على مقربة من المدينة. ذلك لأنه لم يستطع أن يكسب صداقة والده كما لم يستطع أن يحوله إلى صفه في قضايا التعليم والتهذيب، حيث ظل توماس- في ذهنه- سيدا سابقاً وشخصا حاول وقف تقدمه. من هنا حافظ على المسافة التى بينهما رغم أنه قام بتوفير احتياجاته عندما كبر في السن. حقيقة، لم يحضر جنازة والده، فقد كتب عام١٨٥١ ووالده يحتضر:"لو أمكننا أن نلتقي الآن، يملأني الشك حول ما سيكون عليه اللقاء، سيكون مؤلماً أكثر منه مُبهجا ."كان دائما ما يربط بين والده وبين ذكريات العمل اليدوي الشاق، والجهل والقيود التى من الأفضل أن تمضى في طي النسيان.

***

في المجتمعات التى تفرخ فتياناً مثل فريدريك بيلي وأبراهام لنكولن نجد قاموساً من الاستفزازت اللفظية وعالما من الكلمات التى لا تقل عن كلمتيّ العراك والسُكر. ففى محاولة أدبية له نجد أحد السادة - بعد ما استعاد عبده الذى حاول الهرب مرتين وقبل عقابه- يطلب أن يعرف سبب محاولة العبد الهرب. ورغم أنه يحمل له مشاعر متعاطفة ويعامله بطيبة وإنسانية وينتظر اعتذاراً عن ذلك، لا يقول

العبد سوى "إنني أستسلم لقدري، فأنا عبدٌ! !" تلك الإجابة الساخرة تُشعل جدلاً حول مدى أخلاقية العبودية.

السيد : في النظام الإلهي ينبغي أن يكون الإنسان مسخراً لآخَر. كان الأمر كذلك أبداً وسيظل.

العبد: إن اللص الذى يوجه مسدساً نحو صدرك، يلتمس لنفسه ذات العذر، فالإرادة الإلهية تمنحه القوة للسيطرة على حياتك وعلى ما تملك، وهى توفر لأعدائى– كذلك– سيطرة على حريتي. لكنها منحتنى أقداماً كي أهرب بها.

السيد: لكن وقر في نفسي ليس فقط أن أجعل حياتك مريحة لدرجةٍ محتملة في الوقت الحاضر، ولكن أيضاً أن أوفر لك أسباب المعيشة عند كبر السن.

العبد: هل حياة كالتي أحياها تستحق أن أفكر فيها عند الشيخوخة؟ لا، فحالما تنتهى، سوف أحصل على الراحة التى تتطلع إليها روحى.

وفي كل جولة، كان العبد يدافع عن نفسه ببراعة مستعرضاً عنف ووحشية العبودية، وعند فوزه بالمحاجاة يفوز بحريته.

لقد اكتشف كلٌ من الصبي أبراهام والصبي فردريك ذلك "الحوار" في نفس الوقت– فيما بين عامى ١٨٣٠و١٨٣١– وقد تبدى ذلك في كتاب "الخطيب الكولومبي" وهو دليل موجه إلى "القاريء الشعبي:



وتعليم المهارة الخطابية معدة للصغار" جمعها مربىّ ماساتشوستس الأشهر كالب بنجهام. كان ذلك الكتاب من أكثر الكتب شعبية في تلك الأمة الجديدة. وقد طبع منه ما بين الأعوام ١٧٩٧ حتى عام ١٨٦٠ حوالى ٢٣ إصدارا وكان يعدّ في كل المنازل الأمريكية واحدا من الكتب الأساسية بالإضافة للكتاب المقدس، وكتاب للتهجي، وآخرَ للتقويم الزراعي. كان كتاب الخطيب في مادته كتاباً راديكاليا، لأنه استخدم القصص والخطب والشعر لتعليم الصبية أن كل الناس قد خلقوا متساوين ولهم حقوق لا يمكن التنازل عنها في الحياة والحرية والسعادة، وكان- لذلك- يُعدّ كتاباً ثورياً راديكالياً. وفي الواقع فإنه خلال التسعينات من القرن التاسع عشر "١٨٥٠!!!"وفي ذروة أزمة العبودية، شملته معظم جرائد وصحف الجنوب ضمن قائمة سوداء للكتب الممنوعة، وحظرت وجوده في المنازل والمدارس في الجنوب الأمريكى بحزم.

اكتشف فردريك بيلى "الخطيب الكولومبي" ذات يوم وهو صبي في الثانية عشرة من عمره في حوض بالتيمور لبناء السفن. كان قد سمع عنه من أحد الفتيان البيض الذين التقى بهم في الشوارع أثناء قضائه "مشاويره" من أجل صوفيا وهيو أولد. وكان يعلم بالفعل أن الكلمات يمكن أن تكون سلاحاً خاصة وأن صوفيا أولد قد أعطته دروساً منتظمة للقراءة إلى أن اكتشف زوجها ذلك فأوقفها، حيث

قال إن "المعرفة لا تناسب طفلاً سيكون عبداً. عندها فكر فردريك في نفسه: "حسناً!" لسوف يحصل على المعرفة بنفسه في شوارع بالتيموركان يسأل الصبية البيض عن دروس التهجي مُقَدِماً لهم قطع البسكويت مقابل الكلمات، وكانوا يمارسون دروس هجائهم وكتاباتهم على سلالم الأبواب وبراميل الدقيق، بل أحياناً كان يجعل الفتيان البيض يتعاطفون مع مأساته، عندما كان يقول لهم "إنكم سيصبحون أحراراً عندما يبلغ الواحد منكم عمر الواحد والعشرين ويمكنكم عندئذٍ الذهاب لأي مكان تشاءون، ولكنني . . . .عبد". كانوا يوافقونه على أنه يملك نفس الحق في أن يكون حراً مثلما يملكون. كانوا يشجعونه على القراءة، وعرّفوه بكتاب"الخطيب الكولومبي" الذى كانوا يدرسونه آنذاك، وذهب فردريك إلى محل لبيع الكتب بشارع توماس يملكه السيد نايت (وكان دائماً مايذكر المحل) واشترى نسخة بخمسين سنتاً كان قد اكتسبها سراً بتلميع القوارب.

كان ذلك الكتاب "كنزاً ثميناً"بالفعل كما قال، وقام بقراءته كلما استطاع وأخفاه في عِلِيةِ المطبخ حيثما كان ينام. كان يحفظ عن ظهر قلب الحوار بين "السيد والعبد"، وكانت له بعض الموضوعات الأخرى المفضلة كذلك مثل "خطاب في تحرير أيرلندا" الذي كتبه دانييل أوكونيل، وخطاب رجل الدولة لوليام بيت وهو يمجد

الاستقلال الأمريكي في مجلس اللوردات الإنجليزى. وتوجد فردريك مع الأبطال، فقد تخيل نفسه العبد الذى شق طريقه متحررا من القيود ليصبح الآن "أوكونيل" الأسود أو "بيت" الذى يقف في مجلس النواب الأمريكى "الكونجرس" لتأكيد الحرية للجميع . لم يؤدِ الكتاب لتحسين مفرداته اللفظية فقط وإنما مكنه من أن "يمنح لساناً" لأفكاره تلك التى "كثيراً ما التمعت عبر روحي، ثم تلاشت لافتقارها إلى اللفظ." ساعده الكتاب على تخيل عالم جديد خلال الكلمات أثناء قتاله بقبضات يديه وأقدامه، وساعده على التحدث مع "كمسارى القطار" بصوت هادئ مطمئن كما أوصاه بنجهام وهو يهرب نحو الشمال في قطار الحرية.

كان الصبى أبراهام قد قرأ كتاب "الخطيب الكولومبي" خلال شتاء ١٨٣١م، بعد شهور من واقعة عراك جاك أرمسترونج، وكان نهماً للمعرفة مثل فردريك، وكان ذلك الكتاب واحداً من الكتب القليلة التى قرأها خلال فترات تكوينه الأولى بالإضافة لكتاب آخر هو الكتاب المقدس وكتاب أو كتابين آخرين. كان يقرأ بعمق مثل فردريك لساعات طويلة ويتذكر كثيراً مما قرأه. لما كان الأمر هكذا، لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يرى في نص "حوار بين السيد والعبد" بعضاً من مظاهر علاقته بوالده، وتعلم من بنجهام كيف ينسجم مع نفسه في الحالات الحرجة مثل لحظة مواجهته لأرمسترونج

وتحديده لخطئه.

كان كتاب "الخطيب الكولومبي" هاماً بالنسبة لفردريك ولأبراهام بوجه خاص لأنهما عَلما نفسيهما ولأن الكتاب كان دليلاً ممتازا للإعتماد على النفس في تعلم التحدث والجدل . فلم تكن هناك مدارس للعبيد كما أن فردريك مُنِعَ من القراءة بعدما اكتشف هيو أولد مساعدة زوجته لفردريك في تعليم نفسه. كذلك كان على لينكولن أن يتعلم نفسه بنفسه ،لأنه حُرِمَ من الالتحاق بالتعليم الرسمي بسبب نقص المدارس والمعلمين المؤهلين ولأن والده كان دائما ما يؤجره نظير مقابل مادى، وعندما وصل لمدينة نيو سالم كان لا يزال غارقاً في جهله. يقول عن هذا: "لم أكن أعرف كثيرا ." كان كل مايعرفه تعليماً يكافيء الصف الثامن (الآن) .

لم يمكن ذلك الكتاب كلاً من لينكولن وفردريك دوجلاس من أن يتخيلا عوالم جديدة فحسب وإنما علمهما كذلك مخاطبة العامة،

ويعنى ذلك أنهما تعلما كيف يخفيان حركات الجهلة وطرق كلامهم التى اكتسباها من قبل. فالقادة الديموقراطيون ينتظر منهم أن يكونوا ديمقراطيين حقيقيين وسلوكهم راقياً لكن بدون مبالغة مثل الرجال المهذبين لكن ليس كأرستوقراطيين. لقد وصف كالب بنجهام لقرائه كيف يقومون بهذه العمل البارع ، وكان النطق السليم مسألة حساسة لها نفس أهمية لهجة الحديث وأساليب تأكيده وإيقاع

الكلام. وفي هذه النقاط أثبت الكتاب قيمته التى لاتقدر بالنسبة إليهما لأنهما بدوان في عام ١٨٣٠ كريفيين جاهلين، ففى عالم "أبراهام" تجد ألفاظاً مثل(الفاكهة تبوظ)،(الناس بتجيب الحاجة من الغابة)، و(انت لازم تتعلم لازم) أو (البعوض كثيف زىّ الشجر في الوادي)، وتبدو إحدى قصائد لينكولن المبكرة بذلك الاسلوب:

أبراهام لينكرن.
بشحمه ولحمه.
هاتحسن أحواله
وربنا يعلم امتى

ومن السهل -أيضاً- اعادة بناء لهجة فردريك لأنه كان في حروف قليلة خاصة به يستثير شيئاً ما من نفسه كصبي صغير يعيش على الشاطئ الشرقي حيث يقول :

كنت هاطرد أبويا وأنا كان مزاجى متعكر دي حقيقة!!
كل الغلط عندهم إنك تجيب حاجة للزنوج ياكلوها[6] !!!

بالنسبة لبنجهام- الذى تعلم في دارتموث- كانت تلك الكلمات تمثل أصوات الغباء وليست لرجال سيكونون عظماء .لكن صِبْيَة قرى ما وراء الغابات ما كان للأمل أن يتسرب من بين أيديهم، لأن

[6] يذكر المؤلف كلمات بالعامية الريفية الأمريكية يصعب نقلها للعربية صوتا وأحاول هنا كتابتها بالعامية المصرية ليستبين هدفه.

كتابه علمهم كيف يتكلمون كالزعماء الديموقراطيين كيما تؤدى خطبهم إلى تحسين طبيعتهم، كما هو متوقع من تأثير اللغة وقد تصبح كتب مثل "الخطيب الكولومبي"أكثر أهمية من المصارعة بالنسبة لفردريك بيلى دوجلاس ولأبراهام لينكولن، وما تزال قوتهما ومهارتهما كمقاتلين لا تحتاج إلى الظهور في اللعب، إذ لو كانو ضعافاً رعاديد لما استطاعوا النهوض وسط عالمهما المتوحش ، ولفقدا الثقة في نفسيهما وتقدير الذات الضروريين لإعادة بناء نفسيهما، فعبر المقاتلة تمكنا من الدفاع عن وجودهما وعن شرفهما، وقد يحتاجان إلى تعلم كيف يصبحان رجلين ديموقراطيين مهذبين.



الفصل الثاني

خطيبٌ مُطارَد . . وسياسيٌّ ريفي

" لأن معركة الحرية قد بدأت مرة ،
إذ أورثها الجدُ النازفُ دماً لابنه ،
ورغم تعثرها إلا أنها غالباً ما تُكســـب . "
لورد بايرون[7] من قصيدته " المرتد "

" من أجل هذا وذاك ، فسيأتي حتماً من أجل ذاك،
فهذا الإنسان للإنسان، (بعد انتهاء العالم)
سيكونون أخوة من أجل ذاك . "
روبيرت بيرنز[8]
من قصيدته "هناك من أجل الفقر الحقيقي"

---

[7] لورد بايرون شاعر إنجليزي سبقت الإشارة إليه.
[8] روبيرت بيرنز شاعر إسكتلندي ولد بألوواي عام ١٧٥٩ ومات صغيراً عن عمر يناهز ٣٨ سنة عام ١٧٩٦.



عندما وصل فردريك إلى مدينة نيويورك في الرابع من ديسمبر ١٨٣٨م ، تبخرت آمال الحرية فجأة ، وشعر كأنه كان يشاهد حريقاً كبيراً انطلق لهبه خارجاً عن السيطرة ليلتهم كل ما يحيط به مخلفاً كل شيء رماداً، ليضحي أثراً بعد عين خلال يقظته. وكان يتذكر ذلك فيتمتم: "تملكني شعورٌ بالوحدة وعدم الأمان وقهرني حزناً." كانْ وحيداً تماماً في مكان غريب بلا نقود أو طعام وبلا أحد يلجأ إليه طلباً للمعونة، ويكمل: "كنت وسط آلاف من رفاقي، إلا أنني بقيت وحيداً كلية."

بدت نيويورك كمتاهة من الشوارع وخليط من أصوات ألسنة غريبة. كانت أكبر مدينة في البلاد تصل أعداد سكانها إلى ٣٥٠٠٠٠ نسمة، وقد امتلأت الأرصفة بالناس الذين شكلوا تركيبة فريدة من ألوان القبعات والمعاطف. وازدحمت الشوارع بسيارات الأجرة، والعربات الخاصة، والخنازير"وجامعي قمامة المدينة الذين كانوا يتابعون وراء العربات والمارة كما لو كانوا يرغبون في التعارف. حتى الهواء بدا مختلفاً، وكانت رائحته ممتزجة بالروث والعطر وروائح الأجسام والطعام المتعفن، وكان كل وجه يبدو له خصماً، حيث اعتاد فردريك أن ينظر للبيض الذين لا يعرفهم كأعداء وللسود الغرباء على أنهم "كانوا بدرجة أو بأخرى خاضعين للبيض." لكنه

كان أكثر خوفاً من أولئك النيويوركيين وهم يتدافعون إلى الأمام وإلى الخلف من خوفه من مجموعة من الذئاب الجائعة.

وقد أشعلت مقابلة جرت صدفة مع واحد ممن يعرفهم من السود مخاوفه. فبعد التجوال بالشوارع لعدة ساعات التقى فردريك بجيك- وهو عبدٌ من بالتيمور مُطارَدٌ الآن- ويعمل "غسّالا" ومن النوع الذي تهزمه شكوكه، وكاد سيده السابق يستعيد أسره تقريباً. حذره جيك أن المدينة تمتلىء بأثرياء الجنوب الذين يقضون فيها إجازاتهم وأن السود على استعداد للوشاية به لدى صائدي العبيد الهاربين مقابل حفنة دولارات بقوله: "لا تثق بأحد، ولا تفكر في الذهاب إلى أرصفة الموانىء للعمل أو حتى الذهاب إلى نزل الضيافة للمبيت، وإلا سيتم القبض عليك!" رفض جيك أن يساعد فردريك أو حتى أن يرشده إلى مكان آخر يطلب فيه المساعدة، وقد تشكك - فعلا- في أن يكون فردريك مأجوراً لصائدي العبيد، فاختفى بعدها وسط الجماهير فورا.

لم تكن مخاوف جيك، رغم المبالغة فيها، دون أساس لأن النيويوركيين أصبحوا أثرياء بفضل عبيد الجنوب والقطن معاً، ولأن المدينة كانت عملياً ملحقاً من ملحقات الجنوب إذ كان لتجار نيويورك علاقات تجارية ممتدة ومربحة مع التجار جنوب خط ماسون وديكسون. هذا ما ذكره أحد قاطني جنوب ولاية كارولينا ممن



استوطنوا نيويورك بعد ذلك. كان بعض رجال المدينة من البيض الأكثر احتراماً قد أملوا في تمديد مناطق العبودية وإبادة الأحرار ودعاة إلغاء الرق من أجل تحسين التجارة وزيادة أرباحهم. وبالتالى كان لابد أن يبقى العدد المتزايد من الهاربين السود إلى المدينة تحت المراقبة المستمرة لسادتهم أو لصيادي العبيد .

كما عاش البيض أيضاً في حالة دائمة من الخوف، لأن فترة من أسوء فترات الكساد في التاريخ الأمريكى كانت قد بدأت قبل ذلك بعام ، ففي مايو ١٨٣٧ انهارت الأسعار بعد سنوات من الائتمان السهل ، وتوقفت البنوك عن الدفع بواسطة الذهب والفضة لتبقى في السوق. كانت المدن والبلدات بالشمال الشرقي قد ضربها الانهيار الاقتصادي بشدة بصورة خاصة فاقم تباين الثروة القائم فعلاً بنيويورك. وقد هوت تلك الأوقات الصعبة بعائلات الطبقة المتوسطة إلى الفقر والإفلاس، وأشعلت المخاوف من نشوب التدمير والشغب. لقد وصل فردريك إلى مدينة تترنح تحت وطأة البطالة الحاشدة، إذ كان حوالي ثلث عمال المدينة قد فقدوا وظائفهم. أما أولئك الذين حظوا بالاستمرار في العمل فقد رأوا أجورهم تنخفض بنحو ٣٠٪ .شبه الناس ذلك الوضع "بإغلاق القفص على طائر بري" أو كارثة طبيعية، "فقد استيقظ الناس من أحلام رائعة وسط دمار وخراب، حيث تبدد حصاد السنين في يوم واحد . " لم يكن

هذا وقتاً ملائماً لوصول المرء إلى المدينة مفلساً وباحثاً عن عمل. وبنهاية يومه الأول في نيويورك، نام فردريك بين بعض البراميل الملقاة على رصيف الميناء، ومع خوفه المتنامي وجوعه وإحساسه بالعجز بمرور الوقت، خاصة وقد استيقظ عدة مرات، أدرك فجأة السبب في عدم فرار المزيد من العبيد، لأن عالمهم الذى يعرفونه من عائلاتهم وأصدقائهم وشوارعهم المعتادة، مهما كانت سيئا، أفضل كثيراً من احتمالات الانفصال الدائم اللذين ينهشان فيك كالجوع. لم يفهم فردريك السبب في أن العبيد اختاروا العودة للأسر بعد نجاحهم في الفرار شمالاً أبداً. من قبل إلا أنه الآن أدرك أنهم فضلوا "الحكم الحقيقي لسادتهم بدلاً من حياة العزلة والخوف والجوع والقلق التى تقابلهم عند وصولهم لأول مرة إلى ولاية حرة." لو أن تلك هي الحرية فربما لا تكون العبودية سيئة مقارنة بهذه الأحوال. هذا مافكر فيه ساعتها :"كنت بالفعل حراً – من العبودية – لكن بلا طعام ولامأوى أيضاً."

ربما يكون فردريك قد مال للعودة فعلاً لولا إدراكه لحقيقة حسمت الامر؛ أنه كان مرتبطاً بالزواج، وخطيبته كانت متأهبة للحضور إليه فور استدعائها.

كان اسمها أنا موراى، وكانت امرأة حرة. وُلدتْ حرة على الشاطيء الشرقي لماري لاند، ذات عينين بلون اللوز ووجه مستدير

وبشرة سمراء . كانت تعمل خادمة لعائلة ويلز بشارع كارولينا في بالتيمور . كانت في الخامسة والعشرين من عمرها ، أكبر من فردريك بخمسة أعوام وقد انتقلت إلى بالتيمور في السابعة عشر من عمرها . كانت هادئة مجدة في عملها ، وأمية عملياً لكنها تستطيع قراءة نوتة الموسيقى، وعندما كانت تعزف مقطوعة هايدن أو لحن هاندل على "كمانها"، يبدو ترنيمها آسراً لمن حولها . وقد علمت فردريك العزف على الكمان، وكان سريع التعلم وسرعان ما أصبحا "ثنائياً –دويتو– موسيقياً" . كان بمقدورها كذلك أن تستغل كل قرش أكثر من أي شخص آخر قابله فردريك . رغم أنه لم يقل عنها الكثير إلا أن أنا موراي كانت مسئولة– إلى حد ما– عنه وعن تمتعه بحريته وعن صناعته لنفسه.

لقد اشترى تذكرة قطار من مال آنا على خط سكة حديد بالتيمور/ أوهايو، وهو ذات المال الذى اشترى به قميصاً أحمر وربطة عنق سوداء وقبعة مانعة للماء مما جعله يشبه البحارة، كما أن نقود آنا هى التي وصلت ليد أحد الأصدقاء الذى يشبه فردريك مقابل الحصول على تصريح مرور يحميه. وفور عودته إلى بالتيمور في أواخر عام ١٨٣٦، تفاخر فردريك بذلك قائلاً إنه بالنقود تمكن من تدبير مسألة فراره بيسر وسهولة؛ فنقود آنا مقترنة باستقلالها كامرأة حرة جعلا هروبه ممكناً . غير أن فردريك أهمل تماماً دور آنا في

مساعدته، سواء في وقتها أم في مذكراته حول ذلك الحدث، حيث كان إقراره بذلك يمحو صورته كرجل صنع نفسه بنفسه، وكنموذج للأمريكي الأفريقي لدرجة أنه حينذاك. في أوائل أيام حريته، بدأ فعلا في تثقيف نفسه، حيث يقول في أحد خطاباته لصديق مقرب بعد وصوله إلى نيويورك أنه "يشعر كإنسان آخذ في الهروب من وكر الأسود الجائعة" وهي صورة شائعة للمقاتل الوحيد أو الامريكي المنفرد وهو يقاتل عدوا متوحشا ويخرج منتصرا. كان يشارك في ارساء تقاليد الرجال العصاميين من بن فرانكلين وناتي بومبو، ثم عبر لنكولن صعودا حتى مالكولم إكس. تلك التقاليد التي أغفلت دور الزوجات والنساء في تحقيق نجاحات الرجال، وما جعل وضع فردريك فريدا هو أنه أرسى تقاليد العصامي الأمريكي الأسود.

كان فردريك وآنا قد تقابلا في نادٍ ثقافي يسمى "جمعية بالتيمور للتقدم الفكري" حيث كان الطموحون من السود الأحرار من عمال بناء الميناء يتقابلون لشحذ مهاراتهم الخطابية وسماع المحاضرات، وهو أساسا نادٍ للرجال تقام فيه أيضا حفلات محترمة حيث يمكن للنساء والرجال التقابل والتواد فيها .شعر فردريك بحسن حظه لقبوله بالجمعية، لأن السود الأحرار في بالتيمور كانوا يميلون للاحتفاظ بأنفسهم كعبيد مستبعدين ومنبوذين بقدر ما كان المجتمع الذي يقطنه البيض مقسما وفق أسس طبقية . لعب فردريك دورا بارزا في

المناقشات الدائرة داخل ذلك المجتمع، مُقدِماً الكثير من الإرشادات بشأن الخطابة العامة التى استقاها من كتاب "الخطيب الكولومبي" في حين أخذ يتعلم كيف يقلد ساخراً مالكي العبيد . وخلال تودده لآنا، وبحضور تلك الاجتماعات، حلقت ثقته في علياتها، وذات ليلة بعدما انتصر في إحدى المناقشات تمادى إلى حد أن تفاخر بأنه لن يتوقف عن الصعود حتى يصل إلى مقعد عضو مجلس نواب الولايات المتحدة. كان ذلك تصريحاً ثورياً صادراً عن عبد يعكس تأثير آنا والجمعية عليه معاً .

هل كان فردريك يحب آنا ؟ ذلك يعتمد على نظرتك للحب. بالنظر إلى طموحه، لم يستطع فردريك تمييز مشاعره نحو آنا عن قدرتها على مساعدته في تحقيق أحلامه، ولم يتمكن من فصلها عما تمثله . فمعها حصل على المال ووصل لإلى مجالات ومظاهر الاحترام الأخرى مثل استخدام أدوات المائدة، والفضيات، والمفارش والسلوك المهذب وفراشين محشوين بالريش،باعت أحدهما لتساعد في سداد تكاليف هروبه.والأكثر من ذلك، وباعتبارها امرأة حرة، فإن أي أطفال تنجبهم سيكونون أحراراً بغض النظر عن وضعه هو. وهي كامرأة مدبرة- حيث كانت تعمل كمدبرة منزل- استطاعت آنا تمكينه من تكريس كل طاقاته من أجل عمله. وبالنسبة لعبد كبر ونما وهو ينام فوق الألواح الخشبية الخشنة والأرضيات القذرة

والمراتب الرفيعة "المكلكعة"، ويبحث - غالباً- عن طعامه بين النفايات، بدت آنّا مهيبة و"بعيدة المنال". لابد أن فردريك قد أصابه الذهول عندما وافقت على الزواج منه، فعندما حظي حبه بالقبول والتبادل، وسّع من دائرة الفرص المتاحة، فالحب والفرصة محال فك رباطهما .

مع وجود آنّا مستعدة للسفر إلى نيويورك حالما يدعوها فردريك، كان لديه حافز يدفعه لأن يتحمل الوحدة والتشرد حتى يجد مأوى آمناً ويستطيع عندئذٍ أن يطلبها . هام في الشوارع عدة أيام قليلة باحثاً بإصرارعن وجه متعاطفٍ يستمع لأزمته ويقدم المساعدة، حيث وجده في بحار اسمه ستيوارت كان قد لاحظ هيئة فردريك كبحار، وكان لقاؤه أشبه بصداقة قامت على الصدفة.

كان ستيوارت قد شاهد فردريك واقفاً على رصيف الطريق المقابل بالقرب من سجن المدينة المسمى "تومبز" فمضى ستيوارت نحوه، وأطلق فردريك ملحوظة تجاهه، وبدأ ستيوارت "يهتم بى". بعدها قضى فردريك تلك الليلة بمنزل ستيوارت المتواضع، وبالطبع، شارك صديقه الجديد فراشه كما كانت العادة. نبعت تلك الصداقة بالصدفة من التعاطف أكثر مما نبعت من أى رغبةٍ في الجنس. بيد أن ستيوارت رافق- في اليوم التالي- فردريك إلى منزل دافيد راجلز وهو صحفي أسود حر وناشط اجتماعى كان يرأس نفق سكك



حديد نيويورك الذى يؤوى مئات من الهاربين الجدد ويساعدهم على الاستقرار في المجتمعات الشمالية حيث يتمكنون من الحصول على عمل .

من منزل راجلز، كتب فردريك إلى آنّا أنه أصبح آمناً في نيويورك وأن عليها أن تأتى في الحال، وأعدت هى ترتيبات شحن أثاثها وفراشها، وقامت بحزم كمانها وبعض النوتات الموسيقية لصمويل داير ورويل شو ومجموعة من مؤلفى كتب الترانيم ورداء حريرى ملون معد للزواج ، ووصلت نيويورك خلال أيام قليلة. كان فردريك قد أعدّبذلة سوداء من أجل الزواج، وقد تجعدت الآن بسبب تكومها في حقيبته الجلدية بجوار كتابه المفضل. وتزوجا في منزل اجلز يوم ١٥ سبتمبر ١٨٣٨ بعد ١١ يوماً من فرار فردريك. وقام جيمس بنينجتون- وهو هارب آخر من الشاطىء الشرقي كان قد تم ترسيمه كاهناً حديثاً- برئاسة الاحتفال وكتب شهادة الزواج معلناً أنه "قد جمع معاً في زواج مقدس كلاً من فردريك جونسون وآنّا موراى زوجا وزوجة."

وبناءً على نصيحة راجلز، انتقلا إلى نيوبيد فورد بولاية ماساتشوسيتس التى كانت مركزاً لصيد الحيتان، وهى مكان مثالى للعبيد ولعمله في سدذ ثقوب السفن بالقطران. قطنا شقة صغيرة مكونة من غرفتين تقع في شارع إلم على مقربة من الميناء، حيث

ذكرتهما الطرقات المرصوفة وصفوف المنازل وأثاث آنّا عن بعد بمنطقة فيلزبوينت وهي منطقة أحواض بناء السفن بالتيمور حيث تقابلا أول مرة. كانت آنّا حاملاً – الآن – بطفلها الأول، وجاء أنثى أسموها روزيتا، وقد أدى ذلك لانتشار شائعات بأنها حملت خارج رباط الزواج. لكنهما تزوجا رسمياً– وهو أمرٌ محظورٌ على العبيد– واتخذا اسمين جديدين، السيد والسيدة فردريك دوجلاس، لأن فردريك هجر اسم "جونسون" بعدما أخبره جاره الجديد بنيو بيد فور– وكان اسمه ناثان جونسون– أن المدينة مُتخمةٌ باسم "جونسون" واقترح لقب دوجلاس بدلاً لذلك. كان ناثان آنذاك يقرأ رائعة السير والتر سكوت "سيدة البحيرة" وتأثر بشدة بشجاعة البطل، واسمه دوجلاس، فأوصى فردريك باتخاذه لقباً. ووافق الأخير على الاسم الجديد رغم أنه لم يقرأ ماكتب سكوت ولم يكن يعرف حتى كيفية تهجي اسمه، لكنه كان معتاداً على شارع دوجلاسّ ببالتيمور. لذا أضاف حرف "س آخر"إلى نهاية اسمه واسم آنّا.

من بداية زواجهما الذى دام أربعة وأربعين عاماً، عاش فردريك وزوجته أجواءً منفصلة تماماً حيث ظلت آنّا تعتنى بالمنزل من أجل فردريك وتُدبر بيوتات العائلات الأخرى عندما يحتاجان إلى دخل زائد. أما الأمر الوحيد الذى جمعهما معاً فكان أطفالهما وحبهما

للعزف على ألة الكمان، فآنّا لم تتعلم أبداً كيف تقرأ؛ وفردريك فضل القراءة على عزف الكمان والعناية بالأطفال عندما لا يكون مشغولاً بالعمل، حيث بقيت هى أسرية الهوى بينما تطور هو من عامل يومي إلى خطيب وكاتب وصحفي وسياسي. كان يسمي آنّا "رفيقه المساعد" دون الإشارة إلى الطرق التى عاونته بها مطلقاً . إلى حين، أصبحت شخصية آنّا"مندمجة في شخصية زوجها ."هكذا كانا يصفان حبهما .

***

كان دوجلاس جاهلاً تماماً بشئون المجتمع الشمالي إذ لم يفده كتاب"الخطيب الكولومبي"بشيء تقريباً في تحريره من أفكار مجتمع الجنوب نحو العمل الحر، حيث نشأ يؤمن بأن العبودية هى مصادر كل ثروة لأن البيض الذين لم يمتلكوا عبيداً كانوا"نفاية بيضاء بائسة" كما دعاهم مرة، وأن بيض الشمال كانوا– لذلك– معدمين وجاهلين ويتميزون بالوضاعة. لكن بيدفورد تخطت محنة الاضطراب المالي بفضل تجارتها في الحيتان، ولأنه لاحظ أن السود من أمثال ناثان جونسون امتلكوا كثيراً من الكتب وعملوا بجد"أكثر من تسعة أعشار كل مالكي العبيد في مقاطعة تالبوت بماري لاند " .

ذهب في اليوم الثالث من وصوله لنيوبيد فورد إلى أرصفة الميناء بحثاً عن عمل. وكانت وظيفته الأولى كعامل حر هى تحميل براميل

زيت الحيتان فوق القوارب. كان عملاً قذراً وصعباً لكنه"استغرق فيه بقلب فرح وإقبال نشط"حيث لم يكن ينتظر سيداً ليستولي على مكسبه في نهاية الأسبوع، ولأول مرة في حياته لم يحتج إلى الاعتماد على "سيد"أو صديق أو زوجة كيما يشعر باستقلاله، وهو يتذكر ذلك بقوله:"اعتبرتُ عملي ذلك اليوم نقطة البدء لشئ يبزغ للوجود حديثا."

لكنه أدرك أن الهروب من العبودية لايعنى التخلص من العنصرية، فرغم تسامح وتنوع نيو بيد فورد غير العاديين، إلا أنهاكانت غارقة في الحكام المسلقة ممثلة لذلك الوباء الذى اجتاح أمريكا. فعندما سعى دوجلاس للعمل "كعامل لسد ثقوب السفن"، قام مالك السفينة "كويكر" بتشغيله في الحال. لكن العمال البيض أخذوا في تهديد صاحب السفينة بأنهم سيتركون العمل ما أن يبدأ هو في ممارسة عمله. ثم وافقوا على أن يعمل باعتباره عامل باليومية مقابل نصف ما يتلقونه من أجر، لكن دون أن يكون نداً لهم. حدثت واقعة أخرى مشابهة في بالتيمور حيث قام العمال البيض بإضراب عن العمل حتى تقوم الإدارة بفصل عمالها من السود الأحرار، وكان دوجلاس قد سمع البيض في بالتيمور يرددون: إن السود يجب ان يُقتلوا" وإلا "فإنهم سوف يحتلون البلاد." كما كان البيض هناك في

بالتيمور قد أوسعوه ضرباً حتى فقد تقريباً إحدى عينيه، وعلى الأقل لم تتعرض سلامته الجسدية في بيدفورد للأذى.

وللسنوات الثلاث التالية عمل دوجلاس كعامل باليومية ينشر الخشب، ويحفر الأقبية، ويكوم الفحم، وينظف المداخن، ويقود العربات، ويقوم بالخدمة على الموائد. ثم عثر على عملين ثابتين، أحدهما في مصنع للشمع والآخر في ورشة للنحاس، فمكنه ذلك من "تثبيت جريدة على أحد القوائم بجواره والقيام بقراءتها أثناء العمل." يتذكر ذلك بقوله: "كان سعياً وراء المعرفة وسط صعوبات جمة." وبقي مستوحداً نائياً عن رفاقه من العمال سوداً وبيضاً حيث بدوا قليلي الاهتمام بغذاء العقل.

يتذكر السيد كوب- رئيس عمال ورشة النحاس حيث كان يعمل دوجلاس- ذلك العامل "المجد والقذر" بصورة دائمة. وبعد عشرين سنة من ذلك التاريخ، يحضر السيد كوب محاضرة لدوجلاس ثم يدعونه للصعود على المنصة ليحكي كيف وصل دوجلاس يوما للورشة للعمل بنوبته المسائية وهو مغطىً بالسناج من عمله كمنظف للمداخن نهارا ثم يقوم بتثبيت صحيفته ويبدأ في نفخ الكير ليعمل. تأثر كوب بأخلاق ذلك الشاب وقام بحمايته من أحد العمال البيض الذي حاول مهاجمته باستخدام رفش في يده، وقد أدهشه بزوغ نجم هارب سابق "ليصبح واحداً من مفكري البلد" في نيو بيد فورد.

كان دوجلاس يقرأ حيثما وحينما يستطيع وأصبح واعظا في كنيسة المدينة، وكان في أقصى لحظات سعادته لأنه تمكن من كسب (وتوفير) دولارا في اليوم وتحول إلى زعيم لمجتمع السود في المدينة، وله زوجة مخلصة وطفلان جميلان (لويس طفله الثانى وُلِدَ عام ١٨٤٠) . لكن السعادة لم تكن هدفه الأول في الحياة .

كان باحثاً عن المعرفة، وبهذا المعنى شابه هيرمان ملفيل الذى كان متواجداً بالمدينة أيضاً عام ١٨٤٠ بانتظار الإبحار على ظهر سفينة صيد الحيتان "أكوشنت" .كان يصغر دوجلاس بعام واحد، وهو ساذج وفضولى لكنه طموح. لم يكن قد وصل لبيدفورد كعبد رغم أنه قد عُرف عنه مقولته: "من منا ليس عبداً ؟ أخبرونى !" لقد أتى ليشق طريقه في الحياة، وبعدما تبخرت ثروة عائلته هباءً، أضحت خبراته على سفينة صيد حيتان بنيوبيدفورد أساساً لقصته "موبى ديك"– ١٨٥١م – وهي درةٌ أدبيةٌ في عالم الادب واستكشافٌ فريد للصداقة فيما بين الأجناس.

كانت نيوبيد فورد مدينة صغيرة عام ١٨٤٠ يبلغ عدد سكانها حوالى ثلاثة آلاف، ويسير المرء فيها من طرفها إلى طرفها الآخر ببساطة وسهولة، ولربما مر دوجلاس بملفيل صدفة عند الميناء، فكل منهما وصف براميل زيت الحوت الخشبية المكومة على أرصفة الميناء، وسفن الصيد على الرصيف، وأكوار نفخ النار

بالورشة، حيث كان دوجلاس يعمل ويقرأ جرائده؛ ولربما عرج ملفيل مصادفة على كنيسة المدينة أثناء قيام دوجلاس بإلقاء موعظته أو الاستماع إلى قداس ديني. بعد سنوات قليلة تالية، سيقرأ كل منهما ماكتبه الآخر، مستعيرين من بعضهما أفكاراً وتعبيرات متعددة. ففي عام ١٨٦٤ استعار لينكولن بالمثل مما كتبه ملفيل، مستخدماً تشبيهات ومجازات لغة صيد الحيتان ليصف بها قضايا العبودية: "نحن نبدو كصائدي الحيتان، نمضي وقتاً طويلاً في مطاردة ....ثم نقذف حربتنا في قلب الوحش لكننا الآن علينا أن ننتبه لحركتنا، وإلا فبضربة واحدة من ذيله سيرسلنا إلى العالم الآخر." وبينما يبدو دوجلاس كشخصية "آهاب" في ثورته وتطرفه في الرواية، بدا لنكولن كشخصية "ستاب" ذلك الشخص المحافظ المرح الذى"اعتلى قاربه الذى يصيد به الحيتان كما لو كان ذلك اللقاء المميت مجرد لقاء للعشاء."

كانت جريدة الليبراتور – لسان حال الجمعية الأمريكية المناهضة للرق في بوسطون والتى كان يحررها ويليام لويد جاريسون – أكثر أهمية في تأثيرها المباشر على دوجلاس، حيث اشترك فيها بعد شهور قليلة من وصوله لبيدفورد. ورغم أنه لم يستطع دفع قيمة الاشتراك دفعة واحدة، فقد كان يسدد الدولارين المطلوبين سنوياً على دفعات وأقساط . كانت جريدة الليبراتور أكثر الجرائد

المعارضة تأثيراً في التاريخ الامريكى إذ كانت تعتمد على وثيقة إعلان الاستقلال وعلى الإنجيل والتوراة كنصوص مقدسة، وطالبت بإنهاء الرق فوراً و تطبيق الحقوق المتساوية لكل الناس، وصورت جنة سماوية على الأرض تستبدل فيها حكومة الله بلحكومة البشر. كانت تنادي بعدم العنف مؤكدة أن تحقيق الثروة سيتم عبر الاقتناع الأخلاقى وحده .كما رفضت الحلول الوسط لأن جاريسون أقسم في أول إصدار لجريدة "الليبراتور" في يناير ١٨٣١ قائلاً :"لن أنافق، لن أعتذر، ولن أتراجع ولو بوصة واحدة." وظل وفياً لعهده.ولكي يعوض تلك المثالية التى تجعل الأنفاس تنقطع ، استخدم جاريسون أسلوب "المادية غير العادية"، فعلى صفحاته يرتعد الطغاة وتهتز الأمم وتقفز التماثيل من أماكنها، وتنزف الضحايا دماً، وبينما يقوم الشعراء الرومانسيون "باضفاء الروحانية على العالم الطبيعى"، قام جاريسون بتحويل الحرب الأخلاقية ضد الرق والعبودية إلى حرب حقيقية ملموسة.

أثار صدور جريدة الليبراتور غضباً عارماً وسط أمة لايرغب مواطنوها عامة في إنهاء العبودية لأن الرق البشرى ظل حقيقة واقعة في الحياة لآلاف السنين، وآمن الأمريكيون بأن الغاء العبودية فوراً يُعد ضرباً من الجنون، وفي أفضل المواقف رأى الأمريكيون في العبودية شرا ضرورياً- أشبه بالتلوث في أيامنا هذه- ربما تكون قادراً على

التحكم فيه، لكن إنهاؤه يتطلب تدخلاً إلهياً ويستغرق وقتاً طويلاً قد يصل لأحقاب عديدة أو قرون وفقًا لتصريح هاريسون جراى أوتيس عمدة بوسطون وأيضاً لأقوال لينكولن فيما بعد . كان أوتيس وغالبية البيض الأمريكيين يؤمنون بأن الكتاب المقدس يُقر بالعبودية في مواضع متعددة أكثر من معارضته لها، وأعلن الكثيرون من أهل الجنوب، إعتماداً على النصوص المقدسة وأقوال الفلاسفة من أرسطو والقديس أوجسطين حتى الكاهن جيمس سمايلي في المسيسيبى، أن العبودية مفيدة للمجتمعات والسادة والعبيد أنفسهم. واستطاع الجنوبيون قمع الفكر والأدب المناهض للرق. لكنهم لم يتمكنوا من القبض على جاريسون. فعلى سبيل المثال عرض مجلس جورجيا التشريعى مكافأة قدرها ٥٠٠٠ دولار لمن يقبض على جاريسون وينقله إلى الولاية حيث يمكن محاكمته، كما حاول السناتور جون كالهون– عن كارولينا الجنوبية – دون جدوى تمرير قانون قوى يحظر تداول كل كتابات وصور دعاة تحرير العبيد .

هكذا كانت رسالة جريدة الليبراتور جديدة بصورة جذرية على الثقافة الغربية حيث كان دعاة تحرير العبيد يُنظر إليهم باعتبارهم ثوريين متطرفين يهددون بتدمير أركان المجتمع الامريكي. كاد جاريسون عام ١٨٣٥ أن يقع تحت طائلة القانون في بوسطون. وخلال معظم تلك الحقبة هاجمت جموع من المواطنين "المحترمين"



مثل المصرفيين والمحامين أية لقاءات لها صلة بدعاة تحرير العبيد، ومن المفهوم طبعاً أن الدعم الرئيسي لجريدة الليبراتور في أوائل أعوام صدورها جاء من قِبَل السود

الذين مثلوا نسبة ٧٥% من قرائها.

ومع نهاية ذلك العقد، لم يعد دعاة تحرير العبيد منبوذين كما كانوا من قبل إلا أنهم ظلوا أقلية هامشية لأن كثيراً من بيض الشمال ألقوا اللوم في نشوب أزمة عام ١٨٣٧ المالية على النخبة الحاكمة في الجنوب المسماة "قوة العبيد" .إذ اعتقدوا أن الرق كبت الأسعار في المجتمع الحر وبالتالى هدد مستويات معيشتهم ،وبالإضافة إلى ذلك فإن قواعد الكونجرس المعروفة لقواعد جاج حظرت أية مناقشات حول العبودية داخل المجلس. ونتيجة لذلك، ازداد تعرف حركة التحرير التصاقاً بحركة الحريات المدنية، وازدادت معها الاشتراكات بصحيفة"الليبراتور" والعضوية بالجمعية الأمريكية لمقاومة الرق كل عام بدءاً من ١٨٣٤ وحتى ١٨٤٠.

كان دوجلاس يقرأ جريدة الليبراتور بإخلاص يماثل إخلاصه للكتاب المقدس. كانت بالنسبة إليه نصوصاً مقدسة تعبر عن مبادىء إعلان حقوق الإنسان التى تؤكد الحرية العامة للجميع والمساواة. كان يستوعب كلية كل محتويات الجريدة (أسبوعيا)

[9] قواعد أصدرها الكونجرس فى ١٨٣٦ تحظر مناقشة قضايا العبودية - المترجم

حسب قوله وتعرف بأناس يشبهونه فكراً عبر بلدان الشمال، وتعلم كيف يكافح العبودية بالكلمات واستخدام أفعال قارصة. وكتب يقول: "لقد أصبحت الأوراق طعامي وشرابي، وأوقدتُ النار في روحي. "باقتباس ماذكره جاريسون - وكيله - الذي استخدم نفس الجملة لشرح سبب رفضه للتخفيف من غلوائه في هذا الشأن يقول: "أنا بحاجة شديدة لأن أتقد غضباً هائلاً، لأنني محاطٌ بجبالٍ من الثلج تحاصرني بحاجة للانصهار."

ألهمت جريدة "الليبراتور" دوجلاس لحضور لقاءات دعاة التحرير رغم عمله الذى كان يستغرق النهار بطوله وأحياناً طوال الليل، حيث مكنته تلك الاجتماعات من ممارسة مهارته الخطابية بالجدل مع أصدقاء جدد، وتجربة بعض من العبارات التى قرأها بالجريدة. في أحد هذه اللقاءات عام ١٨٣٩ قام ومعه مجموعة من دعاة تحرير السود في بيد فور بمهاجمة الجمعية الأمريكية للاستعمار التى كانت تنقل الأحرار من السود إلى المستعمرة الافريقية "ليبريا" كحل محافظ "لمشكلة" السود في أمريكا، لأن غالبية دعاة التحرير كانوا يكرهون دعاة الاستعمار، واستقر رأي دوجلاس ومؤيديه على ألا ينخدعوا أبداً بآراء هؤلاء "فنحن مواطنون أمريكيون وُلدنا بحقوق طبيعية وموروثة ومتكافئة لايمكن التنازل عنها."، وامتدحوا جاريسون لمناداته "بخلاصٍ فوري غير مشروط.

بعد قراءة "الليبراتور" لثلاث سنوات، سمع دوجلاس جاريسون يتحدث في اجتماع عقد يوم ١٩ أغسطس ١٨٤١ في بيدفورد، وكان قد أصبح واحدا من "عباد الأبطال" بعدما قرأ كتاب توماس كارلايل الجديد عن البطولة، كما أحب جاريسون بالفعل "من خلال جريدته" وأصبح الآن يميل لتقديسه، ولم تخنه آماله حيث قال: "لم أجد وجهاً ولا شكلاً أثارا في نفسي تلك المشاعر بقوة (سواه)."

كان جاريسون مثالاً آخر للرجل العصامي، وكان يشبه دوجلاس كثيراً في بعض الأمور، إذ هجره والده السكير عندما كان صغيراً وأدى به ذلك إلى تسول الطعام من الجيران. لم يحصل على تعليم رسمي تقريباً، إلى أن صادفه الحظ عندما حصل على عمل "كصبي مساعد" لأحد الطباعين الذي ساعده على تعلم حرفة، فعمل بلا توقف، وقرأ بشراهة، وأصبح فخوراً بنفسه وصاحب عزيمة ومقداماً مثل دوجلاس لأنه على مدار عدة سنوات واجه التهديد بالاغتيال وبالإفلاس بسبب جريدته وحلمه بالحرية. والآن فإنه حينما يتحدث تخرج الكلمات من فمه بطيئة ومقصورة كما لو كانت هبة من الله، ويلمع رأسه الأصلع بنظارته الزجاجية عاكساً أشعة السماء.

لم يكن دوجلاس الوحيد الذى تأثر بما دار ذلك اليوم. لأن جاريسون رأى ذلك الرجل الأسود الطويل الفتي، أنيق الملبس المتزن،

بادىَ الوثوق بنفسه يقف مستشرفاً القاعة بنظراته وسط تلك الجماهير المجتمعة. وحينما بدأ دوجلاس خطابه وسمع ذلك الصوت العميق ورأى "جماهير الحضور الغفيرة" تنصت إليه "باهتمام شديد"، تأثر جاريسون بشدة.

وفي اليوم التالى اصطحب دوجلاس جاريسون مع أربعين من دعاة تحرير العبيد من السود والبيض إلى نانتوكيت لإجتماع ضخم سيستمر لمدة يومين. كانت تلك أول إجازة لدوجلاس منذ هروبه من قبضة العبودية، وقد بدأت الرحلة بشكل منذر بالشؤم وغير مبشر. فعندما صعد دعاة التحرير إلى سطح السفينة المتوجهة إلى نانتوكيت، رفض ربانها بدء الرحيل ما لم يلجأ السود إلى ركن "الزنوج المخصص لهم عليها". اعترض الثائرون على ذلك الفصل متمسكين بأماكنهم، واقترحوا مناقشة كل راكب على سطح السفينة مما تسبب في تأخير طويل للرحلة، ثم استسلم الربان في النهاية وسمح لهم بالجلوس على أرضية السطح العلوى. بينت تلك الواقعة لدوجلاس مدى قدرة الإقناع الأخلاقى على إحداث التغير الاجتماعي.

وفي اجتماع نانتوكيت، دفعوا دوجلاس للحديث أمام أكثر من خمسمائة مشاهد أغلبهم من البيض، ولحكمٍ عددهم الغفير كانوا أكبر جمهور قام بمخاطبته في حياته. كان متوترا لدرجة أنه ارتعد خوفاً، واستدعى خوفه ذكريات العبودية الأليمة: "الحقيقة أننى شعرت



بنفسى عبداً." لكن بعد حديثه لدقائق قليلة استعاد شعوره بالحرية وتدفقت منه الكلمات.

وارتقى جاريسون منصة الحديث بعده مستطرداً من كلمات دوجلاس صائحا:"هل كنا نستمع لشيء أو لقطعة من أملاك أحد ما أم لإنسان ؟" فتصاعدت الاجابة موحدة: "لإنسان . . لإنسان." فتساءل جاريسون: "وهل لمثل ذلك الإنسان أن يبقى عبداً في أراضٍ مسيحية وجمهورية؟"

فأتته الإجابة: "أبداً ... مطلقاً!" استمر متسائلاً:"وهل ستقومون بحمايته وإغاثته كأخٍ لكم . . كمواطنٍ في ولاية أولد باى؟" فصاحت الجماهير: "نعم!" بقوة بدت معها حوائط وأسقف الصالة "كما لو كانت ترتجف" وذلك وفقاً لما ذكره أحد المراسلين.

ذهل دوجلاس من المشهد، وأسَر جاريسون مستمعيه فأصبحوا "كشخص واحد": صورة من جاريسون نفسه؛ وعندما تحدث دوجلاس ثانية في جلسة المساء، حاول تطبيق بعض من أساليب جاريسون الخطابية، وجاء الدور على جاريسون لتصيبه الدهشة فأعلن الأخير هذا أن خطاب دوجلاس "يضفي شرفاً على باتريك هنرى" حيث أذهله تحكم دوجلاس في نغمة صوته العميق الخصب كمطرب يأخذ بألباب مستمعيه.

وقبل أن يتفرق المجتمعون، دعا وكيل الجمعية الأمريكية المناهضة



للعبودية دوجلاس لقبول تعيينه محاضراً بأجر لدى الجمعية. لكن دوجلاس كان متردداً في بداية الأمر لأنه لم يكن واثقاً من موهبته كما تبدو الآن بصورة لاتصدق. غير أنه وافق على عقد لمدة ثلاثة أشهر قابلة للتجديد بأجر سنوي قيمته ٤٥٠ دولار. كان بالكاد يدرك أنه قد وجد ضالته وأنه على المضيّ في مسيرة حياته المرموقة، ولسوف يذكر فيما بعد أن الخطاب الجماهيري هو أنجح وسيلة للمعارضة، وأنه أعظم إنجازاته كفنان وناشط اجتماعي فيقول: "أنا لست بحاجة لتذكير أولئك الذين يعرفونني بأن الكتابة لأعين الجماهير لا تأتي ببساطة ويسر مثلما تكون الخطابة لآذان الجماهير." عبر السنوات القليلة التالية، أخذ يصقل مهارته وأصبح واحداً من أعظم خطباء أمريكا.

***

أصبحت الجمعية الأمريكية المناهضة العبودية في حاجة شديدة لدوجلاس أكثر مما كان هو في حاجة إليها، ففي عام١٨٤٠ انشقت الجمعية باختلاف في الرأي حول موضوعي السياسة والنساء وبدأت تفقد أعضاءها وأموالها لأن جاريسون وأتباعه قاموا بمعارضة عمليات التصويت وأهملوا المحاورات السياسية إلى حد كبير. وقد فسروا مواد الدستور بأنها وثيقة مؤيدة للرق معتبرين الحكومة الأمريكية واقعة في فساد لايبرأ، وطالبوا بالانفصال عن جمهورية

العبيد هذه أو كما يقول دوجلاس أنهم اعتبروا الرق بمفرده "مخلوقاً يفرزه الرأي العام." كما نادوا بأن يُسمح للمرأة باعتلاء مراكز قيادية في الجمعية الأمريكية لمناهضة العبودية.

وقامت مجموعة من المنشقين الذين يؤمنون بفعالية صندوق الانتخابات بتكوين حزب الحرية وذلك لاختيار مرشحين مناهضين للرق والسعى لإحداث التغيير عبر العمل السياسى، حيث كانوا ينظرون للعبودية باعتبارها "ذلك الكائن الذي يفرزه القانون." كما قامت مجموعة أصغر- تعارض حقوق المرأة اعتماداً على قراءات مصدرها الكتاب المقدس والعادات الاجتماعية- بإنشاء الجمعية الأمريكية والأجنبية لمناهضة الرق التى منعت عقد اللقاءات المختلطة التى يمكن لكل من الرجال والنساء الحديث فيها معاً. وتكاثرت المصادمات لدرجة أن دعاة التحرير لم يتمكنوا من تسوية اختلافاتهم. وبعد الانفصال رفض جاريسون وتابعوه أن يتواءموا مع المخالفين لهم، ومضت كل مجموعة في طريق منفصل. وأدت لطمة الانقسام إلى تناقص عضوية الجمعية الأمريكية لمناهضة الرق للنصف ودخلها السنوى ينحدر من ٤٧٠٠٠ دولار إلى ٧٠٠٠ دولار. والأكثر من ذلك أن الجمعية احتاجت لخطيب له هالة مميزة للدفاع عن قضاياها.

واحتاجت كذلك إلى شخص يمكنه الحديث عن العبودية بالدرجة الأولى لأن أهل الجنوب أغرقوا الأسواق بمطبوعات الدعاية والكتب والصور التى تصور العبيد في سعادة ورضا، وأن سادتهم من رجال الخير والعطف الأبوى، واتهموا دعاة التحرير بأنهم لم يعرفوا حياة العبودية أبداً. فالجنوبيون فقط هم من يملكون حق الحديث عن مؤسسات المجتمع ونظامه، بل إن العمال المستأجرين في الشمال أكثر تعرضاً للقهر من العبيد في الجنوب. والجنوبيون يطلقون على أنفسهم -بالفعل- أفضل أصدقاء الزنوج، ويؤكد أحد مطبوعات الدعاية أن"من بين كل ولايات الإتحاد تظل ولاية مارى لاند أول (صديق للأفارقة)".

ورداً على مثل تلك الانتقادات، أراد الاصلاحيون الشماليون -بشكل جزئي- أن يعرفوا حقيقة العبودية ممن كان عبداً. لكن أغلب الهاربين المنتمين للجمعية كانوا يخافون العمل كمحاضرين في المجال خشية افتضاح أمرهم وتعرضهم لإعادة أسرهم من جديد. أما اؤلئك الذين رغبوا في تحمل المخاطرة فلم تنطبق عليهم المعايير الدقيقة التى وضعتها الجمعية لمهمة المحاضر، والتى كانت تتطلب "قدرة على بعث الحياة في الموت، والمثابرة على تحمل السفر المتواصل" ومواجهة الهجمات المتكررة. كان دوجلاس أول عبد سابق يصبح محاضراً بدوام كامل لدى الجمعية. أما باقى المحاضرين

السود من وليام كوبر نيل حتى تشارلز ريموند فكانوا ممن ولدوا أحرارا. بعبارة أخرى ،إن توقيت ظهور دوجلاس قد كان مناسباً تماما.

انطلق في طريقه على الفور، واشترى رئيسه منزلاً لأسرة دوجلاس يقع بجوار شريط السكة الحديد في"لين" بولاية ماساتشوستس. لكن نادراً ما مكث دوجلاس في "لين" بسبب جدول محاضراته وخطبه في حين بقيت آنّا وطفلاها في نيوبيد فورد حتى أواسط عام ١٨٤٢. لقد حصلت آنّا على عمل إضافي كمدبرة منزل لدعم الدخل الذى كان يحصل عليه فردريك، وأحياناً ما كان فردريك يضطر إلى طلب إرسال مبالغ تصل إلى٢٥ أو٣٠ دولار من الجمعية لها لتدبير شئون العائلة." وقد ولد طفلهما الثالث فردريك الصغير في مارس ١٨٤٢ بنيو بيدفورد، لكن فردريك لم يكن متواجداً لمساعدتها في العناية بالوليد، ولم يكد الطفل يعرف والده بعدها لسنوات طوال.

كان دوجلاس يرتحل عادة بصحبة جون كولينز، وهو محاضر متطوع أبيض، وقد عبرا نيو إنجلاند في عربات تجرها الجياد أو بواسطة السكة الحديدية. كانا ينامان في منازل دعاة التحرير ويخطبان في الكنائس والأجران والمدارس والحانات أو وسط حدائق البلدة إذا لم تتوافر فيها الأبنية. وعندما كان دوجلاس يزور مدينة ما



بمفرده كان يواجهه التعصب العنصرى، وغالباً ما كان يلقى صعوبة في توفير مكان لإلقاء كلماته. حدث هذا بالفعل في مدينة جرافتون بولاية ماساتشوستس، فذهب في الحال إلى فندق واستعار جرساً من أجراس المائدة ومضى عبر شوارع المدينة الرئيسية يدق جرسه ويصيح "انتبهوا ! إن فردريك دوجلاس العبد حالياً سوف يُلقى محاضرة حول العبودية الأمريكية في مجلس المدينة هذا المساء الساعة السابعة." وآتت خطته أُكلها إذ حضرت جماهير غفيرة لسماعه وفتحت إحدى الكنائس أبوابها له في اليوم التالى .

كما كافح دوجلاس مظاهر التعصب في القطارات، ففى سبتمبر من عام١٨٤١ عندما كان مسافراً على متن قطار سكك حديد الشرق بصحبة كولينز، قام جامع التذاكر بطرده من كابينة السفر إلى عربة البضائع التي يستخدمها السود، وطلب دوجلاس من كولينز أن يبقى في مكانه، لكن كولينز تبعه حتى قام جامع التذاكر بدفع كولينز للوراء فمزق ملابسه. وحدث أنهما ركبا معا بعد أسبوعين نفس القطار وحاول نفس المحصل التفريق بينهما فتمسك دوجلاس بمكانه وطلب معرفة سبب إجباره على الخروج من العربة بعدما دفع ثمن ذلك، فأجابه جامع التذاكر: "لأنك أسود." فرد عليه دوجلاس: "ذلك ليس سبباً ولا مبرراً لطلبك." وتشبثا- هو وكولينز- بمقعديهما، فقام جامع التذاكر بجمع نصف دستة من الرعاع "لإخراج

الزنجي الملعون" واستطاعوا إخراجهما في النهاية ولكن بعد إقتلاع عدة مسامير من أرضية القطار- أثناء الشد والجذب- محطمين المقعد خلالها .استمر دوجلاس ورفاقه في معارضة تلك المظاهر العنصرية، وفى النهاية استسلمت شركات السكك الحديدية بماساتشوستس وقررت إلغاء عربات الفصل العنصري.

حقق دوجلاس نجاحاً عظيماً في الخطابة منذ البداية ، لأنه كان يحكي عن حياته كعبد مضيفاً كثيراً من البهجة على الموضوعات الكئيبة بروح مرحة وساخرة ومتهكمة. كان يرتدي ملابس رسمية ويولى اهتماماً خاصاً لمظهره ولأقواله بالمثل. كان أحياناً ما يطلب من خادم الكنيسة زيادة أنوار الغاز كيما يراه الناس بصورة أفضل، وكان يشير إلى ظهره "المملوء بالندوب" وأحياناً يقوم بتعريته ليراه المشاهدون، ولكي يحمي نفسه أخفى أسماء سادته السابقين والأماكن التى كدح بها، وحيث أن أتباع جاريسون كانوا يعارضون مبدأ المقاومة بالعنف، فقد أهمل ذكر شجاعته في العراك. لكنه سلب ألباب المشاهدين والصحفيين كذلك بشكل ومحتوى قصصه. وفي ديسمبر عام ١٨٤١- بعد ثلاثة أشهر فقط من بداية استلام العمل الجديد- قام أحد الصحفيين بوصف طريقة أدائه بإسهاب قائلاً: "إنه رجل غير عادى . . .لقد خُلق ليكون بطلاً . . له قلبٌ يفكر ورأسٌ يدبر ويدٌ تقوم بالتنفيذ . . إنه كخطيب أنداده قلائل."

كان دوجلاس ليقول نفس الكلام بعد عقد تالٍ ليصف بطلاً زنجياً خيالياً جعل من نفسه نموذجاً له.

أثمرت طرق أداء دوجلاس نتائج إيجابية، فجاب أراضى رود أيلاند في أواخر عام١٨٤١ معارضاً دستوراً مقترحاً للولاية يقصُر حق التصويت على الرجال البيض فقط . كان رفاقه البيض يتحدثون أولاً فيغضبون المشاهدين. ثم يصعد دوجلاس إلى خشبة المسرح فيسحرهم، وأتى أسلوبه بالنتيجة المرجوة إذ مرر الناخبون دستوراً يمنح السود حق التصويت. هنا قال دوجلاس: "إن عملنا في رود آيلاند قدم الكثير لتحرير العبيد في الولاية أكثر من أي جهود سابقة أو تالية."

وألقى النجاح الذى أحرزه في رود آيلاند الضوء على الخيط الدقيق بين الرأي العام والقانون.

أراد دوجلاس– بصورة متزايدة– أن يزاوج بين الاقناع الأخلاقي والعمل السياسي لتحقيق الأهداف المرجوة. واستمر يستحث براعة العمل السياسي حين قام بالثناء على مناهض الرق العظيم ورجل الدولة جون كوينسي أدامز الذى كان يكافح من أجل تعطيل قوانين الكونجرس التى تمنع مناقشة قضايا العبودية ، ولأنه كان عبدا فقد تصادف أن قرأ خطاباً مناهضاً للعبودية كتبه أدامز في صحيفة بالتيمور، وعرف منه معنى مصطلح "الغاء العبودية"، واكتشف أن

قليلاً من سياسيي واشنطون كانوا "يدافعون عن حقوقنا ، ويتحركون في سبيل حريتنا ." فأدرك ان الحركة السياسية المناهضة للرق يمكنها أن تكون فعالة ومؤثرة مثلها مثل الاقناع الأخلاقي في ذات الإتجاه.

في عام١٨٤٣ استهل دوجلاس ومعه مجموعة من المحاضرين رحلة"المائة لقاء" التى تبدأ من نيو هامبشاير ثم تنتقل غربا عبر فيرمونت، ثم ولاية نيويورك، مرورا بولاية بنسلفانيا، وأوهايو إختاماً بإنديانا . وقد ارتحل المحاضرون أزواجا، وكان هدفهم إنهاء نظم العبودية بكل مجتمع يقومون بزيارته موضحين للناس أهوال العبودية للتعجيل بالقضاء عليها . كانت مسيرة الرحلة مرهقة لكن آفاق الحوار الجماهيرى فيها ملأت دوجلاس بالأمل. كان يشعر كأنه أحد حوارىّ المسيح داعيا الناس لحظيرة الإيمان، وكانت مدينة روشيستر واحدة من محطاته المفضلة رغم أنها كانت ميداناً ملتهباً لسياسة المناهضة العنصرية، ومع اعتبار دوجلاس- كمنتم للحركة الجاريسونية – أن السياسة مفسدة، إلا أنه تلقى ترحاباً ودوداً وقابل العديد من رجالات حزب الحرية.

كان دوجلاس أحياناً مايجد نفسه وحيداً، داعياً للتحرير في بلدة ما ، ففى مدينة بوفاللو وهى مدينة كانت قد أخذت تزدهر من تجارة السفن البخارية الجديدة، بدت أمال التحول عن قناعاتها عقيمة وباهتة لأن أهلها كانوا يتكالبون على جمع المال دون الاهتمام

بحركات الإصلاح. وكانت القاعة التي خُصِصَتْ لمحاضرات دوجلاس مكتباً قديماً مهجوراً للبريد، وكانت مجموعة مستمعيه حفنة من سائقي عربات الأجرة - وهي عربات تجرها الخيول لنقل الركاب - سياطهم في أيديهم والقذارة تعلو ملابسهم. وما أن رأى رفيق دوجلاس- وهو رجل أبيض- تلك الطغمة من الناس حتى استقل أول باخرة إلى كليفلاند دون أن يكلف خاطره بإلقاء ولو محاضرة واحدة بها، تاركاً دوجلاس لمواجهة بوفاللو بمفرده. وظل دوجلاس يتحدث كل يوم داخل ذلك المكتب البريدي المتداعي موجهاً خطابه للمستمعين "الذين كانوا يتزايدون عددا وقدرا باستمرار." وخلال أسبوعين زاد عدد جماهيره من خمسة أفراد إلى خمسة آلاف، ولم يعد هناك مكان يسع ذلك العدد بصورة كافية. وقد خاطب ثلث عدد سكان المدينة في آخر يوم أحد له في المدينة في المنتزه العام، وكانت قوة كلماته تلهب الحماس في الجماهير.

لم تتواصل رحلة "المائة لقاء" باتجاه الغرب بصورة جيدة رغم ذلك لأن دوجلاس اكتشف أن إنديانا- وهي ولاية لنكولن القديمة - كانت تمتلئ بالعنصرية مثل ولاية ماري لاند، وفي ريتشموند- وهي أول محطةٍ توقفٍ لهم - توقعوا المشاكل والصعوبات إذ كاد الرعاع أن يقتلوا أحد المزارعين حين جرؤ على أن يطالب هنري كلاي- أحد مرشحي الرئاسة من ولاية كنتوكي وهو بطل لنكولن في نفس الوقت-

بتحرير عبيده الأربعين. وقام بعض من أولئك الرعاع بالتجمهر حول دوجلاس ورفاقه يقذفونهم بالبيض الفاسد وغيره وأفسدوا بدلة دوجلاس الأنيقة.

وبعد ذلك في مدينة بندلتون بولاية إنديانا اقترب دوجلاس أكثر أى وقت من الاغتيال. ففي خلال نهار أول لقاء له هدد أحد العامة بالهجوم عليه وتدمير الكنيسة. نتيجة لهذا، قام أهالى بندلتون باستبعاد دعاة التحرير إلى الغابة حيث قاموا ببناء منصة يخاطبون الناس من فوقها. وفي اليوم التالي هاجم حوالي ثلاثين فتى من فتية مناطق الغابات يقودهم فتى جلف- يرتدى قبعة من الفراء- دوجلاس وزملاءه. كانوا يشبهون في سلوكهم ومزاجهم صديق لينكولن ،جاك أرمسترونج وعصابة كلارى جروف.

قام البلطجية بتدمير منصة الخطابة وضربوا أحد الدعاة على فمه مما أفقده عدة أسنان. وفجأة ختفى فجأة أحد زملائه وهو ويليام هوايت- المتخرج حديثاً من جامعة هارفارد والمتحول حديثاً للإيمان بإلغاء الرق- مما دعا دوجلاس إلى التقاط هراوة ضخمة والمضى وراء البلطجية ظاناً أن هوايت في خطر. وكان يعلم أنه ينتهك أحد مبادىء جاريسون بعدم استخدام العنف في الدعوة وكذلك عدم تجاوز القانون العنصري الذى لايجيز هجوم رجل أسود على رجل أبيض. لكنه لم يعبأ بذلك فمثل تلك المعتقدات لانعبأ بها



عندما تكون حياة رفيق معرضة للخطر. وبرز البلطجية استعداداً للقتل بعضهم يتصايحون: "أقتلوا الزنجى! اقتلوا الزنجى الملعون!" فلاذ دوجلاس بالفرار نجاة بحياته. لكن زعيم العصابة لحقه وهوى عليه بعصاه فحطم ذراعه وألقاه أرضاً، ورفع الزعيم عصاه لتسديد ضربة ثانية مستهدفاً رأس دوجلاس هذه المرة، لكن هوايت- الذي لم يكن قد أوذى بعد- رأى دوجلاس يقع أرضاً فأسرع لنجدته، وجسده يسد الطريق على البلطجى "مانعا ضرباته المميتة" وأخذت بقية العصابة تضرب هوايت بقبضاتهم إلى أن أفلح سكان البلدة- الذين كانوا يشاهدون الموقف حتى هذه اللحظة - في إيقاف الهجوم. لازمت الحادثة تفكير دوجلاس، وبقي يحلم بها طوال ثلاث سنوات تالية. وفي الصباح كتب لهوايت ليعبر عن عرفانه بالجميل بقوله: "لم أنسَ أبداً كم كنا كالأخوة، مستعدين للجرأة والتحدى والموت، كلٌ منا في سبيل الآخر. لقد غادرت منزلك وحياة مريحة بل مرفهة كيما تقدم شيئًا لتحطيم قيود العبيد ورفع قدر السود المحتقرين ." فمن أجل حماية دوجلاس، أراق هوايت "دماً نبيلاً حاراً كريماً ومقدساً ليهرقه بلطجى من بين تلك الطغمة الجهنمية."

كما سيطرت لازمة الهجوم على هوايت أيضاً، فهجر الخطابة بعد "رحلة المائة لقاء" وعاد إلى بوسطون ليقرض الشعر. لكنه كتب إلى دوجلاس مُحَرضاً إياه على الاستمرار في القضية بقوله: "امض

قدماً، ناثراً طلاقتك البديعة كشرارات الضوء المنطلقة من صلب مطروق، ولسوف تؤتى ثمارها !" ولإثارة المزيد من حماسة صديقه، اقتبس من ذاكرته أبياتاً من شعر لورد بايرون- الذي بدأت كتاباته تُقرأ وقتئذٍ- وكتب:

ما أن تبدأ معركة الحرية،

رغم غمامها،

إلا أنها دائما "تنتصر".

لكن حتى كلمات بايرون لم تكن مقنعة لمقتبسها، فهوايت لم يتقدم بعدها صفوف المعركة.

رغم تلك الروابط الأخوية الودودة، شعر دوجلاس أن الدعاة البيض لم يكونوا محصنين من الاحكام المسبقة التى سادت البلاد. فهو يتلقى نصف مايتلقاه المحاضر الأبيض رغم كونه الأكثر تأثيراً في المؤسسة كلها، وعندما انتقد جون كولينز، تم توجيه اللوم له وتوبيخه "بسبب عدم خضوعه لرؤسائه". لقد عامله رفاقه البيض على أنه مشهد أو رمز بدلاً من معاملته كإنسان له شخصيته فقال: "كانوا يقدموننى على أننى أحد منقولات المؤسسة أو شيء من أشيائها، أو قطعة من أملاك الجنوب، إذ كان رئيس الاجتماع يؤكد (مستخدماً الضمير الذى يشير للجهاد) أنه يستطيع الكلام." ظل يكره الطريقة التى كان رفاقه البيض يخاطبونه بها مثلما خاطبه جون كولينز مرة

بقوله: "أمدنا بالحقائق فقط، وسوف نتولى نحن العناية بفلسفتها !"

لكن دوجلاس اكتشف أنه من المستحيل أن يلقى نفس المحاضرة أسبوعاً تلو الآخر لأن ذلك يبدو أمراً ميكانيكياً ضد طبيعته. إذ كان حينذاك يقرأ بنهم محاولاً أن يسد فراغ الفكر الذى عاشه سنيناً طوالاً، وبينما كانت كلماته تتطور بقوة تحليلها وخطابها، أخذ ينوع محتواها وشكلها لأن أحد رفاقه البيض حذره قائلاً: "إن الناس لن يصدقوك حتى لو كنت عبداً سابقاً يا فردريك لو استمر خطابك على هذا النحو، ومن الأفضل أن تمزج كلامك بقليل من أساليب الكلام الريفي بدلاً من أن تبدو مثقفاً أكثر من اللازم!"

شعر أن هذه النصيحة صفعة على وجهه، ورغم أن دوجلاس نجح في تحويل كثير من الناس لصالح القضية أكثر من أي فرد آخر بالمؤسسة، إلا أن زملاءه البيض غالباً ما عاملوه كطفل لا "كصنايعي ماهر أو أستاذ في الأداء". كتب ذات مرة يقول: "كنت أكبر وأحتاج لمساحة أكبر." لكن بعض البيض حاول احتواءه متمنين بقاءه أشبه بالعبد .

كان ظهور بعض من ذلك التوتر عائداً للحسد. وفي النهاية كان كل دعاة التحرير يكرسون حياتهم من أجل القضية وأملوا في تغيير العالم. ولكي تكون من كبار الدعاة عليك أن تكون خطيباً عظيماً، فإذا لم تكن طموحاً فستغدو هباءً منثوراً. لذا، فإنه حينما تبزغ

فجأة بداية كبداية دوجلاس تملأ فضاء المسرح وتلقى هتافات مدوية تشق عنان السماء بينما تقع جهود الخطباء البيض على آذان صماء، هنا تظهر إما بعض من معالم الكراهية أوالحقد، وتأخذ ردة الفعل شكلاً من أشكال التعصب العنصرى. تبدأ هذه الأشكال من استهجان بعض الجماهير له، إلى صدور خطاب خاص من أحد دعاة التحرير ببوسطون يشير إلى دوجلاس بأنه "زنجى غير واع". تلك الأمثلة الوضيعة لاتمحو الجهود البطولية المعادية للعنصرية التى أدت إلى إلغاء عربات الفصل العنصرى في ولاية ماساتشوسيتس أو إستئناف الولاية عام١٨٤٣ للحكم الذى يحظر زواج السود بالبيض. فدعاة التحرير أتموا ماكان قليلٌ من الناس في التاريخ الأمريكى قادرين على فعله: توحيد عناصر وأجزاء المجتمع. وبعد مائة عام لاتزال قوانين الفصل العنصرى ومعاداة اختلاط الأجناس من حقائق الحياة بالمجتمع الامريكى.

بمعنى آخر كان رفاق دوجلاس على حق عندما حاولوا احتواءه. فمع قدوم عام١٨٤٤وبعدما ارتقى بنفسه إلى عالم المبدعين أمثال بايرون وبيرنز وشكسبير وكارلايل وإيمرسون وميلتون، بدا شيئاً آخر غير أن يكون عبداً وبدأت الجماهير تتهمه بأنه لم يكن عبداً أبداً. ولأنه لم يقدم تفاصيل أكثر حول موطنه الأصلى .وأثار كل ذلك الشكوك في مدى صدقه، وبدأيسمع- بصورة متزايدة- مايقوله

الناس بأنه لايشبه العبيد ولا يتصرف مثلهم . فقد لخص أحد الصحفيين- ممن قاموا بتغطية لقاء ضخم حول تحرير العبيد عُقد في فيلا دلفيا عام ١٨٤٤- أداء دوجلاس بقوله: "إن عديداً من جماهير الحضور لم يصدقوا - حقيقة - أنه كان بالفعل عبداً، إذ كيف لرجل خرج من نير العبودية منذ ستة أعوام فقط ولم يلتحق بمدرسة يوماً في حياته أن يتحدث بمثل تلك الطلاقة وبتلك الدقة اللغوية وقوة التفكير؟ ولم يتوصلوا- جميعاً- لأي تفسير يشرح الأمر."

هددت تلك الشكوك بشأن حالته وحول كونه مُطارَداً مسيرة دوجلاس المهنى. لذا، "قذف بالحذر إلى الريح " وكتب قصة حياته محدداً الأسماء والتواريخ راسماً لوحة للأوغاد على الشاطئ الشرقي، ولأنه قام بتسميع قصة حياته لسنوات عديدة في حلقات المحاضرات، كان يعرف جيداً ما يجب أن يقوله وكيف يقوله. ثم أكمل النسخ الخطية خلال شهور الشتاء عامي١٨٤٤/١٨٤٥ . وبعدما قرأها وبندل فليبس- وهو خطيبٌ لامع آخر- أخبره أنه لو كان مكانه لألقى بها في أتون النار، فلو "أن سيده ومالكه تمكن من إمساكه لن تستطيع ماساتشوستس كلها حمايته."هكذا قال له فليبس وكان على حق لأن حكماً كان قد أصدرته المحكمة العليا مؤخراً في قضية برج ضد ولاية بنسلفانيا أنكر أية سلطة للولايات في حماية الهاربين. وفي العام السابق، تم القبض على جورج لايتمر

وهو عبد وأب لابناء مثل دوجلاس في بوسطون وتم حبسه في سجن ليفريت ستريت، ولم يعُد للعبودية مرة أخرى الا بسبب قيام أحد دعاة التحرير الأثرياء بشراء حريته.

تجاهل دوجلاس تلك التحذيرات، وفى مايو عام١٨٤٥ نشرت جمعية مناهضي الرق الأمريكية "قصة حياة فردريك دوجلاس . .عبدٌ أمريكى كتبها بنفسه" مع مقدمتين كتبهما كل من جاريسون وفليبس لتأكيد مصداقية ماورد بالكتاب. كان الكتاب يُباع مقابل خمسين سنتاً، وكان ضربة قاصمة ذات لغة شعرية وصفحات ساخرة، وسرعان ما أصبح من أفضل الكتب مبيعاً في العالم إذ طُبعت منه أحد عشر ألفا نسخة خلال ثلاث سنوات في الولايات المتحدة، وتسع طبعات بإنجلترا. وبحلول عام ١٨٥٠ كانت ثلاثون ألف نسخة منه قد بيعت. امتدح النقّاد في انجلترا وأيرلندا "طلاقته اللغوية الفطرية"، وأطلق علية أحد النقّاد الأمريكيين "أكثر الاعمال إثارة للرعب فيما أصدرته المطابع الأمريكية . . وأكثرها أهمية." وأصبح دوجلاس - مثل بطله بايرون - مشهوراً مابين عشية وضحاها.

لكن مع الشهرة أضحت حريته الآن معرضة للخطر حيث يمكن لتوماس وهيو أولد ولأي مختطفٍ محتمل تتبع آثار تحركاته في جرائد مناهضة الرق. وبالفعل قرأ العديد من مُلاك العبيد في بالتيمور وعلى

الشاطىء الشرقى بمن فيهم توماس وهيو تلك الرواية رغم حظر توزيعها قانوناً في ماري لاند أو أي مكان في الجنوب. واشتاطت عائلة أولد غضباً بسبب وصف دوجلاس لحياتهم، وأطلق توماس عليه وصف الكاذب علناً، وسعى هيو للثأر منه وقد أقسم قائلاً: "لن ندخر جهداً ولا مالاً لإعادة ملكيته ثانية" وعلى أن "يضعه في حقول القطن بالجنوب."

لكن دوجلاس كان يحيا آمناً تماماً في الجزر البريطانية عندما أطلق هيو تهديداته، لأنه هرب إلى تلك الجزر بعد ثلاثة أشهر من نشره لروايته باحثاً عن ملجأ "من الاستعبادالجمهوري لدى إنجلتراالملكية" بنص ماقاله، وبقت آنّا والأطفال- إذ أصبح لهم أربعة أطفال الآن والرابع هو تشارلز الذى ولد في أكتوبر من عام ١٨٤٤- في لين وعاشوا من حصيلة ربح كتابه وعمل آنّا لنصف الوقت كمدبرة منزل. قضى دوجلاس حوالي سنتين في إنجلترا وأيرلندا واسكتلندا مخاطباً جماهيرَ أوسع وأكثر حول العبودية في أمريكا ضاماً آلاف المؤيدين لقضيته.

انتشرت مشاعر مناهضة الرق في بريطانيا، وكانت بريطانيا قد أنهت العبودية بسلام في انجلترا عام١٧٧٢ وفى مستعمراتها بالهند الغربية في الأول من أغسطس عام١٨٣٤ . واعتبر دوجلاس حركة الخلاص والانعتاق في الهند الغربية التى حررت ٨٠٠,٠٠٠ من العبيد

بتمويل كامل من الحكومة البريطانية بمثابة"أعظم وأهم حدث من أحداث القرن. " كان ينظر لانجلترا باعتبارها منارة الإنسانية، وملأه الأمل أن يلهم " الاعتاق البريطاني " الأمريكيين كيما يتقوا خطاه ويفتحوا عصراً جديداً للحرية العالمية. "كان هناك أثر إلهي في ذلك القرار للأمة البريطانية. كانت روح الله تأمر شيطان العبودية أن يرحل مطروداً من الهند الغربية البريطانية. "

وقع دوجلاس في هوى انجلترا وكاد أن يستقر هناك بصورة دائمة. لقد أغرم بالسلوك الإنجليزى والقطارات النظيفة المريحة واختفاء الخنازير من شوارعها، كما عقد بعض الصداقات الحميمة واحتفى به المجتمع البريطاني، ولأول مرة في حياته يلمس غياب العنصرية كلية أمامه، فقال:"من الوهلة الأولى التى خطوت فيها على شاطئهم وتأملت وجوه الناس حولي، رأيتُ في كلِ وجهِ إنسانٍ حولي إقراراً بإنسانيتى، وأحسست بغياب كل ما يمت لمشاعر الكراهية والاشمئزاز بصلة غياباً تاماً. ذلك الشعور الذى كان يطاردنا في أمريكا. "كان يستطع الدخول إلى فندق أو مطعمٍ أو ترام دون أى إزعاج، وأن يمر بأي شخص في الطريق دون أن تمسُه نظرة احتقار واحدة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك بافتراضه أن كون المرء زنجياً يُعد ميزة اجتماعية في المجتمع البريطاني. فكتب ذات مرة لأحد أصدقائه متندراً: "وجدت أننى لم أكن أسود بدرجة كافية بالنسبة

للذوق البريطاني. لكنني حينما أجعل شعري أشبه بحلقات من الصوف بقدر ما استطيع يمكنني أن أبدو نصف زنجي على الأقل، وبأي مقياس." بدأ يحتفي بذكرى الأول من أغسطس وهي ذكرى تحرير الهند الغربية البريطانية بصورة أكثر مهابة من ذكرى الرابع من يوليو.

ولم يهمل دوجلاس المشكلات الاجتماعية البريطانية خاصة الفقر المستفحل هناك، وأدرك أن التراتب الاجتماعي في أمريكا نبع من التميز العنصري أساساً أما في بريطانيا فقد نبت من وجود الطبقات نفسها، فقام بعقد تحالفات مع دعاة الدستورالذين كانوا ينادون بحقوق متساوية للفقراء والطبقات العاملة، وأقر بأن غياب العنصرية يعود في جزء كبير منه إلى حقيقة أن عدداً قليلاً جداً من السود كانوا يعيشون هناك. لكن على الأقل توجد "الحرية والتحرر" في إنجلترا.

أدت إقامته بالجزر البريطانية إلى وضوح طبيعة المشكلات في أمريكا أمامه، واكتشف أن أكبر عقبة تواجه تحرير العبيد لم تكن الثروة التي تدرها تجارةُ العبيد ولا الدستور والقوانين التى تدافع عنها، لكنها تكمن في الأحكام المسبقة الشنيعة ضد الزنوج. فالبيض قد وطنوا أنفسهم على وجود السود العبيد وعلى قهرهم "باعتبارهم شيئاً لا يمكن تجنبه حتى لو لم يكن مرغوباً. "فالتعصب

العنصري يمنح ملاك العبيد شعوراً بالرضا عن أنفسهم، ويطهر ذنوبهم التي تنتج عن معاملتهم للبشر كأنهم ثيران أو أدوات للجنس.

وما أقنع دوجلاس للعودة إلى الولايات المتحدة كان شعوره بالواجب تجاه رفاقه السود ورغبته الشديدة لإنهاء آلام العنصرية،فأعلن : "إنني لا أحمل حباً لأمريكا، وليس لدى إحساس بالوطنية، وليس لي وطن. ولكن في حبه لانجلترا لم يكره أمريكا:" إنني أحب الإنسانية عبر آفاق كوكبنا." لأن ما كرهه كان القوانين والكنائس والجرائد والتشريعات الأمريكية التي تدافع عن بقاء العبودية. وحينما كان بالخارج قامت أمريكا بإلحاق ولاية تكساس كولاية للعبيد وشنت الحرب علي المكسيك سعياً لكسب أراض جديدة لهم. وأراد دوجلاس أن يحطم حصن القهر هذا، وتمنى أن يمزق الدستور وينثره آلافاً من المِزَق، وأن يعيد بناء الحكومة من أساسها إلى قمتها ليفي بمبادئ الحرية والمساواة الواردة في إعلان الاستقلال. باختصار أراد ان يستورد لأمريكا بعضاً مما عاينه من انسانيته في إنجلترا.

وعندما غادر دوجلاس ميناء بريستول متجهاً للولايات المتحدة في بداية أبريل عام ١٨٧٤ كان رجلاً آخر. لقد قضى "أسعد لحظات حياته" في بريطانيا ومر بمرحلة تغيير كبرى، وصرح بذلك: "لقد عشت حياة أخرى!" فهو لم يكتشف فقط شكل الحياة في عالم



بلا عنصرية، وإنما تعلم أن الحب الأخوي لا يحتاج إلى الشر، وبعكس ارتباطه بويليام هوايت لم تتوقف الصداقة التى عقدها في بريطانيا على مدى التهديد الذى يشعر به المرء خوفاً على الحياة. ففي الواقع، عقد دوجلاس صداقات خلال عامين قضاها بالخارج أكثر من تلك التى عقدها في وطنه طوال سنى حياته إلى ذلك الحين، وممن شملهم بصداقته جوليا جريفيث، وريتشارد ويب، وجورج تومبسون، وتوماس كلاركسون، واليزابيث بيز، وايلين،وآنا ، وريتشاردسون. وكان يحظى بالشهرة والشعبية لدرجة أن بعض منتدياته حضرها أكثر من سبعة آلاف شخص. وقد حضر حفل وداعه الذى أقيم له في لندن حوالي أربعمائة فرد، وطوال تنقلاته قدم له عدد لا يحصى من الناس " يد الود والمعاونة والترحيب الصادق."

بل إن أصدقاء دوجلاس البريطانيين قاموا بحمايته بطرق تعامى عنها أصدقاؤه الأمريكيون. فبعد أن سمعوا تهديد أولد لدوجلاس بإعادته للعبودية، حثوه على البقاء في بريطانيا وجمعوا مبلغ ٥٠٠ دولار لإحضار آنا زوجته وأولاده كذلك . وعندما قرر دوجلاس العودة لأمريكا ، اتصلوا بهيو أولد الذى يملك دوجلاس قانوناً ودفعوا له (١٥٠ جنيه) إسترليني– أكثر من ٧٠٠ دولار– مقابل حرية فردريك دوجلاس. كما جمعوا تبرعاً اضافياً بلغ ٢٠٠٠ دولار

سلموها لدوجلاس كيما لا يقلق وأسرته بشأن مصاريف الحياة لفترة ما .

لم يقبل دوجلاس النقود إذ رأى أن قبولها سيخرجه من زمرة دعاة التحرر الذين يجب عليهم الكدح اليومي مقابل لقمة عيشهم، واقترح بدلاً من ذلك استخدام تلك الأموال في شراء مطبعة ليبدأ بها إصدار جريدته الخاصة الجديدة. كانت المحاولات السابقة لإصدار جريدة خاصة بالسود قد فشلت ، كان يومئذ بأن الجريدة التي تُدار جيداً ويحررها رجل أسود ستكون دليلاً ناصعاً على أن الزنجي إنسانٌ كامل وليس سلعة يمتلكها آخر. كان واثقاً من النجاح لأن اثنين من أكبر محرري أمريكا وهما هولارس جريلي، وثورلوويد بعدما قاما بقراءة قصته ونشر خطاباته من الخارج أطلقا عليه واحداً "من أكثر رجال العصر موهبة وطلاقة."

عندما وصل دوجلاس إلى بوسطون يوم ٢٠ أبريل كان رجلاً حراً بحكم القانون، ذائع الصيت في كل أنحاء بريطانيا وأمريكا، ومستعداً لبدء حياته المهنية الجديدة كصحفي. فاستقل أول قطار إلى مدينة لين "وعلى مدى خمسين ياردة من منزله قابله ابناه بعيونهم البراقة الفضولية: لويس ذو الستة أعوام، وفردريك الصغير ذو الخمسة أعوام. أما ولده الأصغر تشارلز فلم تكن لديه أدنى فكرة عمن يكون ذلك القادم إليه. بدت آنّا كمربية أكثر منها زوجة، وكانت تعاني من

ضعف صحتها والعمل الزائد . صرحت له آنّا بأنها كانت شديدة القلق بشأن أمنه لدرجة "أنها لم تسمح لنفسها بتوقع عودة زوجها لمنزله كي لا تصاب بخيبة الأمل." ولكن عندما اجتاز فردريك الباب – وطفلاه متعلقان برقبته– غمرها فجأة "شعور مفرط بالسعادة" .

لم تدم عودته للمنزل طويلاً إذ سرعان ما غادره– خلال أيام قليلة– لرحلة محاضرات أخرى. عندئذٍ قرر ترحيل أسرته مرة أخرى ونقلهم إلى روشيستر وهى مدينة صغيرة صاخبة ومحطة لقطارٍ نفقىّ تتأجج بنيران حزب الحرية إلا أنها تفتقر إلى جريدة لدعاة التحرير. عارضت آنّا ذلك الانتقال، لكنه أصر لأن هذا الانتقال الأسرى سيسمح له ببداية جديدة، فما كان له أن يدخل في منافسة اقتصادية مع جريدة الليبراتور كما لم يرد أن يخضع لتأثير رب عمله السابق.

أثارت رغبته في الانتقال غضب دعاة التحرير في بوسطون. أما جاريسون، الذى كان ينظر إليه باعتباره تحت حمايته ثم اكتشف أن ذلك ليس أمراً ذا بال بالنسبة إلى دوجلاس، فقد شعر أنه كالحبيب المهجور ولم يغفر له ذلك الهجر أبداً .

اتسع مدى ذلك الصدع ليشمل باقي الدعاة في بوسطون فاعتبروا دوجلاس مرتداً، وعارضوا عملية شراء حريته لأن ذلك يقر بحق



"الاتجار في البشر" وبالتالى لا يتفق مع مبادئ دعاة التحرير، وأرادوا من دوجلاس أن يعلن تخليه عن محاولات "عتقه" من العبودية. فقد كانوا حينذاك فهم يرون أنه من "اعبث " بالنسبة لعبد سابق تربى وسط تلال من الجهل أن يدعي القدرة على أن يكون محرراً ناجحاً، فالخطيب المفهوه الهارب- الذي يقوم بتعرية ظهره "المجلود" للجماهير التى يصدمها المشهد- شيء و المحرر الذى يقوم بتنوير وتثقيف القراء المتعلمين بمبادئ الحرية والعدالة والإنسانية شيء مختلف تماماً. الأمر لا يحتاج إلى جريدة- كما قالوا- لأنها لن تنجح، فجدوى ونفع دوجلاس مقصور على كونه خطيباً لا محرراً.

لم يؤثر ذلك النقد على دوجلاس رغم أنه عرف أنه وهو يواصل طريقه لصناعة نفسه سيهجر أصدقاءه وحلفاءه خلفه، فأصدقاء اليوم غالباً ما يكونون غرباء الغد، خاصة دعاة التحرير الذين كانوا يكرهون الحلول الوسطى ،وفي حين كان هو نفسه مستمراً في التغيير، ظلوا على ما هم عليه وإن تغيروا بطرقٍ متنافرة ،لأن دوام الحال من المحالوفي بجو التقلب نادرا ما يبقى الحب والصداقة.

***

عندما عاد لنكولن إلى مدينة نيو سالم من حرب البلاك هوك (الصقر الأسود) في خريف ١٨٣٢، كان محل التجارة العامة الذى عمل به قد تلاشت موارده. ومن ثم، احتاج إلى عمل آخر رغم أنه لم

يكن قلقاً إذ كان يتقاضى معاشه العسكرى (١٢٠ دولار) بالإضافة لوجوده وسط أصدقائه العديدين. فكر لنكولن في العمل حداداً لكنه تذكر مدى كراهيته للعمل اليدوى. كان شغوفاً بالقانون لكنه أدرك "أنه لن ينجح في هذا المجال دون تعليم أفضل". قرر أن يتمهل واشترى نصف حصة في متجر عام مشاركاً ويليام بيرى الذى كان ضابطاً للصف عنده أثناء حرب البلاك هوك وهو رجل سكير من أبناء القرى. وقد اشترى نصيبه هذا بضمانٍ موقعاً على إيصال ينص على موعد "للدفع الكامل لكل المبلغ".

كان ذلك استثماراً فاشلاً إذ كانت هناك ثلاثة محال تجارية بالقرية؛ إثنان منهم زائدان عن الحاجة. من هنا كانت المنافسة بينهم شديدة الشراسة، فساعده إخوانه من كلاريس جروف باستبعاد واحد من المتنافسين عندما أثملتهم الخمر ذات ليلة فقاموا بتحطيم محل يملكه روبين رادفورد. دمروا نوافذه وكسروا معداته وأتلفوا كثيراً من بضاعته. لم يشجع لنكولن أصدقاءه ولا قام بأي دور فيما فعلوه. لكن رادفورد "خشية أن تشارك عظامه مصير نوافذه" قرر بيع المحل فقام لنكولن وبيرى بشراء ما تبقى من تجارته بالائتمان.

بدأ العمل يزدهر . وكان لنلكولن وبيرى يبيعان مواد البقالة والسلع الجافة، والخمور الرخيصة، وكان معظم دخلهما من تلك الخمور. ورغم أن لنكولن لم يكن من شاربي الخمر بل ويعدها شراً

مستطيراً، إلا أنه لم يسمح لأخلاقه أن تعوق عمله التجاري. وفي الواقع أنه سعى هو وشريكه للحصول على تصريح ببيع الخمور في زجاجاتها- طلباً للمزيد من الدخل- مما حول مشروعهما التجاري إلى مزيج من محل البقالة وحانة الشراب. وفيما بعد- بعد عدة سنوات – عندما اتهمه خصمه السياسي ستيفين دوجلاس بأنه يمتلك مشروعاً تجارياً مزدهراً للبقالة في نيوسالم، أنكر لنكولن ذلك بقوله: "أنا لم أحتفظ طيلة حياتي بمحلٍ للبقالة في أي مكان أبداً." لكن العديد من جيرانه يتذكرونه جيداً وهو يبيع الخمور مشيرين لتجارته على أنها "محل للبقالة".

حتى تجارة الخمر لم تستطع إنقاذه، ففي خلال عام واحد انتهت تجارته، وأصبح بلا عمل مرة أخرى. وحصل له بعض أصدقائه على وظيفة مدير بريد تدرّ له نحو ٥٥ دولار في السنة وذلك في نيو سالم، ثم حصل على عمل آخر كعامل مساحة- لتموازنة الدخل والمنصرف - لكنه كان مديناً بـ(٢٠٠ دولار) وعندما حان موعد استحقاق الدين ولم يستطع أن يدفع، تم بيع جواده وسرج الجواد وأدوات المساحة في المزاد. ومرة أخرى أنقذه أصدقاؤه فاشتروا عدة المساحة خاصته وأعادوها إليه.

وانقلب حظ لنكولن عندما تم انتخابه بمجلس الولاية.



إذ كان لنكولن قد رشحَ نفسه في الانتخابات– جزئياً– من أجل المرتب لكنه كان– أيضا– يُحب الانخراط في السياسة ويحظى بتأييد العديد من الأصدقاء في مدينة نيو سالم. كان ينتمي– سياسياً– لحزب المحافظين[10]، ذلك الحزب الذى برزغ نجمه تحت زعامة هنري كلاس لمعارضة الرئيس أندرو جاكسون من الحزب الديمقراطي. وضع كلاي مركز برنامجاً للمحافظين دعاه "النظام الأمريكي" يؤيد وجود حكومة مركزية قوية ووجود بنك وطنى، ورسوم جمركية، وطرق وقنوات مائية وغيرها من التحسينات الداخلية التى تشرف عليها، و" تبنى معظم أعضاء الحزب– بمن فيهم كلاي– إصلاحات يمينية محافظة مثل الاعتدال والاستعمار كوسائل للحدّ من تجاوزات الديمقراطية خاصة السُكر والعبودية."

وبينما أبدى الديمقراطيون ميلاً لدعم العبودية ودافعوا عن حقوق الولايات ،فقد اعتبروا أنفسهم حزباً لبسطاء الناس، وادّعَوْا "أن حزب المحافظين يفضل نمو طبقة الأرستقراطية."

ورداً على ذلك أكد كلاى أن مؤيدي نظامه كانوا "رجالاً عصاميين ، وهو مصطلح تمت صياغته عام ١٨٣٢ وانتشر استخدامه بعدها . كان الرجل الأبيض بالنسبة لكلاي هو الوحيد الذى يمكنه أن يكون عصامياً، وقد صدّق لنكولن على كل مظاهر

---

[10] حزب نادى بالثورة على بريطانيا وعارض الحزب الديمقراطي وأصبح الحزب الجمهوري فيما بعد – المترجم

نظامه الأمريكى وأشار إلى كلاي باعتباره "المثال الجميل لرجل دولة بقيت أدافع عنه طيلة حياته المتواضعة"ـ وبقي هو نفسه على مبادئ المحافظين ما بقى من حياته.

فى عام ١٨٣٤خلال حملته الإنتخابية تجاهل لنكولن إنتماءه للنظام الأمريكي وفقاً لرؤية كلاي .إذ كانت مقاطعته منقسمة بين مؤيدي المحافظين في نيو سالم وبين مزارعى الكفاف الديموقراطيين في الريف.وما كان لينجح منطلقاً من برنامج المحافظين. لذا، فبدلاً من طرح القضايا السياسية للنقاش أسرف في الترحيب بالناخبين وتملقهم ، وكان كثيراً ما يرتحل في أرجاء البلدة كساعٍ للبريد مكوماً الخطابات في قبعته ويوزعها على المرسلة إليهم .ووفرت له هذه التنقلات فرصة لطلب أصوات الناخبين. كما أن عمله كمساح طبوغرافي ساعده كثيراً، ففى إحدى رحلاته تلك لمسح حدود بعض الأراضي على بعد إثنى عشر ميلاً غرب نيوسالم، شاهد ثلاثين فلاحاً يحصدون أحد الحقول وبعدما قدم نفسه لهم أخبروه أنهم لن يصوتوا لصالحه ما لم يقم بمساعدتهم في أعمال الحصاد. فأجابهم لنكولن " حسناً يا فتيان! لو أن هذا كل ما في الأمر، فأننى متأكد من حصولي على أصواتكم." وأمسك بآلة الحصاد وتقدم الجميع إلى الحقل. وتذكر أحد الفلاحين ذلك بقوله " وامتلأ الفتيان بالرضى، ولا أظن أنه فقد صوتاً واحداً منهم."

ألهمت الحملة الانتخابية لنكولن بضرورة دراسة القانون. فحتى ذلك الحين، كان يشعر دوماً بعدم كفاية استعداده لمثل تلك المهنة. وضحك بعض الناس في نيوسالم عندما تناهت لأسماعهم فكرة عمله كمحام، بل أن باولنج جرين- قاضي الصلح البدين - سمع لنكولن ذات مرة يقدم تعليقاً قانونياً فانفجر ضاحكاً لدرجة أن جوانبه السمينة اهتزت في ارتعاشات عنيفة. لكن خلال الحملة تلقى لنكولن الدعم والتشجيع من محامي سبرنج فيلد،جون تود ستيوارت، السياسي المحافظ وابن عم زوجته مستقبلاً. وبعد الانتخابات، استعار كتب القانون من ستيوارت: "وأخذ الكتب معه إلى البيت، وأقبل عليها بنهم شديد."

بدأ لنكولن دراسته القانونية بقراءة "تعليقات بلاك ستون"؛ ذلك المؤلف المكون من أربعة أجزاء لتاريخ القانون في إنجلترا والذي صدر لأول مرة عام ١٧٦٥ ثم أعيد نشره عدة مرات وكان مطلوباً دوماً عند المحامين الناجحين رغم حقيقة أنه "يأتي في الترتيب الثاني بعد الكتاب المقدس كمؤثر ثقافي وأدبي في تاريخ المؤسسات الأمريكية." وفيه شرح بلاك ستون تطور القانون كعملية عقلية منهجية وعلمية "تصف بدقة أحكاماً تتعلق بكل إنسان بدءاً من الملوك وصولاً إلى العامة". وكان تركيزه على النظرية والمبادئ وليس على الإجراءات، وكانت رؤيته بشأن كونها عملية متصلة غير

متقطعة تماشى مع الحالة القائمة. وظلت شروحه رائعة حتى للقراء المتعلمين، فرغم أن نثره كان رشيقا إلا أنه كان مكثفاً وبارعاً وخصب المعاني.

لقد أثرت شروحات بلاك ستون بصورة حاسمة في التفسيرات القانونية للرق. فمن ناحية يؤكد بلاك ستون أن "قانون الطبيعة باعتباره إملاءً من الله ذاته" أعلى مرتبة من جميع القوانين الأخرى؛ فقانون الإله أو القانون الطبيعي يفوق القوانين الوضعية[11] التي يشرعها الإنسان. وقد أسهم تأكيده هذا في صدور قرار سومرست عام ١٧٧٢ القاضي بتحرير العبيد بصورة فعالة في إنجلترا (حيث أكد المحامون البريطانيون بنجاح أن العبودية نقيضٌ للقانون الطبيعي). أما في الولايات المتحدة، فقد اعتمد حزب الحرية ودعاة التحرير فيه على كتاب بلاك ستون في إعلان أن أية قرارات حكومية لا يمكنها أن تسود فوق القانون الطبيعي الذي يمنع الرق. بيد أنه من ناحية أخرى افترض بلاك ستون أن القانون الطبيعي لم يؤثر على الحقوق التعاقدية لملاك العبيد.

قام أغلب المحامين الأمريكيين والقضاة بتفسير شروحات بلاك ستون بصورة محافظة إذ أعطوا الأولوية للقانون الوضعي والقانون العام (المؤسس على السوابق) فوق القانون الطبيعي. ونتيجة لذلك،

---

[11] تشير القوانين الوضعية للقوانين التي تسنها أو تقرها الدساتير والسلطات الحكومية. — المترجم

جذبت مبادىء القانون الأمريكي في عقود ما قبل الحرب الأهلية قليلاً من المصلحين الثوريين لأن تغيير المجتمع لابد وأن يتك على حساب من السوابق القانونية. وبالتالى فالمحامون الذين أصبحوا دعاة للتحرير إما أنهم هجروا العمل بالقانون كمهنة مثل ويندل فيلبس أو أصبحوا أعضاء في حزب الحرية.

وقد تأثر لنكولن ببلاك ستون كثيراً حيث يقول: "لم أقرأ أبداً مؤلفاً أثارني وهزني بشدة مثل ذلك." وانبثقت معارضته لانتشار الرق جزئياً انطلاقاً من احترامه للقانون الطبيعي الذى اعتبره مناقضاً للعبودية، ورأى أن القانون الوضعى الذى شرع العبودية كان استثناءاً للقانون الطبيعى بشأن الحرية. لكن للنكولن رأى أن القانون الطبيعى لا يمكنه أن يتجاوز القانون الوضعي وذلك يعنى أن الرق كان محمياً في الولايات التى تشرع قوانينها لذلك إلا أنه على الحكومة الفيدرالية أن تمنع انتشار العبودية إلى مناطق جديدة ليس بها مواثيق أو قوانين في هذا الشأن.

بينما كان المحامون النابهون يدرسون تحت إشراف مرشد بأحد مكاتب القانون، كان لنكولن يدرس دون معاونة أحد- حسب قوله وربما قرأ مؤلف بلاك ستون الضخم مرتين ثم تلاه بكتب الإجراءات القانونية. وكساعٍ للبريد ومالكٍ لمحل بقالة- سابقاً- كان يقرأ غالباً أثناء العمل من أشعار روبيرت بيرنز وحتى أعمال

شكسبير، بل وحتّى الجرائد. لكن تلك القراءات كانت خفيفة أما دراسات القانون فتطلبت استغراقه الكامل فيها دون مقاطعة. لذا، كان في الأيام التى لا يعمل فيها يجلس بجوار شجرة بلوط ضخمة وينكب فوق كتاب بلاك ستون "مُغيراً مكانه كلما ارتفعت الشمس ويغرق في التعلم" كيما يبقى في الظل "غير منتبه لأي شيء حوله سوى مبادىء القانون." استغرق كتاب بلاك ستون كل وقته حتى أنه كان يغفل عن موعد الطعام ففقد حوالى ثلاثين رطلاً من وزنه ليصل إلى ١٧٠ رطلاً.

بالنسبة لأغلب سكان نيوسالم، كانت دراسة لنكولن للقانون تشبه قليلاً محاولة أحد خريجي جامعة ييل الاشتباك في عراك ومشاجرات الأحياء الشعبية. وذات يوم، رأى راسل جودبى- وهو مزارع بالمدينة له لحية مدببة- لنكولن جالساً بجوار كوم من الأخشاب وهو يقرأ فظنّه غريباً وسأله: "ماذا تدرس؟" أجابه لنكولن: "أدرس القانون." فصاح جودبى: "يا الله العظيم القادر!" لم يكن هو الوحيد الذى كان قلقاً بشأن تسلط كتاب ستون على عقل لنكولن إلى درجة قد تصل به إلى حافة الجنون.

***

هندم لنكولن مظهره قبل أن يبدأ وظيفته الجديدة في فنداليا عاصمة الولاية، فاقترض ٢٠٠ دولار (١٥٠٠٠ دولار بعملة اليوم)،



واشترى ببعضها أول بذلة يمتلكها في حياته، وسروالاً على مقاسه تماماً، وبعض المستلزمات المطلوبة لتحقيق الاحترام وقميصاً أبيض وأزرة وصدرياً من الحرير وزوجاً من الأحذية الجلدية طويلة الرقبة وبعض الملابس الداخلية . وأخبر دائنه بذلك قائلاً: "أريد أن أبدو في مظهر رقيق في المجلس التشريعي." لكنه مهما أنفق على ذلك لم يستطع أن يمحو علامات نشأته الريفية، فملابسه دائماً ممزقة "ومنسّلة" وملطخة، والكلمات التي كان يستخدمها المتعلمون والمحترمون لوصفه غالباً ما كانت من مثل "مبهدل"، "جربان"، "قبيح"، " فظيع". وبعكس دوجلاس، لم يبد لنكولن أبداً كقطعة فنية جميلة.

مع ارتداء لنكولن هذا الكم الكبير من الملابس من أجل وظيفته، نجد مبنى الولاية شأنه شأن جميع المباني في المناطق الحدودية، وقد بدا متهالكاً لأنه لم يُشيد ليبقى للأبد رغم أن عمره عشر سنوات فقط، فالمرء يرى قطعاً من الجص تتساقط من سقفه مهددة حياة النواب، وغرفة المجلس المكونة من غرفة احتياطية ضخمة مزودة بمناضد خشبية خشنة، ووعاء كبير للماء (أو للخمر)معه عشرة أكواب. ومبصقة تشبه صندوق النفايات الذى يستخدمه ماضغو التبغ الذين يشكلون الجزء الأكبر من أعضاء المجلس الأدنى . هكذا تداعى المبنى حتى أنهار في عام ١٨٣٦ تماماً بل تقريباً انفجر إلى

داخله، وتعيّن بناء مبنىً آخر للمجلس، وما كانت بلدة فانداليا بساكنيها الألف أفضل حالاً من مبنى مجلسها إذ لم يكن فيها فنادق ولا أماكن إقامة سليمة وملائمة، مما أدى بنواب المجلس إلى الإقامة في الحانات المتعددة حيث يسود السُكر والتشاجر ويصبح جزءاً من الجو العام للمكان.

قضى لنكولن ثلاثة أشهر من السنة في فنداليا، وفي الدورة الأولى للمجلس شعر بالعزلة وعدم الأمان ونادراً ما تكلم رغم أن ثلث الأعضاء كانوا جُدُداً مثله. لكنه تعلم كيف يقدم ويمرر القوانين بسرعة في المجلس التشريعي وكيف يتعامل مع الحيوانات الضالة والمتوحشة، وكيف يجمع أموالاً لشق الطرق والقنوات الجديدة وكيف يُحسّن نمو الأعمال الاقتصادية كي لا تعود البلدة مدينةً للأشباح.

وكان أسلوب لنكولن في الكلام متكلفاً ومتوتراً، حتى إنه كان يتحدث بنغمة حادة تبدو غريبة عند صدورها من رجل في حجم لنكولن، بل إن تنوع خطابه – رغم تحسنه من قراءته لكتاب "الخطيب الكولومبي" – بدا مقتضباً، فقد اندفعت كلماته في انفجارات متقطعة وبدا – غالباً – متململاً أثناء حديثه، وعُرف عنه أنه يتكلم ويداه في جيوبه أو يلوح بهما بانفعال كرجلٍ ريفي من قرى الغابات يتحدث إلى أشباهه، يفتقر إلى بلاغة خطباء الشرق. لكن رجال تلك القرى كانوا يشعرون بالشك إزاء البلاغة الزائدة. ولو



استفاد فريدريك دوجلاس ورفاقه في بندلتون من تلك المعلومة، لكانت مَدَنيتَهم الصافية سبباً من أسباب هزيمة أبناء الريف هؤلاء.

وفي عام ١٨٣٦ عندما رشح نفسه لإعادة انتخابه، طالب الناخبون في نيوسالم مرشحيهم "بالكشف عن انتماءاتهم" وذلك بتحديد برامجهم، ومع تدفق المهاجرين الأيرلنديين إلى الولاية للعمل في شق القنوات أضحت قضية حق التصويت مسألة محورية لأن أولئك العمال لم يكونوا يحوزون أية ملكيات فصوتوا لصالح الحزب الديمقراطي. لذا، لم يرغب لنكولن في أن ينالوا حق التصويت أبدا إذ قال: "أدعو للسماح لكل البيض بحق التصويت، أولئك الذين يدفعون الضرائب ويحملون السلاح (وبالتالي يُقصى النساء كذلك). فالرجال البيض الذين يدفعون ضرائب الملكية أو يخدمون بالقوات المسلحة الأهلية هم من يجب السماح لهم بالتصويت (ولم تكن هناك ضرائب على الدخل وقتها). كانت إشارته الاعتراضية للنساء تستهدف التنكيت لأن الكل يعلم أن حقوق النساء قليلة ولا يستطعن دفع ضرائب الملكية ولا الخدمة المسلحة ولا حتى التصويت. في حين كان دعاة التحرير من أمثال دوجلاس وجاريسون ينادون بحقوق متساوية للجميع. أما لنكولن فقد تبنى برنامج المحافظين واستخدم وضع المرأة باعتبارها من الدرجة الثانية مصدراً للضحك، كما أن السود حُرموا من حق التصويت في ولاية إلينوى، فأراد لنكولن الإبقاء

على ذلك الوضع والواقع أنه قام بنفسه بانتقاد مارتن فان بورين بقسوة لاعتناقه مبدأ حق التصويت للسود في ولاية نيويورك. وبالنسبة لقضية حق التصويت، كان لنكولن براجماتياً، فالدعوة لحقوق السود والنساء تعد انتحاراً سياسياً. لكنه كان في الجزء الآخر من برنامجه متبصراً ومثالياً، حيث أراد لولايته الحدودية أن تنشئ نوعاً من شبكة النقل شبيهة بما قضت ماساتشوستس حوالي قرن في تنفيذه، وأراد أن تقوم الحكومة الفيدرالية بالإنفاق على ذلك من حصيلة بيع الأراضي العامة.

كان برنامج نخبوياً ، فالمهاجرون سوف يقومون بشق القنوات والطرق الممولة فيدرالياً لتفيد الرأسماليين لكنهم يجب الا يُمنحوا حق التصويت.

والمفارقة أن برنامج لنكولن تجاهل وضعه الاجتماعي هو نفسه لأنه كان هناك الكثير مما يربطه بمزارعي الكفاف وعمال الحفر، فهو لا يحوز أية ملكية ولا شيئاً ذا قيمة يمكن بيعه عدا مهاراته المتواضعة في مجال العمل المساحي. وكانت خدمته في القوات الأهلية فقط هي التي تمنحه حق التصويت وفقاً لبرنامجه . لكنه كان يحسب نفسه على رجال الريف العصاميين ويخطط لبداية جديدة. وقد حصل على تلك البداية عقب انتخابات أغسطس عندما حصل على شهادة القانون التى سعى إليها .



كان برنامج لنكولن يستهدف إنقاذ نيوسالم من التدهور، لأن الطرق والقنوات المائية التى تمر عبر المدينة كانت في حالة شديدة السوء. ومن ثمّ، أخذت أعمال المدينة التجارية في الاضمحلال وحدث هروب جماعى إلى المدن الأكبر. كان النزوح شديد الأثر لدرجة أن قيمة الممتلكات هبطت بمقدار ٩٠٪ في سنة واحدة، وساعدت أجواء القلق بشأن مستقبل المدينة لنكولن على الفوز رغم أنه خسر أصوات الفلاحين الكادحين في المناطق الريفية مثل كلاري جروف، وحتى صديقه جاك أرمسترونج، وهو فلاح فقير، قرر ألا يُصوت لصالحه.

خلال دورة المجلس لعامى ١٨٣٦- ١٨٣٧، صنع لنكولن من نفسه زعيماً للمجلس .وعمل جاهداً ضمن مجموعة مكونة من ثمانية أعضاء على نقل العاصمة من فنداليا إلى سبرنجفيلد وإنشاء طرق وقنوات جديدة . وكان أولئك الأعضاء المعروفون بلقب "الطوال التسعة"- لأن متوسط طولهم كان ستة أقدام- يؤكدون أن فنداليا صغيرة جداً ونائية إلى الجنوب بأكثر مما يجب في ولاية يتطور النمو فيها إلى الشمال. فدبروا ١٠ ملايين دولار من سندات تصدرها الولاية لمدّ سلسلة من السكك الحديدة فيها .

لكن الاضطراب الذى وقع عام ١٨٣٧ دمر المشروع العظيم لبناء الطرق الذى تبناه التسعة الطوال وأغرق الولاية فيما يشبه الإفلاس،



إذ بيعت الصكوك مقابل ١٥ سنتاً لكل دولار، وأصبح ريف إيلينوى مملوءاً "بالطرق غير المكتملة وبالقنوات شبه المحفورة"، وأضحى رمزاً للأزمة الاقتصادية لعدة سنوات. واتهم الناس لنكولن بالتسبب في الانهيار لكنه كان يعرف كيف يقاتل وهو يتراجع ويصمد في الهجوم.

ونجح فريق "التسعة الطوال" في تحقيق هدفهم لنقل العاصمة إلى سبرنجفيلد التى كانت على بعد عشرين ميلاً فقط من نيوسالم، وقد نشط الاقتصاد هناك بفعل ذلك الانتقال، واستفاد منه لنكولن وأمثاله من العصاميين الطموحين. ففي الواقع، تبع ذلك انتقال لنكولن إلى سبرنجفيلد حيث بدأ مشاركة زميله في حزب المحافظين والمستشار القانونى جون تود ستيورات في العمل القانونى. وفي واحدٍ من آخر قوانين الدورة التشريعية لعامي ١٨٣٦- ١٨٣٧، كشفت الجمعية للمجلس عن مدى إغراق ايلينوى المحافظة في العبودية، فقد مرر المجلس- بصورة مجهولة المصدر تقريباً- سلسلة من القرارات التى تحظر إنشاء جمعيات لدعاة التحرير تدافع عن الحق "المقدس" والدستوري في امتلاك العبيد في ولايات يوجد بها ذلك النظام البشرى واقعا، ودللت على ذلك بعدم قدرة الحكومة الفيدرالية "المركزية" على منع الرق في مقاطعة كولومبيا دون رضا المواطنين.

كان لنكولن مع رفيقه السياسى المحافظ دان ستون هما المنشقان الوحيدان هناك. لكن حينما أصدرا اعتراضاً رسمياً، كانت وجهات نظرهما لا تختلف كثيراً عن أراء الجمعية العامة. الفارق الوحيد هو أن لنكولن وستون وصفا العبودية بأنها "خطأ"، لأنها نجمت عن ظلم وسياسة خاطئة "لكنهما لم يؤيدا جمعيات دعاة التحرير بوضوح" لأن دعاوى مبادىء دعاة التحرير تميل إلى زيادة شرور الرق لا إلى القضاء عليها." لكن كيف يزيد دعاة التحرير من شرور العبودية؟ ذلك ما لم يوضحاه أبداً. لكنهما في ولاية أسسها الجنوبيون لم يستطيعا إبداء تعاطفهما مع خصوم مؤسستهما. وقد عكسا صدى قرارات الجميعة العامة للمجلس بالتأكيد على أن أية مسائل تتعلق بالرق وبعتقهم لابد وأن تترك لسادة العبيد أنفسهم. وهكذا كانت قرارات المجلس واعتراض لنكولن وستون رد فعل حذر ومحافظ أمام مشكلة العبودية، وعندما دخل لنكولن انتخابات الرئاسة أشار لذلك الاعتراض وقال إن موقفه من العبودية لم يتغير منذ عام ١٨٣٧ حتى عام١٨٦٠. لكن تلك كانت كذبة ووسيلة لاتقاء الاتهامات الموجهة له كرجل راديكالى. وخلال الأعوام الثلاثة والعشرين التالية، سيصبح أقل انتماءاً للفكر المحافظ.

***



انتقل لنكولن إلى سبرنجفيلد يوم ١٥ أبريل من عام ١٨٣٧، مخلفاً وراءه بلدة تحتضر لتصبح- سريعا- مدينة للأشباح، ومعها مشروعين فاشلين للزواج. في الخطبة الأولى تقدم للزواج من آن روتليدج ابنة أحد ملاك الحانات الذي كان يقطن عنده لبعض الوقت،"وهي أصغر منه بثلاث سنوات، وكانت قصيرة ومكتنزة وتعد واحدة من أجمل بنات القرية." كانت مخطوبة لرجل آخر اسمه جون ماكينل مما أثار العديد من الأسئلة حول مدى جدية خطوبتهما. وبافتراض أن ماكنيل غادر نيوسالم لزيارة والديه في نيويورك، إلا أنه غاب لشهور طويلة مما أثار عددا من الأسئلة حول شخصيته، وفى بدايات ربيع ١٨٣٥ وافقت آن على الزواج من لنكولن إذا ما استطاعت الحصول على "فسخ مشرف لخطوبتها" من ماكينل. كان لنكولن قد عاد لتوه من الدورة الأولى للمجلس في فنداليا، ولم يكن على عجلة من الزواج فآن تحتاج إلى وقت كيما تتخلص من خطوبتها، ولنكولن أراد أن يستكمل دراساته القانونية ليلحق بنقابة المحامين. لذا، حددا موعدا مؤقتاً في أواخر عام ١٨٣٦ أو ١٨٣٧، لكن آن أصابتها "حمى" أصابتها في المخ- ربما كانت التيفود- في صيف ١٨٣٥ القائظ الممطر، ثم ماتت في أغسطس من نفس العام، وألقى موتها لنكولن في اكتئاب حاد (فقد كان حقاً يميل إليها) وتعامل مع الموقف بالاستغراق في دراساته القانونية، ورغم



أن موت آن أزعجه، إلا أنه كان رمزاً "باقتراب نهاية نيوسالم بالنسبة له."

كانت الخطبة الأخرى لماري أونز، وهي امرأة من كنتاكي قابلها لنكولن أول مرة عام ١٨٣٣ عندما كانت تزور أختها في نيوسالم. كانت متعلمة جيداً ومتحدثة وطليقة الكلام أحياناً، ومن نفس عمر لنكولن (خمس وعشرون سنة وقتها). كانت ماري تنحدر من أسرة ثرية بصورة متواضعة، وكانت "مهذبة السلوك ممتعة الحديث، ولها جاذبية في المجتمع،" وفقاً لوصف أحد جيرانها. كان لها شعر أشقر وعينان زرقاوتان داكنتان، ولم يكن طولها عادياً بالنسبة لامرأة، إذ كانت تصل لخمسة أقدام وخمس بوصات ويبلغ وزنها ١٥٠ رطلاً. أوقع مرآها لنكولن في هواها ، إذ راح يتفاخر أمام أحد أصدقائه بقوله إن ماري لو عادت لزيارة أختها مرة أخرى لتزوجها، وسواء سمعت أختها بذلك أم لم تسمع، فقد قامت بدور "الخاطبة" بينهما فأعادت ماري لنيوسالم لزيارة ثانية عام ١٨٣٦، وبدأ الاثنان في التواد ثم عقدا الخطوبة في الحال.

أحبت ماري لنكولن واعتبرته "رجلاً له عقل صافٍ، ورغم كونه جلفاً إلا أنه نشط ومبدع"، وتوقعت أنه سوف يسمو فوق مكانته البسيطة والمتواضعة في المجتمع يوماً ما. ١٥١ لكن ماري كان لها طموحاتها أيضاً، إذ رأت أن لنكولن "رجل هزيل الجسم متعثر



الخطى" في مظهره، وباختصار (ليس منظراً) وهو "عيب في تلك الحلقات البسيطة التى تشكل السلسلة الكبرى في سعادة المرأة."

ذات يوم وهما في فترة التعارف ذهبا يتجولان ممتطين جوادين ومعهما قلة من القرناء، فواجها شجرة ساقطة وسط الطريق. وبينما كان الرجال يقومون بمساعدة رفاقهم على العبور، انطلق من بينهم لنكولن قافزاً عليهم. تتذكر مارى ذلك بقولها إنه حتى "لم ينظر خلفه ليرى كيف سأجتاز المسألة." وعندما سألته- متضاحكة- عن ذلك الموقف أجابها أنها: "ذكية جداً بما يكفى لرعاية نفسها بنفسها." لم تعلق على تلك الواقعة، لأنها أدركت أن وقاحة لنكولن ناجمة عن قلة الخبرة وليس عن الوضاعة، ففي أغلب الأحوال كان "حساساً تجاه أى خطأ" كما قال بنفسه، والرجال المتعلمون الواعون كانوا نادرين.

عندما ذهب إلى فنداليا لحضور الدور التشريعي لعامي ١٨٣٦- ١٨٣٧، شعر بأنه يفتقد ماري، وظل ينتظر خطاباتها وكتب إليها بأسلوبه المتردد: "حقيقة لا يمكننى تحمل فكرة البقاء هنا عشرة أسابيع ... أرجو أن تكتبي لي حالما يصل اليك مكتوبي هذا ولو أمكنك أن تقولي لى شيئاً يسرنى، لأنني فعلاً لم أجد مايسرني منذ غادرتك."

لكن بعد انتقاله إلى سبرنجفيلد شعر لينكولن فجأة برعب



وخوف شل تفكيره . وعندما يحاول كتابة خطاب غرامي وهو في فنداليا، كان يخط ملحوظة تمتليء بالأسى: "إنني وحيد تماماً هنا كما كنت طيلة حياتي بأي مكان آخر." لكنه لم يكن في الواقع وحيداً من أجلها "وأخشى أنك لن تكوني على راحتك. في سبرنجفيلد "فهنا ازدهار كبير في حركة العربات، سيكون قدرك أن تشاهديها دون ركوبها، حيث ستكونين فقيرة دوماً وسيلة لإخفاء فقرك، هل تظنين أنك قادرة على تحمل ذلك في صبر؟" لأنه كان مدركاً مدى رفاهية تربية ماري مقارنة بنشأته الفقيرة. انتابه القلق حول قدرته في توفير وسائل عيشها كما اعتادت أن تحيا . بالتالي، كان يعاني من أزمة في إحساسه بالرجولة. كان لينكولن غير مطمئن بشأن الزواج من امرأة بهذا الوضع لدرجة أنه تمنى إيقاف الزواج. لكنه لم يرغب في فقدان ماء وجهه إذا ما فك ارتباطه بها من تلقاء نفسه. لذا، صمم خطابه بحيث يدفع ماري لاتخاذ هذه الخطوة من جانبها، فكتب لها أنه: "ملتزم بشدة بخطوبتهما والسعي للزواج بها . . متمنياً "إنها ترغب في ذلك" . ثم قدم لها نصيحته بقوله: "في رأيي أنه من الأفضل لك ألا تفعلي ذلك، لأنك لم تعتادي الحياة الخشنة وربما يكون الأمر أقسى مما تتخيلين الآن." وباعتبار ماري سيدة راقية فقد أدركت تلميحه وسرعان ما فسخت الخطوبة .

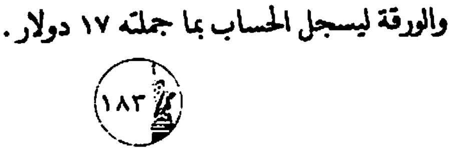
وبعد ثمانية أشهر، وبمجرد أن انتهت مخاوفه وبقيت كرامته

كرجل سليمة، حوّل لنكولن تلك الصدمة إلى نكتة، ففي أحد خطاباته بمناسبة "كذبة أبريل" عام ١٨٣٨، الذى أرسله إلى إليزا براونبج – وهي زوجة أحد رفاقه بحزب المحافظين وكان يثق بها– روى لها تلك الحكاية دون أن يذكر اسم مارى، وقال إنه وافق على الزواج بها حينما رآها "قبل ثلاث سنوات من الواقعة، معتقداً أنها ذكية وملائمة، ورأى عدم وجود سبب للاعتراض على خوضهما الحياة يداً بيد معاً ." لكنه عندما رأى مارى مرة ثانية بعد السنوات الثلاث أرعبه منظرها: "لأنها بدت غير ما تراءت في مخيلتي. كنت أعلم فعلاً أنها ممتلئة، لكنها بدت الآن أشبه كثيراً بشخصية (فولستاف) السمينة التى أبتكرها شكسبير، وأضاف: "أعلم أنها كانت تدعى (العذراء العجوز)، ليس بسبب ملامح ذابلة لأن بشرتها كانت ممتلئة بالدهون لدرجة لا تسمح بظهور الأخاديد عليها، وإنما كان ذلك بسبب تساقط أسنانها، ومظهرها الذابل المنسحق بشكل عام، وأيضاً بسبب فكرة ما طرأت على ذهني بأنه لا يمكن لشيء يبدأ من حجم طفل ليصل إلى هذا الحجم– الذي هى عليه الآن– إلا بمرور خمس وثلاثين أو أربعين سنة على الأقل عليها ."هنا يسقط لنكولن مخاوفه بشأن الزواج من امرأة ثرية ذكية وشابة راقية ليحولها إلى شمطاء سمينة وعجوز ثرماء . بل وتمادى لينكولن في وصف زواجه المقبل من مارى ليدعى أنه نوع من القيد

الأكثر سوءاً من عبوديته السابقة لوالده، "وأقسم ألا يعود للتفكير في الزواج أبداً. "فقيود الزواج هددت اعتزازه برجولته، مثيرة إحساسه بالخوف من واجباته والتزاماته كزوج، إذ كان قد انتقل لتوه إلى سبرنجفيلد كيما يبدأ مستقبلاً مهنيا جديداً، ومثل باقي أبطال المناطق النائية في المخيلة الأمريكية، كان في حاجة إلى فراغ كافٍ يتحرك فيه، وليس في حاجة إلى امرأة تقيده في المكان، ومن ثمّ لم يشعر لنكولن بالارتياح للنساء العزباوات اللواتي يجعلنه مصدرا للسخرية "كن يضحكن منه في وجهه" هذا ما قالته إحدى الفتيات عنه. ونتيجة لهذا، كان يفضل عليهن الرجال الذين كان يشعر معهم بالارتياح والضحك والتندر بل والعراك. وكما نوه بذلك أحد جيرانه في نيوسالم قائلاً: "لم يبد عليه أنه يعرف ما يقول وسط صحبة من السيدات العزباوات . . بل لم يكن يشعر بالارتياح أبداً مع النساء. أما مع الرجال فقد كان رفيقاً محبوباً. في الواقع، كان يشعر بالحرج بشأن النساء لدرجة أنه عندما كان يعمل في المحلات العامة كان يتجنب القيام بخدمتهن، مفضلاً التعامل مع الرجال والصبية." فإذا ما كان لنكولن زعيماً بين الرجال بفضل حجمه وقوته وعشقه للنكات القذرة، إلا أن نفس تلك الملامح هى التى تجعله غريباً بين النساء.

يفسر ذلك أن رفيق روح لنكولن وحب حياته كان رجلاً يدعى جوشوا سبيد، وكانا قد تقابلا بأحد المحلات العامة. ربما كانت علاقتهما الجديدة قد أسهمت في نفوره المفاجيء من بماري أوينز.

وفي أبريل ١٨٣٧ مضى لنكولن في طريقه إلى سبرنجفيلد على حصان اقترضه ومعه كل متعلقاته (قليل من كتب القانون وبعض الملابس) مكوّمة داخل حقيبتين بسرج الحصان. وتوقف عند محل بيل وشركائه على الجانب الغربي للمدينة، ووضع حقيبته على طاولة البيع، وتساءل كم يكلفه شراء مرتبة وأغطية ووسادة. كان البائع النحيف الصغير خلف الطاولة هو جوشوا سبيد، وهو شريك صاحب المحل. كان له وجه طويل رقيق له خدان مرتفعان، وشعر ممشط جيداً، وشفتان ممتلئتان مفترقتان، وعينان تطل منهما الحكمة والمرح. كان يصغر لنكولن بخمسة أعوام ويبدو مثقفاً بل مهذباً. كان ابن أحد مزارعي كنتاكي الأثرياء ممن يملكون حوالي ستين عبداً، وجاء إلى سبرنجفيلد لجمع ثروته الخاصة، ورغم أنه لم يقابل لينكولن من قبل،فقد عرفه إذ حضر له مناظرة مع خصم من الديمقراطيين في سبرنجفيلد عام ١٨٣٦. كان أول انطباعاته عنه أنه "رجل طويل، قبيح، متثاقل بلا ملامح." لكنه شاركه سياساته المحافظة حيث أذهلته كلمات لنكولن وها هو الآن يتناول القلم والورقة ليسجل الحساب بما جملته ١٧ دولار.



هنا قال لنكولن: "ربما كل ذلك رخيصٌ بما يكفي. لكنني أود أن أخبرك برغم ذلك الرخص، أنني لا أملك نقوداً لأدفعها. لكنك إن أردت بيعي هذه الأشياء بالدين حتى عيد الميلاد القادم فلسوف أدفع لك خاصة أن مهنتي هنا كمحام ناجحة، وإذا فشلت فقد لا أدفع لك أبداً."

كان في صوته تلك الرنة من الشجن التي جعلت سبيد "يتعاطف معه"، وحينما أخذ يحملق فيه رأي ذلك الحزن مرتسماً على وجهه لدرجة أنه اقترح عليه حلاً بديلاً بقوله: "إن لدى غرفة واسعة جداً وبها سرير مزدوج، أرحب بك لمشاركتي فيه إذا رغبت في ذلك." فسأله لنكولن: "أين غرفتك؟" فرد عليه:" إنها في الدور الأول." مشيراً إلى السلالم ومرشداً إياه إلى الغرفة. دون كلمة، تناول لنكولن حقيبته وصعد السلالم، وبعد دقائق هبط مرة أخرى وقد أشرق وجهه بالسعادة، وهو يقول: "حسناً يا سبيد، لقد انتقلت ها هنا."

هكذا أصبح الرجلان رفيقيّ فراش. وطوال الأربعة أعوام التالية، ولفترة طويلة إلى أن تمكن لنكولن من توفير غرفة خاصة له، ناما معاً في نفس الفراش الذى يعلو المحل متشاركين أكثر أفكارهما حميمية. هكذا قال سبيد واصفاً علاقتهما: "لم يوجد رجلان أكثر منا حميمية أبداً إذ كرس لنكولن قلبه كلية لي." وقد ردد ذلك صديق مشترك لهما تلك المشاعر قائلاً: "إن لنكولن أحب ذلك

الرجل أكثر من أى إنسان آخر حياً أو ميتاً." حتى أن ابنه روبرت تود لنكولن أكد أن سبيد كان "أكثر أصدقاء والده حميمية طوال عمره."

فى تلك الغرفة، تشاركا أحلامهما وطموحاتهما- لينكولن الطامح إلى الشهرة وسبيد الحالم بالثروة- وتداولا الشائعات حول سكان البلدة وسرعة نموها، وتناقشا في السياسة وشجعا معاً حزب المحافظين. لكنهما غالباً ما تكلما في أمور الأدب وشئونهما الخاصة. قد قام سبيد بتعريف لنكولن بإبداعات اللورد بايرون ذلك الشاعر الليلى الحساس الشهير والبطل المثالي لدى سبيد حتى أن سبيد كان يرتدى "ياقة بايرونية" تدور حول عنقه صاعدة إلى أن تلمس ذقنه. أما لنكولن فقد كان يلقى قصائد كاملة للأديب روبيرت بيرنز ومقاطع طويلة من أعمال شكسبير من ذاكرته. ومن خلال تلك المشاركات، أصبحا يحملان مشاعرَ ودٍ تجاه أدبائهما المفضلين، كما انجذبا بشدة نحو الأدباء المعذبين الرومانسيين من أمثال بايرون. وعندما كان يصاب أحدهما بالاكتئاب يسارع الآخر ليقوم بدور الممرض والراعي، ليساعده على الخروج من "وساوسه" هكذا أسماها لنكولن. استخدما المرح وسيلة للتخلص من الشجن ومجاراة مآسي الحياة.

وكانت العلاقة الرومانسية بين لنكولن وسبيد- في نواح عديدة- تتبع المُثُل المسيحية والكلاسيكية في صداقة الذكور التى كانت سائدة في عصر ما قبل الحرب .فالصديقان الحميمان يصبحان رفيقيّ الروح، ويتحد جسداهما في روح واحدة، وفقاً لما قاله أرسطو الذى ابتكر مثالاً للصداقة الروحية ثم اندمجت فكرته في التقاليد الأمريكية والمسيحية. بالتأكيد هناك أنواع مختلفة من الصداقة، معظمها نفعية. لكن في حالة الصداقة الروحية أو الرومانسية، فالرجلان يحبان بعضهما ويحترم كل منهما الآخر ويكونان في الأساس متشابهين، ويعبران عن عواطفهما بطرق روحية أو شاعرية أو فكرية، وغالباً ما تكون جسدية.

كانت أشهر علاقة صداقة ذكورية في القرن التاسع عشر تمثل ذلك النموذج وتلقى أضواءاً على طبيعة العلاقة بين لنكولن وسبيد، وهى علاقة أشمايل وكويك ويج التى وردت بتفاصيلها الرومانسية في رواية ملفيل، واصفةً العلاقة بأنهما "كانا يتامان معاً في أجمل وأرق مشهدٍ محببٌ. .كما لو كانا . . أصدقاء ثدى واحد . .كانا يشبهان . .الرجل وزوجته" فاتحين أعماق روحيهما كُلاً لرفيقه،" ويستمتعان معاً في "قلبيهما بشهر عسل صافٍ . . كانا كعصفورين متوادين آمنين." كان هناك – أيضاً– إيحاء بانفعالات جنسية. رغم كبتها، كانت مشاعر الحب بين إشمايل وكويك ويج تتم فوق نفس

السرير(فى خان سباوتر) حيث كان المالك وزوجته (مضفورين بعضهما) في إثارة تستدعى مسارات العشق في فراش الزوجية. أما النموذج الثاني فهو علاقة "هك فن وجيم" إذ كان كل منهما ينادي الآخر باسم "يا عسل!" ودائماً ما كانا "عراة ليلاً ونهارا"وهما يبحران أدنى نهر المسيسبى في خمسينات القرن التاسع عشر، غير بعيدين عن المكان الذى يعيش فيه لنكولن وسبيد.

كما هو واضح مما تشير إليه تلك النماذج، نجد أن الأعراف الجنسية في سنوات ما قبل الحرب الأهلية كانت أقل تشدداً عما هى عليه اليوم. فادوار النوع الاجتماعى كانت تنساب لمنتهاها لدرجة أن التمييز بين علاقات المثلية الجنسية وبين الطبيعية (بين طرفين مختلفين) لم يكن قائماً، فدعاة الأخلاق يصفون كل العلاقات الجنسية الصريحة المعلنة خارج إطار الزواج بأنها خطيئة، ويتعاملون مع علاقات الجنس بين الذكر والذكر بصورة لا تختلف عن تعاملهم مع علاقات الجنس بين الذكر والأنثى، وكانت التعبيرات الأكثر عمومية في مجال الحب (أو حميمية العلاقة) بين رجلين أو امرأتين تعد عادية تماماً : " فالنساء يتعانقن ويقبلن وينمن معاً ويُعلن الحب تجاه نسوة أخريات. "، و"الرجال يفعلون نفس الأشياء مع رجال آخرين" دون أن يثيروا الاستنكار، ولو تم التعبير عن تلك العواطف بصورة

جنسية صريحة، كان دعاة الأخلاق يرمونها "بالخطأ" بغض النظر عمن كان يقوم بذلك ومع من .

لقد نبع ذلك الانفتاح على علاقات الجنس المثلية جزئياً من تفسيرات الناس للكتاب المقدس حيث لا يعد الجنس بين الذكر والذكر أمراً غير طبيعي ولا يتم التعامل معه بصورة مختلفة كثيراً عن الجنس بين الذكر والأنثى خارج رابطة الزواج. لذا فقد رفعت الحكومة يدها عن الجنس تماماً، ونادراً ما تم تطبيق قوانين لتنظيم الدعارة أو اللواط . وكانت هناك أربع ولايات فقط تطبق فيها قوانين الفحش التى تحظر الأدب الجنسي الفاضح بينما كانت كل ولايات الجنوب قد حاولت منع أدب دعاة التحرير داخلها .كما لخص أحد المؤرخين ذلك بقوله: "وسط المناخ الاجتماعي الحر والبسيط الذي ساد أمريكا قبل الحرب الأهلية، كان التصريح بالعلاقات العاطفية المنفتحة بين الأشخاص من نفس الجنس أمراً شائعاً، إذ كان الفاصل بين الصداقة الجنسية والرومانسية، بين اللذة والعشق، بين الشهوة والحب، حداً مشوشاً وغير واضح بالفعل.

هناك حالات قام فيها بعض الأصدقاء بالإفصاح عن ولههم الجنسي علانية. فقبل عقد من لقاء لنكولن بسبيد أخبر توماس جيفرسون ويزرث– وهو طالب حقوق من ساوث كارولينا عمره ٢٢ سنة– صديقه جيمس هنري هاموند بمدى حبه للنوم معه قائلاً:

"أشعر بميل ما لمعرفة ما إذا كنت تنام في قميصك الطويل، وإذا ما كنت تجد متعة مفرطة في لكز والضغط على زميل فراش يتلوى لعمودك اللحمي ...تلك اللمسات الممتعة التى غالباً ما حزت شرف الشعور بها ؟" وقد طمس ويذرث الحد الفاصل بين العشق والجنس، ويستكمل صراحته بقوله: "سيدى لقد كنت تقلق النوم الناعم لرفيق فراشك بمثل تلك الهجمات العنيفة الوحشية التى كنت تعتادها معه، عندما لم يكن لديه أقل استعداد للدفاع في مواجهة تلك القوة المخترقة المحطمة."ومن الواضح أن صداقتهما تلك لم تهدد إحساسهما بالرجولة ولا مكانتهما الاجتماعية.بالفعل أصبح ثيذرث قاضياً في محكمة الاستئناف في ساوث كارولينا واصبح هاموند نائباً بمجلس الشيوخ للولايات المتحدة – محققاً الشهرة – وحاكماً لولاية وأنجب كلا الرجلين أبناءاً وانضما للفيدرالية المنشقة.

كان اللواط منتشراً أيضاً في الجيش . وفيما بين بحارة السفن والأسطول وقوات مشاة البحرية ، بل كان استمناء أحد الرفاق لرفيقه كان منتشراً لدرجة أن أسموه "النهز" وقد أطلق هيرمان ميلفيل– الروائي– على إحدى شخصياته القصصية "الهزاز" في قصة حياته على سفينة من سفن الأسطول ووصف البحارة وهم "يصقلون أدواتهم المعدنية أو مؤخرة مدافعهم والرفاصات والمثاقيب



وقطع الحديد ومثل تلك الأشياء . " كان أولئك البحارة يتجاهلون أو يسخرون من دعاة الأخلاق الذين يعتبرون الاستمناء مرضاً يمكنه أن يقتل المرء . وهناك بحار آخر هو فليب فان بوسكر احتفظ بمذكرات يومياته التى تروى تفصيلات عن ممارسة اللواط بكثرة يتعجب معها كيف أمكن لسفينة يحدث بها ذلك أن تصل لمقصدها .

كما قام الشاعر والت واتيمان "بممارسة الحب" مع الرجال والنساء كمظهر لرؤيته الديموقراطية: "فالجميع ناقصون إذا كان الجنس مفتقداً، أو إذا افتقدنا نعومة الرجل المناسب." ويستكمل قوله جذلاً: "إننى مع هؤلاء الذين يؤمنون بالمتعة القصوى، فأنا أشارك الشباب حفلات العربدة بمنتصف الليل."هكذا كان مدى علاقات الصداقة الرومانسية الأمريكية.

ليس هناك برهان واضح على أن لنكولن وسبيد قد مارسا الحب الجسدي الشهواني ، ورغم أن خطابات سبيد إلى لنكولن خلال فترة علاقتهما الحميمة (في أربعينات القرن ١٩) قد ضاعت للأسف، وأن يومياته – التي يدعى البعض وجودها– لم تظهر للآن بعد . لكن في أحد خطاباته للنكولن أودع سبيد زهرة بنفسج، وهي زهرة ترمز لعلاقة شبقية، وأجاب لنكولن بقوله: "إن البنفسجة الرائعة التى أرفقتها بخطابك وصلت إلىّ بسلام لكنها كانت حبر

جافة حتى أنها انتثرت تراباً مع أول محاولة للمسها، ورحيقها الذى انتثر منها أحتفظ به وأرعاه."

تفتقر خطابات لنكولن إلى سبيد- عموماً- إلى العاطفة العميقة التى تتصف بها الصداقة الرومانسية. لكن لنكولن لم يعلن أبداً عن ذلك النوع من الحميمية الرومانسية في خطاباته ولا حتى لزوجته وأبنائه، إذ كان يفضل "الجُمَل القصيرة والأسلوب الموجز"، وكان هذا ما قاله لسبيد ذات ليلة وهو شكل كتابى لا يشجع على المراسلات الحميمة، فهو يكتب- خطاباته- كمحام لا كعاشق . ورغم ذلك، ما تزال الخطابات التى كتبها لسبيد أكثر النصوص وداً من بين ما كتبه لنكولن. كان يوقعهم بكلمة "المخلص للأبد" و"صديقك"، بالإضافة إلى أنه كان يتيح مجالاً لسبيد كي يعلم مدى ما يحمله له من رعاية واهتمام، حيث بدأ أحد خطاباته بالعبارة التالية: " أنت تعلم جيداً أننى لا أشعر بأحزانى الشخصية أكثر مما أشعر به تجاه أحزانك أنت حينما أعلم بها." وعندما كان سبيد بعيداً عنه قال له إنه يفتقده كثيراً وإنه قلق عليه. نجده يقول في خطابه: "أريدك أن تكتب لى في كل بريد." ثم يعترف في آخر: "لسوف أكون وحيداً جداً بدونك." ثم يعبر عن حبه الخالد له في خطاب آخر: "أنت تعلم رغبتى في استمرار صداقتك للأبد، وأننى لن أتوقف عن ذلك وأنا أعلم كيف أفعله."

لكن لنكولن لم يعبر عن ميله الصريح لحب الذكر للذكر- الا في أشعاره ونكاته البذيئة- ففي قصيدة كتبها كجزء من مزحة ساخرة يصف فيها أن جاره بيلي بعدما هجرته النساء احتقاراً، وجد متعته مع عشيق ذكر هو " ناتي" قال:

لكن بيلي تزوج صبياً
والفتيات اللاتي حاول معهن كثيراً
لم يجد بينهن من ترتضيه
فكل محاولاته ذهبت سدى
لذا عاد لمنزله من جديد
ومن يومها تزوج " ناتي"
وهما الآن متلائمان جيداً
وأمه سعيدة تماماً بذلك التلاقي .

وبعد عدة سنوات سيكون على لنكولن أن يرد صدى هوايتمان بإشارته اللعوب إلى رفيقه الحميم سبيد فيقول "لقد نمت مع جوشوا طوال أربع سنوات، وأعتقد أنني يجب أن أعرفه جيداً . "

ووفقاً لما قاله الجيران في نيوسالم وسبرنجفيلد كانت لدى لنكولن طاقة شهوانية قوية جامحة، وقد اعترف مرة لويليام هيرندون- الموظف لدى سبيد ثم شريكه في مكتب المحاماة وكاتب سيرته الذاتية- أنه في عام ١٨٣٥ قد غرق في "شهوته الشيطانية" واستأجر

عاهرة وبعدها ركبه القلق خشية إصابته بمرض الزهري ، لكن هيرندون صرح بما هو أكثر من ذلك ليقول إن لنكولن "نادراً ما ابتعد عن العاهرات اللواتي كان يعاملهن بسلوك مختلف عن السيدات المرغوبات" وقد تذكر أحد جيرانه بنيوسالم أنه كان يرتاد بيت الدعارة مع بعض من صحبته أثناء حرب البلاك هوك. وعند اقتراب خاتمة حياته، أخبر سبيد – وهو نفسه زير نساء – هيرندون أنه قد احتفظ لفترة بإحدى العاهرات بمدينة سبرنجفيلد، وجاءه لنكولن تدفعه "الرغبة للاستمتاع قليلاً" وسأله: "سبيد، هل تعلم أين يمكنني أن أجد ذلك؟" فأجابه: "نعم، أستطيع. سوف أرسلك إلى مكانها بمذكرة بسيطة لأنك لن تستطيع الحصول عليها إلا بتلك المذكرة أو بحضوري معك بنفسي." ولو كانت تلك التقارير التى تبين قيام لنكولن بممارسة الجنس مع العاهرات حقيقية، فليس هناك مبرر للاعتقاد بأنه لم يمارس العلاقات الجسدية مع جوشوا سبيد، الرجل الذى شاركه فراشه طوال أربع سنوات. فلوكانت رغباته الجنسية لا كابح لهاأحياناً ، فمن المتوقع أن يتصرف وفقاً لها ليس فقط مع الغرباء ولكن مع أشد أصدقائه حميمية أيضاً. مع كل ذلك فهو لم يعتبر أن شكلاً من أشكال الجنس مختلف عن الشكل الآخر، لأن

مفهوم الهويتين الجنسيتين المحدد بالتعارض الثنائي بين "المثلية" و"التغاير" قد انتهى منذ عقود مضت".

***

بغض النظر عن الكيفية التى ينظر بها المرء لعلاقتهما، فإن سبيد أكسب لنكولن التحضر بطرق عديدة، اسهمت كثيراً في صنعه لنفسه . كان سبيد واحداً من أكثر الناس الذين قابلهم لينكولن ثقافة، حيث نشأ في رفاهية وبحبوحة من العيش في مزرعة فارمنجتون الجميلة في ضواحي لويزفيل وكان منزل عائلة سبيد وهو من منازل المستعمرات عالية السقف ومصنوعاً من الطوب (القرميد)، قد صممه توماس جيفرسون أحد أصدقاء العائلة. تعلم

---

[12] أستلهمت قراءة علامة لنكولن وسبيد من الفصل الرائع الذي كتبه دافيد رونالد عن صداقتهما فى مؤلفه رجال لنكولن. وقد ادهشني استخدام رونالد الاعيب البلاغة لأفكار إمكانية أى شبق مثلى قى صداقة لنكولن وسبيد. فهو يتجاهل الحدود الملتبسة بين الشبق والعاطفة الشديدة، بين الصداقة والجنس في الصداقات الرومانسية الأمريكية وفى التقاليد الطوية من العصر الكلاسيكي حتى القرن العشرين. وهو يذكر الدكتور تشارلى ستوزيره وهو محلل نفس وكاتب سيره ذاتية للنيكولن ويحاج بانه اذا كان بين لنكولن وسبيد صداقة جنسية، فإن لنكولن سيكون عندئذ ذى ميول جنسية مزدوجة فى أحسن الأحوال، وممزقا بين عالمين، مملوءا بالخجل، ومرتبكا ويصعب أن ينجح في الحياة العامة. ومع ذلك، فإن رونالد نفسه يلاحظ أن الفهم الثناني للجنسيات، المتهمين فى نقطة ستروزير، لم يكن يوجد فى أيام فى لنكولن ١٠ ن قضية جيمس هنرى هاموند وهو من أشهر السياسين فى الجنوب وكان ذو ميول جنسية ثنائية واضحة (وفق ما قال ستروزير) تنسف مقولة ستروزير ودونالد . لأن صداقة هاموند مع ويزدرز لم تؤثر على مسيرته العامة أو السياسية ولم تثر خجلا ولا ارتباكا. لقد كان فرويد معلم ستروزير، وهو أب التحليل النفسى الذى أكد بحجة قوية ان الشذوذ الجنسي والثنائية الجنسية كانا مرجعيتي. والواقع أن فرويد أكثر أن الصداقة كانت ستارا لتوق من الشبق الملكى. انظر بيتر جاءه فرويد حياه لعصرنا (نيويورك ،انكور،١٩٨٨) - المترجم

جوشوا في أحسن المدارس الخاصة في الغرب، وكان بارعاً في القراءة مثل غالبية خريجي جامعة هارفارد أو ييل. وقد علم لنكولن معنى الاحترام في السلوك والملبس والكلام. وخلال أقل من عام بعدما عاشا معا اكتسبت كتابات لنكولن عمقاً واتقاناً كانت تفتقدهما، وبدأت تشابه أسلوب سبيد الواضح الموجز في الكتابة.

بدأ صوت لنكولن الجديد في الظهور للمجال العام ليظهر أول مرة في خطابه عام ١٨٣٨ الذى ألقاه في أكاديمية الشباب بسبرنجفيلد، وهى جمعية مكرسة للتعلم والتقدم. كان أول خطاب يلقيه- كمفكر لا كسياسي- عنوانه "أبدية مؤسساتنا السياسية" وحذر فيه من أن العدو الحقيقي لأمريكا لا يأتيها من الخارج وإنما يأتى من داخلها، من الرعاع وما يسببونه من خراب، وذكر لنكولن أمثلة للعنف الجماعي الذى نجم عنه مقتل أحد دعاة الغاء الرق (اليجا لفجوى)عدد من السود الأحرار في اجتماع لدعاة التحرير بولاية إلينوي، وكذلك مقامرو المسيسيبي الذين نعتبرهم "عديمى النفع في أي مجتمع. "وإذا ما نحينا جانبا وقاحة الضحايا، فإن عنف العامة إذا ما حل محل القانون فإن الحكومة لن تستطيع أن تبقى ." ثم أخذ في لغة تحريضية يحث مستمعيه على "أن يقسموا بدماء الثورة" على تخليهم عن استخدام العنف الدموي. ففى حين قام الوطنيون الثائرون بتأكيد إعلان الاستقلال في يوليو عام ١٧٧٦، يتعين على

المواطنين الآن دعم وتأييد الدستور، وفي حين ساعدت "العواطف" أباءنا المؤسسين للدولة، يجب على العقل والهدوء والحسابات، والأسباب غير العاطفية أن توفر متطلبات المستقبل "وليكن احترامنا للقانون هو ديننا السياسي لهذه الأمة. " إذا ما وضعنا في اعتبارنا المهنة الجديدة للنكولن كمحام، نجد ذلك الخطاب دار في إطار منفعته الشخصية. لكنه يعكس – كذلك – التغير المذهل في أسلوبه، الذى استخدم فيه لغة عاطفية لاستثارة عقل غير عاطفي.

وقد كرر لنكولن دعوته إلى العقل مغلباً إياه على العاطفة بعد سنوات قليلة لاحقة في خطاب ألقاه لمحاربة إدمان المسكرات مشبهاً فيه إدمان الكحول بالعبودية وبالطغيان، وأطلق على الثورة القائمة ضد شرب الخمور (والتى يقودها سكارى تائبين) أنها أكثر أهمية من ثورة عام ١٧٧٦ السسياسية في نشر الحرية، لأن الخمر تودى بالناس إلى جنون الغضب، بينما الوعى يؤدى إلى "إحكام العقل"، كان يتطلع إلى عصر جديد "لن يكون فيه عبد ولا سكير على وجه الأرض." ها هنا مرة أخرى استخدم في خطابه أسلوباً عاطفياً لاستثارة العقل، وطلب من سبيد أن يقرأه. وكان فخوراً بذلك الخطاب وأراد أن يعرف رأي مرشده فيه.

كان لاعتناق لنكولن مبدأ سيادة العقل على العاطفة موافقاً للحالة الشخصية والوطنية أيضاً. لأنه إذ لم يستطع التحكم – دائماً –

في نزعاته الجنسية، لن يستطيع كبح حماسه لصالح سياسات المحافظين. ففي ديسمبر ١٨٤٠ ارتكب أفدح أخطائه المخجلة طوال حياته العملية. فلم يكد يصل إلى سبرنجفيلد عائداً بعد ثلاثة أشهر مرهقة لصالح حملة المحافظين لترشيح ويليام هنري هاريسون للرئاسة، حيث ظل متنقلاً بصورة دائمة على ظهر حصان، ومقيماً في حانات صاخبة، وينام في أسرة يشاركه فيها اثنان أو ثلاثة أشخاص، مستهلكاً طعاماً "شحمياً" وقهوة "رديئة" حتى شعر بالإنهاك تماماً، وكان عليه حينذاك أن يبدأ جلسة تشريعية يتلقى فيها هو وباقي أعضاء حزبه اتهامات الأغلبية الديموقراطية بأنهم أفسدوا اقتصاد الولاية بمشاريعهم التى استهدفت بناء الطرق. كما أراد الديمقراطيون إفساد مشروع بنك الولاية، وهو مؤسسة دعا لإنشائها المحافظون. كانت الوسيلة الوحيدة أمام المحافظين لمواجهة ذلك هى عدم السماح للديمقراطيين بتوفير الحد الأدنى اللازم من الأصوات لتفعيل محاولتهم. وقد حضر لنكولن وعدد قليل من المحافظين الاجتماع للتأكد من صحة احصاء الحضور، وعند وصولهم أدركوا أن حضورهم ذاته يسهم في استكمال العدد المطلوب. هنا حاول لنكولن ورفاقه الهروب– بصورة يائسة– من الموقف، وبعدما اكتشفوا أن الباب مغلق، فتحوا إحدى النوافذ وقفزوا منها للخارج. لكنها كانت حركة غبية، لأن الديموقراطيين أفشلوا مشروع البنك– على أية



حـال– وتمـت محاسـبة لنكولن بتهمـة "الإهمـال في أداء الواجـب" وأضحت "جولاته المتقافزة"– كما أسماها– شهيرة جداً لدرجة أنه حاول الدفاع عن نفسه بعد أسابيع قليلة بإلقاء خطاب داخل المجلس التشريعي. لكن رئيس المجلس طلب منه الالتزام بالنظام وأوقفه عن الكلام.

أشعرت تلك الحادثة لنكولن بالإهانة.بل من المحتمل أنها قد أدت به إلى هوة حادة من الاكتئاب خلال شتاء ١٨٤٠–١٨٤١. كانت قدراته قد شُلت حتى أنه التزم الفراش، وقال سبيد: "أن لنكولن قد جُن." وانتابه قلق شديد بشأن صديقه لدرجة أنه "استبعد كل شفرات الحلاقة والسكاكين وباقي الأدوات الحادة الأخرى بعيداً عن الغرفة." وفقاً لما قاله سبيد: "لقد كان الموقف مخيفاً." كان الأمر الوحيد الذي منع لنكولن من إقدامه على الانتحار "أنه لم يفعل شيئاً– في الحياة للآن– يتذكر به الناس أنه كان يعيش بينهم يوماً.

واعترف "بحالته العقلية اليائسة" إلى شريكه في العمل القانوني مضيفاً: "إنني الآن أشد الناس بؤساً في الحياة، ولو أن ما أشعر به وُزع بالتساوي على أفراد البشر فلن ترى وجهاً ضاحكاً بينهم على وجه الأرض، ومن المحال على المرء أن يبقى حياً بما أنا فيه. لذا يجب أن أموت– كما يبدو لي– أو أن أتحسن بسرعة." وصلت حالته إلى الحضيض مع عيد رأس السنة الجديدة، وكان لنكولن يشير إلى ذلك

بقوله: "ذلك اليوم الأول المشئوم من يناير من عام ١٨٤١ ." كان أسوأ أيام حياته، وأقرب لحظاته لقتل نفسه.

تراوحت النظريات الساعية لتفسير دواعي "ذلك اليوم المشئوم من يناير ١٨٤١ ." لكن هناك حقيقة واحدة لا يمكن إنكارها، إنها قرار جوشوا سبيد في ذلك التاريخ بالرحيل إلى كنتاكي، وإعداده سبل بيع رأسماله في محل البقالة. فقد مات والده في ربيع عام ١٨٤٠، وأرادت والدته أن يعود للمنزل. كما كان هو نفسه يفكر في الانتقال منذ عدة شهور. ثم أدرك لينكولن في اليوم الأول من السنة الجديدة "١٨٤١" أن صديقه سوف يتركه، وذلك ما قصم ظهره كما أوضح هو فيما بعد: "إن لم يكن لنا أصدقاء، فلن يكون أمامنا أى متعة، ولو كان لنا أصدقاء، فإن فقدانهم أمر مؤكد. لذا نتألم مرتين بذلك الفقد." انتاب سبيد القلق بشأن صديقه فانتظر حتى مايو ١٨٤١ كيما ينتقل إلى فارمنجتون، وعندئذٍ استرد لنكولن عافيته ووعد سبيد بأن يقوم بزيارته ذلك الصيف. وبالفعل، وصل في أغسطس وبقي هناك حوالي شهر تقريباً. كانت تلك أول إجازة للنكولن وأول تعرفٍ له على مجتمع الطبقة الراقية بالجنوب، وقام أحد عبيد الأسرة برعاية شئونه في غرفة شاسعة يتحرك فيها. أحب لنكولن تلك الرفاهية لدرجة أنه اعتبر إقامته في فارمنجتون "وقت الفراغ وواحدة من أمتع لحظات حياته." كانت الواقعة الوحيدة المزعجة تلك التى

حدثت أثناء العشاء ذات ليلة حينما مرر إليه أحد أعضاء الأسرة طبق المشهيات فأبقاه أمامه معتقداً أنه مخصص له وحده دوناً عن الباقين، مما أدى بجوشوا إلى تصحيح لنكولن وتعليمه أصول مراسم العشاء وقال له: " انظر إليّ يا لنكولن، وافعل كما أفعل أنا !"

بينما كان فريدريك دوجلاس يقضي أولى إجازاته في اجتماع لدعاة التحرير ببلدة نانتوكت، كان لنكولن يقضيها في رحاب رفاهية الجنوب وسط حوالى ستين عبداً وواحد من هؤلاء هو خادمه الشخصي. لم يحب فقط تلك التجربة المرفهة وإنما لم يقم أبداً بحث سبيد على تحرير العبيد الذين ورثهم عن والده كذلك. كما أن سبيد لم يشعر يوماً بالذنب لامتلاكه عبيداً، وفعلاً بعد سنوات قليلة تالية، وحينما بدأ سبيد يتاجر فيهم، لم يقل له لنكولن شيئاً ولم تؤثر تلك المتاجرة في صداقتهما. رغم أن لينكولن كان يكره العبودية، إلا أنه لم يكن ثورياً، وما كان ليدمر الصداقة نظير معاقبة سبيد. فوق ذلك كله، هناك بطله السياسي هنري كلاي، وهو مالك للعبيد أيضاً شديد الثراء في كنتاكي وبعد عودته إلى سبرنجفيلد، انقلب على مبادئه وقدم تبريرات لامتلاك جوشوا وعائلته للعبيد. وخلال رحلة العودة للمنزل تشارك مع أحد تجار العبيد قارب السفر – الذي كان يحمل فيه قافلة عبيده – وقام بوصف تلك الرحلة وصفاً ينبئ عن أفكاره: "شاهدت نموذجاً رائعاً على سطح القارب يدعو للتمعن في

تأثير الحالة الاجتماعية على السعادة البشرية حيث كان هناك إثنا عشر عبداً مقيدين بالسلاسل ... مثل أسماك كثيرة معلقة على حبل الصيد، وكانوا- وهم على تلك الحالة- وفي طريقهم للافتراق عن مهاد طفولتهم وأصدقائهم وآبائهم وأمهاتهم وأخواتهم للأبد، بل والعديد منهم في سبيلهم للافتراق عن زوجاتهم وأطفالهم، إلا أنهم- ورغم تلك الظروف المحزنة التى نظنها كذلك- كانوا أكثر المخلوقات سعادة ومرحاً فيما يبدو على ظهر القارب." أستنتج لنكولن هو أن "الله يجعل من أسوأ حالات الإنسان أكثرها تحملاً." إذ كان الأمر بالنسبة للنكولن أن الله قد طبع السود بالقدرة على أن يكونوا سعداء ومرحين تحت أسوأ ظروف الإنسان قسوة، ويُعد وصفه الساذج هذا تعاطفاً مع السود- وفى نفس الوقت -يُعد إدانة للبيض، وهو توازن دقيق حاول الإحتفاظ به بقية حياته.

لقد كشف لنكولن عن توجه مشابه نحو السود في الينوى ، ففى عام ١٨٤٠ كان يعيش في سبرنجفيلد ١١٤ نسمة من السود،يمثلون ٤% من سكان المدينة ،وكانوا في أغلبهم من العمال وخدام المنازل. ستة منهم فقط كانوا عبيداً من ضمنهم امرأة واحدة كانت عبدة لدى أحد شركاء سبيد التجاريين الذي كان بدوره صديقاً للنكولن. وكانت إلينوى- نظرياً- ولاية حرة بفضل حظرالرق الذى شمل المقاطعات الشمالية في قانون الولايات الشمالية الغربية الصادر



عام ١٧٨٧ . لكن عندما تم تمرير القانون، كان هناك حفنة قليلة من العبيد يعيشون بأراضي إلينوى، وقام بعض السادة بجلب عدد آخر بصورة غير قانونية إليهم. أما دستور ١٨١٨ فلم يؤدِ لتحرير أي عدد من العبيد، كان يمنع فقط دخول المزيد من العبيد إلى الولاية. ونتيجة لذلك، زاد عدد العبيد في إلينوى إلى ٣٠٠ عبد عام ١٨٤٠م، ولم يفعل لنكولن شيئاً لتحريرهم، ولم يسعَ – حتى – لتعديل قوانين الولاية الخاصة بالسود والتى تحظر على السود الأحرار دخولها، لأنه لو فعل ذلك ستكون خطوة ضارة تفقده المتعاطفين الجنوبيين في الولاية.

على أية حال، كان للنكولن – في نفس الوقت – علاقات طيبة مع عدد من السود في سبرنجفيلد، خاصة مع ويليام فلورفيل المعروف باسم بيلي الحلاق. كان قد ساعد بيلي على اكتساب العديد من الزبائن كما مثله قانونياً في بعض القضايا فيما بعد، وأصبح محل بيلي "منزل لنكولن الثاني" في أوخر العقد الخامس نت القرن التاسع عشر ، وكان مكاناً يألف الذكور التردد عليه، فهو مكان للحلاقة والحصول على قصات للشعر، وتبادل بعض النكات، والشائعات، وربما لقراءة بعض من نصوص القانون عندما تمضي الأوقات بطيئة. بذلك المعنى، مَثل ذلك المحل مكاناً تشارك فيه مع سبيد، فكان مرفأ للمثقفين وسط "قذارة وازعاج" سبرنجفيلد .أحب لنكولن خفة بيلي وروحه المرحة. لكن علاقتهما لم تهدد – أبداً – طموحه السياسي

أو صداقته للبيض. ومع ذلك، كان بيلي بالنسبة لسبيد مجرد "سامبو"- وهو النموذج المثالي للخادم الزنجي- ولا يشكل تهديداً لمفهومه عن رجولة الإنسان الأبيض، ولو كان فردريك دوجلاس جاء- وقتها- من سبرنجفيلد إلى بندلتون لإلقاء بعض من محاضرات دعاة إلغاء الرق، لاعتبره لنكولن وقحاً وغير مهذب.

***

كان امتلاك العبيد ركناً أساسياً في مجتمع ولاية إلينوي لدرجة أنه لو كان المال ينتج بشراً، فإن المال- هناك- تنتجه العبودية. وفي الواقع كانت اثنتان من النساء الثلاث اللاتى ارتبط بهن لنكولن- وقد تزوج إحداهن فقط- من بنات مالكي العبيد في كنتاكى، بل إن مارى أوينز عادت إلى أسرتها التي تملك عبيداً هناك بعدما هجرها لنكولن ثم تزوجت ثرياً من مالكي العبيد وانتقلت بعدها إلى ميسوري حيث قام ولداها بالقتال دفاعاً عن الدولة الاتحادية المنشقة.

كانت مارى تود تشبه ماري أوينز من عدة وجوه وكذلك آن روتليدج، إذ كانت الابنة المتعلمة لأسرة أرستقراطية تملك عبيداً في كنتاكى. ومثل آن، كانت قصيرة (خمسة أقدام وبوصتان) ومكتنزة، وكان لنكولن يحب النسوة المكتنزات وربما كان ذلك عائداً لشكله المتنافر البشع الذي أبعده عن الفكرة الكلاسيكية للجمال.



لكن ماري تود كانت مختلفة كلية- الواقع أنها كانت تتصرف كرجل-. فهي طموحة ساعية للشهرة ومتحمسة للسياسة بنفس قدر لنكولن. ولأنها نشأت وسط أسرة متحمسة للمحافظين، كانت هي نفسها "محافظة صغيرة عنيفة " وقد أحبت هنري كلاي، الذي كان جاراً وصديقاً للعائلة وكرهت الديموقراطيين. قيل إنها في الرابعة عشرة من عمرها امتطت جوادها حتى آشلاند، وهي ضيعة كلاي، لتبلغه أنها تتوقع أن يكون هو الرئيس القادم للبلاد، إضافة إلى أنها أرادت أن تعيش "في البيت الأبيض" كذلك. لم تمت تلك الرغبة لأنها بعد انتقالهم إلى سبرنجفيلد عام ١٨٣٩ "صرحت بنيتها الزواج من الرئيس القادم للولايات المتحدة." كانت شديدة الحيوية وتهوى الخروج، وإن قيدت نفسها قليلاً. كانت تمتع بذكاء حاد وتحب الشعر، ولها من البداهة ما يجعلها كفئاً لزوج المستقبل. باختصار، كانت نداً سياسياً ومثقفاً مكملاً للنكولن. كانا قد بدآ التواد والتقارب عام ١٨٤٠ أثناء الحملة الرئاسية ومع الانتخابات تمت خطبتهما. يتذكر أحد جيرانهما من سبرنجفيلد رؤيتهما معاً جالسين في غرفة وماري هي التي كانت تقود أطراف الحديث قائلاً: "كان لنكولن ينصت محملقاً فيها كما لو كان مسحوراً بقوة عليا، لذا أخذ يستمع دون مقاومة.. وما يكاد يلفظ كلمة واحدة." لكن بعد الانتخابات وبعد قفزته المخزية من النافذة وإحباطه وقرار

سبيد بالانتقال والعودة لكنتاكي محا كل ذلك من ذاكرته، إذ شعر بعدم الأمان بالنسبة لثروة ماري تود، وبعدم الارتياح بشأن الزواج عموماً . لم يكن متأكداً من مشاعره نحو ماري، وربما أسهم ذلك الفشل – الثالث للخطبة– في المزيد من اكتئابه.

إلا أن جوشوا سبيد استطاع جمعهما معاً مرة أخرى، ففي حين كان لنكولن يقضي إجازته في فارمنجتون في أغسطس من عام ١٨٤٠، تقدم سبيد لخطبة فاني هيننج– وهي امرأة من كنتاكى– ثم شعر فجأة بالتردد، خشية أن تكون مشاعره غير كافية لهذا الارتباط، فتدخل لنكولن لإنقاذه من تلك الورطة وأخبره إنه "يرى أن فاني واحدة من أجمل فتيات العالم،" وأكد لسبيد أن مخاوفه بلا أساس. وقبل الزواج بأيام عاودته مخاوفه من أن أحلامه في الجنة والسعادة بعد الزواج قد تتجاوز "الواقع بكثير"، وشاركه لنكولن مخاوفه من الزواج. لكن سبيد واصل إتمام مراسم زواجه في ١٥ فبراير ١٨٤٢ ثم أخبر لنكولن بعد ذلك بشهر أنه "أكثر سعادة مما كان يتوقع" . وهكذا منح صديقه الثقة كيما يعيد ارتباطه بماري تود. أدت علاقتهما المتجددة إلى التركيز على العمل السياسي لكنها آلت– هذه المرة– إلى عراك ثم إلى زواج في النهاية.

فى أغسطس ١٨٤٢ هاجم لنكولن أحد خصومه السياسين بأسلوب تجاوز فيه حدود الخصوصية. فبمساعدة ماري كتب مقالاً

ساخراً مسّ كرامة جيمس شيلدر محرر جريدة "الديموقراطي" التى تصدرها الولاية. كان رجلاً متوسط الحجم، له شارب ضخم، وُلد وتعلم في أيرلندا، وقد أتى لألينوى عندما قارب على الإفلاس. لكنه سرعان ما أصبح عضواً ديمقراطياً بالولاية لا يتقبل الاهانة ببساطة. كان لنكولن قد نشرمقالته بدون توقيع تحت عنوان (خطاب ربيكا) وكلماته تأتى على لسان زوجة فلاح فقير هى ربيكا. كان الخطاب- من الناحية الفنية- عملاً من أعمال الخيال الأدبى، يشترك مع أسلوب رواية "هكلبرى فين" في إستخدامه لتقنية الجدل وروح المرح، ويستعير لُكْنَةَ مقاطعة سانجامون وأصواتها وكذلك "صوت لنكولن" مثل: "زي ما كنا مستنيين" و"شلة رجالة متسلحة"... إلخ. استخدم الخطاب الفكاهة للهجوم على شيلدز سياسياً وإهانته شخصيا، ويعد شيلدز الشخصية الرئيسية في القصة، حيث يدعوه لنكولن: "أحمق بالإضافة لكونه كاذب،" ويسخر من صورته التى يضعها لنفسه كرجل لا تقوى على مقاومته النساء، ويقتبس من شيلدز قوله: "فتياتى العزيزات، إن الأمر مؤسف. لكننى لن أستطيع الزواج منكن كلكن ... وأنا أعلم جيدا مدى معاناتكن. أرجوكن! أرجوكن! تذكروا أنه ليس ذنبي أن أكون بمثل تلك الوسامة والإثارة التى تفوق الحد." ألهب الغضب شيلدز بعدما اكتشف أن كاتب الخطاب هو لنكولن، فأمره بسحب كل

"التلميحات التهكمية" علانية وأن يعلن عن شخصيته الحقيقية ويقف أمامه كرجل حقيقي. عندما رفض لنكولن قام شيلدز بتحديه ودعوته للمبارزة، وقبل لنكولن التحدى لأنه "لم يعتقد أن التفاوض مع شيلدز من أجل مسالمته شئ يتفق مع شرفه وكرامته" ما لم يسحب شيلدز مطالبه.

وبينما كانت المبارزات تختفي في الثقافة الأكثر تقدماً في الشمال الشرقي، ظلت شائعة في الجنوب والغرب بالرغم من أن العديد من الولايات بما فيها إلينوى قد حظرتها قانوناً. كان لنكولن قد انتهك مبادئ الشرف التى تحمي شخصية الإنسان الخاصة وعلم أنه سيفقد كرامته لو تراجع عن تحدى شيلدز، وكان قد قام منذ إحدى عشرة سنة سابقة كان بمصارعة جاك أرمستروبج دفاعاً عن كرامته، والآن يكاد يموت دفاعاً عنها، ففى الجنوب وعند الحدود كلما أصبحت المجتمعات أكثر تحضراً أصبحت المبارزات أكثر وحشية. وفي ظل مبادئ المبارزات يكون للشخص الذي تم تحديه حق تحديد شروط المبارزة. لذا اختار لنكولن (سيفين عريضين من سيوف الفرسان) كسلاح للمبارزة، وصمم ميداناً للمبارزة يشبه فناء ملعب التنس، به عارضة ارتفاعها إثنتا عشرة بوصة بديلاً عن "الشبكة" وخطا بداية عند الجانبين على بعد ١٦ قدم من العارضة وخطوط جانبية تتقاطع مع خط العارضة وخطى

البداية، وعلى كلا المتقاتلين أن يبقيا داخل ذلك الصندوق المرسوم فإذا ما "خطوت عبر العارضة تكون خسرت حياتك، وإذا ما خطوت خارج خطوط البداية تكون قد خالفت القواعد وخسرت القتال."

كانت شروط لنكولن مصممة لتمنح فرصة كبرى للرجل الذي يملك أكبر قوة يدين وأطولهما، حيث يعلم أن شيلدز رجل عادي الطول حوالي خمسة أقدام وسبع بوصات. وبالطبع كان لنكولن طويلاً جداً وله يدان طويلتان وقويتان أكثر من المعتاد، ورغم تلك الميزات فإنه قام بالتدرب على استخدام سيفه العريض وضرباته قبل المبارزة، وخطط أن يبقى داخل مربعه ويتمايل مراوغا حتى يجرح له أحد أطرافه ويُفقده سلاحه أو يخدعه حتى يخرجه عن المربع فيخسر القتال، وقد صرح بقوله: "لم أرغب في قتله." ظل ذلك السلوك يصدر منه كرجل يعتنق مبدأ العقل والقانون الأشد أساسية لطبيعتنا" كما كان يؤكد في خطابه التحريري.

تم بناء ملعب التنس وأصبح المتباريان مستعدين للبداية عندما تدخل الأصدقاء بسبرنجفيلد أخيراً لوقفها وقد صاح بلنكولن أحد أصدقائه قائلاً لهما معاً: "أيها المغفلان الملعونان!" ثم توسل إليهما أن يُحَكِّما العقل." هكذا "تم فض المشاجرة." وفور انتهاء معركة السيوف هذه على خير، جدد لنكولن وماري تود خطبتهما، وقام



لنكولن بحماية ماري مؤكداً لها أن اسمها لن يرتبط بمشكلة "خطاب ربيكا" . لم تحاول ماري بدورها منع لنكولن من دخول المبارزة لأنها– فوق كل ذلك– نشأت في كنتاكي حيث كانت المبارزات صلب المجتمع، بل إن بطلهم المشترك– هنري كلاي– كان قد جرح م في إحدى المبارزات. وفي نظر ماري كانت المبارزات علامة الرجولة، وربما أدت المشكلة مع شيلدز إلى إدراكهما مدى تشاركهما في الميول ومدى عمق رغبتهما في التضحية من أجل صالح الحافظين. لكن باقتراب موعد زواجهما، بدأ لنكولن يشعر بالتردد فكتب إلى جوشوا سبيد يقول: "هل أنت الآن تشعر بالارتياح كما لو كنت في الجنة، وسعيد أنك تزوجت بما أنت عليه؟" ومن الواضح أن سبيد أجابه بنعم، لأن لنكولن وماري تزوجا يوم ٤ نوفمبر عام ١٨٤٢ في حفل عائلي صغير. لم يكن سبيد حاضراً، فيما يتذكر أحد الضيوف أنه "كان يبدو عليه– أي لنكولن– بل ويتصرف كما لو كان ذاهباً إلى مذبحة" رغم أن امرأة أخرى قالت: "كان مرحاً جداً كعادته دائماً ." وفي حين تعرضت طبيعة زواجهما لكثير من الجدل على مدى واسع، إلا أن أمراً واحداً كان مؤكداً: أن صعود نجم لنكولن كسياسي ومحامي أخذ في التسارع بعد زواجه. ففي عام ١٨٤٢، انسحب لنكولن من إعادة انتخابه لمجلس الولاية التشريعي لأنه كان قد قضى أربع دورات متتابعة منتخباً بالمجلس فأراد أن يركز

طاقاته على ممارسة القانون وعلى سياسات المحافظين الوطنية، وقضى هو وزوجته عام ١٨٤٤ يعملان بلا كلل– وإن كان بلا جدوى– لإدخال هنري كلاي البيت الأبيض. وبعد عامين انتخبه مواطنو سانجامون ومورجان ليصبح عضواً بالكونجرس الأمريكى. لذا، كان عليه أن يذهب إلى واشنطون.

لو كان طموح لنكولن "آلة صغيرة لا تعرف التوقف" كما وصفه ويليام هيرندون، فإن ماري تود قد ملأتها وقوداً وقامت بتزييتها رغم أن ذلك كلفه بعضاً من سعادته. بعد الزواج بدأ هو وجوشوا يتباعدان، وقد يميل المرء إلى الاعتقاد بأن لنكولن كان أثناء زواجه يفكر فيه. على كل، فقد علمه جوشوا سبيد معنى الحب، بل وقارب بينه وبين ماري تود كما أقر بذلك جوشوا فيما بعد بقوله: "لو لم أكن قد تزوجت وكنت سعيداً أكثر مما كنت أتوقع من سعادة، ما كان لنكولن ليقدم على الزواج!" كان لنكولن قد قدم لماري خاتماً محفوراً عليه عبارة تقول: "الحب الخالد" ربما كانت تلك العبارة المحفورة رثاءً لصداقة مضت أكثر من كونها أملاً لزواج جديد.

***

خلال رحلته إلى الجزر البريطانية، قام فردريك دوجلاس بزيارة خاصة إلى مدينة آير، موطن ميلاد الشاعر روبيرت بيرنز، وأطلق عليها "واحدة من أكثر زياراته إشباعاً لروحه" أثناء اقامته في



اسكتلندا، لأنه رأى الكوخ المتواضع الذي عاش فيه بيرنز، ومشى جائلاً في الشوارع التي ألهمته شعره وقابل أخته، وبينما يتكلم معها ظن أنه شاهد "بعضاً من شراررات الضوء الذي كان يشعل صدر بيرنز على الدوام." لقد لمس دوجلاس في حياة بيرنز وشعره معالم متوازية مع مأساته ومع حياة الزنوج الآخرين، فكلا الرجلين وُلد فقيرا، ولقي الاضطهاد من النخبة البيضاء، وعومل كالحيوانات، ووجد في اللغة سبيلاً لإعادة صناعة نفسه وبناء رؤية جديدة للإنسانية. لقد علمت أشعار بيرنز دوجلاس أن يشعر بالفخر بأصوله الدنيا، "فذلكم الإنسان الأمين– رغم شدة فقره– هو مَلِكُ الرجال لذاك السبب." لأن الفقير الأمين يسمو على وضاعة الثري الجبان. كما شارك دوجلاس بيرنز في حلم الحب الأخوي في قول بيرنز" فهذا الإنسان للإنسان عبر حدود العالم. . . سوف يكونان أخويين من أجل ذلك." لكن رغم توحد ذاته مع ذات بيرنز إلا أنه يجد في لورد بايرون كاتبه المفضل. إذ بينما تتبع مسرات بيرنز– إلى حد ما– من استخدامه للهجة العامية، يهرب دوجلاس من اللهجات المحلية حيث أدى بقاؤه عامين في الجزر البريطانية إلى انقشاع لكنة العبيد المتلكأة في صوته، وأراد أن يبدو مثقفاً مثل أصدقائه الأثرياء والأرستوقراطيين في بريطانيا، وأصبح لورد بايرون بالنسبة لدوجلاس مثالاً للأرستقراطي الثائر الذي تعتمد ارستقراطيته على

القيم لاعلى الانتماء بالمولد حيث كان بايرون يمثل النموذج الكامل للكونية الإنسانية بصورة جذرية، لأنه أصبح ممثل العالم الأكثر شهرة قبل ظهور دوجلاس بزمن طويل. كان "تحفة فنية" ساعدت دوجلاس على إعادة صناعة نفسه مظهراً وأسلوباً وصوتاً، إذ شكلت مهارة بايرون في استخدام السخرية والتهكم كل كتابات دوجلاس. كما أن صعود ذلك الشاعر السريع إلى عالم الشهرة "المخجلة" شابه صعود دوجلاس إلى أن أصبح أحد دعاة التحرير "المهانين" .فلا غرو أن دوجلاس كثيراً ما استشهد به.

رأى دوجلاس في بايرون رمزاً للذكر العظيم المقاتل من أجل الحرية. كان ارستقراطياً تحول إلى متمرد، رجلاً هبط في منزلة اجتماعية ليصعد إلى منزلة روحية، وضحى بحياته من أجل قضية الحرية. كان هناك شيء شديد الإثارة في توجهات بايرون، سواء في الحياة أو في الفن. كان يولي وجهه معرضاً عن المجتمع باحثاً عن تحقيق مبادئه في الحرية. كلاهما كان يؤمن بأن الواقع يجب أن يظل ملهماً لتحقيق المثال، وقد عاشا من أجل أحلامهما ولم يستسلما لأي تنازل عنها.

من ناحية أخرى، كان دوجلاس يعشق بيرنز، إذ وجد فيه رفيقاً لروحه الأدبية وصاحب أسلوب عامي يتماشى مع جهوده لرفع مستوى الكلام الريفي الي مستوى الأدب. كما أن حياة بيرنز



انعكست على حياة لنكولن، الذي كان فلاحاً فقيراً نائياً نادراً ما ارتحل خارج دائرته المعروفة، وكان يسعى لتمثيل صوت الشعب سياسياً وشعرياً. كان دوجلاس ليتفق مع والتر وايتمان الذي قال إن أشعار بيرنز وشخصيته قد "حببت أمريكا فيه.. فهو.. سيكون بين أهله وبيته إذا ما جاء لغرب الولايات المتحدة .. (والغرب هنا يشير إلى وسط غرب الولايات) .. ولربما أضحت زيارته إقامة دائمة هناك." يمكن أن تنطبق إشارة وايتمان لبيرنز هنا على لنكولن كذلك مكمـلاً: "كان الرجل نموذجاً معتدلاً للإنسان الطيب، دافيء الدم، الودود، المنتعش، المتحمس في أواسط عمره."

بالنسبة لبايرون، لم يقرأ له لنكولن كثيراً بالقدر الذي قرأ لبيرنز، ولم يكن يتوحد مع ثورية بايرون المهذبة. في الحقيقة، أدرك لنكولن وسط أرائه السياسية وصداقاته وارتباطاته الفاشلة .أن الواقع يبعد كثيراً جداً– ودائماً– عن المثال والنموذج، وذلك لم يكن حجر عثرة، فقدا كانت تلك طبيعة العالم. كما أن شعوره بعدم الأمان في زواجه علمه أن "النزعة المثالية" كانت هى نفسها المشكلة، أو كما قال لسبيد: "إن سوء الحظ الغريب لي ولك هو أننا نحلم أحلاماً عن السعادة والجنة تبعد تماماً عن أية راحة يمكن تحقيقها على الأرض." وقد ساعدته تلك الروح البراجماتية على التسامح مع العبودية بينما هو يكرهها، أو مع الزواج بإنسانة يفتقد معها الحميمية التي كان قد

حققها من قبل، كما ساعدته على توفيق أحلامه في الشهرة مع حاله كإنسان مجهول، فلفترة ما كان دوجلاس مشهوراً على مستوى العالم في حين كان لنكولن ما زال محامياً ببلدة صغيرة ورجلاً سياسياً غير معروف كلية خارج ولاية إلينوي.

الفصل الثالث

داعية راديكالي لالغاء الرق . . . وجمهوري

أيها الراسخون في الأغلال بالوراثة- ألا تعلمون ؟ !
إن الذين سيكونون احرارا، يجب أن يبدأوا الثورة .
لورد بايرون . . من قصيدته " حج تشايلد هارولد" ١٨١٢م

(إن مملكة تنقسم على نفسها . . . لا يمكن أن تقوم)
من خرافات يعسوب "٥٦٠ قبل الميلاد"

كان فريدريك دوجلاس يهوى كشف الأكاذيب الأمريكية.

وحالما انتقل إلى روشيستر في أواخر عام ١٨٤٧، بدأ يتابع الأعمال السياسية عن قرب مسلطاً الضوء على نفاق الأمريكيين وهم يتصايحون من أجل الحرية بينما يسعون لنشر العبودية. وكثيراً ما قام دوجلاس بمقارنة الأحوال الأوروبية بالأحوال في أمريكا على سبيل المناقضة. ففي الأول من أغسطس في عام ١٨٤٨، أثناء الاحتفال بذكرى خلاص الهند الغربية البريطانية، أثنى على فرنسا لقيامها بإزاحة مليكها عن عرشه وإلغاء الرق. ففي مفجأة رائعة أخلصت فرنسا بدورها لشعارها الجمهوري "حرية... ومساواة... وإخاء". وعلى النقيض من ذلك، تحدت الولايات المتحدة الاتجاه العالمي نحو التحرر، ووقفت– تقريباً– وحدها كجزيرة للعبيد وسط عالم حر جديد[13]. في السطر الختامي لخطابه قال دوجلاس إن رجال الدولة الأمريكان أرادوا الاستمتاع مع فرنسا "بفلسفتها الجمهورية" لكنهم وجدوا ذلك مستحيلاً دون "التظاهر باستمتاعهم عبر حركة تحرير العبيد."

أصبح رجال الدولة المشهورون مثل هنري كلاي "بطل لنكولن" هدفاً مفضلاً لصب احتقار دوجلاس عليهم، وبعد انتقاله إلى

[13] في عام ١٧٧٠ كانت العبودية قانونية في كل بلدان العالم الجديد وبعد ثمانين عامًا تم إلغاؤها في كل مكان عدا الولايات المتحدة والبرازيل وكوبا وغينيا الهولندية. المترجم

روشيستر قلل كثيراً من أهمية كراهية كلاي المعلنة للعبودية، فكلاي مثله مثل لنكولن يؤكد أن الرق مسئولية كل ولاية على حده وأن ملاك العبيد هم فقط القادرون على إلغائه، وهذا الاعتقاد أشبه بمناشدة القرصان تسليم مسروقاته طواعية واختياراً، فهو يسمح لكل ولاية "أن تنهب وتعذب وتستعبد أي فرد من الجماعة البشرية داخل حدودها" كما صرح دوجلاس، وقد قلل ذلك من قيمة تأثير دعوة كلاي لإنهاء العبودية في ولايته- نفسه- كنتاكي حيث ظلت إلى عام ١٨٨٥، ومدتها تقريباً أربعين عاماً تالية قبل أن يتحرر أي عبد بالفعل. لم يكن ذلك هو حاله وحده، بل إن كلاي امتلك حوالي خمسين عبداً، كان يسرق حرياتهم كل يوم، وقد سأل دوجلاس أحد كبار رجال الولاية بقوله: "هل تعتقد أن الله سوف يعتبرك برئاً عندما تموت ودماء أولئك العبيد الخمسين تلطخ ملابسك؟"

كما أن دوجلاس شهَّرَ برجال كونجرس ليس لهم صيت مثل لنكولن، ففي يناير من عام ١٨٤٩ نشر سجلاً يحوي إحصاءات التصويت في مجلس النواب على قرار حظر تجارة العبيد في منطقة كولومبيا، وقد شعر أغلب أعضاء الكونجرس الشماليين بصدمة هائلة لمدى انتشار هذه التجارة في عاصمة دولة حرة، حيث يُنصَب واحدٌ من أكبر أسواق تجارة العبيد في الأمة على مسافة تبعد بعدد

قليل من المباني عن مبنى الكابيتول. كان أعضاء الكونجرس يمرون بذلك المستودع الكئيب الضخم في طريقهم لعملهم. كما كان عليهم أن يواجهوا تلك السلسلة الطويلة المنتظمة من العبيد الذين يعبرون ميدان بنسلفانيا قادمين من الكابيتول متجهين إلى جوار البيت الأبيض. احتشد أعضاء البرلمان الشماليون حول القرار، ومكنوه من الصدور.

ولم يكن بينهم لنكولن، فقد صوّتَ للإبقاء على تجارة العبيد في المقاطعة رغم كراهيته لها وكان قد أشار– ذات مرة– لسوق العبيد بواشنطن بأنه "حظيرة تربية الزنوج"، ويعتقد أن على مواطني المقاطعة أن يقرروا بأنفسهم مستقبل الرق ومستقبل تجارته هناك.

كان الخوف قد ملأ دوجلاس بشأن التصويت، لكنه فكر في الأمر على أنه "مثالي جداً بأكثر مما يمكن تحقيقه." وكان على حق إذ بعد ستة أيام أعاد المجلس النظر في القرار وأسقط تنفيذه. وفي كلا التصويتين لاحظ دوجلاس في حينه أن لنكولن أيدّ تجارة العبيد، وقد قام بالإدلاء بصوته متضامناً مع الجنوبيين مؤيدي تجارة العبيد، ومع قادة الولايات التي انشقت بعد ذلك مثل هاول كوب واليكساندر ستيفنز وروبيرت تومبز وألبرت جالاتين براون.

وفي النهاية أدت تلك التشويهات للحقيقة وذلك الارتداد عن الحرية بدوجلاس الى أن يعلى السلاح على الكلام ، فلو كان قدر

العبودية أن يُلقى على أكتاف الناس بولايات العبيد، حتى لو كانوا من معارضي العبودية مثل لنكولن وكلاي، فليكن الأمر كذلك طالما كان "من بين هؤلاء الناس العبيد ايضاً كما قال دوجلاس . لذا بدأ بتعليم العبيد ما يجب عليهم فعله. وبعد أشهر قليلة من تصويت لنكولن، قام دوجلاس بتحريض العبيد على أن "يقتدوا بما فعله آباؤهم عام ٧٦. وحذر من أن مالكي العبيد ينامون فوق براكين كامنة." وربما يأتي اليوم الذى تتدفق فيه الحمم. كان لايزال يأمل في حل سلمي لمشكلة الرق وأطلق على نفسه "رجل سلام". لذا، كان استخدام أداة الاحتمال "ربما" في كلماته. وقد نبع تحذيره من حدوث تمرد وشيك من مقولة الكتاب المقدس في رؤيا يوحنا: "إن أولئك الذين يقودون الناس للأسر، سيقعون فيه..."وإن "أولئك الذين يشهرون السيف، سوف يموتون به." كما قام بتعريف العبودية بأنها "كحالة حرب" تستدعي أن يشن الإنسان حرباً على الرق كيما يجلب السلام. ثم يستبدل سريعاً القول باحتمال الغاء الرق إلى الدعوة الصريحة بذلك ، ويهجر حديث "اللاعنف" بأكمله ويحرض على بدء "القيامة" فورا، وربما استلهم رؤيته من قصيدة بايرون عن "تشايلد هارولد"، ذلك الإنسان العصامي الآخر الذى أعلن : "أيها العبيد بالوراثة، ألم تعلموا بعد أن الذين سيحررون أنفسهم لابد وأن

يضربوا أولاً." كان عليه أن يشهر سيفه ويشنها حرباً على أولئك الذين قاموا بتشويه الحقيقة لحماية أوضاع العبودية.

***

أصبحت جريدة دوجلاس عصاه الغليظة التى يهدد بها، وكان قد أسماها "نورث ستار" أي نجم الشمال، وهو ذلك النجم الدليل الذى يهتدى به الهاربون في طريقهم. ربما يكون ذلك الاسم أيضاً صدىً لجريدة "النجم الشمالي"، الصحيفة المناصرة للحركة العمالية التى تصدر في إنجلترا والتى تنادي بحقوق العمال والتي كان يقرأها دوجلاس خلال إقامته هناك. كانت جريدة "نورث ستار" أسبوعية تصدر في أربع صفحات تم تصميمها على نموذج صحيفة جاريسون "الليبراتور" واستعار من مرشده أسلوبه القاسي، السريع، المجسد للصورة. لكن، بينما لم يكن جاريسون يكل في هجومه ساعياً لتحقيق الضربة القاضية في موضوعاته مع كل جملة يكتبها، كان دوجلاس يحب السخرية، والمرح، واستخدام التوريات. لذا، كان يعجبه بايرون وبيرنز. هكذا بدا نثره شديد الرقة، و قد فاق ما استعاره وما أضافه من وإلى مرشده فيما يكتب كثيراً. ومثل جريدة "الليبراتور" سعت "نورث ستار" إلى تحقيق الخلاص العالمي للسود ورفعتهم دون إغفال حركات الإصلاح الأخرى مثل حقوق المرأة، والعمل، ومقاومة الخمور. لكن، في حين كان جاريسون يقلل من

شأن السياسة، فإن دوجلاس جعل لها الصدارة ونشرت الصحيفة في أول إصدار لها، في ٣ ديسمبر ١٨٤٧، خطابه إلى كلاي الذى يهاجمه فيه ويتهمه بالتساهل في مسألة العبودية، كما أن جريدة "نورث ستار" تخيلت– وسط تنوع أصوات وموضوعات الجريدة– مجتمعاً جديداً يرتقي بجال الأمة ويعلي مبدأ "كل الحقوق للجميع" الذي أصبح بعد ذلك شعاراً للجريدة. وبإصداره تلك الجريدة، شعر دوجلاس أنه يشبه الوصول إلى مدينة نيويورك لتوه خارجاً من أدران العبودية. فأنت تحيا على الأمل والتحفز، وإذا ما أستطعت اجتناب الدائنين (والخاطفين) لمدة ستة أشهر، فإن فرص تحقيق ذاتك كمحرر في صحيفة (أو كرجلٍ حرٍ) تتزايد بصورة مثيرة. لم يكن في الامكان التنبؤ بمصير تلك المغامرة ، حيث كانت هناك دائماً ظروف غير محسوبة بغض النظر عن مدى العناية المبذولة لإعداد وتخطيط الإصدار الأول (أو الهرب).

انتقل دوجلاس إلى روشيستر في خريف ١٨٤٧ لإصدار جريدته، وأخذ يتجول هو وصديق له وأبقى آنّا والأطفال في "لين" كيما يكرس كل طاقاته للمهمة القائمة أمامه، فقام باستجار مكتب بالعقار ٢٥ بشارع بوفالو وسط قلب المدينة التي تمور بالأعمال التجارية للمقاطعة، وأنفق كل مبلغ الألفي دولار التي منحها له أصدقاؤه البريطانيون دفعة واحدة. وسرعان ما امتلأ مكتبه

بالمطبعة الجديدة بمعدنها البراق وحروف الطباعة وصناديق الأحرف والمناضد.

كان ذلك أمراً سيئاً وخطأ فادحاً إذ لم تكن لديه أدنى فكرة عن إدارة المعدات أو ملاحظة الصنايعية الذين أستأجرهم للقيام بالنضد وإعداد ألواح الحروف وأدرك على الفور أن من الأرخص له التعاقد مع ناشر خبير. لكنه لم يستطع إعادة بيع المعدات التي اشتراها، وبدلاً من أن يوفر ذلك المبلغ الذى يعادل ١٥٠,٠٠٠ دولار بحسابات اليوم من أجل بناء قاعدة كبيرة من المشتركين، لجأ من فوره الى الدين. اجتازت "نورث ستار" في الأشهر الستة الأولى الحاسمة بفضل إصرار دوجلاس وإرادته الحديدية وليس بفضل أي شئ آخر.

كان معظم المحررين الصحفيين ينفقون سنوات طوال في التدريب بمكاتب الطباعة. فقد كانت تلك، مدارسهم وحرفتهم. حيث تعلموا كيف يصفون حروف الطباعة المعكوسة حرفياً وهم يراجعون كل الحروف المتشابهة مثل التاء والثاء والصاد والضاد منعا لأخطاء التهجي، وكيف يكتبون جُمَلاً نظيفة متماسكة. وعندما كانوا يصبحون محررين كانوا يعرفون كل صغيرة وكبيرة في العمل الصحفي، ويغدو في إمكانهم تحديد الصحافة الجيدة بمجرد تصفحها.



كان دوجلاس قد تمكن من الخطابة والكتابة وبرع فيهما، لكنه تاه عندما دخل مجال التحرير والنشر.

في أية مدينة أخرى ربما كان دوجلاس سيتعرض للإفلاس. لكن مدينة روشيستر- المدينة الصناعية ذات الخمسين ألف نسمة- كانت أيضاً محور الإصلاح الراديكالى. وبوجودها على الطريق المباشر المتجه لكندا كانت من آخر المحطات في قطار الأنفاق. بعبارة أخرى، كانت مدينة تحتاج الى قائد ومحرر جيد من دعاة التحرر.

وتحول مكتب دوجلاس بالفعل الى محطة رئيسية فوق قطار الأنفاق، بل إن أحد أصدقائه يذكر أنه قد بُني بمكتب دوجلاس سُلمٌ سري يؤدى عبر باب مموّه إلى مخبأ مخصص "للمطاردين". ربما تكون تفصيلات الحكاية مشكوك في صحتها لأن دوجلاس لم يكن لديه أية نقود تسمح ببناء سلم سري. كانت حكايات الأبواب الخفية والسلالم السرية غالباً تشكل جزءاً من الذاكرة البدائية لمرحلة العبودية لا كجزء من تاريخها. ومع ذلك فقد لعب دوجلاس دوراً محورياً في وجود قطار الأنفاق في روشستر فوفقاً لأحد تقديرات الملاحظين، ساعد دوجلاس حوالي أربعمائة هارب للحصول على حريتهم حيث أوجد لهم بيوتاً وأرشدهم الى طريق آمن لكندا. وقد تضمن أول إصدار من جريدة "نورث ستار" مانشيتاً رئيساً يقول: "

أختٌ... أُنقذتْ من العبودية." متبوعاً بمقالة موجزة صف فتاة عمرها ثمانية عشر عاماً غادرت مكتبه لتوها في طريقها الى الحرية.

في بدايات عام ١٨٤٨ لحقت آنّا والأطفال بفردريك في روشيستر، لكنها لم تشعر بالسرور لاضطرارها للانتقال من جديد، وقد كرهت مدينة روشيستر– في البداية– إذ كانٍ عليها العيش في سكن رخيص ، بينما بيتها هو عالمها الخاص جداً.

وتحسنت حياتهما المنزلية في أواخر ربيع عام ١٨٤٨، حيث باع فردريك منزله في لين، وبحصيلة البيع وبمساعدة أصدقائه دعاة الغاء الرق في روشستر تمكن من شراء منزل ذي طابقين وتسع غرف، مبني بالطوب، في رقم ٤ شارع أليكساندر بالقرب من مكتبه في وسط المدينة. كان منزلاً رائعا بالنسبة لهم لأنه يحيط بمرعى واسع للأطفال وحديقة لآنّا، وحجرة مكتب لفرديك. كان ذلك أول منزل أمكنه تسميته منزله، وقد احتوت "حجرة مكتبه الصغيرة– الشبيهة بالعرين أعلى السلم– على منضدة صغيرة وبعض الكتب وقائمة من الكلمات التي وجدها صعبة التهجي."

أحبت آنّا المنزل الجديد وقضت وقتاً طويلاً من حياتها "تحافظ على الأشياء في وضعها الصحيح." أطلق عليها الأصدقاء "مدبرة المنزل النموذج"، ووفقاً لما ذكره أحد جيرانها ، فقد ساعد سلوكها المدبر فردريك على الاحتفاظ بجريدته قائمة بينما كان يجاهد هو

للحصول على المزيد من المشتركين، وحالما انتقلوا جاءها الفرج بانتقال أختها للعيش معهم وساعدتها في أمور التنظيف والطهي ورعاية الأطفال.

خلال صيفهما الأول في شارع أليكساندر، طلب فردريك من أحد أصدقائه الدعاة تعليم آنّا والأطفال القراءة والكتابة، وكانت آنّا مترددة لكنها حاولت "من أجل خاطر فردريك". ورغم ذلك، فقد شعرت بالارتباك وبتزاحم مشاغلها، وعندما بدأت تُهمل واجباتها المنزلية من أجل كتب النسخ والهجاء "انتهت تجربتها من أجل التعليم" للأبد.

لم يعبر فردريك أبداً عن خيبة أمله لرفض آنّا التعلق بقوة الكلمة المكتوبة. لكن ذلك لابد أزعجه لأن الكلمات كانت حبه الأول، وكانت آنّا تعلم ذلك جيداً. أما عن الأشياء الوحيدة التي استمتعا بها معاً فكانت أطفالهما وعشقهما للموسيقى، فأحياناً كان آل دوجلاس يتجمعون فوق نجيلهم الأخضر في مساء الصيف، وتعزف آنّا على كمانها بينما يقود فردريك الأطفال لغناء ترتيلة "الملاك" أو أية ترتيلة أخرى من كتاب ترتيلات آنّا، وعندما كان أطفال الجيران يسمعون صوت فردريك الصادح الطروب ولأذنه الحساسة، يتجمعون بدورهم، وبعد سماعهم لعدة ترتيلات أخرى يطلبون بعض الأغاني الشعبية، فيندفع فردريك وآنّا في عزف ألحان ستيفن فوستر مثل

"نيللي كانت سيدة" أو "منزل كنتاكي القديم." بدت تلك الألحان الجنوبية الشعبية كمرثيات لشخصيات مضت.

كان دوجلاس شديد الفخر بمنزله حتى أنه كتب إلى توماس أولد- سيده القديم- يوم ٣ سبتمبر ١٨٤٨، وهي الذكرى العاشرة لحصوله على حريته، يقول له إنه الآن يملك مأوى مريحاً "يشبه تماماً منزلك" ويقوم على رعاية أسرة سعيدة تتكون "من رفيقة مجتهدة ونظيفة (أنا) وأربعة أطفال أعزاء" تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة والتاسعة. رغم صعوده الاستثنائي، إلا أنه كان يفكر باستمرار في ماضيه. حيث أصبحت حياته السابقة كعبدٍ حينذاك مصدرا لكسب عيشه. وحينما كان يجد نفسه وحيداً في حجرة مكتبة كان يضع- أحياناً- قلمه في أحد شقوق أقدامه التي صارت أكثر غوراً بفعل الصقيع حينما كان عبداً. لم يكن ماضيه فقط حاضرا في ذهنه وإنما كان ملموساً أمام عينيه.

وقع دوجلاس في هوى مدينة روشيستر أكثر المدن تحمساً لحرية المرأة وتحرير العبيد في البلاد . كما أنها كانت لا تخلو من خيلاء وغرور الصفوة الحاكمة في بوسطن . لقد كانت في قلب "الأتون المشتعل" للمقاطعة وهى منطقة بولاية نيويورك العليا على طول مجرى قناة إيريك اجتاحتها النيران الروحانية لحركة الإحيائيين الجدد محولها إلى بؤرة للإصلاح الراديكالي، لأن روشيستر كانت موطن



الأختين فوكس اللتين اكتشفتا العقيدة الجديدة "الروحانية"[14] عام ١٨٤٨، التي مكنت الناس من التواصل مع "الموتى". كانت المدينة تبعد ستين ميلاً فقط من شلالات سينيكا، موقع أول اتفاقية لحقوق المرأة في العالم أيضاً في نفس العام. رغم عدم وجود دلائل تشير لقيام وجلاس بممارسة الطقوس الروحانية، إلا أنه حضر مع ثلاثين رجلاً ومائة وعشرة امرأة اتفاقية شلالات سينيكا ، وخلال حلقة نقاش حول حق المرأة في التصويت، ألقى خطبة بليغة، وبذلك أنقذ الحركة من الانهزام.

لقد ذابت بعض معالم التعصب نسبياً في مدينة روشيستر. وبالتالي، سادت روح انفتاح تجاه السود لم يوجد مثلها في بوسطون. لا ريب أن روشيستر لم تكن إنجلترا. لكن دوجلاس شعر فيها بالأمن كأنه في منزله أكثر من أي بلد آخر في وطنه حيث قال فيما بعد: "لا أعرف مكاناً في الاتحاد أينما أستقر بي الحال وجدت فيه رفضاً أقل أو تلقيت فيه تعاطفاً وتعاوناً أكبر من هنا."

كان لدى رجال الأعمال وزعماء الإصلاح في روشيستر سبباً قوياً لمصادقته وحمايته، لأنه كان أشهر مواطني المدينة وكان وجوده يساعد كثيراً في جلب الأموال والأعمال والموارد الأخرى. فبعدما طلب محرر جريدة نيويورك اليومية من أهالي روشيستر أن يقوموا

---

[14] الاعتقاد بأن الموتى تتصل بالأحياء عبر وسيط ـ المترجم

بإلقاء مطبعة ذلك الزنجي في بحيرة أونتاريو ونفي صاحبها إلى كندا، سارع مصلحو المدينة لنجدته في الحال.

كما رحب الصحفيون بدوجلاس كذلك. ففي بدايات عام ١٨٤٨ دعاه ناشرو المدينة لحضور احتفالهم السنوي بمناسبة عيد ميلاد الرئيس بنجامين فرانكلين في فندق إيرفنج هاوس، وعندما وصل عند بوابة الفندق قام أحد الموظفين بطرده ونعته صاحب الفندق بالمتطفل قائلاً: "إن ذلك خرق لقواعد المجتمع التي تمنع الملونين من الاجتماع مع البيض." لكن أحد محرربى المدينة شاهد ما كان يحدث وطلب من المجتمعين التصويت على ذلك، وبموافقة جماعية تقريباً قبلوا انضمامه لدائرة ناشري روشيستر.

أصبح إسحاق وإيمي بوست وهما من دعاة الغاء الرق من أقرب أصدقائه، وكان قد قابلهما خلال زيارته المبكرة للمدينة عام ١٨٤٠ وارتبطوا جميعاً ببعضهم. ذكر دوجلاس : "أحبتني إيمي وعاملتني كأخ لها قبل أن يعرفني العالم بما أنا عليه الآن." وقد بادلهما الود قائلاً: "إنه أحب إيمي وأعجب بها ." كما أطلق على إسحاق: "العزيز إلى نفسي"، وتزاورت أسرتا دوجلاس وبوست كعائلة واحدة.

ورغم ذلك الدعم المجتمعي ، اندثرت صحيفة "نورث ستار" وانتهت تقريباً في عامها الأول. ففي مايو ١٨٤٨ فور شرائه لمنزله،



نشر دوجلاس دعوة عاجلة طالباً المساعدة المالية، وحصل على اشتراكات أقل من ألف اشتراك بالجريدة، فاضطر لرهن بيته ليبقى قائماً في العمل، ولكي يسرع حركة الاشتراكات ويحصل على نقود أكثر، ألقى سلسلة من المحاضرات أمدته بدخل صاف يتراوح ما بين ٢٥ دولار إلى ٥٠ دولار لكل محاضرة، وهو ما يساوي من ١٨٧٥ دولار إلى ٣٧٥٠ دولار بحساب اليوم.

واجه دوجلاس عدداً من المعوقات، إضافة إلى قلة خبرته كمحرر صحفي، منها خطأه في حساب قاعدة مشتركي الجريدة. إذ كان هدفه الوصول إلى نصف مليون مشترك من قراءه الأحرار من السود على نطاق البلاد منوهاً في أول أعداد جريدته: "تذكروا أن جميعنا واحد... وقضيتنا واحدة، وعلينا مساعدة بعضنا البعض!" استأجر دوجلاس عدداً من السود لمعاونته، وعمل مارتن ديلاني- الذي تعلم درس لفترة وجيزة بجامعة هارفارد قبل أن يقوموا بطرده منها، مساعداً لرئيس التحرير وكان مسئولاً عن جلب الاشتراكات للجريدة. وجاء وويليام كوبر نيل، أحد رعايا جاريسون، من بوسطون لمساعدته. لكن ديلاني لم يجلب سوى اشتراكات قليلة. كما أن نيل الذي لم يوافق دوجلاس على استخدام السياسة في الجريدة عاد إلى بوسطون. فشل دوجلاس في الوصول إلى المجتمع الأسود المأمول.

ونتيجة لذلك أصابه إحباط عميق وأخذ يلوم السود لعدم اشتراكهم في جريدته متعجباً : "على كل رجل أسود أن يطرح على نفسه سؤالاً واحداً: ماذا أفعل لإعلاء وتحسين أحوالي خاصة وأحوال إخواني عامة؟" . وتوصل في يوليو ١٨٤٨ إلى إنهم لم يفعلوا شيئاً له قيمة. وفي حين كان المقهورون و أوروبا وعمال أمريكا من البيض يثورون ويقاومون ويتوحدون، كنا "نحن الأكثر قهراً بالمقارنة بهم متبلدين وغير مبالين بما هو خير لنا ." فمن بين نصف المليون زنجي حر في البلاد، اهتم ألفان فقط بمساعدة أنفسهم وأبدى أقل من ألف وأربعمائة منهم اهتماماً بحركة مناهضة الرق، ومن بينهم اشترك مائة فقط في هذه الجريدة، ونحن "نعلن في أسف شديد، لا في غضب."

لكن دوجلاس كان غاضباً حيث لاحظ أنه في حين أن السود ينفقون بسخاء على منظماتهم الأخوية فإنهم يرفضون الاشتراك في جريدته. وفي يوليه ١٨٤٨ تجمع ما بين أربعة إلى خمسة آلاف من السود في مدينة نيويورك للاحتفال السنوي لأخوية "الزملاء الغرباء" وهى أكبر منظمة أخوية سوداء في البلاد ، وأنفقوا على أعلامهم الحريرية الداعية للحرية ووحفلات العشاء الراقصة وأزيائهم الزاهية، حوالي عشرين ألف دولار بمتوسط قدره أربعة دولارات لكل فرد، ومع ذلك لم يدفعوا دولارين مقابل اشتراك سنوي في جريدة "نورث

ستار". ولم يدرك دوجلاس الا مؤخراً فقط، عندما تحسنت أحواله التمويلية، أن تلك المنظمات الأخوية كانت ذاتها مصدراً رئيسياً للاعتزاز العرقي والارتقاء المتبادل.

كانت مشكلة نقص الدعم من قبل السود مشكلة صغرى، لأن مشكلة دوجلاس الكبرى نبعت من الانقسامات داخل حركة مناهضي العبودية مضافاً إليها الكراهية من قبل الحلفاء السابقين من البيض. وسعت جريدة "نورث ستار" إلى سد الفجوة بين مجموعة جاريسون المُسالمة "الجاريسونيين" وبين حزب الحرية واجتذبت القراء من كلا الجانبين. لم تدن الجريدة عمليات التصويت والانتخاب (مثلما فعل جاريسون ورفاقه) ولم تكن تابعة لحزب الحرية كذلك. كانت مستقلة تماماً في عصر كانت أغلب الصحف تنحاز لحزب بعينه أو جماعة محددة. وعلى ذلك، لم تمده أيٌ من الجماعتين بالدعم المطلوب والضروري.

وإضافة لكل ذلك، كانت جماعة رفاق دوجلاس السابقين في بوسطون لا تزال غاضبة منه لأنه هجر الجماعة واستقل بجريدته الخاصة، وقد أطلقوا على جريدة "نورث ستار" اسم الأداة غير الضرورية، إن لم تكن غير مفيدة للنهوض بقضية العبيد. وقاطعوا جريدته. وبعد ثمانية أشهر من إصدارها الأول، لم يكن لدى الجريدة سوى أقل من ثلاثين مشتركاً في كل أرجاء ولاية ماساتشوستس،

الولاية التي كانت موطن حركة جاريسون لمناهضة العبودية وحاملة لواء الحرية، بل إن بعضاً من مناهضي العبودية في بوسطون أرسلوا إلى أصدقاء دوجلاس في بريطانيا طالبين منهم عدم الإشتراك بجريدته.

ورغم تلك الاختبارات ، أسس دوجلاس قاعدة من القراء النافذين ببطءٍ شديد. وكان من بين أوائل المشتركين المعروفين بجريدته الأديبة هاريت بيتشرستو ولوكريتشيا موط ومثلهما السيدة بايرون (أرملة الشاعر الشهير). كما انضم إليهم بعضٌ من الأصدقاء الجدد من أقصى نيويورك وقرأوا جريدته باحترام وتقديس، كما فعل القراء القدامى من بريطانيا وذلك رغماً عن الرسائل القادمة إليهم من بوسطون.

كان هناك صديقان- على وجه الخصوص- هما من وضعا دوجلاس على طريق الأمان التمويلي. اولهما كانت الصديقة جوليا جريفيث التي كان لوالديها علاقة وثيقة بحركة تحرير العبيد البريطانية، وقد أصبح فردريك دوجلاس وجوليا صديقين خلال رحلاته في إنجلترا، وساعدته في الحصول على حريته وواصلا مراسلاتهما بعد عودته للولايات المتحدة، وحالما علمت بأزمة جريدته حزمت أمتعتها في انجلترا وحضرت إلى روشيستر مع أختها إليزا، وانتقلتا إلى منزل دوجلاس.

كانت لجوليا حاسة تجارية رائعة، فقامت بفصل حسابيّ فردريك الخاص والتجاري كلاً على حده، وحصلت على آلاف من الدولارات بتنظيم عدة معارض خاصة بمناهضة الرق. كما نشرت عدة دعوات لطلب الامداد والتمويل والاشتراكات، وأنشأت قاعدة حاسمة للدعم من النساء القارئات. ثم قامت بتعليم دوجلاس أسس فن التحرير الصحفي، مبتدئة بقواعد اللغة. وعندئذ لم يعد يعتمد فقط على حاسته الفطرية في الحكم على ما هو صحيح وما هو خطأ، فهي الآن مرشدته الماهرة. كما قامت بتصحيح مقالاته التحريرية "بقلم أزرق مدقق" وفحصتها كما لو كانت معادلات رياضية.

سرعان ما تعلم الكتابة بثقة دونما أخطاء، حيث يذكر ذلك بعد عدة سنوات "تصوروا ما كان يمثله تحرير صفحة واحدة لي قبل أن التقى بالآنسة جريفيث ... إذ لم أكن قد تعلمت كيف أتهجى كلمة بعد، وكنت أكتب ببطء يملؤني الحرج بشدة، جاهلاً - بكل أسف - بكثير مما يجب أن يعرفه كل تلميذ في أي مدرسة." وكخطيب، لم يكن دوجلاس بحاجة لمعرفة هجاء الكلمات بدقة. كما أنه أثناء كتابته لسيرته الذاتية عام ١٨٤٥، كان يستطيع الاعتماد على الآخرين لتصويب وتنميق نصوصها.



أثار وجود امرأة بيضاء جذابة بمنزل دوجلاس فضيحة، فعندما كان يقضي وقته بالمدينة، كان يمضي أغلب "مشاويره" سائراً مع جوليا. كما كانا يعملان معاً طوال النهار بمكتبه، وغالباً ما يمكثان هناك إلى وقت متأخر من الليل. من هنا افترض معظم الرجال البيض العنصريين- الذين نشأوا معتقدين أن كل الرجال السود يتحرقون شوقاً لامرأة بيضاء- أن بينهما أعمالاً غير لائقة كلما رأوهما معاً لأن مجرد رؤيتهما في شارع مين بروشيستر يسيران متماسكي الأيدي (كما كانت العادة) أثار هياجاً كما لو كانا شوهدا عرايا. بدأت "التهديدات تنهال علناً" عليهما لو استمر ذلك الاندماج. لكن جوليا وفردريك مضيا قدماً دون اهتمام بأحد متجاهلين نظرات الناس المستنكرة. وانتهت التهديدات في النهاية دون أحداث، وعندما ذكر أحد الدعاة تلك الشائعات في روشيستر، أنكرها دوجلاس بشدة مصرحاً: "عندما تقوم تلك المدينة التي تدعى أنها تمتلئ بأخبار الفضائح المتعلقة بي وبالآنسة جوليا بوضع تلك "الأقاويل" في أسلوب محدد، وتعين شخصاً واضحاً يقف وراءها، ستكون هذه هي اللحظة التي سأقوم فيها بدحضها."

أتت أسوأ الشائعات من دعاة بوسطون الذين اعتبروه مرتداً ومهرطقاً، فقد اطلق أحد الزملاء القدامى على جوليا لقب "إيزابيل

التي لا يباريها أحد في قدرتها على إحداث الفرقة والوقيعة بين الأصدقاء." زاد جاريسون نار الشائعات وقوداً بقوله إن دوجلاس منذ انتقاله إلى روشيستر "فقد كثيراً من قيمه الأخلاقية... وأنه يحتفظ بواحدة من أسوأ مستشاريه في مطبعته، لدرجة أن تأثيرها لم يقف عند حد التسبب في تعاسة أهل بيته، بل انحرفت بقدرته على التقدير بشكل مدمر." أنكر دوجلاس أن وجود جوليا سبب الألم لأسرته. لكن وفقاً لمصدر آخر ذكر أن إيمي بوست قالت إن آنّا شعرت بخطورة جوليا على حياتها العائلية فطلبت أن تعيش جوليا وسط عائلة أخرى، وقالت لفردريك: " أنا لا يهمني من أمرها أن تكون في المكتب أم لا، لكنني لا أريدها في منزلي." هنا حاولت هارييت بيتشر ستو- صديقة دوجلاس وجاريسون معاً- إخماد تلك الشائعات لكن كلماتها تاهت وسط كلمات قائد الجمعية الأمريكية لمناهضة الرق.

لم يكن هناك أي دليل على وجود علاقات جنسية خاطئة بين فردريك وجوليا لأنه كان يعلم أنه إذا ما وقع في ذلك الجرم فإنه سيدمر مستقبله. لذا، فمهما كان ما يحدث خلف الأبواب المغلقة، إلا أنه اتخذ كافة الاحتياطات للتأكد من أن يرى أي تصرف ظاهر لن يرتد عليه، وفي حين كان لنكولن من قبل يستطيع استئجار إحدى العاهرات لقضاء وطره منها، أو النوم مع صديقه الحميم طوال أربع

سنوات دون أن يبدي أحد اعتراضاً واحداً، نجد معايير الاحتشام بالنسبة للسود صارمة وإن انتهاكها مكلف للغاية.

لو كانت جوليا جريفيث هي من قامت بتعليمه قواعد اللغة ومهارات العمل التجاري، فإن جيريت سميث هو الذي طور آراءه وأعاد صياغة كتاباته. نشأ جيريت في قرية بيتر بورو، على بعد أربعين ميلاً جنوب شرق سيراكوز، بين واحدة من أغنى العائلات بالبلد. كان والده شريكاً في أعمال جون جيكوب آستور التجارية، وجمع أكثر من مليون فدان في ولاية نيويورك. وفي شبابه، اقتدى باللورد بايرون وملأه الحلم في أن يصبح شاعر أمريكا الملحمي والأرستقراطي، ويعيش أجواء الحرية المطلقة في أشعاره. وفعلاً ارتدى جيريت– معظم أيام حياته– ياقة القميص البايرونية العريضة. لكن سلسلة من المآسي دفعته إلى طريق التغيير الديني والدعوة الثورية لتحرير العبيد. فقد أدى ذعر عام ١٨٣٧ إلى إفلاسه تقريباً، وشدته إلى الإحساس بأزمات الفقراء والتعاطف معهم، فكرس حياته لخدمة من يحتاج إليه. وبعد تجاوزه مرحلة الإفلاس، أصبح واحداً من اعظم المحسنين هناك حيث تنازل عن حوالي ما يساوي ٨ ملايين دولار من الأرض– أي ما يساوي ٦٠٠ مليون دولار اليوم – وبعض الأملاك الأخرى معظمها للسود الفقراء. كما عقد صداقات عميقة مع السود وتواصل معهم أكثر من أي إنسان أبيض

آخر. كما قال بنفسه إنه سعى في الأساس "لأجعل من نفسي إنساناً ملوناً."

حدثت أكبر أعمال سميث الخيرية قبل عام من انتقال دوجلاس إلى روشيستر. في عام ١٨٤٦ تنازل عن أراض مساحتها ١٢٠,٠٠٠ فدان في منطقة أديروندآكس لحوالي ثلاثة آلاف مسكين من الفقراء السود بولاية نيويورك، أي حوالي ٤٠ فدان لكل شخص، (ولم يكن من بينها بغال لأنه لم يكن يملك سوى آلاف من الأراضي دون نقود سائلة). سميت تلك المناطق الواقعة في مقاطعتي إيسكس وفرانكلين باسم "تمبكتو" تيمناً باسم تلك المدينة الواقعة في غرب إفريقيا ذلك المكان الذي يتجاوز آفاق الأحكام المسبقة الأمريكية المشينة. ملأ سميث الأمل أن تُمكن تلك الهبة متلقيها من أن يصبحوا مزارعين وبالتالي ناخبين مستقلي الإرادة حيث كانت الولاية تشطرط أن يمتلك العبد ملكية قيمتها ٢٥٠ دولار قبل أن يحوز حق التصويت.

اتهم الساخرون والأعداء سميث بأنه يخدم مصالحه لأنه هو ذاته زعيم من زعماء حركة إنهاء العبودية ساهم في تأسيس حزب الحرية عام ١٨٤٠ والحزب الذي خلفه- حزب الحرية الوطني- في عام ١٨٤٨. كان هذا الحزب الأخير هو أول من دعا للتحرر العالمي من العبودية والحقوق المتساوية لكل البشر. في عام ١٨٤٨- تحديداً-



كان سميث هو مرشح الحزب لانتخابات الرئاسة فاكتسب جماهيرية مثالية وسط الدعاة السود الذين أحبطهم إصرار جاريسون على التمسك بعدم العنف وعدم السعي للحصول على حق التصويت. ومنذ جلبت عطاياه مزيداً من الناخبين لصالح حزبه، اتهمه آخرون بالانتهازية. لكن حزب الحرية الوطني لم يكسب سوى آلاف قليلة من الناخبين فقط لأن دوره كان رمزيا إذ عمل كمنارة للديمقراطية في جمهورية للعبيد. كان سميث يمثل أغلب دعاة التحرير البيض في نظرته لنفسه كنبي يقوم بتنفيذ إرادة الله في قتال خطيئة العبودية. وكان يختلف عنهم في درجة التزامه.

بعد أيام قليلة من إصدار دوجلاس لصحيفته، رحب سميث بدوجلاس في الولاية بخطاب مصحوباً بصك ملكية ٤٠ فدانا في منطقة تمبكتو كاتبا: "هنا في موطنكم الجديد نسأل الله أن يبارك لكم في أعمال المحبة التي تبذلونها من أجل شعبكم المقهور!" لم يكونا قد تقابلا أبداً، وقرأ دوجلاس خطابه بصعوبة لأن كتابة سميث كانت أشبه "بنبش الفراخ" الذي كتبه شخص مشلول اليد. بعد فك طلاسم الخطاب قام دوجلاس بنشره في جريدته (وربما قام أيضاً ببيع صك الملكية)، وهكذا بدأت صداقتهما. بدا أن سميث كان يعرف متى يصبح دوجلاس في حاجة للمساعدة بمجرد إحساسه الغريزي

بذلك، إذ كانت تترى خطاباته - في الوقت المناسب - تحوي شيكاً هنا بمائة دولار وآخر هناك بمائتين.

كان جيريت سميث يختلف عن كل الرجال البيض الذين قابلهم دوجلاس لأنه وهب كل ثروته للسود محتفظاً بقليل من الشروط عليهم، وقد رحب بقدومهم للولاية مخصصاً قطعاً من الأرض تبلغ الواحدة منها ٤٠ فداناً. كما قام بدعم وتأييد صحيفة يمتلكها رجلٌ أسود بهباتٍ منحها له على فترات، واستمع لهم ووثق فيهم، وأيدهم واحترم ما قالوه له. وفي حين عامل جاريسون دوجلاس كابن له، أصبح سميث صديقاً له وزميلاً نموذجياً. اكتشف دوجلاس أن بإمكانه مناقشة ومعارضة سميث في القضايا الهامة دون تبادل الاتهامات، وكان الدستور واحداً من تلك القضايا، فعندما تقابلا كان دوجلاس متعلقاً بمبدأ جاريسون الذي يقول إن الدستور يؤيد العبودية وفاسد، وكان جاريسون حقيقة قد قام بإحراق نسخة منه علانيةً وأطلق عليه "ميثاق مع الموت" و"اتفاق مع الجحيم". لكن سميث كان ينظر إليه كوثيقة مناهضة للعبودية كُتبتْ بعناية. والاختلاف في هذا هام جداً، وذلك لأن الكيفية التي تفسر بها الدستور هي التي تشكل الطريقة التي تهاجم بها العبودية.

وقد استعار سميث وقليل من المنظرين أسانيد قانونية من كتابات وليام بلاك ستون تحتج بأن القانون الطبيعي لا يتفق مع

العبودية وبالتالي يلغي أي قانون بشري يدافع عنها .وبدلاً من قراءة الدستور من منظور الماضي وبالتالي ضرورة التعامل مع التراث الطويل من القوانين المؤيدة للعبودية والمنبثقة منه، حاولوا "تمييز ما يمكن أن يكون عليه الدستور" . قادت هذه الرؤى المتقدمة سميث وأعضاء حزب الحرية الآخرين إلى تفسيرات مبدعة ومفيدة. فالهدف الأساسي للدستور كما جاء في مقدمته هو تأمين نِعَمَ الحرية، وبالتالي فالدستور يتوافق مع الحقائق البينة بذاتها للحرية والمساواة التي جاءت في إعلان الاستقلال. وعلاوة على أنه لم يذكر أبداً الفاظا من قبيل "عبد" و"عبودية" أو حتى "زنجي" ومن ثم ا لا يفرض قيوداً، ولا يسمح بالإضطهاد العرقي. وهو يحمي حريات الناس بطرق محددة: فالأحكام الإجرائية السليمة الى تحمي الحق في الحياة والحرية والملكية تعطى الأولوية للحياة والحرية على حق الملكية ويكفل تحريم مد آثار الحرمان من الحقوق المدنية أن كل طفل يولد حراً بغض النظر عن حالة والديه. وتلك الأحكام التي تؤخذ غالباً على أنها معضدة للعبودية هى ببساطة أحكام تم تفسيرها بصورة خاطئة، فاللحكم الخاص بالهارب يشير إلى "الصنايعية" والأطفال ولا يشير للعبيد . وأحكام توزيع الأرض لا تمنح حماية لملاك العبيد .وفي حالة وجود التباس أو تعارض يجب أن يسود القانون الطبيعي أو القانون الإلهي، الذى يجعل العبودية منعدمة وباطلة .

كان تفسير سميث للدستور يدخل في باب المحال، بل كان تفسيراً فوضوياً، لأنه يتخلى عن سبعين عاماً من السوابق القانونية، ويشجع تفسيره هذا الناس على تأويل الدستور وفقاً لمعتقداتهم وتحديد معالم القانون الطبيعي تبعاً لقوانينهم الشخصية. وفى الواقع آمن أغلب الآباء المؤسسو للدستور وواضعو صياغته أن الاستعباد خطيئة. لكنهم تنازلوا عن مثلهم وصاغوا ضمانات دستورية للعبودية، وكانوا– في مناحي عديدة– يشبهون هنري كلاي. فهم يعارضون العبودية نظرياً .ويسعون لإلغائها في النهاية – كما قال كلاي ولنكولن– لكنهم كانوا في الواقع من أنصار الحلول الوسط، لأنهم غالباً من ملاك العبيد بالفعل.

في البدء أطلق دوجلاس على محاجة سميث الدستورية وصف "محاجاة مجنونة"، وفي عام ١٨٤٩ سلم بأن الدستور من خلال التحليل الدقيق لا يعد مؤيداً للعبودية. لكنه أكد أن نوايا صياغ القانون جعلت منه سلاحاً لحيازة العبيد . ودعا إلى دستور جديد وحكومة جديدة. كان مذهب سميث الدستوري يرى أن الحكومة "لا تزيد عن كونها جماعة الدهماء الخارجين عن القانون الذين يتصرفون تبعاً لقناعاتهم وليس لأي مصدر آخر أو أعلى للسلطة." لأنه لو تجاهلت حكومة ما المقاصد الأصلية لدستورها "فى مادة ما"، لربما فعلت ذلك في كل المواد حيث "لن تكون هناك حدود،

ولا أمان ولا يقين" بشأن كيفية تفسير الدستور وتطبيقه. كان دوجلاس قد أرتبط بنموذج من القانون المؤسس على المقصد الأصلي لمشرّعه.

لكن ذلك تغير عبر السنتين التاليتين، إذ كثيراً ما جادل دوجلاس سميث حول المفاهيم المختلفة للقانون . ومع بدايات عام ١٨٥١ اقترب دوجلاس من وجهة نظر سميث، حيث قال : "لقد سئمت وتعبت من الجدل حول الجانب الخاص بمالكي العبيد" في الدستور حيث ظل معتقداً أن من صاغوا الدستور قصدوا ضمانات معينة للعبودية حتى لو كان معظمهم قد ملأه الأمل في وضع حدّ في نهاية المطاف للعبودية. على أية حال، كان دوجلاس على استعداد أن يميل مع رياح صياغ الدستور ونواياهم ومع السوابق القانونية. كان قد قرأ لتوه "تعليقات بلاك ستون" التي بينت له أن العبودية تتناقض مع العدالة ولا يمكن أن تكون قانوناً . ولم يساوره القلق حينذاك الا بشأن مدى أخلاقية ابتداع "قواعدكم القانونية" من أجل هزيمة مقاصد صناع دستورنا" أما جيريت فقد امتص عوامل القلق هذي حينما أخبره— بصورة مؤثرة— أن القانون "يتحول دوماً " وأنه في حالة تطور مستمر .دعمّ دوجلاس ذلك المفهوم للقانون لأنه هو نفسه كان في حالة تحول مستمر ويعيد صناعة نفسه.

بعد شهور قليلة من ذلك ،في يونيو عام ١٨٥١، حوّل صحيفته إلى صوت يعبر عن حزب سميث حزب الحرية الوطني، وكان للشراكة بينهما معنى رائع لأن سميث وفر لها ضماناً تمويلياً من خلال مخصصات شهرية مقابل مساحة أكبر لعرض مبادىء الحزب، واحتفظ دوجلاس فيها باستقلال ذاتي كبير.

ومع هذا الاندماج غيّر اسم صحيفته إلى صحيفة "فردريك دوجلاس"، وكان ذلك قراراً صائباً لأن اسمه تحول إلى سلعة قابلة للتسويق. كانت رغبة سميث في جريدة ناجحة وجديدة الشكل قد هزته بعنف، وها هو يمنحها شكلاً جديداً مع شراء أوراقٍ بيضاء لطباعتها وانتقاله إلى مكتب أوسع بمبنى وايلدر على ناصية شارعي إيست مين وايكستشنج. وأبرز نفسه بصورة أكبر في جريدته الجديدة عما كان يفعل في "نورث ستار". كان الاسم الجديد للصحيفة يعكس ذلك الإسقاط الذاتي كما لو كان يقول: "هذه الجريدة الجديدة شكلاً وموضوعاً هي . .أنا." كما قام بتغيير هويته كرئيس تحرير بالغاء حرفي ف. د. الذي كان يذيل بهما مقالاته الافتتاحية .

كان دوجلاس يستخدم هذان الحرفان أصلاً ليهديء الاتهامات التى لم يكن يستطيع الكتابة عنها مباشرة. لكن الآن لا أحد يستطيع إنكار قدراته لذا ساير العرف وتبنى "حق وكرامة رئيس التحرير" فيطلق صيغة "سيدي رئيس التحرير لو سمحت!" . الآن، هو

سيد مهذب له مهنة محترمة وناجحة، وقد شكر دوجلاس سميث لدوره في تغيير جريدته وتغيير ذاته قائلاً: "إنك لم تحفظ الحياة لجريدتي فقط، لكنك حفظت روحي ايضاً." وفي الوقت نفسه، شعر ويليام لويد جاريسون بخيانة دوجلاس عندما اكتشف اعتناقه لمبادئ تحرير العبيد بالطرق السياسية فأعلن أن "هناك أوغاد في اماكن ما حولنا." وفي الحال، فصل صحيفة فردريك دوجلاس عن قائمة الجرائد المعتمدة التي يرسلها لقرائه. وأصبح دوجلاس بالنسبة لجاريسون وزملاء لوسطن ،مرتداً، كابن ضال في عائلة انجيلية متزمتة. واتهموه علانية ببيع روحه وبعهر عقله مقابل أموال سميث. تجاهل دوجلاس ذلك التشويه للسمعة وحاول أن يسوى أوجه الاختلافات بينهما. لكنه سرعان ما تراجع، لأن الرجل الذي كاد يعبده ذات مرة، والذي قدم له الكثير في سبيل إنجاحه بمهنته مبكراً، رفض أن يحادثه طوال عقد تال.

***

بدأ دوجلاس– عندئذٍ– يستخدم العبارات التقريرية مثل "إن البراكين الفائرة سوف تثور." و"إن انتفاضة عبيد الجنوب سوف تحدث." وحث دوجلاس العبيد على اتخاذ شعار ولاية فرجينيا شعاراً لهم وهو "الموت للطغاة"، حيث تبرر حركة تحرير العبيد السياسية استخدام القوة لأنها تطالب كل مواطن أمريكي مخلص

بالتدخل في قضية العبيد حيثما وجدت. وبينما أدت حركة جاريسون بعدم المقاومة إلى الانفصال عن جمهورية العبيد، فقد نادت حركة التحرير السياسية بشن الحرب على الطغاة.

من الواضح أن تحول دوجلاس الدستوري تزامن مع اتفاق المصالحة عام ١٨٥٠ الذي حوى سلسلة من ستة قوانين مررها الكونجرس، تستهدف حل أزمة الانقسام حول قضية العبودية. كان ذلك الحل الوسط من بنات أفكار هنري كلاي الذي سعى لكبح جماح تهديدات الجنوب بالانفصال عن الاتحاد، فأغلب الجنوبيين يطالبون بامتداد العبودية إلى المناطق المنضمة حديثاً من المكسيك، ويهددون بالانفصال إذا قام أي عائق في طريقهم لذلك، في حين أصر العديد من الشماليين على استبعاد الرق من تلك المناطق. وعد كلاي بإجراء تنازلات لكلا الطرفين، وكان هذا من وجهة نظر دوجلاس قد "أمن كل الظروف لدوام للعبودية." بالفعل، حينما مات كلاي عام ١٨٥٢ كتب دوجلاس مقالة ينتقده بأنه قدم "ما لم يقدمه إنسان آخر في هذا الوطن لجعل العبودية قائمة على الدوام" فهو الذي أسقط "آلافاً من ألمع نجوم الوطن" وعدداً لا يحصى من أعضاء حزب المحافظين غير المعروفين (مثل لنكولن) إلى حمأة التوافق والخداع.

كان قانون العبد الهارب أكثر أجزاء الحل الوسط لعام ١٨٥٠ إلهاباً للمشاعر كبديل للقانون السابق عليه لعام ١٧٩٣، فهو يحرم المشتبه بهم من حق اللجوء لمحكمة المحلفين أو حتى سماعهم أمام قاض ويستبعد شهادتهم. وهو يحدد مفوضين مخصصين لهم سلطة إرسال المشتبه به على الفور إلى أماكن العبودية دون "تأخير أو استئناف"، بل ويتقاضى اولئك المفوضون مكافأة على إعادة المشبوهين للرق (أصبحت ١٠ دولارات بدلاً من ٥ فقط). كما جعل في الامكان استدعاء أي مواطن أو كل أعضاء جماعة ما لمطاردة الهاربين المزعومين وإخضاعهم لدفع غرامة قدرها ألف دولار حال رفضهم لتلك المهمة، وأي فرد يضبط وهو يساعد أحد الهاربين يواجه عقوبة الغرامة والحبس. وقد غير ذلك القانون الرأي العام في الشمال حيث جعل منه تربة ممهدة "وأرض صيد للخاطفين الجنوبيين" مما أقنع عدداً لا حصر له من الشماليين بأنهم لا يستطيعون بعد الآن أن ينفضوا أيديهم من قضية العبودية. وألهم ذلك هاريت بيتشرستو كتابة قصتها الذائعة "كوخ العم توم" التي كان تأثيرها عميقاً لدرجة أنها دفعت الرئيس لنكولن لإطلاق لقب "المرأة الصغيرة التي ألفت كتاباً أشعل نار تلك الحرب الهائلة" على ستو عندما قابلها في البيت الأبيض. وأطلق ذلك القانون شرارة خروج جماعي لسود الشمال نحو كندا. وصرح بعض رجال الدولة من ذوي النفوذ

بالشمال من أمثال ويليام سيوارد وسالمون ب. تشيز وتشارلز سمنر بأن ذلك القانون غير دستوري، وحرضوا الناس على مقاومته. كان سيوارد قد أحدث حراكاً بالفعل في مجلس الشيوخ عندما قال: "هناك قانون أعلى من الدستور. إنه ذلك الذي ينظم سلطتنا فوق حيز أراضينا." لقد تجاوبت أصداء فرضية القانون الأعلى التى طرحها سيوارد مع إيمان دوجلاس الخاص بأن "سلطة الله أعظم من سلطة الإنسان."

اعتمد ردّ فعل دوجلاس ازاء قانون العبد الهارب على وجود قانون أعلى أيضاً، لذا، أضافت حراكاً أكثر. وفي عام ١٨٥٢ دعى لحضور المؤتمر الوطني لحزب الأرض الحرة "فري سويل" الذي كان يسعى لمنع انتشار الرق في المقاطعات الجديدة. عُقد الاجتماع في بتسبورج. ودخل دوجلاس قاعة ماسونيك الفخمة حيث يدور الاجتماع والذى ضمّ حوالي ألفين من أعضاء الوفود، وتعرف عليه عدد قليل ممن يقفون في الخلف يرتدون "سترات زرقاء زاهية بأزرار من نحاس وبنطلونات بيضاء" وحثوه على الكلام، فتقدم ببطء نحو المنصة بهيئة وخطى من يخاطب نفسه بقوله "لسوف أجعلكم جميعاً تنصتون وتشعرون بي أيضاً!" ذلك وفقاً لما صوره أحد الصحفيين. وأعلن وسط الهتاف والضحك: "إن الطريقة الوحيدة لجعل قانون العبد الهارب مجرد قانوناً ميتاً هي أن نجعل نصف دستة

من "الخاطفين موتي"، وعندما أضاف قوله: "إن ملاك العبيد لا يصادرون فقط حقهم في الحرية، وإنما يصادرون حقهم في الحياة كذلك." تصاعد الهتاف أكثر قوة.

وإن كانت العبودية نوعاً من حياة الموت كما وصفها دوجلاس أحياناً، فإنه يطلب الآن حكم العهد القديم للثأر ويؤكد أن "سطور العدالة الأبدية" تحتاج للتوهج بدماء الطغاة؛ هذا هو قانون الله، وعندما تدمر قوانين البشر حقوق الإنسان، يجب أن يقام حكم الله مكانها! كان يشير إلى مذهب سميث الدستوري بقوله: "إنه فخور أن يكون واحداً من حواريّ سميث."

غطت معظم الصحف الرئيسية خطاب دوجلاس مضيفة المزيد لشهرته، وخلال رحلة عودته لبيته توقف للعشاء في مطعم بإحدى المحطات. لكن صاحب المطعم رفض جلوسه بالمكان، فقام دوجلاس بطلب التصويت على ذلك بين الزبائن، ولما كان معروفا لدى الجميع فقد صوتوا- بالاجماع – لصالح جلوسه معهم لتناول العشاء، موبخين صاحب المطعم "لسلوكه المهين" فكون المرء مشهورا يمكن أن يمحو الحواجز العنصرية .

كان دوجلاس يخفف من نبرته القتالية الحادة عندما يخاطب النساء، فقبل خطابه في بتسبورج بشهر واحد، دعته جمعية روشيستر النسوية المناهضة للعبودية ليدلي بخطاب في ذكرى الرابع



من يوليو عام ١٨٥٢ بقاعة كورنثيا الفخمة بالمدينة. انعقد الاحتفال يوم الإثنين ٥ يوليو، وربما كان ذلك لإلقاء الضوء على أماني الأمة التي لم تحقق بعد. قد يكون خطابه هذا أفضل ما عرف عنه من خطب شهيرة، وهو بمعايير الخطابة خطاب فريد استخدم أساليب (التضاد المزدوج). يبدأ خطابه بنشر مشاعر الارتياح بين مستمعين من البيض، فجعلهم يشعرون بالاعتزاز "بأمتكم أنتم" والأمل فيها، وأخفى الضمير "أنتم" الذى استخدمه " في أمتكم ذلك التحول المفاجئ في نبرة صوته جاءت في منتصف خطابه بتساؤله : "اعذروني . . واسمحوا لي أن أسأل لماذا طلبوني للتحدث هنا اليوم؟ وماذا لدي أنا ، أو لدى من أمثلهم، لنفعله من أجل استقلالكم الوطني؟" وبعدئذ وطوال الساعة التالية قام بتوبيخهم، مصوراً خطايا العبودية والتعصب العرقي داخل الوطن، وجاء التضاد المزدوج التالى قبل نهاية الخطاب عندما يقول:" أتركّكم أنتم من حيث بدأت، يملأني الأمل." كأنه يتنبأ بمجيء باراك أوباما. ويُعد الخطاب تحفة رثاء وأنشودة حزن تجاهد لاسترداد مُثُل ومبادىء مؤسسي الأمة، ولكنه- بعكس خطبه الأخرى العظيمة لهذا العصر- لم يلمس فيه موضوع الثأر من الخاطفين أو قتلهم[١٥] .

***

[15] هناك سبب في أن خطاب "ما الذي يعنيه الرابع من يوليو بالنسبة لعبد" معروف جيدًا هو أنه افتقد الروح القتالية في خطبه الأخرى - المترجم

وفي أواخر شهر يونيو من عام ١٨٥٥ بدأ دوجلاس ينشط وفقاً للغته الثورية، ففي سيراكوزا بقاعة سيتي، وهي مبنى أشبه بقلعة حصينة، ساعد على تأسيس حزب الغاء الرق الراديكالي وهو الذي خَلَفَ حزب الحرية الوطني في قيادة حركة تحرير العبيد . لقد خرج أعضاء حزب التحرير الراديكالي من رحم الجذور التي أخرجت حزب لنكولن الجمهوري وفي نفس السنة، إذ تطور الفرع المحافظ لحزب الحرية ليشكل حزب الأرض الحرة " والذي نما بدوره ليصبح الحزب الجمهوري، في حين تحول الفرع الراديكالي لحزب الحرية والحرية الوطني ليكون حزب الغاء الرق الراديكالي. كره كلا الحزبين العبودية بشدة. لكن الجمهوريين دعوا لعدم امتداد الرق مؤمنين أن الدستور يحمي الرق في الولايات، بينما سعى الراديكاليون إلى وضع نهاية لتلك العبودية في كل مكان.

وحزب الغاء الرق الراديكالي اسم علىٍ مسمى . ففي مؤتمره الافتتاحي نادى اعضاؤه بإنهاء الرق عالمياً في الحال، وبحق الاقتراع الكامل لكل الأمريكيين بغض النظر عن الجنس أو اللون، وبإعادة توزيع الأرض بحيث لا يوجد غني وفقير، والتدخل بعنف ضد قوى ملاك العبيد . وقد اعتمدوا على نصوص الكتاب المقدس (رسائل من الله) لمساعدتهم في تمهيد الطريق لعالمهم الحر الجديد .

حضر الاجتماع لضع مئات من الناس، من بينهم ثلاثة من خلصاء دوجلاس. كما كان هناك جيريت سميث المنظم الرئيسي للحزب، وكذلك جون براون وهو مناضل نحيف، له عينان رماديتان، وعمره خمسة وخمسون عاماً، وكان دوجلاس قد اتخذه صديقاً حال وصوله إلى روشيستر. كما حضر رجل أعمال مفلس لأنه فشل في كل تجارة أو عمل خاطر بالدخول فيه، وأصبحت حركة تحرير العبيد هي حرفته الوحيدة، وقد عاش بين المستوطنين السود في تمبكتو بولاية نيويورك. تأثر دوجلاس تأثراً عميقاً ببراون بعد لقائهما الأول فكتب: "رغم كونه رجلاً أبيض، إلا أنه يحمل عاطفة الرجل الأسود، وهو مهتم جداً بقضيتنا كما لو كانت روحه قد وسمتها أغلال العبودية." شارك براون كلاً من دوجلاس وجيريت مبدأ "أن مُلاك العبيد قد صادروا حقهم في الحياة."

كان جيمس ماكون سميث هو الصديق الثالث الذي حضر، وهو مساهمٌ معتاد في جريدة فردريك دوجلاس وكان أعظم مثقف أسود بالأمة وأول طبيب أسود فيها من مدينة نيويورك. امتلك صيدلية وعيادة طبية على طريق برودواي. ومثله دوجلاس، عاش ماكون سميث في بريطانيا، وحصل على درجاته العلمية- البكالوريوس والماجستير والدكتوراة- من جامعة جلاسجو بعدما رفضته الكليات الأمريكية بسبب جنسه الأسود. كما رأس المؤتمر الذي كان- في

حد ذاته- عملاً ثورياً، لأن المرة الثانية التي رأس فيها رجل أسود مؤتمراً حدثت بعدها عام ١٩٨٨.

وقد ظهرت إتجاهات الحزب بوضوح أثناء إلقاء براون لخطابه. كان براون في طريقه إلى كانساس للحاق بثلاثة من أبنائه ليشاركهم معركة الكفاح من أجل الحرية هناك، إذ كان مرسوم إتفاق كانساس- نبراسكا قد تحول إلى قانون، فاتحاً المقاطعات الشمالية أمام العبيد، وكان القانون الجديد يطبق مبدأ "إن السيادة الشعبية على الأراضي الجديدة تدعو المستوطنين إلى إجراء التصويت على الإبقاء على العبودية أو إلغائها . أدى ذلك لتحويل كانساس إلى ميدان للمعركة بين مؤيدي الرق ومعارضيه من المهاجرين. وقد اقتبس براون من سفر العبرانيين (٩:٢٢) مذكراً مستمعيه أنه "دون سفك دماء لن تكون هناك مغفرة من الخطية." كما رجاهم التبرع بالمال والسلاح ليعود بهما إلى كانساس، وأشعل خطابه الحماس في مستمعيه. ولم يعترض سوى قليل من الناس على طلبه الصفيق للأسلحة. لكن واحداً منهم فقط هو الذي اعترض رسمياً، فأغلب الأعضاء وافقوه على أن المقاومة المسلحة هي الطريق الوحيد أمام رفاقنا على طريق الحرية في كانساس "مما شجع دوجلاس على طلب التبرعات التى غلت لبراون ليحصل على ستين دولاراً وقليلاً من الأسلحة"

لمسوا ثمرة ذلك اللقاء بعد عام لاحق، عندما التقى دعاة تحرير الرق الراديكاليون مرة أخرى في سيتي هول بسيراقوزه لتحديد مرشحيهم. كان جيري سميث قد أصبح مرشحهم للرئاسة ودوجلاس نائباً للرئيس. لم يكن يمكن لقائمة تحوي أسمي جيريت سميث ودوجلاس أن تفوز لأن كلا الرجلين من نيويورك، فقام المندوبون تحقيقاً لرغبتهم في التنوع الجغرافي بانتخاب صامويل ماكفرلاند من بنسلفانيا رفيقاً لسميث في سباق الانتخابات كان دوجلاس ورفاقه غارقين في وهم إمكان نجاح سميث في الانتخابات. والواقع أن دوجلاس دعم الجمهوري جون فيرمونت المستكشف الصاعد الشاب بمنطقة الغرب وأول عضو بمجلس الشيوخ عن كاليفورنيا. وحتى سميث نفسه دعم فيرمونت بمنحه ٥٠٠ دولار، وكان هدفهما العاجل إحداث حراك شعبي ضد العبودية ومساعدة فيرمونت في الانتخابات ودفع الجمهوريين نحو موقف أكثر حسماً وجذرية لمواجهة العبودية.

اشتعل المؤتمر مرة أخرى حماساً، فقبل ستة أيام سابقة على انعقاده يوم (٢٢ مايو) تعرض تشارلز سومنر- وهو نائب من دعاة التحرير من ماساتشوستس- لضربات قوية على رأسه أوصلته لحافة الموت على أيدى برستون بروك وهو عضو كونجرس متعجرف من ساوث كارولينا كان يعمل بمكتبه عندما دخل بروك وهو مخمور

قاعة مجلس الشيوخ وبدون انذار بدأ بضرب رأسه بهراوة فب ثقل الرصاص وحوصر سمنر في مقعده الذي كان مثبتاً بأرضية الحجرة، واستطاع بمجهود خارق أ، ينهض للدفاع عن نفسه ثم انهار بعدها على الأرض.

رغم أن الجلسة تم تأجيلها باقي اليوم، إلاّ أن عددا من الشيوخ مكثوا في القاعة وكانوا كلهم من دعاة تحرير العبيد، ولكن لم يهب أحدٌ منهم لمساعدة سمنر؛ وبينما دماؤه تسيل على السجادة، نظر روبيرت تومبز من جورجيا للمشهد معضدا، وظل ستيفين دوجلاس من إلينوى جالساً باسترخاء متجاهلاً هذا الاعتداء، في حين قال جون كريتندن من بروكس "لا تقتله!"

كان سبب الهجوم هو خطاب سمنر الحديث الذي أسماه "جريمة ضد كانساس" الذي اتهم فيه مالكي العبيد بانتهاك عذرية أرض كانساس، وقد ذكر سمنر واحداً منهم وهو النائب أندرو بتلر من ساوث كارولينا وهو ابن خال بروك أحد مهندسي صناعة "قانون كانساس– نبراسكا"، فقال: "إن النائب قد قرأ الكثير من الكتب حول الفروسية، ويظن نفسه فارساً نبيلاً يحمل مشاعر الكرامة والشجاعة، وبالطبع كان قد اختار لنفسه سيدة يهواها يخصها بولائه وإخلاصه، ورغم قبحها الذي يراه الآخرون، يراها هو جميلة

ومحببة، ورغم تلوثها أمام الجميع إلا أنه يراها طاهرة وعفيفة؛ وأقصد بتلك الداعرة ... العبودية.

بذلك الهجوم كان بريستون بروك يدافع عن شرف الأسرة وشرف الجنوبيين. فور هجومه على سمنر، أضحى بريستون واحداً من أبطال الجنوب وبدأ يتلقى بعض العصي، والأوان الفضية والأطباق الذهبية كهدايا تذكارية من معجبيه لعمله الفذ، وعزز مكانته في نفوس الجنوبيين حينما قال إنه: "كان على وشك أن يقطع رقبة كل دعاة التحرير." لم يقم الكونجرس حتى باستنكار ما فعل، بينما كانت جراح سمنر خطيرة لدرجة أنها احتاجت لأربع سنوات من العلاج المؤلم قبل أن يتمكن من العودة لمجلس الشيوخ.

كانت الأمور تسير بصورة سيئة في كانساس حيث كان "متوحشو الحدود" الجنوبيون يشنون حرباً إرهابية ضد المهاجرين المقاومين للعبودية، وقد ساند الرئيس فرانكلين بيرس- وهو ديمقراطي من نيو هامبشاير وصديق مقرب للكاتب ناثانييل هاوثورن- التشريع الفاسد المؤيد للعبودية وأطلق على معارضيه اسم "الخونة". وهكذا سمح فرانكلين بانطلاق غضب "متوحشي الحدود" فقاموا بالاعتداء على أحد قادة دعاة الغاء الرق حتى الموت بالفئوس والسكاكين، وأعلنت جريدة كانساس المؤيدة للعبودية أنها في مجال حربها تقول:"فلنجعل شعارنا "حرب بالسكين . .حرب بالسيف". "عندئذٍ



في ٢١ مايو- قبل ضرب سمنر بيوم واحد- هاجم حوالي ٧٥٠ رجلاً من أشرار الحدود المخمورين مدينة لورنس وهي منطقة معادية بقوة للعبودية بصورة راسخة، فدمروا الصحف، وأحرقوا البيوت ونهبوها، وفجروا فندق فري ستات. كان الغزاة يرتدون قمصاناً حمراء وحمل بعضهم أعلاماً ورايات تعلن "سيادة الجنس الأبيض" وأن "ألاباما تضحي في سبيل كانساس."

بدأت الحرب الأهلية في الكونجرس.

وفي كانساس تداعى دعاة الغاء الرق الراديكاليون مطالبين بالرد الفوري وقام دوجلاس بتلخيص المشاعر السائدة وسط أعضاء الحزب معلناً أن الحرية "عليها أن تقطع دابر العبودية أو تقطع العبودية دابر الحرية." وسط استحسان الحاضرين. تلك كانت المشاعر التي عمل وسطها جون براون تماماً لمدة أربعة أيام فور علمه بالاعتداء على سمنر والهجوم علي لورنس. وعشية ٢٤ مايو، قام براون ومعه سبعة رجال منهم أربعة من أبنائه وأحد أنسبائه وآخرين بدخول مستوطنة لمؤيدي الرق على خليج بوتاواتومى. كان المستوطنون هناك يرغبون في إبادة دعاة التحرير، لكن براون ورجاله استبقوا تلك الرغبة قبل أن تتحول إلى حقائق. فأيقظوا بعض السكان وسحبوا خمساً منهم تحت جنح الليل البارد واعتدوا عليهم حتى الموت باستخدام السيوف عريضة النصل، مثل التي أختارها لتكون

في قتاله ضد جيمس شيلدز[16]، وتم قطع رأس أحد الضحايا، "وقطع زور الآخر كلية."

لم يكن دوجلاس يعلم بما فعله براون على وجه الدقة في ذلك الوقت، إذ علم فقط أن براون قد ذهب إلى كانساس ليصبح مقاتلاً فشجعه على ذلك. لكنه عندما علم- لاحقاً- بتفاصيل مذبحة بوتا وأتومي، برر ذلك السلوك أخلاقيا بقوله: "كان علاجاً مرعباً لمرض خطير" وأشبه "بقتل قاتل". وكما يعرف دوجلاس فالمرء يحتاج لأن يكون متوحشاً وسط بيئة متوحشة وإلا فالموت له.

أما بالنسبة لتبرير حربهم قانوناً، فقد استند الدعاة الراديكاليون إلى كتابات الرئيس السابق جون كوينسي آدامز بشدة الذى وصفه دوجلاس بأنه "أشهر رجل دولة أنجبته أمريكا". كان آدامز يكره العبودية، وكابن من أبناء جون آدامز، كان متوافقاً بصدق مع وثيقة إعلان الاستقلال ومع الدستور. ومنذ فترة مبكرة ترجع إلى عام ١٨٣٦، رد آدامز على الجنوبيين المعارضين بأنه يمكن للكونجرس والرئيس بموجب نصوص سلطات الحرب في الدستور إنهاء العبودية في الولايات كلها.

تمسك دوجلاس والراديكاليون بذلك التفسير المتعلق بسلطات الحرب. لكن بمراجعة حاسمة للموقف، فإنهم حددوا العبودية بأنها

---

[16] لم يستخدم براون مطلقا مثله، مثل لينكولن السيف العريض وأصدر أوامره (أطلق الرصاص على ضحية واحدة في رأسه لتتأكد أنه مات) - المترجم

حالة من حالات الحرب. هذا يعني أن الرئيس ومعه الكونجرس مضطرون لتحرير أولئك العبيد على الفور وإنهاء الحرب الأهلية التي تنشب في ولايات بها عبيد. لكن، طالما لم يتخذوا إجراء في هذا الشأن، يتعين على شعب الولايات بالدرجة الأولى في الولايات الحرة أن يقوموا هم بشن تلك الحرب ضد العبودية للحفاظ على السلام وإنقاذ الاتحاد.

كانت أولى المجموعات التي تحركت بناءاً على استخدام آدامز للمفهوم الدستوري بشأن سلطات الحرب هم فقط الدعاة الراديكاليون، فحالما أطلقت قوات الولايات المنشقة نيرانها على سومتر فورت في أبريل عام ١٨٦١، أسرع تشارلز سمنر- الذي كان يرعاه آدامز- إلى البيت (بمجرد شفائه من واقعة حزبه) وأخبر لنكولن أنه في ظل سلطة الحرب،له الحق في تحرير العبيد. حاول جنرالات الاتحاد جون فرمونت ودافيد هنتر وبنجامين بتلر استخدام تلك سلطة الحرب أثناء حملاتهم الحربية، واستند الكونجرس إلى نفس المصدر لتمرير قوانين المصادرة عامي ١٨٦١- ١٨٦٢ التي منحت السلطة للجيش في قانون ١٨٦٢ لتحرير ة العبيد من سادتهم "غير المخلصين للدولة". وبالطبع، أصدر لنكولن اعلان العتق بموجب السلطات المخولة له كقائد عام للجيش والأسطول بالولايات المتحدة في زمن تمرد مسلح حقيقي موجه ضد سلطة الولايات المتحدة

وحكومتها، وكاجراء حربي مناسب وضروري لقمع التمرد المذكور. وبذلك أرسى دوجلاس ورفاقه سابقة هامة.

***

تواصلت الحرب على الحرية من سيء لأسوأ. إذ كانت الحرب المكسيكية قد ضحت بشباب الشمال من أجل شراهة مالكي العبيد لابتلاع المزيد من الأرض، وإذ كان قانون العبد الهارب قد دفع بالشماليين لمطاردة واصطياد السود من أجل إمتاع أهل الجنوب وأموالهم، وإذا كان قانون كانساس- نبراسكا قد مسح الخط المقدس (٣٦,٣٠ درجة شمالاً) والذي عبر نطاق العبودية فوقه. وطلب من المستوطنين حرية اتخاذ القرار الذي يرونه بشأن الإبقاء على العبودية أو إلغائها، فمن ثم فإن قرار المحكمة العليا في قضية دريد سكوت ضد ساندفورد عام ١٨٥٧ قد توج عقداً جعل الجنوبيون خلاله العبودية مؤسسة قومية، حيث تلاقت أيدي دعاة الحل الوسط الشماليين مع أيدي زعماء الجنوب في مؤامرة على الحرية "أسست لشر مستطير هو سلطة ملاك العبيد." وفقاً لرؤية دوجلاس ولنكولن وعدد لا يحصى من الشماليين.

كان الحكم في قضية دريد سكوت، والذي أيده سبعة قضاة جنوبيون، يقرر أن أية محاولة لمنع انتشار الرق هي محاولة غير دستورية. أعلن الحكم لملاك العبيد: "اذهبوا أينما شئتم، فكل الأرض ملككم! وسوف يقوم العَلَمُ الوطني بحمايتكم، وستطلق

القوات الوطنية الرصاص على من يقاومكم." بل لقد عنى ضمناً أنه في حال انتقال مالكي العبيد إلى ولاية حرة فإن الدستور سوف يقوم بحماية ملكيتهم كذلك. ليس هذا فقط، بل إن رئيس القضاة روجر تاوني قال إن السود "جنس متدن لدرجة لا تؤهله لأية حقوق يحترمها الرجل الأبيض، وأن (كل السود) يمكن إخضاعهم قانوناً وعدلاً لحالة الرق." هذا ما قاله أعلى قاض "إنساني" في البلاد؛ ووفقاً لما ذكره تاوني يمكن أن يتعرض دوجلاس (أو أي أسود آخر) لتجريده من أملاكه ويستعبد أو يقتل كالبهيمة دون خوف من قصاص.

ومن المفارقة أن دوجلاس شعر بالانتشاء من حكم دريد سكوت. لماذا؟ لأنه قد يشكل موجة مدّ عارم يجتث جذور العبودية ويجعل الملايين من الشماليين مؤيدون قضية مكافحة الرق، إذ يوجد بالفعل كما قال دوجلاس دعاةٌ لتحرير العبيد أكثر من مالكي العبيد أنفسهم في الدولة. إن حكم دريد سكوت سوف يتيح للجمهوريين أصواتاً كافية للسيطرة على الكونجرس وعلى الرئاسة وسوف يؤدي لتشدد الجمهوريين ويجعلهم يدركون أن العبودية كالحشائش الضارة التي ستنتشر في كل مكان إذا لم تجتث في الحال. وسوف يقنعهم بتجاهل حكم المحكمة العليا طالما تجاهلت

تلك الحكمة القانون الطبيعي. لم تكن آماله في نهاية سريعة للعبودية "أكثر إشراقاً منها حينذاك"

بعد عام من ذلك، امتدح دوجلاس خطاباً للنكولن أشعل في نفسه آمالاً أكثر اشراقاً . كان لنكولن ينافس آنذاك مع شاغل المنصب الديمقراطي ستيفن دوجلاس على مقعد مجلس الشيوخ عن ولاية إلينوي وهو في بداية ظهوره كوجه معروف على المستوى القومي. في الواقع، كان دوجلاس قد أخطأ في تهجي اسم لنكولن داعيا إياه "أبرام"، لكنه أحب ما كان يقوله ذلك الجمهوري القادم من إلينوي"[١٧] أدرك لنكولن تداعيات حكم دريد سكوت واقتبس دوجلاس مطولاً من خطابه المسمى "البيت المنقسم" : "إن مجلساً منقسماً على نفسه لن يُكتب له البقاء، وأعتقد أن تلك الحكومة لا يمكنها أن تبقى نصف حرة ونصف عبدة بصورة دائمة . . ولسوف يكون عليها أن تكون شيئاً واحداً إما هذا أو ذاك: إما أن يوقف خصوم العبودية المزيد من انتشارها، وبالتالي يرسخوا الاعتقاد في أنها في سبيلها للانقراض النهائي ، أو يقوم مؤيدو العبودية بدفعها قدُماً حتى تصبح قانونية في كل الولايات.

سجل دوجلاس على ذلك بقوله: "مقولة حكيمة وجيدة!"

---

[17] عندما سجل دوجلاس تصويت لنكولن للإبقاء على تجارة العبيد بواشنطن العاصمة قبل عشر سنوات سابقة سجل اسمه الأخير وظهر اسم لنكولن بجانب أعضاء المجلس الآخرين وبالتالي يكون من المتوقع أن ينسى دوجلاس ان لنكولن قد قام بالتصويت لصالح تجارة العبيد من قبل.

انشغل دوجلاس بكتابة ردود فعله على حكم دريد سكوت هذا، معاوناً جون براون في إعداد خطة نضالية بديلة لمشروع "الطريق التفقي". وكانت الخطة تاميماة (الممر تحت الأرضي)،تستهدف إرهاب الجنوبيين بواسطة إقامة شبكة من المحاربين المسلحين في جبال أليجيني في ماري لاند وفرجينيا . كان على أولئك المسلحين القيام بغارات على المزارع وتهريب العبيد شمالاً عبر جبال اليجينى إلى كندا . كان هدف الخطة تدمير القيمة الاقتصادية لامتلاك العبيد، حيث قال براون: "لو كان بمقدورنا دفع العبودية خارج مقاطعة واحدة سيكون ذلك مكسباً كبيراً، لأنه سوف يضعف النظام عبر الولايات كلها .... فارضين مبادئ تحرير العبيد على ولايات الحدود. "فوافقه دوجلاس قائلاً إنه يمكن للخطة أن تكون "فعالة جداً في تحويل عمليات امتلاك العبيد في ولاية فرجينيا وماري لاند إلى شئ لا قيمة له، مما يجعلها ملكية غير آمنة."

وفي فبراير ١٨٥٨، وقبل بضعة شهور من خطاب لنكولن "البيت المنقسم"، قضى براون ثلاثة أسابيع بمنزل دوجلاس في روشيستر كاتباً رداً على قاضي القضاة تاوني وأسماه "الدستور المؤقت"، وقد صممه لحكم مجتمع المحاربين الجبليين في منطقة "الممر تحت الأرضي"في براون. ربما قام دوجلاس بإعادة تحرير دستور براون

لأنه أراد أن يصيغه بأسلوب أكثر بلاغة مما كان يكتبه براون. وباختصار يعكس "الدستور المؤقت" تفسير دوجلاس لدستور الولايات المتحدة، فهو يرى أن العبودية هى حالة حرب ويسعى إلى تحقيق الحقائق الأبدية البديهية التي حددها إعلان الاستقلال "ويعارض بوضوح حكم دريد سكوت، محدداً المواطنة ليس فقط في الرجال البيض وإنما كذلك في السود والنساء وكل إنسان آخر "حط من شأنه القانون الوضعي الذى وضعه آخرون."

كان براون يتحدث – بين الحين والآخر – حول تغيير خطته الخاصة " بالممر تحت الأرضي " وكانت تتسلط عليه العظمة فيخبر دوجلاس بأنه يستطيع "بقليل من الرجال المثابرين" أن يستولي على الترسانة الحربية الفيدرالية في هاربرس فيري بولاية فرجينيا وأن "يزود نفسه"بالمخزون الهائل من الأسلحة المكدسة هناك.

وقال دوجلاس يقول عن ذلك : "لم أعط لتلك الملحوظات أية أهمية من جانبي."

استمر ذلك حتى شهر سبتمبر من عام ١٨٥٩، عندما كتب براون لدوجلاس يستدعيه للقاء عاجل في محجر قديم بالقرب من تشامبرزبيرج في بنسلفانيا، وطلب منه إحضار نقود وصديق مشترك لهما اسمه تشيلدز جرين – وهو أحد الهاربين ويعرف بلقب "الامبراطور". كان الأخير جريئاً معتزاً بكرامته ولا يتكلم كثيراً وكان



براون يعرف طبيعة جرين "وما فُطر عليه "، فطلب حضوره هذا اللقاء.

وسط صخور المحجر أنصت دوجلاس وجرين لكلمات براون وسكرتيره جون كاجي– وهو صحفي شاب متحمس تحول لمقاتل– لوصف الخطة الجديدة، وقام براون بأغلب الكلام؛ فهو ومعه عشرون رجلاً بينهم أربعة من السود جاهزون لغزو هاربرس فيري، حيث يعرفون طبيعة الأرض جيداً. لقد عاشوا بالمنطقة منذ شهر يوليو واستأجروا منزلاً ريفياً، وكانوا يمرون بالمنطقة كفلاحين (وفي حالة براون كرجل يعمل بصيد السمك) وقد يتمكنون من السيطرة على ترسانة الأسلحة مع قدوم الليل ثم يصادرون الأسلحة، ويشنون الهجوم على ملاك العبيد بعدها، وسيكون الاستيلاء على الأسلحة "صرخة استدعاء" لحشد العبيد للانضمام إلى صفوفهم والتوحد خلفهم. كان براون قد طلب بالفعل من عدد من السود، من بينهم السيدة هاربيت توبمان – التي كان براون يدعوها جنرال توبمان– ومارتن ديلاني، أن يقوموا بنشر أنباء الغزو عبر تجمعات العاملين بقطاف العنب حتى يصبح السود من العبيد والأحرار بالمنطقة مستعدين للانضمام لهم. ووفقاً لاقتراح قدمته توبمان خطط براون لأن تكون الغارة يوم ٤ يوليو، لكن طرأت بعض عوامل التأخير التي لا يمكن تفاديها. أما الآن فقد أصبح مستعداً رغم أنه أحضر معه ألف

فأس يستخدمونها كسلاح للعبيد الذين لا يعرفون كيفية تعمير بندقية.

حرض براون كلاً من دوجلاس وجرين على الذهاب معه قائلاً: "تعال معي يا دوجلاس وسأدافع عنك بحياتي! اريدك معي لمهمة خاصة، إذ عندما أوجه ضربتي سوف تتراكم أسراب النحل وأنتظر معاونتك في إدخالهم الخلية." وأدرك دوجلاس ما يرمي إليه براون: تلك الكناية التي استمدها من خرافات يعسوب التي تقول إن سرب النحل إنقلب على سيده وأخذ يهاجمه.

لكنه عارض براون في خطته وحاول إثناءه عن تنفيذها لأنها ستكون خطيرة لكل من يشترك فيها، وأخذ يشرح موقفه مفسراً أن هاربرس فيري تقع على منحدر منزلق بين الجبال وحيث أنها قريبة من واشنطن العاصمة فسوف تحيط بهم القوات الفيدرالية بسرعة. علاوة على أن "مهاجمة القوات الفيدرالية ستثير البلد بأسرها ضدنا."

كان ذلك ملائماً لبراون حيث أن "شيئاً صادماً هو ما تحتاجه الأمة تماماً."

قضيا يومين في جدل ونقاش إلى أن أخبر دوجلاس، براون أنه "مقبل على الوقوع في مصيدة محكمة وقد لا ينجو بحياته هذه المرة". وبعكس براون الذي قارب التاسعة والخمسين من عمره وكان



مستعداً للموت في سبيل قضية الحرية، فضّل دوجلاس البقاء على قيد الحياة، وبينما كان يلتفت مغادراً سأل شيلدز جرين عما سيفعله فصدمته إجابة الإمبراطور: "أعتقد أنني سوف أذهب مع الشيخ."- يقصد براون. هكذا افترقا وانضم الإمبراطور للرجلين الأبيضين بينما عاد دوجلاس إلى بيته وحده.

بعد أسابيع قليلة، في ليلة الأحد ١٦ أكتوبر من عام ١٨٥٩ اقتحم براون وواحد وعشرون من رجاله هاربيرس فيري واستولوا على الترسانة دون مقاومة. لكن براون تأخر فيما بعد بصورة غير ضرورية، ربما لاضطرابه حينما لم ير أية جحافل تهرول إليه مؤيدة، فالعبيد لم ينحازوا إلى صفه ولم يأته أحد. بحلول مساء الإثنين لجأ براون – محاطاً برجاله المسلحين – إلى مستودع الأسلحة وكان معه اثنان من أبنائه لقيا حتفهما صرعى بجانبه لاحقاً. وفي صباح الثلاثاء وأمام أعين ألفين من المشاهدين حطمت كتيبة من قوات المارينز للولايات المتحدة بقيادة الكولونيل روبيرت لي وجي ستيوارت أبواب الترسانة وأسرت سبعة أحياء ومعهم براون الذي أصيب إصابة شديدة أثناء الهجوم وقُتل من قتل وفر من فر. بعد برهة قصيرة، اصبح كل من لي وستيوارت من المتمردين والخونة تماماً مثل براون، لكنهما في ذلك اليوم كانا ضابطين ينفذان أوامر قيادتهما بإخلاص شديد.

تمت محاكمة براون والناجين السبعة معه بتهمة القتل والخيانة وحكم عليه بالإعدام شنقاً، وفي سجنه وخلال أيام محاكمته - بل في ساحة الإعدام - كان أداؤه الرائع يتحول ليجعل منه شهيداً بطلاً في نظر عدد لا يحصى من أهل الشمال. و الحقيقة أن أسعد أيام حياته كانت أثناء حبسه منتظراً الموت، إذ انتشرت أحاديث مقابلاته وخطابات محبسه وردوده على هيئة المحكمة عبر صفحات جرائد الشمال، بل وتم نشرها كأفضل البيانات مبيعاً وقتها، وقد تلقى ثناءً ورثاءً يليق ببطل قومي من رالف والدو إيمرسون المفكر القيادي للأمة وكان من معارف دوجلاس وبراون، وكان ايمرسون نادراً ما يضع ثقله في القضايا الاجتماعية اليومية. لكنه عندما فعل ذلك، كانت لكلماته قوة انهيار جبل الجليد العملاق، وفي نوفمبر عام ١٨٥٩، قبل شهر من موعدشنق براون - الذي جرى يوم ٢ ديسمبر- استعار إيمرسون كلمات أحد أصدقائه وأعلن أن براون "هو القديس الجديد الموجود بيننا في انتظار الاستشهاد .. وسوف يهب مشنقته مجداً كما مُجّد الصليب."

غير تأثير هاربرس فيري الأمة في الواقع. وليس من المبالغة أن نقول إن جون براون قد ساعد كثيراً في انتخاب لنكولن؛ ففي مستهل الغارة حاول كل من ديمقراطيي الشمال ونظرائهم بالجنوب أن يجدوا حلقة ما تربط بين براون والحزب الجمهوري، لذا هُرع الجمهوريون

لإنكار أي علاقة لهم بدعاة التحرير أو بالسود. وكان ويليام سيوارد واحداً من هؤلاء– المرشح للرئاسة– حيث تراجع عن عقيدته في وجود "قانون أعلى"وعن تأكيده وجود صراع لا يمكن كبحه بين الحرية والعبودية كما تراجع عن مطلبه بشأن إلغاء الحكم في قضية دريد سكوت عقب واقعة هاربرس فيري. وفي أخريات شهر فبراير، بعد إعدام براون بثلاثة أشهر وقبل شهرين من عقد الجمهوريين لمؤتمرهم، ألقي سيوارد خطاباً من مجلس الشيوخ قال فيه: "إن في ذلك استسلامٌ كبير لقوى العبيد" مما أدى إلى تدمير ترشيحه للرئاسة ممثلاً عن الجمهوريين، وكان رد دوجلاس متهكماً أن "جون براون أرعب سيوارد لدرجة دفعته إلى إطلاق خطابه العظيم الأخير!... ففي ذلك الخطاب "انحني سيوارد مطأطأً بأكثر مما ينبغى وفقد الجائزة التى أعزته بالانحناء" .وفي تحليل دوجلاس فإن جون براون– أو بالأحرى روحه التي ما زالت تحوم كأغنية حول الجميع – كلفت سيوارد ترشيحه للرئاسة.

كان ذلك مناسباً لدوجلاس لأنه كان في ذلك الوقت يعتبر لنكولن "رجلاً ذا شخصية خاصة لا يمكن تشويهها وأنه جمهوري ثوري" ممن يلتزمون تماماً بمبدأ الصراع الذي لا يمكن قمعه بين الحرية والعبودية، والذي يتطلب علاجاً سريعاً وفورياً. وكان دوجلاس قد تأثر بعمق خلال مناقشات لنكولن مع النائب ستيفن دوجلاس وهو ما دعاه إلى



وصف لنكولن بأنه "وصل لأعلى مرتبة في المذهب الجمهوري الحق، وهو رجل ذو إدارة وحسم ولن يتراجع عن معتقداته. "كان دوجلاس لا يزال من دعاة التحرير الراديكاليين وأيد جيريت سميث مرشحاً رئاسياً عن الحزب مرة أخرى. كان سميث ممولاً رئيسياً لحملة الهجوم على هاربرس فيري التي قادها براون، مما زاد من قيمته لدى دوجلاس بل إن دوجلاس – في الحقيقة – أخبر قراء جريدته أن "عشرة آلاف صوت يحوزها جيريت سميث . . سوف تخدم قضية تحرير العبيد أكثر من تأثير مليون صوت يحوزها أبراهام لنكولن أو غيره من الجمهوريين. "كان دوجلاس يعلم أنه بترشيحه لسميث يجعل لنكولن موضعَ الاختبار، وربما قام هو نفسه بالتصويت– بصورة نفعية – لاحقاً لصالح لنكولن، وبعدما أمن لنكولن ترشيحه ممثلاً للجمهوريين، تنبأ دوجلاس– فرحاً – بنجاحه في انتخابات الرئاسة طالما انقسم الحزب الديمقراطي إلى شيعٍ شتى.

ظهر الانقسام في الحزب الديمقراطي بالتدريج كرد فعل للهجوم على هاربرس فيري، لأن قادة الجنوب أكدوا بعد واقعة هاربرس "أنه لولا وجود الحزب الديمقراطي لما حدثت غزوة هاربرس فيري بداية. "كان النائب جيفرسون دافيز عن المسيسيبي ينظر لجون براون على أنه نموذج يُقاس عليه الحزب الديمقراطي الذي "تم تنظيمه على أساس مبدأ شنّ الحرب" على الجنوب، وطالب دافيز ومعه بعض

الديمقراطيين بالجنوب الحكومة الفيدرالية أن تلتزم بحكم المحكمة في قضية "دريد سكوت" وتقوم بحماية ملاك العبيد في كل مكان. ورفض أعضاء الحزب الديمقراطي حيث أن تلك السياسة تتناقض مع مذهبهم عن سيادة الشعب. وهكذا انشق الحزب على نفسه، بقيام ديمقراطييّ الشمال بترشيح نائب إيلينوي ستيفن دوجلاس للرئاسة وقيام ديمقراطيي الجنوب بترشيح جون بريكنريدج نائب كنتاكي نائباً للرئيس، وكما توقع دوجلاس أكد ذلك الانشقاق نجاح لنكولن. ١٥٤ من هنا تكون روح جون براون مستمرة في التقدم.

لكن إذا كانت روح براون قد ساهمت في انتخابات لنكولن، إلا أنها ساعدت – كذلك – قتله. فبينما كان جسد براون يتأرجح على مشنقته، وقف شابٌ أنيق يشاهد ما يحدث بعناية، وكان قريبا للمشهد بما يكفي ليرى الحركة الخفيفة لقبضتي يديّ براون، وارتعاشة أطرافه والحبل يضيق بشدة على رقبته، وأزة عارضتي المشنقة تحت ثقل جسد براون الذي يصل إلى ١٥٠ رطلاً بسبب توقف حركته المفاجئ. كان هذا هو جون ويليكس بوث الذي تأثر بشدة مما يرى.

وصرح بوث – فيما بعد – أنه قد ساعد في القبض على براون لكنه لم يكن ضمن قوات الجيش، ففي وقت القبض على براون، كان

يقوم بدوره كممثل بمسرح مارشال في ريتشموند بولاية فرجينيا . كان معجبا ببراون ورغم ذلك رغب بشدة في حضور عملية شنقه. وفي يوم ٢٤ نوفمبر، وبينما يستعد قطار الميليشيا الموحد لمغادرة ريتشموند متوجهاً لهاربرس فيري، سأل بوث أحدهم عما إذا ما كان يستطيع الانضمام إليهم. لقد علم أن القطار مخصصٌ لمن يرتدي زى الميليشيا، فاشترى واحداً وصعد بينهم. وفي لحظة إعدام براون شحب وجهه وانتابته نوبة إغماء فطلب من أحد الجنود قنينة خمر، إذ احتاج بعضاً منه ليتمالك نفسه. لقد رأى بوث نفسه في براون حتى لوكانا – معاً – يتعارضان في نظرتهما للمجتمع الصالح، فبراون يؤمن بالديمقراطية متعددة الأجناس، في حين يرى بوث نفسه فارساً أرستقراطياً من أهل الجنوب. وكممثل مسرحي، كان بوث مشهوراً عبر البلاد وكان محبوباً خاصةً من أبناء الجنوب الذين كانوا يكتبون إليه ملاحظاتهم كمعجبين ويجمعون صوره التذكارية وينتظرونه مهللين عقب أدائه المسرحي المتقن. كان بوث يرى أن العبودية هي دعامة المجتمع الفاضل ويؤمن – مثل القاضي روجر تاوني – بأن الحقوق الدستورية قاصرة على البيض فقط، . لكنه رغم ذلك امتدح ثبات براون، وقدرته على تحويل الكلمات إلى أفعال وهيئته الشجاعة وطلاقته الخطابية عند هاربرس فيري، ووفقاً لما قالته أخته فقد "أقر ببطولة براون عندما رآه يموت. "



بدا بوث كما لو كان يحسد براون على استشهاده، وقال في ديسمبر ١٨٦٠ إن براون قد أعدم تماماً لمحاولته فعل نفس ما يفعله لنكولن والحزب الجمهوري الآن ولكن بصورة مختلفة، وأن طريقة براون في استخدام القوة السافرة "أكثر قدسية . . من حيلة الجمهوريين الخفية." ولم يمض وقت طويل حتى اخطر بوث أخته بأن لنكولن "يسير على خطى براون، لكنه لم يعد صالحا لمساواته بذلك الشيخ البطل ذي الأسمال البالية. يا الله . . إن جون براون رجل ملهم، إنه أعظم شخصية في هذا القرن." كانت روح براون تتقدم لتلهم بوث أن يحرر وطنه وأن يصبح – هو الآخر – شهيداً في سبيل قضيته فيما بعد.

***

عندما سمع دوجلاس بأنباء هجوم براون، كان يلقي خطاباً في صالة الجراند ناشيونال في فيلادلفيا، وصدمته الأنباء "كالزلزال، الذي تتقطع له أنفاس أشد الناس جرأة." ولسوف تتقطع أنفاسه بعد قليل لسبب آخر، إذ اكتشفت السلطات في حقيبة براون خطاباً من دوجلاس لبراون كان مؤرخاً بعامين قبل ذلك الحادث– أي عام ١٨٥٧– لم يذكر فيه شيئاً عن هاربرس فيري، ولكنه كان يمثل دليلاً كافياً أمام الحاكم هنري وايز بولاية فرجينيا لاتهام دوجلاس "بالقتل والسرقة والتحريض على التمرد المدني بولاية فرجينيا." طلب وايز

من الرئيس جيمس بوكنان ،ومدير عام البريد المعاونة في القبض على دوجلاس وارساله لمحاكمته وتنفيذ الحكم، واستجابا لطلبه.

فجأة أصبح دوجلاس المطلوب الأول جنائياً في أمريكا، ولولا وجود أصدقاء له لقُبض عليه وأُخذ أسيراً، حيث قام عامل البرقيات بحثه على الهرب لعلمه أن الفيدراليين يسعون لأسْره، فركب دوجلاس القطار التالي متوجهاً إلى مدينة نيويورك، وقضى الليلة مع صديقة له في هوبكين بولاية نيوجيرسي، وأرسل برقية لعائلته يطلب من ابنه الأكبر لويس إخفاء أو تدمير أية مستندات تدينه مثل النسخة التي كتبها لبراون للدستور المؤقت وغيرها .أوصله خط أيري للسكك الحديدية إلى روشيستر بأمان. لكنه علم هناك أن حاكم نيويورك قد يسلمه لفرجينيا عند استلامه أمراً بالقبض عليه. لذا، واصل طريقه ناشداً الأمان في كندا، مقتفياً أثر العديد من المطاردين الذين ساعدهم على الهروب إلى هناك. ثم واصل رحيله إلى إنجلترا ثم اسكتلندا لإلقاء عدة محاضرات معدة مسبقاً له.

للمرة الثانية في حياته يهرب دوجلاس من الولايات المتحدة كمطارد ويعود من بريطانيا كرجل حر، فمع قدوم شهر يونيه ١٨٦٠ أسقط وايز الاتهامات الموجهة إليه وقررت لجنة الشيوخ التي تحقق في واقعة هاربرس فيري إنهاء البحث عن المتورطين وإيقاف الموضوع تهدئة للتوتر الاقليمى السائد.



لم ينتقد دوجلاس براون مطلقاً لتسببه في ورطة كاد يُقتل فيها لأنه - حقيقة - صرح بحبه لبراون وكثيرا ما أطلق عليه "رجل القرن التاسع عشر". لكنه استبعد نفسه بلا ريب عن ذلك الهجوم وأنكر تورطه فيه. كان تراجعه هذا يعود جزئيا إلى اضطراره إلى ذلك وسط حكومة تقر بصلاحية حكم دريد سكوت أي أن دوجلاس- أي العبيد وليس شخصه- ليس له تلك الحقوق التي على الإنسان الأبيض أن يحترمها "وفقاً لما ذكره الحكم."

ورغم أنه أعتبر استراتيجية براون الحربية استراتيجية مضللة، فقد أيد طبيعة هذه الحرب بقوله: "إنني على استعداد للكتابة والخطابة والتنظيم، بل والتآمر ضد العبودية عندما يكون هناك أمل معقول في النجاح." كان- كما كتب من مأمنه بكندا- غاضباً ممن قالوا سواءاً في الشمال أو الجنوب إن براون كان مجنوناً وقال: "هل البطولة والجنون مترادفان في قاموسنا الأمريكي؟" ذلك كان تساؤله وكانت إجابته أن أفعال براون معقولة تماماً "إذ كان يؤمن أن إعلان الاستقلال حقيقة واقعة، وأن الكتاب المقدس هو مرشد السلوك الإنساني، ومنطلقاً من هذين المصدرين، تصدر في مواجهة القهر الأمريكي."

عندما قال دوجلاس أن جون براون قد بدأ الحرب التي أنهت العبودية الأمريكية، كان عليه أن يدرج نفسه و قليلاً من دعاة التحرير

الثوريين الآخرين ضمن أولئك الذين دعموا أعمال براون بالصداقة والمال والكتابة. وبهذا المعنى ساعد دوجلاس- كذلك- في انتخاب لنكولن ثم في اغتياله.

كانت لحظة تحول تاريخي؛ فحينما كان براون ورجاله يهاجمون هاربرس فيري، كان دوجلاس يلقي خطاباً حول فضائل الرجال الذين يصنعون أنفسهم، حيث كان صديقه- لحظتها- يضحي بنفسه شهيدا ليستخلص دوجلاس دروساً من حياته الثورية المتطورة خلال اثنتي عشرة سنة مضت: من أمي يخطئ في الهجاء ومن كاتب يبطئ في الكتابة حتى أصبح صحفياً ناجحاً ومثقفاً مفكراً وثورياً سياسياً معروفاً ومشهوراً. وقد حدد في خطابه القوالب التي أدت إلى تنمية الشخصية. إنها الحظ والسعي، البيئة والاعتماد على النفس مضافاً إليهم الاعتماد على الله. لكن لب المشكلة في صناعة الذات هو أن تعيد تشكيل العالم حولك أيضاً. ربما يكون من المريح للمرء أن يتخيل ملكوتاً خالياً من الحروب والأخطاء والرذائل. لكن الرجال الحقيقيين العصاميين يشنون حربهم ضد كل تلك الشرور "كيما تسود إرادة الله على الأرض كما هي في السماء." إن العلامة المميزة للرجال العصاميين تراها في أناس مثل دوجلاس وبراون الذين يعرفون إرادة الله، ويعملون على هدى التضرع إليه، والذين عملوا بلا كلل لاقامة الجنة على الأرض.



***

عشقَ لنكولن فضح الأكاذيب الأمريكية؛ .ففي ديسمبر عام ١٨٤٧ هاجم في خطابه الأول للكونجرس الأمريكي هاجم الرئيس الديمقراطي جيمس بولك لشنه حرباً غير دستورية على المكسيك. لقد كذب الرئيس بولك بشأن تلك "القطعة الخاصة من الأرض التي أريقت عليها أول قطرة دم لمواطنينا" وهذا ما اتهمه به لنكولن. ادعى بولك أن المكسيكيين قد غزوا الأرض الأمريكية وأطلقوا النار على قواتها فأسالوا أول قطرة دم للقوات الأمريكية ولذا أعلن الحرب على المكسيك، فكان رد لنكولن أن ذلك الدليل "هو أبلغ خداع من بدايته لنهايته،" فالأرض التي سال الدم عليها كانت قطعة أرض متنازعاً عليها بين نهر نيوسيز وبين ريو جراند، وكل إنسان يعلم ذلك جيداً لأن الولايات المتحدة عندما قامت بضم بعض الأراضي المكسيكية ترك الكونجرس "مسألة الحدود- بوضوح - لاتفاقات تبرم في المستقبل. حتى أهل تكساس أنفسهم أقروا بنزاع الحدود، كما أن بولك أعلن الحرب على المكسيك دون دعم من الكونجرس كما ينص الدستور. هكذا أكد لنكولن "أن الرئيس وقع في الخطأ، فهو يشعر أن الدماء التي أُريقت في هذه الحرب هي دماء هابيل . . متضرعاً للسماء دعاءاً على من قتله ." بعد أيام قليلة من خطابه المتهكم على بولك، صوتَ لنكولن لصالح قرار يعلن أن الحرب لم تكن



ضرورية أو دستورية بدأها رئيس الولايات المتحدة بنفسه"، وشعر بالسرور لأن القرار قد تم التصديق عليه.

نبع هجوم لنكولن على بولك - بقدر كبير- من جهوده التي بذلها لتشكيك الديمقراطيين من أجل انتخاب رئيس محافظ وتوحيد حزب المحافظين وتخليصه من مشاعر مناهضة العبودية. ولما كان حزب المحافظين يضم كثيرين من مؤيدي العبودية البارزين بالجنوب، أمل لنكولن في الوصول إلى تراضٍ معهم، وهكذا شاء ألا يقف في المواجهة كمناهض قوي للعبودية. وفي حين كان دوجلاس وبقية دعاة التحرير يدينون بولك باعتباره رئيساً يمتلك الكثير من العبيد ويسعى لاكتساب المزيد من أراضٍ جديدة للعبيد، شهّر لنكولن به كرئيس ديمقراطي يتصرف بطريقة غير دستورية، ووافق أعضاء حزب المحافظين في قولهم إن الحرب قلبت النموذج المثالي من التقدم - وذلك بتحويل أمريكا إلى قوة استعمارية- مما أشعل الانقسامات الحزبية وهدد وحدة الحزب، وردد أصواتهم التي تؤكد أن الحرب قد منحت الرئيس بولك وحزبه قوة أكثر من اللازم.

بيد أن معارضة الحرب كانت عملاً مخادعاً، حيث كانت ناجحة عسكرياً. وقد أيد معظم الأمريكيين البيض حرب الرئيس بولك تلك، وفي الواقع اتفق ويليام هرندون- شريك لنكولن وعضو بحزب المحافظين - مع رجال الحزب الديمقراطي على القول بأن الرئيس بولك



عندما أصدر قراراً بتوجيه ضربة وقائية ضد دولة أخرى، لم ينتهك الدستور ودحض لنكولن هذه المزاعم الزائفة قائلاً:"اسمحوا للرئيس بغزو بلد مجاور / عندما يرى أنه من الضروري دحر (أو استباحة) غزو . . . وسوف تسمحون له بشن الحرب من أجل الاستمتاع ."

لقد حولت الحرب الاستباقية الرؤساء "الملوك" كما قال لنكولن : ينتهكون الدستور والسوابق القانونية .

وفي النهاية أصبح لنكولن أعلى صوتاً في مناهضة العبودية، وتخلى عن السوابق القانونية وأحكام المحكمة العليا في معارضته لانتشار الرق. وكعضو بالمحافظين، غالباً ما تعارضت مبادؤه المناهضة للعبودية مع ولائه الحزبي. لكن بعدما انحل حزب المحافظين أصبح جمهورياً وأصبحت مبادؤه متسقة مع حزبه الجديد، وبسبب طموحه السياسي، حاول أن يكون مبدعا بالدرجة التي كان عليها دوجلاس في قضايا الدستور. كان عليه أن يتبع الشماليين مكافحي العبودية وأن يعطي أولوية للحقوق للطبيعية قبل القانون الوضعي الذي هو من صنع الإنسان، محولاً الدستور إلى وثيقة تعارض العبودية وتعد امتدادا لمثل ومبادئ وثيقة إعلان الاستقلال.

***

كان أغلب أعضاء الكونجرس يتركون عائلاتهم خلفهم ويذهبون وحدهم إلى واشنطون. لكن ماري، وقد انتشت بانتخاب زوجها،



أرادت أن تشاركه نجاحه بالذهاب معه. وصحبا ابنيهما: الأكبر روبيرت تود (بوب) ذا الأربعة أعوام وادوارد (إيدي) ذا العام الواحد، والأخير ظهرت عليه أعراض الهزال ليموت بعد ثلاث سنوات لاحقة. كانت رحلة طويلة امتدت حوالي ١٦٠٠ ميل شملت عربة تجرها جياد وقارباً بخارياً يسير لأدنى المسيسبي ثم لأعلى نهر أوهايو عند مدينة كايرو التي تأتي بعد طريق هاك فنز ثم قارب بخاري آخر يسي لأدنى نهر كينتاكي، ومنه إلى ليكسنجتون بواسطة القطار حيث توقفوا في المنزل الذى شهد طفولة مارى طلباً للراحة لمدة ثلاثة أسابيع قبل أن يستكملوا الرحلة لنهايتها. وقامت جماعة العبيد عند أسرة تود على راحتهم والعمل كأمهات للطفلين وغسل ملابسهم المتسخة.

في عام ١٨٤٧ كانت رحلات العبور بين أطراف الوطن غير مناسبة للعائلات التي تصطحب أطفالاً صغاراً، فركوب عربات السفر تشعر المرء بالحبس داخل برميل خشبي ضيق ويصدؤ صريراً أما القوارب البخارية فرغم اتساعها وفخامتها إلا أنها كانت تضم طاقم بحارة من أصناف متعددة خاصة في ولايات منتصف الأطلنطي والولايات الجنوبية،ينغمسون في الاستمتاع بمضغ التبغ. وفقا لوصف أحد المسافرين كنت على الدوام ترى مجموعة من الشباب يتوسطون سطح الباخرة ويخرجون علب التبغ خاصتهم ويمضغونه



وهم يبصقون كل التبغ عشوائياً "في زخاتٍ صفراء كالمطر الغزير" مكونة "دائرة سحرية لا يجرؤ أحد من الدخلاء على الاقتراب منها."

لكن عائلة لنكولن شعرت بالراحة أكثر في القطارات التي أوصلتهم إلى ليكسنجتون ثم إلى واشنطن لأنهم جلسوا بعربة السيدات التي يمنع فيها استخدام التبغ. ورغم تعرضهم لبعضٍ من المضايقات، مثل الاهتزازات المتكررة واحتكاك المعدن بالمعدن، وشرارات حمراء ملتهبة تتناثر من موقد القاطرة بوسط العربة؛ لكنهم في النهاية لم يكن عليهم تفادي عصيرمضغ التبغ.

عندما وصلت أسرة لنكولن إلى واشنطن في شهر ديسمبر من عام ١٨٤٧، بدت عاصمة الأمة ضخمة لكن غير مكتملة، يسكنها أربعون آلف نسمة، من بينهم ألفان من العبيد وثمانية آلاف من الأحرار. كانت أضخم مدينة رأوها في حياتهم حتى تلك اللحظة. كان كثير من الأمريكيين يشيرون لها بأنها مدينة المساحات الشاسعة "لكن تشارلز ديكنز الذي كان زارها قبل سنوات قليلة أطلق عليها "مدينة النوايا العظيمة." لأنها كانت نصف مطوّرة عمرانياً، فلم تكن بها أعمدة إضاءة بالشوارع في أى مكان. وكانت والطرق الخالية التي لا تؤدي إلى مكان ما، حيث تنتظر البناء ليمنحها الحياة، وكانت توجد في كل مكان أبنية عامة تحتاج إلى "أناس يسكنونها كي

تكتمل". كان شارع بنسلفانيا– وهو الطريق الرئيسي الذي يحظى بالعناية– قد تم رصفه بالأحجار الصلدة جزئياً وكان الباقي منه يتحول إلى حفر من الوحل عقب أي مطر غزير، بينما تتجول الخنازير بالشوارع، وتتكاثف "أكوام القمامة والحيوانات الميتة وفضلات البشر في الأماكن القريبة"، وتتدفق مياه المجاري من مبنى الكابيتول نحو المول من المواسير لتصبح المنطقة مستنقعا كريه الرائحة .

حتى مبنى الكابيتول الكلاسيكي الأنيق لم يكن قد اكتمل بعد، وكانت قبته التي تشبه شكلاً لجمجمة الرأس لم تتم تغطيتها بعد بأسياخها من الصلب التي تتقاطع كما لو كانت تشد الانتباه للقدرات العقلية والأخلاقية لشخصية الأمة (حيث بدت الأجزاء الأكثر ثباتاً في القبة متماثلة مع مناطق الجمجمة المسئولة عن الحرص على الاكتساب والقدرة على القتال). كان الكابيتول يواجه الشرق، لكن المدينة أخذت تتسع

غرباً، فبدا كما لو كان يدير ظهره للجماهير وللمدينة.

كما أطلق ديكنز على واشنطن اسم "المركز الرئيسي للبصاق المصطبغ بالتبغ" ولم يكن مبالغاً، فمضغ التبغ كان مسموحاً به في جميع الأماكن العامة، وكانت الأعمدة الرخامية للكابيتول والسجاجيد في مباني النواب ملطخة بالبصاق، وانتشرت أوعية المباصق في كل مكان لكن الناس كثيراً ما تجاهلوها أو أخطأوا تمييز أماكنها،



فالعديد من رجال المجلسين - الشيوخ والنواب - المنتفخة خدودهم بسبب المضغ كانوا يقذفون البصقة ككرة طائرة لكنها تخطئ هدفها في الوصول للمبصقة تماماً . وقد كره أحد ممثلي نيويورك العمل في الكونجرس لأن الكثير من الزملاء "يقذفون ببصاق تبغهم فوق السجاد"، بل ويشربون الخمر أثناء العمل، وقام بتشبيه الكونجرس "بالحانة أو البار خاصة أثناء الجلسات الليلية." لم يكن أبراهام ولا زوجته ماري ممن يمضغون التبغ أو يشربون الخمر (رغم أن العديد من النساء كن يفعلن) . لكنهما أعتادا ذلك السلوك من سبرنجفيلد .

عاش آل لنكولن في بيت السيدة سبريجز الذي كان يوفر الطعام والنوم ويمتلئ بالنواب المحافظين ويطل على حدائق الكابيتول،كان هناك نحو عشرين نزيلاً آخر ، جميعهم رجال لم يعتادوا السكنى مع النساء والأطفال .وشكى نزيل من أن بوب الصغير طفل مزعج وأنه يجول في كل أنحاء المنزل . ووافق لنكولن على ان ابنه لديه قدر كبير من النزوع للإزعاج الذى يصدر عن روح الحيوان.

وحالما وصلوا إلى واشنطن استأجرت ماري أحد عبيد السيدة سبريجز للعناية بالأطفال بينما كانت وزوجها يحضران عرضاً تؤديه فرقة تعرف السرِناد الأثيوبية وهو استعراض لفرقة تعزف على الكمان بوجوه سوداء، حيث كانوا يطلون وجوههم باللون الأسود

ويتشبهون بالمهرج "بشفاة حمراء وأفواه ضخمة" ويغنون ويرقصون على أنغام الزنوج مثل "أولد دان تاكر" و"لوس نيل" و"ريل رود أوفيرتشر". استمتع لنكولن وزوجته بالعرض لدرجة أنهما أعادا الكرة مرة أخرى. لكن فردريك دوجلاس كره تماماً التقليد العنصري في فرقة الوجود السوداء، فأولئك الممثلون البيض يبالغون في الرقص والغناء وتقليد الزنوج، فدعا الممثلين "لتقديم الإنسان الملون كما هو دون مبالغة وليس كما يفعل فنانو الفرقة الأثيوبية كعادتهم" فلربما يفعلون ذلك لإسعاد البيض. لكن هذا الأمر يملأ السود بالاشمئزاز ويؤدي لتوسيع هوة العنصرية.

كان جوشوا جيدنجز، أحد زملاء لنكولن من المحافظين وأحد سكان منزل السيدة سبريجز أيضاً، قد أبدى امتعاضه لتردد لنكولن وأسرته على استعراضات تلك الفرقة. كان جوشوا رجلاً أبيض الشعر يمثل أوهايو في الكونجرس ويشبه الواعظ. لكنه كان أحد دعاة التحرير المتحمسين، وصنع لنفسه اسماً في المجلس بسبب كلماته الصادقة ضد العبودية وصداقته وتعاونه مع جون كوينسي آدامز الذي كان بدوره عضواً بالمجلس، وبعد معركة طاحنة في مواجهة نواب الجنوب استطاعا إلغاء القانون الذى يمنع إثارة قضايا العبودية الذى أوقف الجماهير عن مناقشة قضايا العبودية طوال عقد كامل من الزمان، وكثيراً ما دخل جيدنجز في مناقشات حول الرق مع



نواب الجنوب في استراحة منزل السيدة سبريجز وأحياناً مع لنكولن، وعندما تبدأ المناقشة كان لنكولن يقوم بتغيير موضوع الكلام بإلقاء نكتة أو حكاية لتخفيف توتر الموقف. تلك كانت طريقته في التوافق مع الأوضاع على مائدة العشاء، فاعتقد جيدنجز أن لنكولن "يحمل آراء خجولة حول كيفية التعامل مع نواب الجنوب" بينما اعتقد لنكولن أن معارضة جيدنجز لملاك العبيد تزيد من شرور الرق بدلاً من تخفيفها.

كما اعتبر لنكولن أن آدامز متطرفاً جداً في مناهضة

العبودية ، حيث بدا الرئيس السابق مسالماً الى حدٍ كبيرٍ، بجسده المنحني بفعل الزمن ورأسه المبقع بتجاعيد تقدم العمر. لكن ذلك كله لم يردع الجنوبيين عن إرسال تهديدات بقتله بين آن وآخر لمعارضته العنيفة للعبودية، فهو لم يؤكد فقط أنه "في حالة الحرب يمكن للحكومة أن تنهي حالة الرق على الفور قانونا، بل أضاف أن "للشعب الحق في إصلاح انتهاكات الحكومة"، حيث يمكن له السيطرة على الحكم كحق له لتوجيه عملها بما يتفق مع مبادئ وثيقة إعلان الاستقلال. ولذلك السبب تم اتهام آدامز بالخيانة وتوجيه اللوم إليه، فكان رده هو الإشارة إلى تعريف الدستور للخيانة وإلى "العقول السقيمة " لرجال الجنوب الذين اتهموه زورا. وقد



أصبح آدامز ثورياً في أخريات حياته ولمدة عشرين عاماً تقريباً بالبرلمان تحمّل كثيراً من "الإهانة، والتهديدات، والبلطجة" من ملاك العبيد.

في أوائل العقد الخامس من القرن التاسع عشر عندما كان في أوسط سبعيناته، صنف نفسه كواحد من دعاة تحرير العبيد، وقد نبع تحوله من سماعه "لاعترافات جون كالهون الصريحة والصادمة" التي قالها لاستيلاء على تكساس واستمرار العبودية. فيقول آدامز: "عندما أرى الجنوبيين يضربون بالدستور عرض الحائط من أجل تلك الأغراض التي سمعتها صراحة، لا أجد مناصاً سوى أن أكون من دعاة تحرير العبيد ... وعليّ أن أواجههم (أي الجنوبيين) بكل الوسائل المتاحة لي، وعليّ أن أقاتل الشيطان بنفس سلاحه." أصبح آدامز يشبه فردريك دوجلاس أكثر من لنكولن؛ فلا عجب أن يحبه أكثر.

احتفظ لنكولن بابتعاده عن آدامز ولم يحاول التعرف عليه. لكن آدامز كان قادرا على الاحتفاظ بلقبه "الشيخ المفوه" فرغم عمره المتقدم كان لا يزال يستطيع إلقاء خطبه البليغة. وفي يوم ٢١ فبراير عام ١٨٤٨، بعد بداية دورة المجلس بشهور قلائل، وقف آدامز في المجلس ليعارض قرارا بتقديم الشكر للكونجرس ولقادة حرب المكسيك لأدائهم "الرائع" وجهودهم في المكسيك، وكانت كلمته المدوية "المجلجلة" (لا!) هي آخر كلماته وآخر مواقفه ضد الرق إذ



انهار جسده بعدها على مقعده ومات بعد يومين. كان آدامز حلقة الوصل الملموسة عبر والده بالآباء المؤسسين للوطن، وأضحى موته علامة فاصلة على نهاية عصر . إلا أن لنكولن تظاهر بعدم وجوده لأنه لم يذكره هو ولم يأت على ذكر سرادقات العزاء الفخمة التي أقيمت لتكريمه.

كان لنكولن أكثر احتراماً لملاك العبيد المحافظين في الجنوب، ولم يكن ذلك مثيراً للدهشة، فأكثر أصدقائه من ملاك العبيد المحافظين (أو من أبنائهم) وكان يشعر بالارتياح وهو بينهم أكثر مما يشعر به بين دعاة التحرير الشماليين. لكنه بعدما سمع كلمة أليكساندر ستيفنز- من النواب المحافظين عن ولاية جورجيا- وهو يُدين الحرب المكسيكية، تأثر لنكولن لدرجة انه كتب إلى ويليام هرندون مذكرة عاجلة ليخبره أن ستيفنز "الرجل ضئيل الحجم، رقيق الوجه، قد اختتم لتوه أفضل خطاب سمعته وقد استغرق ساعة، فامتلأت عيناي الذابلتان الجافتان بالدموع." ربما كان ما أثر في مشاعره هو بلاغة إيجازه وذلك ما أحبه- أيضاً- في كالهون من "جمل قصيرة، وأسلوب مكتمل" . غير أنه كان يعامل خطب جيدنجز أو آدامز ضد العبودية - رغم طلاقتها- كأنها لم تحدث.

وقد فصل لنكولن نفسه عن آدامز حتى قيام الحرب الأهلية، فعندما قام بتحرير سيرته الذاتية في حملته الانتخابية للرئاسة ألغى

السطر الذي يقول إنه كان "رجل آدامز الوفي" وكتب بدلاً عنها "المعارض لجاكسون اوكلاي بإخلاص." "كانت محاولة إبعاد نفسه المقصودة عن آدامز تدعو للسخرية، لأن كلا الرجلين سعيا لإنهاء العبودية تماما، وعارضا محاولات مدّا نطاقها إلى الأراضي الجديدة، وبالطبع فإن لنكولن تصرف في النهاية بناء على فهم آدامز لسلطات الحرب لإنهاء الرق. لكنه كنائب بالكونجرس ومرشح للرئاسة اعتبر آدامز عبئاً أكثر منه حليفاً"، بسبب آرائه المتطرفة في مناهضة الرق.

***

أراد لنكولن أن يميز نفسه داخل الكونجرس، ولم يشعر بالحرج أن يؤدي مهامه في نفس المجلس مع المستنيرين من أمثال آدامز وجيدنجز وستيفنز. ولم يتهيب الأعمدة ذات الطراز الكورنثي التي تحيط بمجلس النواب ولا كرسي رئيس المجلس المزين والمرتفع الذي يشبه منبر الواعظ، فقد انتظم في حضور كل الجلسات تقريبا ولم يعد الكلام في المجلس يخيفه كما لو كان في محكمة من محاكم إلينوي. وكان واثقا من المهارات التي اكتسبها كمحام حيث عاش سنوات وسط قاعات المحاكم وتعلم كيف يميز بين الحقائق والأكاذيب فيقول: "لقد رأيت أحيانا محاميا جيدا يكافح لإنقاذ رقبة عميله في قضية ميئوس منها مستخدما كل حيله للالتفاف والتغطية والتعمية بكل ما أوتي من



كلمات، فتبزغ نقطة ما في القضية ما كان ليجرؤ على التصريح بها.
لكنه لا يستطيع أن ينكرها أو يخفيها." في الحقيقة، كانت تمر عليه أوقات يكون فيها هو ذلك "المحامي الجيد" الذي يستخدم كافة حيله لصالح عميله، وملأه الأمل أن تمكنه تلك المهارات من الصعود إلى القمة وذلك بكشف أكاذيب الرئيس بولك وحزبه الديمقراطي. لكن الكونجرس والرئيس أساساً أهملاه تماماً، وكان التوقيت جزءاً من المشكلة لأن الحرب المكسيكية كانت قد انتهت تقريباً عندما شن هجومه على بولك ولأنه كان يكرر ما قاله أعضاء حزبه طوال سنتين مضتا، وقد مل الناس من سماع كون الحرب غير دستورية، وإذا ما كانوا مضطرين لسماع تلك المناقشات، كانوا يفضلون سماعها من كوينسي آدامز أو جوشوا جيدنجز أو أليكساندر ستيفنز.

كما اعتبروا لنكولن غير متسق مع نفسه في وجهة نظره تجاه مناهضة العبودية، خاصة بالنسبة إلى بآدامز وجيدنجز، فهو بعكسهم لم يعارض ضم تكساس، الذى أثار الحرب بداية بسبب نزاع الحدود مع المكسيك، إذ قال:"إنني لم أهتم أبداً بمسألة تكساس. لأنني لم أتمكن من فهم كيف يمكن لذلك الضم أن يزيد شرور العبودية." لم يكن مهتماً بأن يؤدي ذلك الضم إلى زيادة عدد ولايات مالكي العبيد بمقدار الربع، لأن ذلك بالنسبة للنكولن كان يعني أن تكساس سوف

يكون بها نفس عدد العبيد سواء أصبحت جمهورية مستقلة أم جزءًا من الولايات المتحدة.

لكن كانت هناك تناقضات أخرى أكثر خطورة في سجل لنكولن المتعلق بالحرب تهدد شرعيته، فعندما نشبت الحرب عام ١٨٤٦، قام بتأييدها لاجتذاب ناخبي إيلينوي، حيث اندفع رجالها للالتحاق بالحرب وشجعهم بإلقاء خطاب حربي "ساخن وحماسي ومؤثر." ثم عندما وصل للكونجرس قال عن الحرب إنها غير دستورية واتهم بولك بالكذب، وأراد أن يعرف المكان الحقيقي الذي أريقت فيه الدماء. ثم أيد بعد أسبوع الحرب بالتصويت لصالح إمداد الجيش وتكريم قواده وأبطاله. ونتيجة لذلك، اكتسب لنكولن اسم "لنكولن المرقع" الذي لا يثير فقط معنى "محامي المتلاعب" كما ذكر أحد الصحفيين وإنما معنى "السياسي الرجراج المتقلب".

خلال جهوده لتوحيد أعضاء حزب المحافظين الشماليين والجنوبيين معاً، هجر لنكولن– نظرياً– دعاوى مناهضة العبودية، فرفض الاشتراك في مناقشة مشروع ويلموت بروفيزو الذي يمنع انتشار العبودية إلى الأراضي المكتسبة حديثاً من المكسيك رغم أنه صوتَ لصالح القرار (الذي هزم عند التصويت)، لكنه لم يرد إزعاج نواب الجنوب من المحافظين، لذا التزم الصمت أثناء المناقشات. وبالطبع فقد صوت لصالح الابقاء على تجارة العبيد في مقاطعة

واشنطن مع نواب الجنوب، وكان ذلك موقفاً محرجاً لإنسان يعتبر نفسه خصماً للعبودية وفضحه دوجلاس في جريدته.

وكجزء من جهوده التوافقية، قدم لنكولن قانونه الخاص بإنهاء العبودية في واشنطون، ويوفر قانونه تعويضاً كاملاً للسادة مقابل ما يمتلكون ويفرض فترة "تدريب" على العبيد أخرت حريتهم عملياً من ١٨٧٠ حتى ١٨٧٥، وشجع تحرير العبيد كيما يهاجروا إلى ليبريا. كان القانون يطالب بإجراء اقتراع يقوم فيه المواطنون البيض بالتصويت عليه.

كان أكثر جوانب القانون سوءًا أنه يطالب بالتشدد في تنفيذ عمليات القبض على العبيد الهاربين الذين يغادرون المقاطعة وكانت هذه المادة خاصة مدمرة للاستقرار، إذ حدث يوم ١٧يناير من عام ١٨٤٨، وبينما كان يقوم لنكولن بتقديم نسخة من مشروع قانونه، اقتحم ثلاثة رجال مسلحين منزل السيدة سبريجز وأسروا نادلاً أسود يعمل هناك بالقوة "وفي حضور زوجته، كمموا فمه، وقيدوه بالسلاسل وتحت تهديد أسلحتهم أدخلوه أحد سجون العبيد بالمدينة"، ومنه أرسل إلى سوق العبيد في نيو أورليانز ليباع بأعلى سعر مدفوع. كان ذلك النادل قد عمل لدى السيدة سبريجز لعدة سنوات، وأحبه رجال الكونجرس المقيمون هناك ومن بينهم لنكولن. وكان هذا الرجل قد تعاقد على شراء حريته من سيده مقابل ٣٠٠

دولار منذ سنوات سابقة وقد سدد كل ما عليه سوى ٦٠ دولاراً باقيـة عنـدما اختطفـه سـيده فجـأة مـن وسـط عائلتـه وعملـه ومستقبله. وقد انزعج جوشوا جيدنجز بشدة لدرجة أنه تقدم بقرار لمجلس النواب يقترح عليهم إما أن يقوموا بمنع تجارة العبيد في المقاطعة أو "نقل مركز الحكومة إلى ولاية حرة أخرى." "كانت مثل تلك الهبّات الغاضبة شائعة الحدوث بحيث لا يمكن تجاهلها. غير أن لنكولن لم يذكر تلك الواقعة أبداً ولم يغير– حتى– في فقرات مشروع قانونه بشأن العبيد الهاربين.

كان قانونه لتحرير العبيد توافقياً لدرجة أن أحداً من النواب لم يؤيده ، إذ كان يمثل خطة هنري كلاي – وربما بنى عليها– للقضاء على الرق في كنتاكي. وفي تماثله الشديد مع كلاي، كان لنكولن يأمل في عتق العبيد دون المساس بحسابات السادة رغم أن الجنوبيين نظروا لمشروعه باعتباره "الخطوة الأولى نحو إنهاء الرق في كل البلاد" في حين وجده الشماليون مشروعاً غير مقبول. كان جيدنجز ثائراً ضد مادة "العبد الهارب" بمشروع القانون، وبدأ النائب ويندل فيلبس– من دعاة التحرير في بوسطون– بمناداة لنكولن باسم "كلب صيد العبيد من إلينوي" وهو مصطلح التصق به بين بعض دعاة تحرير العبيد .

ما أثار الغضب عند جيدنجز وبقية الدعاة أن لنكولن قام بدعم الجنرال زاكري تايلور مرشحاً للرئاسة. فقد كان لنكولن قد تصادق مع أليكساندر ستيفنز، الذي أصبح- بعد ذلك- نائباً للرئيس في الاتحاد المنشق وتعاونا على تنظيم "نادي ترشيح تايلور للرئاسة"؛ تلك الفكرة التي أثارت الاهتمام الوطني. كان تايلور لا يعرف شيئاً عن السياسة ولم يقم يوماً بالإدلاء بصوته، وكان يمتلك ١٣٠ عبداً. على نقيض هنري كلاي، لم يعتبر تايلور أن العبودية خطأ أخلاقي. لكن لنكولن وستيفنز اعتقدا أن ترشيح تايلور قد يعيد الحيوية لحزب المحافظين ويخفف كثيراً من التوتر الاقليمي السائد.

شعر المحافظون أصحاب "الضمير" الداعي لعتق العبيد أنه قد تم الغدر بهم بترشيح الجنرال تايلور وتخلوا عن حزبهم للمساعدة في تكوين حزب "الأرض الحرة"، فكيف يمكنهم أن يبقوا أعضاءً في حزب يعارض الحرب المكسيكية ثم يرشح في نفس الوقت القائد الذي ساعد على الفوز بتلك الحرب؟! وكيف يقومون بالدعوة لترشيح رجل للرئاسة وهو يمتلك مئات من العبيد ولم يشعر للحظة أن العبودية خطيئة؟ وكيف يؤيدون مرشحاً رئاسياً لا يرى في انتشار العبودية مشكلة أخلاقية؟ وفي مؤتمر الحزب الذي عقده لتسمية مرشح الرئاسة في فيلادلفيا، قام كل من جوشوا جيدنجز وتشارلز سمنر وهنري ويلسون وتشارلز آدامز- ابن جون كوينسي

آدامز- بقيادة عملية الخروج على الحزب لتكوين الحزب الجديد "حزب الأرض الحرة"، ولو كان كوينسي آدامز حياً لانضم إليهم بالتأكيد وأيد دعواهم.

دعم لنكولن ترشيح تايلور للرئاسة لأسباب نفعية، ففي حين رغب بعض المحافظين لأعضاء في ترشيح هنري كلاي، رأى لنكولن أن كلاي لن يتمكن من النجاح وقال: "إن تايلور هو فرصتنا الوحيدة. . . وأنا لا أؤيده لأنني أظنه سيكون رئيساً أفضل من كلاي ولكن لأنني أعتقد أنه سيكون أفضل من رئيس ديمقراطي ."

ومن الواضح أن لنكولن فضل الولاء للحزب على مبادئ مناهضة العبودية، وقد كره حزب "الأرض الحرة" الجديد برغم تركيزه على قضية مناهضة الرق كما احتقر حزب الحرية، وأكد- ساخراً - أن الشيء الوحيد الجيد الذي قدمته أحزاب مناهضة الرق هي أنها ساعدت على انتخاب رئيس ديمقراطي مؤيد للعبودية. فقد كلف حزب الحرية هنري كلاي بالترشيح للرئاسة عام ١٨٤٤، والآن قد يقوم أعضاء حزب "الأرض الحرة" بانتخاب المرشح الديمقراطي لويس كاس المؤيد للعبودية. وأكد لنكولن أن المحافظين من معارضي العبودية بنفس القدر الذي يعارض به أعضاء حزب "الأرض الحرة" لكنهم يتجاهلون حقيقة أن أمثال القادة كلاي وستيفنز وتومبز وتايلور

كلهم من ملاك العبيد الجنوبيين وبعكسهم لا يوجد قائد واحد من حزب "الأرض الحرة" ممن يملكون العبيد.

بيد أن تأييد لنكولن لتايلور كان يمثل حركة سياسية أريبة. ففي نهاية المطاف فقد ساعد كثيراً في انتخاب ثاني (وآخر) رئيس يميني محافظ. كان الرئيس تايلور يميل إلى مواجهة الجنوبيين الجشعين الذين أرادوا مزيداً من الأرض لنشر العبيد فيها. وعند نهاية مدة لنكولن النيابية، شعر ببوادر تشرذم الأعضاء التي سيؤدي- عاجلاً- إلى تدمير حزبه الأثير. ذات يوم من أيام مارس عام ١٨٤٩، كان جوشوا جيدنجز يتحدث مع أحد رفاق حزب الأرض الحرة صدفة عندما حضر إليه ريتشارد ميد نائب فرجينيا، ولوح بقبضته في وجه جيدنجز قائلاً: "لعنة الله عليك .. يجدر بنا وسنجبرك بالقوة على أن تفعل الصواب (أي تأييد الجنوب) إذا لم نجد وسيلة أخرى."

لم تكن تلك التهديدات تمثل شيئاً بالنسبة لجيدنجز، لأن رجال الجنوب قد هددوه بالفعل مستخدمين الهراوات والمدى والمسدسات. لذا أطلق ضحكة أمامه وهو يقول: "إنك لن تستطيع لإلحاق الأذى بنا."

استشاط ميد غضباً وجذب جيدنجز من ياقته ملوحاً بقبضة يده مرة أخرى وسبه "بجملة من الشتائم"، فضحك جيدنجز من

جديد وقبل أن يجد ميد فرصة لضربه تدخل النائب توماس هينلي من أنديانا وأرسل مير بعيداً وهو يصيح.

ما أن انتهت تلك المعركة حتى قام روبيرت جونسون وهو ديمقراطي مخمور من أركانساس بمهاجمة أورلاندو فيكلين من إيلينوي وهو زميل لنكولن فجأة، وتحولت مواجهتهما بسرعة إلى ملاكمة تدور في مجلس النواب. هنا تدخل صامويل إنج من الاباما وسط المعمعة وأخذ يضرب فيكلين على رأسه بعصاه "وتسبب في تدفق الدم أنهاراً" ثم توقفت المعركة وحملوا فيكلين إلى الخارج "ووجهه يسيل دماً". شاهد لنكولن الأزمة دون أن يبادر إلى التدخل ربما لأنه أراد تجاهل حقيقة قيام حرب أهلية مصغرة داخل أورقة المجلس.

افتقدت ماري تود، التي كانت تحب الجلوس وسط الردهة والاستماع للمناقشات ، حياة الاشارة، فقد ملت حياة العيش في نزل السيدة سبريجز وغياب زوجها لساعات طويلة، فأخذت طفليها إلى العائلة في ليكسنجتون حيث قام العبيد برعايتهما وعند نهاية دورة لنكولن قابلته وهو عائد إلى سبرنجليفد. كانت دورة لنكولن في الكونجرس فاشلة، وهو لم يتقدم لانتخابات جديدة بسبب اتفاق مسبق بأن يخلي مقعده لمرشح محافظ آخر بالإضافة إلى أنه ما كان ليتم ترشيحه بسبب فقده لدعم الكثير من مؤيديه. وفي الواقع خسر

بديله الانتخابات، وأخذ زملاؤه يلومونه على التخلي عن "مقعد" مضمون للمحافظين دون فائدة. بدا غير مستعد لتسليط الأضواء عليه على المستوى الوطني وبدأ خصومه يلفتون الانتباه لأسلوبه في الكلام وطريقة أدائه. فقد كتب أحد الصحفيين من الديمقراطيين: "وترى إيماءاته الخرقاء، وتنويعه المضحك لصوته والتعبيرات الكوميدية لملامحه، كل ذلك يتحالف معاً لدفع المستمعين إلى الضحك لمجرد توقع النكتة قبل ظهورها." غادر لنكولن ذو الأربعين عاماً واشنطن وآماله في الصعود الوطني السياسي قد تحطمت، ولو مات في العام التالي لهذه الوقائع ما كان له أن يصنع التاريخ.

وعندما عاد إلى سبرنجفيلد في ربيع عام ١٨٤٩ كان شديد الاضطراب، وخففت ماري من آلام إحباطه بإغراقه في سيل من المديح والتنبؤ بمستقبل عظيم ينتظره، وكتبت مجموعة من الخطابات تطلب له وظيفة "من خلال المعارف" نظير دعمه للرئيس تايلور. ومنحه الحزب وظيفة حاكم منطقة أوريجون مقابل ٣٠٠٠ دولار في العام، وهو راتب محترم، فقبل الإغراء لكن ماري رفضت لذا رد العرض دون إجابة بالقبول. اعتزل لنكولن السياسة بشكل عملي ولم يحتل موقعاً رسمياً من أواسط عام ١٨٤٩ حتى معظم عام ١٨٥٤.

وخلال تلك الأعوام الستة مارس لنكولن "أعمال المحاماة باجتهاد ومثابرة أكثر من ذي قبل" كما قال. وبينما كان عمله القانوني مع

. ويليام هيرندون ينمو، أصبح محامي القضايا المحلية وترك الارتحال إلا بقدر دائرة محاكم إيلينوي محل عمله. وقبل جميع أنواع قضايا العملاء، فدافع عن بعض شركات السكك الحديدية في بعض الحالات وعارضهم في حالات أخرى، وقبل توكيلاً عن فتاة سوداء سعت للحصول على حريتها يوماً ما، ودافع عن أحد ملاك العبيد الذي طالب باستعادة ما يملك في قضية أخرى. وكما لاحظ هرندون، فقد "كان محامياً للقضايا القانونية بصورة مجردة." لكنه كسب أموالاً وفيرة خلال تلك السنوات، ومع عام ١٨٤٥ انتمى لنكولن للطبقة العليا في سبرنجفيلد .

***

رغم الأمن المالي الجديد اذى تحقق للنكولن، فقد صادف زواجه أحياناً هزات اجتماعية كادت تودي به للانهيار، إذ كان منزلهما بيتاً ذا طابق واحد يوناني الطراز يقع على ناصيتي الشارع الثامن وشارع جاكسون، وسط مدينة سبرنجفيلد، ويخفي داخله ثورة فائرة[18] حيث كانت انفعالات ماري صعبة الضبط وكان من يمكن أن تحول إلى حالة عنف بسرعة، وقد كرهت "أصدقاء زوجها المخلصين" ونكاته المنزلية و"مظهره وسلوكه غير الملائم". فبالنسبة لإمرأة لا تزال ترى نفسها أرستقراطية من الجنوب، كان سلوك زوجها

[18] أضافا في عام ١٨٥٦ دورا ثانيا لكي يسع المنزل أسرتيهما المتنامية. فقد ويليام (ويلي) في ١٨٥٠ وتوماس (تاد) في ١٨٥٣ – المترجم

يثير الخجل والإحراج. وكان ما يشعل غضبها أكثر أن يهملها لنكولن ويهمل أطفالها، ففي يوم أحد كان زوجها عائداً مع ابنه في إحدى العربات واستغرق في أفكاره لدرجة أنه لم يلحظ متى تعثر ابنه واقعاً خارجها، وكان ليستمر في طريقه للمنزل غير منتبه لما حدث لولا أن ماري كانت تقف على الطريق وشاهدت الحادثة، وملأها الغضب حتى أنها وبخته على مشهد من الناس.

وفي واقعة أخرى، كان أبراهام جالساً في حجرة الجلوس يقرأ، وسواء أنه لم يسمع أو أنه تجاهل صوت ماري يطلب منه- تكراراً- وضع المزيد من الأخشاب في المدفأة، حملت وسط هياجها جذعاً خشبياً وهي تخاطبه بشكل رسمي كعادتها "أيها السيد لنكولن، لقد أخبرتك ثلاث مرات أن تغذي النار، وتظاهرت بأنك لم تسمعني! سوف أجعلك تسمعني هذه المرة." فواصل القراءة وهي تقترب منه رافعة قطعة الخشب ثم شعر بأن أنفه ينفجر إذ ضربته على أنفه بشدة أسالت الدم منه لعدة أيام، وذهب إلى عمله يضع رباطاً طبياً على وجهه.

من مصادر التوتر بينهما كذلك اختلاف وجهات نظرهما بشأن التعاون المنزلي والأسري، ولكونها نشأت وسط بيئة بها عبيد، اعتبرت أن ليس عليها دفع أجور للفتيات الخادمات. لذا، كانت شديدة البخل عليهن، ولم تعتد تلقي الإهانة من "الفتيات الأيرلنديات

المتوحشات" اللاتي لم يأبهن بالرد عليها أو محادثتها كعادة الإماء. حيث كان عبيد أسرتها يرتدون قناع الطاعة خوفاً من الجلد، وربما فكرت هي أن "إيقاف السوط يفسد العبد"، فبعد أن اختلفت مع إحدى تلك الفتيات أخبرت إحدى صديقاتها برأيها فكتبت: "لو أن السيد لنكولن مات، فلن تجدني روحه – أبداً– خارج حدود ولايات العبيد."

على أية حال، تعاطف لنكولن مع خادمات ماري، لأنه نشأ كفتىً أبيض فقير كان عليه أن يدفع كل ما يكسبه لوالده، ويمكنه أن يشعر بما يشعر به من يعمل لصالح أحد الطغاة. بالتالي، عرض على الخادمات أن يزيد أجورهن حتى يجعل من عملهن أمراً محتملاً. كانت إحدى الفتيات تتقاضى دولاراً وربع أسبوعياً– وهو ما يعادل ٥٠٠٠ دولار سنوياً بعملة هذه الأيام– فهددتهم بأنها ستغادرهم ما لم تتقاضى ٢٥ سنتاً زيادة في الأسبوع، فرأت ماري أنها وقحة وجادلتها. لكن أبراهام جذبها بعيداً وقال لها بهدوء: "لا ترحلي! أخبري السيدة ماري أنك توافقين على البقاء مقابل دولار وربع وسوف أدفع لك الخمسة وعشرين سنتاً بيدك." لكن ماري سمعت المحادثة وثارت ثائرتها، فأمرت الفتاة بالرحيل على الفور وتحولت لزوجها قائلة: "وبالنسبة لك يا سيد لنكولن، فأنا أشعر بالعار من أجلك !" استأجر لنكولن فتاة بديلة ووعدها أن يعطيها ٧٥ سنتاً

أسبوعياً كمكافأة فوق ما تدفعه السيدة ماري مهما كان، وحذرها من أن "تثرثر مع السيدة لنكولن في ذلك الشأن."

هكذا تعلم لنكولن كيف يستخدم الحيلة للحفاظ على السلام في بيته. وعندما طلب منه صبي من جيرانه أن يتبرع ببعض المال لصندوق الإطفاء بالحي، أجابه: "سوف أذهب للمنزل لتناول العشاء ثم اسأل السيدة لنكولن ما ستقوله في ذلك. بعد العشاء، سيكون مزاجها رائقاً وسأسألها إذا ما كان في استطاعتنا أن ندفع خمسين دولاراً. هنا سوف تجيبني: 'بابا متى ستتعلم حسن التقدير؟ يكفيهم عشرون دولاراً. فتعال لي غداً وخذ النقود."

بذلك، حصل الصبي على التبرع. أما بالنسبة لماري، فكان يعرف كيف يفاوضها ويحصل على ما يريد.

رغم تلك العثرات الاجتماعية، إلا أن الحب المتبادل بينهما للسياسة أبقاهما راضيين بصورة نسبية كزوجين. وقد عكست ثوراتها الفجائية رغبتها الدفينة في أن يُسمع صوتها في مجتمع يُخرس صوت المرأة ويعاملها أفضل من الخدم قليلاً. ونظراً لطموحها من أجل زوجها، أصرت على مشاركته عالمه الواسع، وعندما كان يتجاهلها أو يترفق بها أو حتى يرفض معاملتها كباقي الرجال، كان بإمكانها أن توقفه عند حده. ثم كان للقدر أيضاً دوره في تخفيف حدة التوتر بينهما إذ عندما مات ابنهما إيدي ذو الأربعة أعوام سنة



١٨٥٠، كادت الواقعة تدمر حياتهما معاً وأغرقا في حزن عميق إلى أن حملت ماري بويليام بعد أسابيع قليلة من موت إيدي.

كما أصابهما الحزن مرة أخرى في شهر يونيه عام ١٨٥٢ لموت بطلهما المشترك هنري كلاي، وقال عنه لنكولن أن كلاي "كان الرجل الذي قاتلت من أجله طوال حياتي المتواضعة ... لأنه كان يؤمن . . بعتق العبيد إلى أقصى مدى" وتوصل لعدة حلول وسط لكنه لم يفقد الهدف أبداً . كانت ماري- بدورها- تعتبر كلاي "النموذج الأمثل" لرجل الدولة رغم توقعها أن زوجها سيفوقه براعة، وسيصل إلى البيت الأبيض.

وفي السادس من يوليو عام ١٨٥٢، وهو اليوم التالي لإلقاء دوجلاس خطابه عن "الرابع من يوليو" في روشيستر، قام لنكولن برثاء كلاي في الكابيتول في سبرنجفيلد . وقتها كان دوجلاس يقدم وصفاً لبلد آخذ في الانحدار، ولنكولن ينشر تسبيحة إلهام لرجل ولأمة آخذين في الصعود، وربط مولد كلاي بمولد الأمة "فالوطن الطفل والصبي الطفل بدآ سباق الحياة معاً . . والآن تنعي الأمة الرجل . . " أطلق على كلاي أعظم عصامي أنجبته الأمة، وسلط الضوء على عبقريته كمصلح بقوله: "لم يوجد شخص مثله في حذره لتجنب الانقسامات الاقليمية "، ففي مفاوضات اتفاق المصالحة عام ١٨٥٠ قام كلاي "بطرد الشيطان الذي تملك جسد الهيئة

السياسية، وأعاد السلام لأرضٍ ممزقة." وبينما كان الشيطان بالنسبة لدوجلاس هو الرق والعنصرية، كان بالنسبة للنكولن هو الشقاق السياسي، فحياة كلاي تمثل له قوة الأمة وتقدمها. لكنه خلال سنوات قليلة لاحقة سيتبع دوجلاس ويركن إلى رثاء الأمة.

في الحقيقة، نجد أن ما لم يدركه لنكولن هو أن موت كلاي شكل علامة على نهاية عصر الحلول الوسط. ففي الوقت الذي ألقى فيه دوجلاس ولنكولن خطابيهما، كان قانون "العبد الهارب" وقصة هارييت بيتشرستو "كوخ العم توم" يحشدان تحرك الشمال للثورة ضد العبودية وتقسيم الوطن؛ كان حزب المحافظين المحبب للنكولن الذي تمكن من توحيد مؤيدي العبودية ومناهضيها بمهارة من قبل في طريقه للتشرذم والتفكك إذ ثار غضب أعضاء الحزب الجنوبيين بسبب رفض الحزب ترشيح ميلارد فيلمور عن الحزب. وكان كثير من الأعضاء- ومن بينهم لنكولن- يعتبرون فيلمور "دمية بيد قوى العبيد"، وقاموا بترشيح بطل الحرب وينفلد سكوت كمرشح للمحافظين للرئاسة عام ١٨٢٢. وفي نفس اللحظة التي كان لنكولن يلقي فيها خطاب رثائه لمؤسس وزعيم الحزب، كان الحزب يتداعى. وكانت انتخابات نوفمبر- بعد أربعة أشهر من الخطاب- هي آخر انتخابات يظهر فيها مرشح محافظ على قائمة الرئاسة.

بيد أنه بعد موت حزب اليمين المحافظ لفترة طويلة ظل، لنكولن يتبع تقاليده وأعرافه في التوافق مع قوى العبيد، وحتى بعدما أصبح جمهورياً، كان يشير إلى نفسه "كعضو محافظ قديم".

وبعكس زملائه من مناهضي العبودية، لم يحاول لنكولن أبداً اثارة التساؤل حول سلامة قانون العبد الهارب الصادر عام ١٨٥٠ لا على المستوى السياسي ولا على المستوى الدستوري. فهو تنازل ضروري للجنوب بقدر اعتقاد نواب الجنوب أنه إنهاء للعبودية في واشنطن العاصمة تنازل للشماليين، الذين كرهوا رؤية مزادات بيع العبيد وهم في طريقهم إلى أعمالهم، واعتقد لنكولن أن الدستور يطالب بوضع "قانون فعّال للعبيد الهاربين". فعرض على الجنوبيين أن يمنحهم أي تشريع يُصلح أوضاع العبيد الهاربين طالما لا يتعرض الأحرار السود لخطر الاستبعاد أكثر من تعرض البيض الأبرياء لخطر الموت، بل إنه أكد أن قانون العبد الهارب بالنسبة للسود يماثل القوانين الجنائية بالنسبة للبيض، متجاهلاً حقيقية أن الهارب الأسير محروم من الحقوق الدستورية في محاكمة طبيعية وفقاً لإجراءات ذلك القانون.

استمر لنكولن في طريق التوافق مع المبادىء الموثقة للأمة، ففي حين أيد مبدأ المساواة المجرد، تخلى عنه كحل عملي لمشكلة الرق حيث اعترف بقوله عام ١٨٥٤: "لو تجمعت لدي كل سلطات الأرض، ما كنت لأعرف أبداً ما عليّ فعله في مسألة العبودية..،

وأضاف : "إن حافزي الأول يدفعني لتحرير كل العبيد وإرسالهم إلى ليبريا... إلى أرض وطنهم." لكن ذلك كان بلا جدوى، لأنه عارض- كذلك - عملية تحرير السود ومنحهم "المساواة السياسية والاجتماعية مثلنا. "لماذا؟ "إن مشاعري الخاصة لن تسمح بذلك، ولو فعلت أنا، لرأينا جميعاً أن العدد الأكبر من البيض لن يفعلوا. ربما تكون مثل تلك المشاعر غير عادلة. لكن ذلك الشعور الجماعي- سليماً كان أم فاسداً - لا يمكن تجاهله بشكل آمن. لذا، لا يمكننا أن نجعل منهم (أي السود) متساوين." في نواحي معينة، بقي لنكولن محافظاً لباقي أيام حياته، لكن انهيار حزبه حرره من دوافع الوسطية لصالح الحزب ببساطة. لقد أدى ذلك إلى تحوله لسياسي لامع مبدأه الرئيسي مثل دوجلاس القانون الطبيعي حرية للكافة.

***

استطاع لنكولن إعادة صنع نفسه عندما بدأ يرى في ستيفن دوجلاس خصمه وعدوه الرئيسي، وهو النائب الديمقراطي الممثل لإيلينوي وواضع قانون كانساس- نبراسكا لعام ١٨٥٤، الذي استثار لنكولن "كما لم يحدث من قبل." كان ستيفن هذا يصغره بأربع سنوات، وكان أشهر رجل في إيلينوي بين أكثر السياسيين نجاحاً في الوطن. ولد في براندون التابعة لفيرمونت، وتلقى حصيلة جيدة من الدراسة ، وتعلم اللاتينية واليونانية رغم أن والده الطبيب



مات وهو طفل. درس ستيفن القانون لستة أشهر قبل أن ينتقل لولاية إيلينوي في سن العشرين، حيث كان الانضمام لنقابة المحامين أقل صعوبة من مثيله في شرق البلاد. وعند بلوغه السابعة والعشرين من عمره أصبح أصغر قاض بالمحكمة العليا بالولاية ثم عُرف فيما بعد باسم القاضي دوجلاس. كان عمره ثلاثين عاماً عندما تم انتخابه بمجلس النواب، وأربعة وثلاثين عاماً عندما انتقل لمجلس الشيوخ. بحلول أوائل العقد السادس من القرن التاسع عشر، أصبح واحدا من قادة مجلس الشيوخ، وعندما كان الناس يناقشون أسماء رؤساء الأمة كان اسمه عادة يرد ضمن أسماء القمة.

في نواحي عديدة، كان س. دوجلاس خصماً للنكولن. كان أقصر من لنكولن إذ كان طوله خمسة أقدام وأربع بوصات وكان يسير متبختراً بعكس خطوات لنكولن الطويلة المتقافزة، وله مزاج متنمر، وهيئته القتالية تتماشى مع صوته الجهوري (حتى إن بعضهم يراه زئيرا) مما أدى بأصدقائه لتسميته "العملاق الصغير". وبينما كان يعيش لنكولن متقشفاً وممتنعاً عن الخمور والتبغ، كان دوجلاس يحيا في بذخ؛ كان يحب الخمور الغالية والسيجار الفخم، وكان يشرب كثيرا ويحب المراهنة على العقارات.

كانت أساليب نقاشهما مختلفة مثل أشكليهما وشخصيتهما، حيث كان يبدو لنكولن معقداً أو جامداً ويعتمد على الكلمات



المنتقاة بعناية ليتخذها سلاحاً، في حين يتصرف كان دوجلاس كمقاتل مراوغ في شجار بإحدى الحانات يصدّر كل جسده في المعركة.لذا، كتب أحد الصحفيين: "إنه يمتلك مهارات قتالية تنزع للانتصار." وكان أحياناً يخرج عن السيطرة. ففي وسط إحدى جلسات الكونجرس اقتلع وهو يتحدث- وكان مجهداً من كثرة العمل- اقتلع ربطة عنقه، وفك أزرار الصديري "وأصبح منظره كملاكم نصف عار ..." كما ذكر جون كولنى آدامز وهو خائف، وأكمل : "كان وجهه هادراً وملامحه متشنجة وقذف بنفسه إلى حالة من الاهتياج ؛ ولو كان جسده من مواد قابلة للاشتعال، لاحترق من فوره. *(جزء يرفق)

وحاجت صحيفة مؤيدة للعبودية بإن حكم قضية دريد سكوت يحمى ملكية سادة العبيد حتى لو انتقلوا لولايات حرة،وكانت هناك "قضية مماثلة" تشق طريقها ببطء عبر المحاكم.

فالقضية المعروفة باسم ليمون ضد الشعب شملت سيداً من فرجينيا هو جوناثان ليمون، كان قد جلب ثمانية في ١٨٥٢من العبيد إلى مدينة نيويورك- وهي ميناء رئيسي- لشحنهم إلى تكساس. لكن السلطات أطلقت سراحهم حيث أن قانون الولاية يمنع السادة من جلب عبيدهم إليها، فاستأنف ليمون القرار على أساس انه كان في مرحلة عبور بالولاية فقط وعلى هذه الولاية احترام ملكيات



فيرجينيا . وقد توقعت صحيفة "النيويورك تربيون" أنه بمجرد أن يكسب ملاك العبيد حق العبور "فسوف نرى الناس يشترون العبيد من أجل سوق نيويورك وعندئذٍ لن توقف أية قوة قانونية ذلك." كما حذر القاضي صامويل فوت– وهو قاض بمحكمة نيويورك العليا من أن قضية ليمون لو وصلت للمحكمة العلياً المركزية، سوف تكون تلك نهاية الأرض الحرة في الشمال. وقال المحامي جورج تمبلتون سترونج إن "أي قرار ستصدره المحكمة العليا المركزية سوف يسمح لكل جنوبي أن يجلب عبيده إلى نيويورك وماساتشوستس ويحتفظ بهم هناك." كان أولئك المراقبون للامور يتسمون بالرشد ويتمتعون بعقول لماحة وليسوا من مروجي نظرية المؤامرة المجانين ، ولو نظرتْ كانت قضية ليمون قد وصلت إلى المحكمة العليا المركزية، فربما تم تقنين أوضاع العبودية في كل ولاية. لكن نشوب الحرب الأهلية أوقف ذلك كله.

بفضل خطابه المسمى "بيت منقسم"، صعد لنكولن منصة العمل السياسي والوطني. كان عمره تسعاً وأربعين سنة، أي ضعف عمر فردريك دوجلاس عندما دخل دائرة الضوء في العمل السياسي والوطني، وقد أصدر لنكولن حينئذ تصريحاً رسمياً بالتحدي داعيا دوجلاس كي يجوب الولاية مخاطباً نفس الجماهير ليلمس رأيهم وكان ذلك تقريباً– "الأسلوب الغربي المعتاد للحملات السياسية".



وقد اعترض س. دوجلاس لآن لنكولن يفتقر إلى المكانة الاجتماعية، وقالت صحيفة "شيكاغو تربيون" إنه لو تراجع عن المناظرة سيُعد جباناً، فاستشاط غضباً، وأدرك أنه سيكسب كثيراً من مناظرته لنكولن، وبالتالي تصبح عملية إعادة انتخابه مضمونة تماماً، وراوده الأمل في أن يستفيد من الحملة بإعادة توحيد حزبه؛ في حين رأي الديمقراطيون من أهل الجنوب أنه رقيق جداً في تعامله مع معارضي العبودية أكثر من اللازم، كما كان مؤيديه من الشمال قد تقلصوا لأن الناخبين هناك اعتبروه مخلباً لأهل الجنوب. ومن ثم رأته أنه بهزيمة لنكولن في منافسة جدالية، يمكنه أن يجتذب كلا الجانبين، مما يضيف لمكانته ويعيد إحياء شهرته المعروفة. لذا، قالت إحدى صحف إيلينوي: "إن معركة الاتحاد سيخوضها الطرفان في إيلينوي."

وقد اتفقا بالفعل على خوض سبع مناظرات من أغسطس إلى أكتوبر ١٨٥٨، يستغرق كل واحد منهما حوالي ثلاث ساعات، ويتبادلان موقع من سيبدأ افتتاح كل جولة. وقد أخبر دوجلاس أحد أصدقائه قائلاً: "لسوف أذهب مالئاً جعبتي للقائه... فهو أقوى رجل في حزبه."

وقبل أسبوع من بداية المناظرات، تحدى دوجلاس لنكولن



لملاقاته في قتال بقبضات اليد، ذلك لأنه اشتعل غضباً عندما اتهمه لنكولن بالتآمر مع "سلطة ملاك العبيد" واستغلها لنكولن في إثارة ضحك المستمعين بقوله: "لقد ذكر شيئاً ما عن القتال بالملاكمة كما لو كان يشير إلى مواجهة قتالية أشبه بإجراءات حربية ظاناً أنها ستثبت من هو صاحب عضلات الأكثر." لم يكن ذلك ليجدي في حسم خلافهما حول قضية الرق،فخلف نكاته تقبع خطورة قاتلة، حيث ظل لنكولن يعتقد أن مشكلة العبودية يمكن حلها سلماً رغم كل الشواهد التي تثبت العكس.

كانت المناظرات دراسة في المتناقضات. فقد سافر دوجلاس في قطار خاصوصي وفي عربة خاصة مكدسة بعلب السيجار وزجاجات الخمر. وبدا في أبهة الرئيس ببذلته الزرقاء الجديدة وأزرارها الفضية والقميص القطني المكوي جيداً، وقد اصطحبته زوجته الجميلة الشابة آديل كوتس، التي كانت تصل لنصف عمره، خاصةً وأن الرجال أطلقوا عليها "أجمل امرأة" تقع عليها العين. بينما سافر لنكولن بالقطار العادي وكان عليه أن يعرف بعضاً من اهتمامات وطبائع جماهيره. كان يرتدي ملابسه "اليومية العادية" وهي معطف من الفرو الأسود بأكمام قصيرة جداً، وبنطال أسود أبرز عقبيه وقدميه الضخمتين. كما أن ماري "زوجته" لم تحصل على لقب "الأنيقة"، بل إنها مكثت بالبيت بناءً على أوامر لنكولن

لأنه لم يظن أن مظهرها الأرستقراطي يناسب منبته المتواضع.

ظهر التناقض أكثر وضوحاً عندما بدأ الحديث. تشابهت منصة المناظرة مع حلبة الملاكمة، حيث كانت منصة مرتفعة محاطة بلفائف الكتان والأعلام ترفرف على جنباتها. وبدلاً من وضع الكراسي في الأركان، تم رصها متجاورة بينها منضدة صغيرة، واندفع دوجلاس منطلقاً من مقعده كما لو كان مشوقاً لتسجيل نقطة في مرمى الخصم. كان مشاكساً وجريئاً تملأه الثقة وبدا غوغائياً في بعض الأحيان، "وتدافع صوته في نباح رتيب وحشي"، لكنه لم يفلح. أما صوت لنكولن فقد كان له تردد هائل، لكنه بدا حاداً ووصل إلى مدى طبقة الصوت الأعلى عندما يحتد. ولم يكن يدري ما يفعله بشأن يديه، فمرة يضمهما معاً وهو يتكلم "أولاً أمامه ثم من خلفه" ومرات أخرى يومئ بهما، لكنهما كانتا تتحركان بشكل أخرق كما لو كانت مفاصلهما جامدة، وأحياناً ما كان يلفظ مقطعاً صوتياً مع ثني ركبتيه كالمهرج، واعتمد على الإحساس العام بدلاً من اعتماده على الأسلوب اللغوي وعلى الروح الشعرية بدلاً من القتالية، وكان دائماً متمالكاً لنفسه.

اجتذبت معظم المناظرات جماهير ضخمة، منها عشرة آلاف في أوتاوا، وخمسة عشر ألفاً في فري بورت وحوالي سبعة آلاف في تشارلستون. وكان هناك عشرون ألفاً في جولزبرج واثنا عشر ألفاً

في كوينسي. وفي فري بورت تزاحمت الجماهير لدرجة أن المسؤولين اضطروا لاستخدام القوة لشق طريقهم نحو المنصة. كما قدمت شركات السكك الحديدية رحلات قصيرة بقطاراتها المزودة بالأعلام واللافتات، بل وسافر الناس بالقوارب البخارية وعربات الركوب أيضاً، وصحب بعضهم أسرته بالكامل. إذ كانت الأسر تعتبر حضور أي مناظرة بمثابة إجازة صيفية أو استراحة قصيرة مع نهاية موسم الحصاد قبل العودة لزراعة قمح الشتاء. وقد جمعت تلك المناظرات بين جاذبية جلسات المحاكم وبين إثارة حفلات موسيقى الروك؛ ولا عجب عندئذٍ أن تصل معدلات التصويت إلى ثمانين بالمائة إذ كان الناس شغوفين بالسياسة وبالخطب العامة، وكلاهما جاء في مشهد واحد.

كانت الحملة- بالنسبة لمن تابعوا لنكولن ودوجلاس- استعراضاً للأداء في الأساس لأدوارهما، لأن قضاياهما لم تتغير كثيراً. طعن لنكولن بشدة في عقيدة دوجلاس عن سيادة الشعب مؤكداً أنها سبب الانحدار الوطني الجذري وأنها جزء من المؤامرة الكبرى لتأميم الرق. أما دوجلاس، فقد أسمى لنكولن "المرتد" الذي رفض قرارات المحكمة العليا وأحد دعاة التحرير الذين سيدمرون الاتحاد.

وفي صلب الموضوع، يمكن تلخيص الاختلافات في أن القاضي دوجلاس يُعلي من شأن حقوق الأغلبية (الرجال البيض) بما فيها



حق رجل واحد في استعباد آخرين، بينما يدافع لنكولن عن (حق الأقلية) دون إخلال بالتراتب الطبقي القائم لأن رفع شأن المقهورين– بالنسبة له– يرفع من شأن الأغلبية، وهذان هما وجهتا النظر المختلفتان في الخبرة الأمريكية للطبقة البيضاء.

طوال المناظرات كان القاضي دوجلاس يسخر من لنكولن باعتباره صديق وحليف لفردريك دوجلاس. وكان لنكولن يستحق نوطاً من فردريك دوجلاس لمذهبه في تحرير العبيد، واستغل مدح دوجلاس له بشأن خطابه "البيت المنقسم" حيث كان لنكولن "التجسيد الكامل" لمباديء دوجلاس. وقد تناولت صحف الديمقراطيين مسألة دعم دوجلاس للنكولن، ودعاه فيها أحد المحررين "حليف لنكولن– ذلك الزنجي الذي خرج من أجله الرئيس." وأنكر لنكولن المرة تلو الأخرى أية علاقة له بالمساواة العرقية والزواج المختلط، واستنكر فكرة مساواة السود بالبيض، وقدم اقتباسا من الكتاب المقدس لتوضيح وجهة نظره، لأن المسيح علّم الحشود أمامه أن يكونوا كاملين رغم علمه أن كل البشر خطائين. وبالمثل فإن المبدأ القائل "إن كل البشر خُلقوا متساويين" كان مثالاً كي يجاهد الإنسان من أجله حتى لو لم يمكن تحقيقه، فصرح قائلاً: "لو لم تتمكن من منح كل مخلوق حريته، فدعنا لا نفعل شيئًا يفرض العبودية على أي مخلوق آخر!"

***

خسر لنكولن الانتخابات. لكن أداءه في تلك المناظرات رسخ شهرته الوطنية. وفي عام ١٨٥٩ بدأ قليل من مؤيديه يقترحون عليه الترشح للمنصب أعلى. وفي أواسط هذا العام، أخبر أصدقاءه: "أعتقد أنني لا أصلح للرئاسة." كان قد قال مثل ذلك منذ ثلاثين عاماً مضت حول احتمالات نجاحه كمحام، لكنه كان- الآن- على حق بشأن عدم صلاحيته بالمقارنة بأي رئيس آخر إذ كان غير مستعد كلية من حيث عدم حصوله على أي تعليم رسمي- نظرياً- ولكونه لم يقض سوى دورة واحدة غير ناجحة في الكونجرس وخسر انتخابات مجلس الشيوخ مرتين، وليس له أصدقاء في شرق البلاد، وكل حلفائه كانوا جميعا بالغرب؛ في حين كان المرشحون الجمهوريين مثل سالمون تشيز من أوهايو ووليام سيوارد من نيويورك من عمالقة السياسة مقارنة به، وكانت معهم قوة داعمة مؤيدة من الشمال.

لكن، بعد غارة جون براون في هاربرس فيري، بدا كل من سيوارد وتشيز فجأة كالسلع المستهلكة، لأنهما حازا شهرتهما كراديكاليين متطرفين بالفعل، وظلا لسنوات يقاومان تفعيل قانون العبد الهارب بشدة وصرحا بأنه غير دستوري. لكنهما الآن أصبحا في حالة اشتباه بالارتباط بالخيانة والقتل، وقد أطلق الديمقراطيون والجنوبيون على براون اسم "مخلب سيوارد" وأجبروا



سيوارد على سحب أطروحته "العليا" في القانون مثيرين الشكوك حول طبيعة شخصيته. كما أن تشيز كان يعرف براون ودعم توجهه الحربي، وكان قد منح براون خمسة وعشرين دولارا عام ١٨٥٦ وأوصاه بأن تكون لصالح "الثقة والاعتبار لكل من يرغب في رؤية كانساس ولاية حرة" .وفي العام التالي طلب براون من تشيز نقودا "من أجل العمل السري دون توجيه أسئلة" وأصبحت تلك التفاصيل صفحة أولى بعد غارة براون، وهدد الجمهوريون المتحفظون "بإغلاق الحزب" .

فجأة أصبح لنكولن أكثر جاذبية للناخبين بالشمال لأنه كان أكثر تحفظاً من سيوارد وتشيز، واستخدم هجوم براون فرصة لإثبات صحة عقيدته في القانون والنظام، وأن الطريق للتعبير عن "آرائنا بشأن العبودية ... سيكون عبر صندوق الاقتراع- الطريقة السلمية التي يقرها الدستور." ذلك ما قاله لجماهير كانساس في الأول من ديسمبر عام ١٨٥٩ . وبعد يومين، حذر جماهير الجنوب من انتهاك القانون بقوله: "إن الشيخ جون براون قد تم إعدامه بتهمة التآمر ضد الدولة ولا نستطيع الاعتراض حتى لو كان يتفق معنا في القول بأن الرق خطيئة، ولو أننا انتخبنا رئيساً بشكل دستوري، وقمتم أنتم- لهذا السبب- بتدمير الاتحاد ، سيكون واجبنا أن نعاملكم بالطريقة

نفسها التي عومل بها جون براون." فإعدام براون يشير إلى طريقة الاستجابة الصحيحة للخيانة.

بعد شهور قليلة- أي في فبراير ١٨٦٠- أصبح لنكولن شبه عرّاف وهو يصف آثار غارة براون، ففي أثناء خطابه بمدينة نيويورك قام بتشبيه براون، بالعديد من المتطرفين عبر التاريخ الذين حاولوا اغتيال زعماء أمتهم باسم ما هو أفضل، مضيفاً: "حين يرتكن الإنسان المتحمس إلى اضطهاد الحكم للناس حتى يتخيل أن السماء أوكلته لتحريرهم، يُقدم على مغامرة التي تنتهي بمصير قد لا يقل عن إعدامه"، وتم نشر الخطاب وتوزيعه على نطاق كبير، ومن اللطيف أن تتخيل جون ويلكس بوث، الذي كان يؤدي نفس الدور في ريتشموند، يقرأ ذلك الخطاب ثم يقذفه بعيداً في اشمئزاز.

كانت نبوءة لنكولن جزءاً من خطاب هام ألقاه في نقابة صُنّاع البراميل بمانهاتن، وكانت تلك رحلته الأولى إلى الشمال الشرقي. حضر لقاءه بعض من أهم الشخصيات المؤثرة في الحزب الجمهوري، ومعهم المحررون الصحفيون هوراس جريلي وهنري رايموند ويليام كولن برايانت ونوح بروكس. كان لنكولن يرتدي بذلة جديدة سوداء لهذه المناسبة مفصّلة جيداً عليه كلفتها ١٠٠ دولار. وقبل إلقاء الخطاب، مر على استوديو ماثيو برادي، أكبر مصوري الأمة، وجلس أمامه ليلتقط له صورة أظهرته كالرئيس واقفاً أمام أحد الأعمدة

وبيده كتاب، وينظر فيما وراء الكاميرا نظرة تأملية. كان ذلك "البورتريه" هدية جميلة لنادي وايداواكس"اليقظة الشاملة" وهو نادٍ لشباب الجمهوريين سُمّي بهذا الاسم لتوخيهم الحذر في مواجهة "سلطة أصحاب العبيد"، وكان رمز "نادي اليقظة الشاملة" عيناً واحدة واسعة، تشبه عين لنكولن مكبرة وهي التى ظهرت في صورة برادي.

كان خطابه ذلك رئاسياً، ويمكن قراءته كما لو كان موجزاً كتبه محام محنك ضد حكم دريد سكوت. وقد فند لنكولن حجج القاضي دوجلاس وقاضي القضاة تاوني الذي ادعى أن واضعي أسس الدستور قد أقروا نشر العبودية للأراضي الجديدة، قال ذلك لاجئاً لمحكمة الرأي العام. وقدم دليلاً يؤكد أن واحداً وعشرين صوتاً من تسعة وثلاثين (وهي أغلبية واضحة) قد صوتت لصالح إقصاء العبودية من البلاد، ولم يقل أحد منهم أن ذلك الفعل غير دستوري، بل إن القاضي دوجلاس وزمرته حوّلوا الدستور إلى وثيقة تبث الرعب في قلوب واضعيه.

أنهى لنكولن خطابه راجياً الجمهوريين أن يتماسكوا ويثبتوا في تسامح كريم مع الجنوبيين مثل الأب مع ابنه الضال، فقد أعاد الجنوبيون تهديدهم بالانفصال ما لم يحصلوا على ما يريدون، بالإضافة إلى أن ذلك الانشقاق سيكون خطأ الشمال. وقال:



"اهدأوا، فعندما يصوب قاطع طريق بارد (يقصد جريء) مسدساً إلى رأسي ويزمجر عبر أسنانه: قف وأعطني ما معك وإلا قتلتك!، وعندئذٍ ستكون قاتلاً". دعونا نتحلى إيماناً بأن الحق يصنع الحق!"
كان يأمل من موجزه هذا أن يهدئ من تهورهم. ونجح ذلك الخطاب نجاحاً مدوياً فتطايرت المناديل والقبعات في الهواء وتواصل التصفيق لعشر دقائق، وانفعل نوح بروكس محرر جريدة "النيويورك تريبيون" لدرجة أنه أسمى لنكولن "أعظم رجل منذ ظهور القديس بولس" وقال– وهو خريج مدرسة هارفارد للقانون:"لقد كان أفضل خطاب سمعته في حياتي." كما قال أحد المراسلين وهو يبدو متأثراً كذلك: "لم يقم رجل بإحداث مثل ذلك التأثير على جماهير نيويورك في أول لقاء له بهم من قبل." من هنا بيعت صور برادي ونسخ من الخطاب مع ملاحظات إيضاحية عليه بالآلاف، وفيما بعد قال لنكولن: "إن برادي "المصور" ونقابة صُناع البراميل جعلا مني رئيساً."

بعد شهور ثلاثة، صاغ شعاراً وسّع من من مدى جاذبيته أكثر. ففي بداية مايو عُقد مؤتمر لتحديد مرشحي الولاية بمدينة ديكاتور، وقد اجتمعت الوفود في كوخ كبير بيضاوي الشكل، وهو يشبه هيكل الحظيرة مسقوف بالقماش. شعر مدير حملة الولاية ريتشارد أوجليسبى أن لنكولن بحاجة إلى شعار مميز، فتوصل إليه بعد



التشاور مع ابن عم لنكولن- جون هانكس الذي كان ساعده في بناء السور لبيته بعدما انتقل إلى إيلينوي منذ ثلاثين عاماً خلت. في اليوم الأول للمؤتمر، سار هانكس وأوجليسبي عبر الممشى في الفناء وهما يحملان قضيبين من ذلك السور مزينين بالشرائط وتتدلى بينهما لافتة مكتوب عليها:

أبراهام لنكولن

مرشح قضبان السكك الحديدية

للرئاسة لعام ١٨٦٠

(هذان قضيبان من خطوط السكك الحديدية التي وصل عددها إلى ٣٠٠٠ قضيباً صُنعت عام ١٨٣٠ بيد توماس هانكس وأبراهام لنكولن، وكان والده أول الرواد في ماكون كاونتى.)

انفجرت الجماهير وهي تصفق بجنون، تقذف بكل شيء في الهواء في ثورة أطاحت بقماش السقف من أعمدته، حيث وصفها أحد الملاحظين بقوله: "لقد طار السقف- حرفياً- من المبنى حماسةً." تم استدعاء لنكولن للحضور إلى المقدمة وأقر بأنه "فعلاً كان ينشر عوارض السكك الحديدية، ويزرع قطعة أرض صغيرة" على نهر سانجامون بالقرب من ديكاتور ولم يكن يعلم إذا ما كانت تلك القضبان الخشبية هي التى صنعها أم لا، لكنه صنع العديد منها وأفضل منذ ذلك الحين.



بتلك الكنية- "نجار مشقق"- نافس كنيات شعبية مثل "شجرة الجوز العتيقة" للرئيس جاكسون و"الزورق القلاب"[19] للرئيس هاريسون في اجتذاب الشعبية. كان ذلك ما حدد صورة لنكولن الجماهيرية، ومعها صعوده من مقلب قمامة البيض الفقراء إلى مرشح للرئاسة، واعتناقه لمبادئ العمل الحر الذي يدعو كل إنسان "لتحسين أحواله" وفقاً لقوله. كان يمثل الصورة المكملة- كذلك- لمكافحة عدو يعتمد على قوة عمل العبيد من أجل بقائه.

أخذ شعور الشماليين من كل الطبقات بخطورة تنظيم "سلطة ملاك العبيد" يزداد. كانت السلع في طريقها لهبوط أسعارها، لكن سوق العبيد كانت تزدهر إذ تضاعفت أسعار العبيد في أقل من عقد واحد بينما بقيت أسعار الأراضي الخالية أو بضائع وول ستريت كما هي أو انخفضت مما حدا بالشماليين إلى إلقاء اللوم على نظام العبودية في أنه سبب هذه الظروف السيئة. وازداد الطلب على شراء العبيد حتى إن العديد من رجال الشمال بمن فيهم صديق لنكولن القديم أليكساندر ستيفن سعوا لإعادة سوق التجارة مع أفريقيا التي تم حظرها عام ١٨٠٨، فقام ملاك العبيد على الشاطئ الشرقي لماري لاند بتقديم تشريع لاستبعاد أو نفي كل السود الأحرار من الولاية.

---

[19] بالنسبة للرئيسين أندرو جاكسون وهنري هاريسون على التوالي - المترجم

أراد كثيرون من أهل الجنوب ضم كوبا كولاية للعبيد، وكان بعضهم أكثر جشعاً فطمع حتى في كل أمريكا الوسطى. وتحت قيادة النائب جيفرسون دافيز، كان مجلس الشيوخ بصدد إصدار تشريع يمنع الكونجرس من إقصاء العبودية عن أية ولاية، لأن المزارع الكبير جورج فيتزوف أراد نشر "منافع" الرق إلى الشماليين البيض، وفقاً لما قاله. ومع بدايات واقعة هاربرس فيري، جلب معظم أعضاء الكونجرس الجنوبيين أسلحة مخفاة معهم أثناء العمل، كانت عادة مسدساً أو سكيناً فقط "تستخدم عندما تخرج المنافسة عن السيطرة." وبدت صورة عامل شق القضبان الصبور والجاد والحاسم- رغم أفقه الابوي وإن كان رحباً- الصورة المناسبة أمام الشعب لاختياره رئيساً حتى بالنسبة للجنوب الشارد.

وفي ١٨ مايو، يوم اختيار الجمهوريين لمرشحهم للرئاسة، استيقظ لنكولن مبكراً وسار على قدميه مسافة قصيرة ليصل لمكتبه القانوني (المكدس)، وكان المؤتمر ينعقد في شيكاغو في فناء ضخم. لكن التقاليد كانت تمنع المرشحين من الحضور وكان عليهم البقاء بالبيت، فبقى عصبيا لدرجة منعته من مواصلة العمل. لذا، توجه إلى مكتب جريدة "إيلينوي ستيت"، المشهورة بأخبار الشائعات، وهناك كان بعض الأصدقاء يلعبون لعبة من العاب كرة اليد في فناء خال بجوار الجريدة فلعب معهم؛ وعندما بدأ التصويت ذهب إلى مكتب

البرق والتلغراف. وفي أول اقتراع حصل على ١٢٠ صوتاً وجاء في المرتبة الثانية بعد سيوارد، وفي الاقتراع الثاني تضاعفت أصواته- تقريباً- وفي الثالث تجاوز الأصوات المطلوبة كأغلبية وهي ٢٣٣ صوتاً، وبدأ الناس يهنئونه، وصافح القليل منهم ثم استدار عائداً للبيت قائلاً: "أيها السادة، هناك أمرأة صغيرة بالمنزل يحتمل أن تكون أكثر اهتماماً بذلك الخبر؛ أكثر- حتى- مني."

في اليوم التالي انخرط هو وماري في نقاش حول الخمر. فماري تصر على تقديمها للزوار لأن عدم تقديمها يُعد "قلة ذوق" بينما تجاهل لنكولن مطالبها مختتماً جداله قائلاً: "لأنها حافظت على المنزل ستة عشر عاماً ولم تمسك بيدها "كأساً من الخمر" أبداً ليشربه أصدقائي، كان قراري ألا أغير عاداتي بسبب مركزي الجديد بهذا الخصوص." على أية حال، اتضح أن ذلك الجدل لم يكن ضرورياً لأن منزلهما كان صغيراً لدرجة أنه لم يسع كل زوارهما. لذا هيئا مكتباً لذلك الغرض في مبنى الكابيتول.

كتب إليه صديقه القديم جوشوا سبيد ليهنئه، كان قد مر على فراقهما سنوات طوال بسبب انتقال سبيد إلى كيناوكي، وبسبب كراهيته للحزب الجمهوري وكذلك حقيقة أن ماري لم تحبه قط. في الواقع قد حدثت أشياء بدت أنها شعرت أن وجوده يهدد استقرار الأسرة بسبب وجرده أحياناً. من هنا نادراً ما كان لنكولن وسبيد



يرى كل منهما الآخر، وقليلاً ما كانا يتراسلان. شكلت ملاحظة سبيد تذكرة مؤثرة بأن الصداقة والحميمية يمكنهما التسامي على الاختلافات السياسية .حيث كتب له: "اسمح لصديق مخلص، ورغم كونك- كما تعرف- خصماً سياسياً، أن يهنئك ويحب أن يتم انتخابك، وأظن أن لديك فرصة عادلة لذلك، ويملؤني الارتياح أنك ستقود الحكومة وتصنع شهرة خالدة لنفسك."

كان أغلب مختلفاً ولو كان عَقَدَ حملته في ولايات القطن، فربما كانوا قد اعتقلوه أو أعدموه بدون محاكمة . وقد ألحت صحف الجنوب لهذا ولأكثر منه إذ نشرت شائعات تدّعى أن زميله من الانتخابات هانيبال هاملين من "مين" هو خلاسي مهجن بسبب سمرة بشرته، وأقسموا على الانفصال فوراً إذا ما تم انتخابه.

انزعج لنكولن من تلك التهديدات، إلا انه كان- حقيقة- يتوقع الفوز في الانتخابات لأنه كان سباقاً يسير في أربعة طرق فمع اختيار ديمقراطيي الجنوب لجون بريكنريدج وديمقراطيي الشمال للقاضي دوجلاس، واختيار حزب الاتحاد الدستورى لجون بيل من تينيسي الذى كان قوياً في ولايات الحدود. لذا، كتب لنكولن إلى هاملين يقول: "تبدو آفاق نجاح الحزب الجمهوري الآن متأرجحة جداً بقدر ما أرى."



ويوم الانتخاب ذهب إلى مكتبه في مجلس الولاية لمتابعة التقارير عن الانتخابات كان في الصباح قد ثرثر قليلاً مع "ثلاثة أو أربعة أصدقاء بهدوء وود كما لو كان في نزهة، " وفقاً لما قاله أحد المتابعين. وبدا لبعض المؤيدين أنه كان أكثر اهتماماً بالانتخابات المحلية عن انتخابات الرئاسة. لكن لتخفيف حدة قلقه كان يسأل عن بعض زملاء المحاماة داخل المقاطعة، وقد تبعه عدد كبير من الجمهور إلى قاعة المحكمة للإدلاء بأصواتهم، وهم يحيونه بحماس وتبعوه كذلك حتى مجلس الولاية عندما بدأت أخبار التصويت تصل. وكان قد نقل مكتبه إلى الحجرة التشريعية بالمجلس التي عمل بها طوال عشرين عاماً ماضية، وبعد دقائق قليلة من منتصف الليل وصلت برقية تفيد أن النصر كان أكيداً. هنا، رنت أجراس الكنائس وهرع الناس إلى الشوارع وهم يغنون "ابراهام العجوز . . ابراهام العجوز!" وقد صرح لنكولن بأنه كان سعيداً جداً، وبعدما طوي البرقية أسرع إلى منزله صائحا وهو يقترب: "ماري . . . ماري . . . لقد تم انتخابنا."

صرح أحد أعضاء الحرب الجمهوري بإيلينوي الانتخابات كشفت الدرجة التى نعيش بها في أوقات ثورية. لقد فاز لنكولن بكل أصوات الولايات الحرة عدا واحدة هي "نيوجيرسي"، لكنه حصل على أقل من أربعين بالمائة من التصويت العام على أصوات تزيد



بمقدار ٥٠٠٠,٠٠٠ صوت عما حصل عليه القاضي دوجلاس[٢٠] بينما لم يحصل "حتى على صوت واحد في عشر ولايات في الجنوب. كان ملاك العبيد يتحكمون في السياسة الوطنية لأكثر من جيلين كاملين، والآن انتهت سلسلة انتصاراتهم ، وذهب "سحر القوة التي لا تُقهر." وسيصبح لنكولن أول رئيس مناهضٌ للرق منذ جون كوينسي آدامز، فالثورة الكبرى قد هبت، وكتب تشارلز ابن جون آدامز في يومياته عندما علم بانتصار لنكولن: "لقد خلعت البلاد هذه المرة وللأبد سيطرة ملاك العبيد عن عنقها." وباقتباس كلمات فردريك دوجلاس: "إن البركان الخامد قد بدأ ثورته."

***

كانت قصص خرافات يعسوب مرشداً لاغنى عنه في مثل تلك الأوقات، لأنه وقد تم بيعه كعبد– وذلك في العصور اليونانية القديمة– باعتباره أسير حرب، كان يفهم طبيعة كل من العبودية والحرب، ويدرك نفسية المجتمع العبودي. وتكشف قصصه الخرافية مجتمعاً يمتلئ بالحقد والوحشية، حكامه من الطغاة، ويعتمد العيش فيه على المكر والاعتماد على النفس. وورنّ صدى قصصه حول الحيوانات في عالم ينحدر فيه البشر إلى مستوى الوحوش، ويعدّ قانون الغاب هو

---

[20] لو كانت النساء السوداوات قد استطعن التصويت لفاز لنكولن بصورة ساحقة – المترجم

وسـيلة للحيـاة. ولا عجـب إذن في أن يهـوى قراءتهـا لنكـولن ودوجلاس وعدد لا يحصى من الأمريكيين.

قرأ دوجلاس ولنكولن خرافات يعسوب وهما صغيرين واحتفظا بكثير منها في الذاكرة. وفي أعوام الثورة بدءاً من عام ١٨٥٠ خاصة. ساعدهما يعسوب في تحديد الجوانب المحورية للمجتمع الأمريكي. فكلاهما استمد العبرة من خرافة الأسد والثيران ا، حيث يثير الأسد الشقاق بين الثيران بالخداع ليسهل عليه أن يأكلهم واحداً واحداً، ويتراءى المبدأ الأخلاقي هنا واضحاً: "أن مملكة منقسمة على نفسها لا يمكن لها البقاء." كما اقتبس دوجلاس من خرافة أخرى ليصف الديمقراطيين وكذلك بعض الجمهوريين كذئاب في ثياب الحملان، وربما كانت أفضل قصصه هي قصة النحل الذي يطرد سيده.

وبصياغة جديدة ليعسوب، جذب كلاهما الانتباه إلى كونهما من العصاميين الذين صنعا أنفسهما بنفسيهما، فحيث أن خرافات يعسوب هى قصص للأطفال أصلاً، فالاقتباس منها يتشابه مع قيام رجل الدولة– الآن– بالإشارة إلى مرحلة قصة "باجزباني"، فإن ذلك يشير إلى الحصول على تعليم رسمي سيء أو عدم الحصول عليه مطلقاً. لكي تفلت من هذا عليك أن تكون خطيباً ماهراً ومفوهاً.



وقد استخدم كل منهما أساطير إيسوب كنصوص ساخرة مع سنوات الخمسينيات. وفي العقد السادس من القرن التاسع عشر هجر دوجلاس استخدام تلك الأساليب الرائعة الساخرة تقريباً، التي كانت تستدر انفجارات من الضحك، لأنه شعر أنها لم تعد ملائمة لموضوعاته فقال: "من أصعب الأمور التي كان على تعلمها أن أتوقف عن سرد تلك القصص الكثيرة المضحكة. لقد كنت أستطيع أن اجعل جماهيري تنفجر ضحكاً، وهم أحبوا ذلك... لكنني اقتنعت أن ذلك ينطوي على خطر التحول إلى مهرج، ويجب أن أحترس من ذلك." وحينذاك، كان يقوم بكتابة خطبه ويقدم نفسه على أنه مثقف ومفكر، دون أثر واضح للكنته العامية السابقة، وظل في إمكان الاقتباس من يعسوب أو مثل من الكتاب المقدس لإثارة الضحك،وإن كان بصورة أرقى وبدلاً من تقليد ملاك العبيد ذهب للسخرية من "سلطة ملاك العبيد".

واحتفظ لنكولن عادة بقصصه، الساخرة والكوميدية سواء من يعسوب أو من إبداع خياله لإلقائها أمام الجموع صغيرة العدد. كان خطاب "البيت المنقسم" الذي ألقاه يسخر من القاضي ستيفن دوجلاس وفرانكلين بيرس وروجر تاوني وجيمس بوكانان الذي صاغ إطار عصبة "سلطة ملاك العبيد"، وظلت افتتاحية الخطاب الشهيرة "بيت منقسم على ذاته لا يمكنه البقاء أبداً..." تدين في

وجودها لقصص يعسوب ولإنجيل مرقص (إصحاح٣: آية ٢٥) . لكن هذه السطور الوحيدة المعنى لم يكن مقصودٌ منها استثارة الضحك ولا حتى بجرد الابتسام. كانت قصصه لأصدقائه ومؤيديه تمتزج بشكل وإيقاع مزاجه الانفعالي.

لم يفقد لنكولن لهجته أبداً، ففي عام ١٨٦٢ سجل المحامي جورج تمبلتون ستروبج من نيويورك صوت لنكولن وهو يتحدث بلهجته العامية في يومياته بعد مقابلة أجراها معه، وكان لنكولن يستجيب لضغوط دعاة التحرير الذين دعوا إلى تشريع يعتق العبيد، فأجاب لنكولن: "كويس. دا بيفكرني بجماعة من الأشخاص التابعين للكنيسة الميثودية، ومسافرين في إيلينوي لما كنت صُغيّر هناك، وكان لازم يعبروا قناة، كان العبور سيئاً قبيحاً وانت تعلم، لأن الميه كانت عالية، وقعدوا يتناقشوا ويدرسوا أزاي هايعدّوا، وتكلموا عن الموضوع ده حوالي ساعتين. واحد منهم فكر إنهم يعبروا بطريقة معينة لما يوصلوا، وواحد ثاني فكر بطريقة ثانية، وبدأوا يتشاجروا حوالين الموضوع لحد ما اتدخل أخ كبير السن وقال: "أخواتي، الكلام ده هنا بدون فايدة، فأنا عمري ما هاعبر نهر . . . . إلا لما أوصل عنده." كان ستروبج يحترم لنكولن كثيراً وأسماه "البربري، والمحسن ، والمتوحش، وغريب الأطوار أو الغوريلا، فيما يخص مظهره الخارجي، لكنه أكثر أحساساً واستقامة بل هو غريب في

أماته. ويعوض تكامله الواضح وبساطة أهدافه عن أخطائه اللغوية وأكثر. تشبه تلك القصة يعسوب في التناقض بين القول والفعل ، و في "أنه خضع للاختبار."

كان أسلوب لنكولن الشعبي جزءاً مما استثار معزة دوجلاس له عندما تقابلا. وقد اعتاد ذلك النوع من قواعد اللغة ومزاح المرح، وكان صوت لنكولن– خاصة عند سرد إحدى قصصه– يوحي له بأن مع كل تلك الاختلافات بينهم إلا أن خلفيتهم الثقافية بها الكثير من العوامل المشتركة.

الفصل الرابع

مقاتلٌ من دعاة الغاء الرق ورئيسٌ للحرب

"في يوم الكفارة. . .

تعبرون صوت البوق

في جميع أرضكم."

(سفر اللاويين: إصحاح ٢٥: آية ٩)

في أواخر مارس من عام ١٨٦١، ومع انفصال سبع ولايات في أقصى الجنوب فعلاً واحتفال المتآمرين بولايات الكونفيدرالية الجديدة لأمريكا بحفلات فخمة، وخمور سيئة، وطلقات انتصار يصوبونها نحو السماء؛ فقد فردريك دوجلاس الأمل نهائياً في أن تحقق الأمة مثلها الجيدة أبداً. أخذ دوجلاس يخطط لرحلة إلى جمهورية السود في هايتي، وفقاً لما قاله لقراء جريدته، وعينه ترنو للهجرة إليها وتشجيع الأمريكيين السود على ذلك أيضا. وقرر أن يغادر ميناء نيوهافن بولاية كونيكتيكت يوم ٢٥ أبريل ويصل ميناء بورت أو برنس وهي عاصمة هايتي يوم ١مايو. ولو أوفت هايتي بآماله بأن تكون هي المدينة الجديدة التي "تقبع على قمة التل" ولو عكست على صفحاتها "أضواء الوعد العظيم" كانت حكومتها "حرة مستقلة في فعلها وقولها، عندئذٍ سينتقل إليها ويدعوها بكل فخر "موطنه". على الأقل سيزور المكان الذي شهد أضخم وأنجح تمرد للعبيد في العالم، حيث انتفض نصف مليون عبد عام ١٧٩١ ضد سادتهم وقاتلوا جيش نابليون، وفي عام ١٨٠٤ أعلنوا قيام جمهوريتهم حرة من العبودية للأبد. وعلى الأقل سيصبح جمال هايتي المداري فترة راحة محببة من رياح روشيستر المؤلمة. واستراح لفكرة السفر، وشعر كما لو كان حِمْل الأمة كلها قد انزاح عن كاهله، لأنه ظل

عشرين عاماً يخطب ويكتب المقالات مقاتلاً العبودية والعنصرية بكل ما أوتي من قوة، وشجع السود على الاقتداء به والنهوض والعمل المستمر. وقدم نفسه للعالم كرمز للأمل وأسوة يقتدي بها .الآن، بدت كل جهوده فجأة بلا جدوى، فأعلن بقلب حزين: "إن العبودية قد أفسدت عقل الحكومة، وضاعت الفضيلة من بين أيديها تماماً ."[٤] وإن أصدقاء الحرية قد فقدوا وسائل الدفاع عن أنفسهم "وإن التاريخ يبين أن الشمال لم يكن أبداً قادراً على الصمود في مواجهة سلطة وأهداف الجنوب."[٥] إن الجنوب مالك العبيد يمثل الشيطان بعينه، وثرواته شديدة الإغراء، وتهديداته مخيفة ومرعبة، ونفوذه مفسدة كبرى، والشيطان قد هزم الخير، وأن الله يأمر دوجلاس بأن يغادر تلك الأرض ليبدأ من جديد .

كان هذا تحولاً مذهلاً .إذ ظل دوجلاس– لسنوات طوال– يسخر من ملاك العبيد وهم يحولون أرض الشمال إلى حقول صيد من أجل متعة الجنوب. بل إنه أصبح أكثر آملاً عندما فتحوا أراضي الشمال أمام العبيد، وانتعش رجاؤه بعدما دنست الحكمة الانسانية العليا للأمة قدسية الدستور. كان قد انهى سيرته الذاتية الثانية أيضاً التي نشرت في أعقاب صدور قانون كانساس– نبراسكا بعهد يوثق عقيدته بقوله:"إن إيمان روحي بأن قضية معادات العبودية قديم كالتلال الراسخة، وثابت كعرش الله" .كان ذلك الكتاب من بين



أفضل الكتب مبيعاً وأكثر شهرة من كتابه الأول الذي صدر عام ١٨٤٥. وكان نجاحه- كما افترض هو- علامة ليس فقط على ارتقاء منزلته المتواصلة، واستمرار الاهتمام الشعبي بقدرته على إعادة بناء نفسه، وإنما هو أيضاً علامة على تصاعد عدم تسامح الأمة تجاه العبودية.

وبينما كان الآلاف من رفاقه السود يهجرون شواطيء أمريكا بحثاً عن أوطان أفضل، كان هو يقاوم ذلك الدافع. في الواقع،أنه كان قد تلقى منذ شهر فقط رسالة من أحد المشتركين بالجريدة يسأله ما إذا كان خطر له يوماً أن يهاجر إلى هايتي، فكانت إجابته حاسمة: "لا، أنا لا أفكر في الهجرة إلى هايتي في ظل أية ظروف قائمة أو محتملة أبداً." ما الذي أدى به لتغيير رأيه؟ وما الذي أغراه ليهجر إيمانه بأمريكا فجأة؟ الإجابة هي ذلك الرئيس الجديد أبراهام لنكولن.

لم يشعر دوجلاس بإحباط شديد كالذي شعر به عندما قرأ خطاب لنكولن الافتتاحي، حيث بث شكواه حول الخطاب بقوله: "إنه لا يختل كثيرٌ من أسوأ مخاوفنا، فبدلاً من إلقاء اللوم على الجنوب بجسم، قام لنكولن بالتودد إليهم."[٨] وأقسم أن يُبقى على قانون العبد الهارب، وأن يقمع انتفاضات العبيد، وألا يتدخل ابداً في شؤون



العبودية بولايات العبيد، ولنكولن هنا يؤكد لملاك العبيد أنه "كلب رائع لصيد العبيد"

والأسوء أن الخطاب تحدث بلسانين . فقد تم انتخاب لنكولن على أساس حظر العبودية "حيثما كانت، وحيث سيطمئن قلب الرأي العام للإيمان بالقضاء على العبودية مطلقاً" وذلك وفقاً لما نقله عنه دوجلاس، وأضاف أن لنكولن أكد وعده باحتواء العبودية لكنه مع النفس التالي مباشرة باع ذلك الهدف الأسمى بالقضاء عليها نهائياً .

كان الكونجرس قد مرر اقتراحاً يتضمن التعديل الثالث عشر المقترح للدستور بأمل استعادة خونة الجنوب للاتحاد من جديد .ورغم عدم التصديق عليه، إلا أن التعديل الثالث عشر الأول كان "حقيقة" مضادة تماماً للتعديل "الفعلى" الذي ألغى العبودية عام ١٨٦٥ . لقد كان ذلك تعديلاً غير قابل للتعديل يضمن العبودية في ولايات العبيد للأبد[٢١]، وقد أشار لنكولن له في خطابه الافتتاحي بقوله: "إنني أتفهم تقديم اقتراح بتعديل للدستور، يمرره الكونجرس يؤكد أن الحكومة لن تتدخل في شئون العبودية بولايات العبيد." وأنا لا أعترض على جعله واضحاً وغير قابل للإلغاء."

[21] لم يتم أي تعديل لدستور يرخص للكونجرس او يعطيه السلطة في أن يلغي أو يتدخل في أي ولاية وفي المؤسسات المحلية الخاصة بها، بما في ذلك الأشخاص المحتفظ بهم للعمل أو للخدمة بحكم قوانين الولاية المذكورة. - المترجم

يعد تصريح لنكولن بأنه ليس لديه اعتراض على التعديل عدم أمانة فكرية وأخلاقية، لأنه يتعارض مع إيمانه "بالقضاء النهائي على العبودية" فهو يوافق في الجملة الواحدة على استباحة الدستور. وبنفس الجملة فقد دوجلاس إيمانه بلنكولن وبالأمة.

كان ما استنتجه دوجلاس هو أن جزءاً من مشكلة لنكولن يكمن في عدم فهمه القانون بدقة، فهو قد آمن بمبدأ "القصد الأصلي" لصانع القانون مثلما كان دوجلاس قبل أن يتحول الإيمان بتفسير الدستور. "إن مقصد واهب القانون هو القانون ذاته." هذا ما أعلنه لنكولن في خطابه الافتتاحي الذى أدى به للدفاع عن قانون العبد الهارب وإلى تأييد التعديل الذي يضمن بقاء العبودية بولايات العبيد للأبد. وقد ردّ دوجلاس على ذلك بقوله: " هذا ليس صحيحاً بالضرورة . . . (فذلك) يعتمد على ما إذا كان القصد نفسه قانونياً أم لا." ففي نهاية المطاف وإن القانون الذي يصرح بالقتل ليس قانوناً على الإطلاق لأن "نفس فكرة القانون نفسها تحمل داخلها فكرة الحق والعدل والإنسانية." وقاول دوجلاس للنكولن: "أعد قراءة كتابات بلاك ستون، فإنه يذكرنا أن القانون "ينهانا عما هو خطأ." كان لنكولن يعرف ذلك أيضاً لأنه كان قد رفض– والسعادة تغمره– حكماً غيرعادل للمحكمة العليا في قضية دريد سكوت

وصرح بأن الانفصال يعد خيانة وهو "جوهر الفوضى" حتى لو اعتبرته المحكمة العليا "دستورياً وحقاً."

وبينما كان لنكولن متعاطفاً مع السود نسبياً، كان دوجلاس متعصباً عنصريًا قاسيًا ونموذجيًا، فكلمة "زنجي" تهدر من لسانه كالشلال (وليس هناك سجلات يذكر فيها أن لنكولن نطقها مطلقا) وأحب كذلك أن يُسَوقَ الأحكام المسبقة لدى الأمريكيين إعتسافاً. وكان من أساليبه المفضلة في إهانة خصومه أن يدعو الخصم بلقب "صديق فريد" دوجلاس، وكان هاجسه إزاء فردريك دوجلاس شخصيًا على ما يبدو رغم أنهما لم يلتقيا، لقد تشاركا نفس اللقب حتى عام ١٨٤٦، عندما قام ستيفن بحذف حرف السين الثانية من نهاية اسمه، ربما كرد فعل لشهرة فردريك دوجلاس (بتشديد السين) الفجائية عقب نجاح كتابه " قصة حياة فردريك دوجلاس". فدوجلاس الأبيض أراد أن يتأكد أن أحداً لن يخطئ في اسمه على أنه دوجلاس الأسود. كان في الحقيقة يكره تماماً رؤية السود. في حين كان لنكولن – على العكس- يشعر بالارتياح بقربهم. رغم اختلافاته السياسية معهم، بل أنه وصف نفسه على أنه " الزميل الطويل الأسود" لأحد قدامى المعارف.

وحتى على مستوى العلاقة الشخصية كانا خصمين عنيدين، وكان أحد أصدقاء س. دوجلاس المقربين خاصة عند زفافه، هو



جيمس شيلدز، وخصم لنكولن وصاحب واقعة المبارزة بالسيف.
ومثل شيلدز ظن س. دوجلاس نفسه " زير نساء"، وأخذ يتودد – حتى لماري تود قبل أن تتعرف على لنكولن. كان أهالي سبرنجفيلد يرون ستيفن دوجلاس وماري تود يتنزهان حول المدينة أو يتحدثان أثناء حفلة ما، ولأنهما كانا يتشابهان في المزاج والحجم كان واضحاً ميلهما لبعضهما، لكن تقرب س. دوجلاس لم تتطور لتصل إلى عرض الزواج، لأن ماري كانت كثيرة الإعجاب بالحزب المحافظ فلم تسمح لنفسها أن ترتبط بعضو ديمقراطي مهما كان ناجحاً.

كان س. دوجلاس المنافس غير المعروف للنكولن طوال سنين عدة، وكانا قد تقابلا عام ١٨٣٤ عندما كانا في العشرين من عمرهما. وفي عام ١٨٤٠ خلال حملة انتخابات الرئاسة سمع لنكولن وحاول أن يرد على كثير من خطب س. دوجلاس، داحضاً " ألاعيبه وتورياته " بالحقائق والمنطق. إلا أن لنكولن لم يعتبره خصماً رئيسياً له صراحة أو يضع نفسه مقابله حتى عام ١٨٥٤ وعندما أصبحت تشريعات كانساس – نبراسكا قانوناً معتمداً. وبعدئذ مر لنكولن بفترة صحو كما لو كان غضبه من انتشار الرق وفشله المتكرر كسياسي قد تجسدا في ستيفن دوجلاس، وزادت صورة شخصيته وضوحاً من خلال وضوح صورة خصمه. فجأة أصبحت

قضية الرق هي أعظم قضايا حياته وأضحت أهدافه السياسية أكثر تركيزاً. وهي تحدي س. دوجلاس وهزيمته كيما يضع العبودية على طريق الإلغاء النهائي. ولتحقيق ذلك كان يحتاج إلى قفزة كبرى للأمام في مسيرته السياسية دون التضحية بمبادئه.

وأصبح س. دوجلاس يمثل للنكولن ما كان يمثله أندرو جاكسون لهنري كلاي وجون كالهون لجون كوينسي آدامز، ومُلاك العبيد لفردريد دوجلاس، أي خصومة واسعة لأقصى حد يجذب فيها الإنسان خصمه في مداره وبدوران حول مركز مشترك من العداء، يمنحهما قوة وحيوية.

وبدأ لنكولن يعتبر نفسه خصمًا لستيفن دوجلاس فور إصدار قانون كانساس – نبراسكا فكتب: "كنا كلانا طموحين كشباب، ربما كنت أماثله تمامًا وكان سباق الطموح فشلا بالنسبة لي، أما بالنسبة له فكان نجاحاً مدوياً، فملأ اسمه الأسماع، أصبح معروفاً حتى في الدول الأجنبية، ولم أكن لأحتقر أية نجاحات وصل إليها، تلك النجاحات التي وددت تقاسمها مع المظلومين من جنسي، فذلك أفضل كثيراً من كل كنوز الأرض. واعتمد النجاح السياسي للنكولن على إيقافه لانتشار العبودية فربما تختفي يوماً ما إختفاءاً طبيعياً، بينما كان النجاح بالنسبة لستيفن دوجلاس يخدمه هو فقط ومن هنا فطموحه كان للتمتع بالفخامة وبمبادئ لا تنبع من حزبه الديمقراطي.

وأدرك لنكولن أن عليه هزيمة س. دوجلاس للارتقاء بالمضطهدين ولتحقيق طموحاته كذلك، وأوصله تحديد موقفه مقابل خصمه بهذا الأسلوب إلى البيت الأبيض عاجلاً.

***

وباعتماد القانون الذي قدمه ستيفن دوجلاس وهو قانون كانساس – نبراسكا غيّر تقدم البلاد ومصيرها، أو هكذا اعتقد لنكولن، وذلك كان السبب الذي من أجله يجب أن يقهر خصمه. وأصبح العام ١٨٥٤ ليكون نقطة ارتكاز تاريخية بالنسبة إلى لنكولن. فقبل ذلك التاريخ كان يعتقد ومعه معظم الشماليين "أن الرق في سبيله للانتهاء من حياة الأمة" فمنذ تأسيس الأمة إلى إن تم اعتماد قانون كانساس – نبراسكا- كان "العقل العام" يرى أن الأمة تتقدم بشكل أخلاقي. وكان رسمها البياني يتصاعد ببطء، ونتيجة لهذا بقي لنكولن هادئاً نسبياً بشأن قضية العبيد لأنه آمن أن تلك المشكلة لو تم احتواؤها بهدوء سوف تموت موتاً طبيعياً وتُقر الجماهير بفضائل العمل الحر مقابل شرور عمل العبيد وافتراض أن عدد ملاك العبيد سيقل بمرور الزمن. إن الحد من عرض الأراضي سوف يستهلك تربة الأراضي الجنوبية ويوقف قدرة مُلاك العبيد على استثمار المزيد من أملاكهم. وفي النهاية يقل الدافع إلى امتلاك العبيد، مما يؤدي بهم إلى إدراك تلك الشرور وإنهائها.



وسُئل كم ستستغرق العبودية من وقت كيما تنتهي بذلك الأسلوب العضوي؟ فقال لنكولن في عام ١٨٥٨ ، " لا أظن أنه من خلال أكثر الوسائل سلماً أن يحدث ذلك قبل مائة عام على الأقل" (العقد السادس من القرن العشرين) . وآمن أن نهاية آمنة للعبودية في " وقت يحدده الله " هي الحل الأمثل " لكلا العرقين" . وكان فردريك دوجلاس وبقية دعاة التحرير يؤمنون بأن الله أراد أن تكون نهاية العبودية في الحال، لكن إله لنكولن لديه صبر أكثر وغموض أعمق. وحرف س. دوجلاس تلك الرؤية المتعلقة بالتقدم عن مسارها، فوقع ميثاقا شيطانيا مع الجنوبيين، وألغى قانون كانساس- نبراسكا الذي قدمه توافق ميسوري الذي حظر امتداد العبودية شمال خط ٣٦,30 في أراضي لويزيانا . وفجأة لم يعد مصير الأمة يسير في مسار صاعداً في طريق التقدم الأخلاقي. ولقد بلغ ذروته وهو حاليا يتراجع. كانت الولايات المتحدة تنحدر. وشعر لنكولن فجأة أن الطريق الوحيد الذي يمكنه به رواية القصة هو الذي يصور صعودها وانحدارها، آملاً أن يحشد ذلك الجماهير لإعادة الأمة إلى مجدها السابق.

وقد أتفق الكثيرون مع لنكولن على الإيمان بأن قانون كانساس – نبراسكا الذي صاغه سيفن دوجلاس كان علامة على عصر جديد من الانحدار، فاندفع الحزب الجمهوري في يقظته الفورية يوحد

جماعاته المتشرذمة من الشماليين في ظل هدف واضح وهو منع انتشار العبودية، ووافقوا لنكولن عندما قال هناك " فارق شاسع بين التسامح مع وجود العبودية وبين محاولات نشرها عبر أراضٍ " هي بالفعل حرة ولم تتلوث بعد هذه المؤسسة".

وصاحوا مؤيدين " ما تقوله صحيح " عندما قال" فلنكن صرحاء، أن روح ٦٧ وروح قانون كانساس – نبراسكا الذي صاغه القاضي س. دوجلاس متناقضتان تماماً والروح الأولى تم استبدالها بالروح الأخيرة" وقد صفقوا له كثيراً عندما تحدث عن كراهيته الشديدة للعبودية ومدى شرورها.

ولم تكن المسألة بالضرورة هي تعاطف الشماليين مع السود، خاصة في إيلينوي. وإنما أن كراهيتهم للعبودية كانت انعكاسا لخوفهم على رفاهيتهم. وقد هدد الجنوبيين الأقوياء بتحويل أراضي الشماليين إلى ولايات للعبيد، وبتزايد فروق قيمة الأرض وويخلون منافسة غير عادلة مع مُلاك العبيد، ويدمرون فرصتهم في التقدم وكان معظم الشماليين مثلهم مثل الجنوبيين يعتقدون أن الحصول على الأراضي الجديدة شرط مسبق للنمو الاقتصادي والعصامية. ولكنهم أرادوا أيضاً أرضاً لم تلوثها العبودية التي تمنع العمال الأحرار من أن يصبحوا " صالحين بكفاءة للحياة" كما لاحظ لنكولن بقوله،

"أنه ربما تكون أجيراً اليوم ،لكن بالحصول على الأراضي الخالية سيمكنك الاستمتاع بثمرة عملك على الفور."

وعقب صدور قانون كانساس –نبراسكا (الذي أصبح قانوناً في مايو ١٨٥٤، جذبت خطب لنكولن " انتباه الناس بصورة أكثر تميزاً عما فعلته من قبل". وواصل هجومه، سعيداً بشعبيته الجديدة، مسدداً ضرباته للقاضي دوجلاس كالملاكم الذي يسدد ضرباته نحو خصمه بسرعة ويتراجع، ويرهقه ببطء حتى الانهيار. وفي خريف عام ١٨٥٤ رشح نفسه للمجلس التشريعي للولاية ونجح بسهولة، وفي الحال تطلع إلى ما هو أعلى، إلى مجلس شيوخ الولايات المتحدة نفسها. لم يكن شاغل هذا المكان سوى خصمه القديم صاحب السيف العريض جيمس شيلدز، ساعد س.دوجلاس الأيمن الذي عاونه على تقديم قانون كانساس – نبراسكا. وأصبحت هزيمة شيلدز ضرورة ليتساوى لنكولن مع القاضي دوجلاس، حيث يستطيع محاربته من أجل مصير الوطن. وكعضو في المجلس التشريعي كان يمتنع عليه الترشح لمجلس الشيوخ، فاستقال من مقعده، الذي كان فاز به حديثاً كيما يواصل كفاحه ضد شيلدز و س.دوجلاس.

كان توقيت لنكولن سليماً تماماً، لأن الشماليين كانوا غاضبين من س.دوجلاس لقيامه بفتح أراضيهم أمام العبودية، وعندما عاد

القاضي إلى إيلينوي في خريف ١٨٥٤ ليقود حملة ترشيح شيلدز وباقي الزعماء الديمقراطيين، أدرك على الفور مدى الكراهية الموجودة في نفوس مواطنيهم حيث قال: "كنت استطيع السفر من بوسطون إلى شيكاغو في لمح البصر اعتمادا على شهرتي". وفي بداية حملته الجديدة في شيكاغو، وأثناء إلقاء خطابه قابله الجمهور بالصياح والصفير وصرخات الاحتجاج بمجرد صعوده منصة الخطابة، ورماه بعض المشاهدين بالبيض الفاسد والحجارة، وفي كل مرة كان يحاول فيها فتح فمه ليتكلم" تعود الثورة ضده من جديد "، ففقد صبره وأخذ يلوح بقبضته في وجه الجماهير " فزادت الجلبة صخباً ". وحاول عندئذ إسكات الضوضاء كأب بلغت به الثورة على ابنه الصغير حد الانفجار، لكن الجماهير واصلت الصياح. وتحمل الإهانات طوال ساعتين منتظراً أن يفقد الناس طاقاتهم أو يدركهم التعب كيما يشرح لهم مزايا قانون كانساس – نبراسكا، لكن الجماهير لم تهدأ أبدا. لذا هبط من المنصة – أخيراً – ليلجأ إلى فندق ترعونت هاوس الفخم حيث يمكن للمرء أن يتخيل كيف كان يريح نفسه من العناء بتناول زجاجة أو اثنتين من الخمر.

وخلال الحملة تتبع لنكولن س. دوجلاس ككلب صيد يسعى وراء فريسته الجريحة. فتبعه من بلدة إلى أخرى، والقاضي يتوسل معونة المخلصين له من الديمقراطيين، وكان يتحداه في كل موضوع

يـثيره: "قيـادة الـشعب" تعـبير لطيـف يختفـي وراءه تحـالف س.دوجلاس مع الجنوبيين للوصول إلى السلطة، ولو بلغ توافق توافق ميسوري، في حين حقق ذلك قانون كانساس – نبراسكا، هادماً عمل ثمانين عاما من القوانين التي كانت تحكم العبودية على الأرض، وانتشرت تسمية س.دوجلاس التي أطلقها على الحزب الجمهوري الجديد بأنهم " الجمهوريون السود"

وكانت النقاط الوحيدة التي اتفقا عليها تدور حول دور السود في المجتمع الأمريكي. فقد أقتبس لنكولن من كلمات القاضي دوجلاس قوله: "إن تلك الحكومة قد أنشئت من أجل البيض لا من أجل الزنوج" ولماذا ؟ في الواقع لأنني أرى هذا الرأي أيضاً. ووافق س.دوجلاس في معارضته لمنح السود حق التصويت في إيلينوي ومنع الاختلاط والزواج العرقي. ولكنهما اختلفا حول قضايا عرقية أخرى. فكما أكد لنكولن، فإن س.دوجلاس رفض الإقرار باعتبار السود بشراً ولذلك فإنه لا يشعر بالندم الأخلاقي في "عما إذا كان وطن جديد سيكون للأحرار أم للعبيد" تحدث لنكولن عن " الكتلة الأكبر من البشر الذين يتبنون وجهة نظر مختلفة تماماً " والذين يعتبرون العبودية " خطأً أخلاقياً جسيماً " ومعارضتهم لها ليست أمراً عارضاً بل موقفاً ثابتاً، ويكمن ذلك في أساس إحساسهم بالعدل. أراد لنكولن الارتقاء بالمقهورين دون هدم التراتب العرقي.

إنضم فردريك دوجلاس للنكولن ولباقي معارضي الرق في خريف عام ١٨٥٤ . كان يعرف أن الديمقراطيين في الجزء الشمالي من الولاية خاصة معرضون للمضايقة من قبل الجمهوريين، لذا جاء يصحبه جوشوا جيدنجز وسالمون تشير وبعض دعاة التحرير السياسين الآخرين لتأييد لنكولن وغيره من المرشحين المعادين للعبودية .ليس هناك أي تسجيل للقاء دوجلاس ولنكولن، لكن ربما كان ذلك بسبب أن لنكولن لم يرد أن يظهرا معاً للعيان لأن ارتباطه برجل أسود من دعاة التحرير قد يفسد فرصة نجاحه. وقد هاجم فردريك دوجلاس القاضي دوجلاس بمهارة وسخرية عاليتين، وامتلأ دوجلاس الأبيض بالغضب الشديد لظهور دوجلاس الأسود (كما أسماهما أحد الصحفيين) لدرجة أن القاضي الغي برامج لقاءاته في أورورا لأن الخطيب المفوه (فردريك)خطط للحضور هناك للرد مباشرة على خطبه. وأبدى فردريك دوجلاس اهتماما خاصاً بستيفن دوجلاس وكان اهتماماً طبيعياً حيث قال" لا أحد يقبل أن يقرأ في صحيفة ما خبراً عن شنق رجل يحمل اسمه تماماً(مشيرا لصور ورموز السيناتور التي أدانها الشعب) .ونظراً لأن ستيفن كان يعتبر نفسه آنذاك "أكثر رجال الولايات المتحدة معاناة من سوء المعاملة، كان فردريك دوجلاس يأمل أن يتعلم التعاطف مع الملايين الثلاثة من العبيد الذين يعانون من سوء معاملة ارتكبها الرجال الذين

كان دوجلاس متحالفاً معهم. وأكد على أن قانون كانساس – نبراسكا قد خلق حالة من الحسم يجب إن يحدث فيها واحد من الأمرين :" إما إن يتخلى الجنوب عن العبيد أو أن يتخلى الشمال عن الحرية.

لم يصل لنكولن لذات النتيجة تماماً، إلا أنه بعد خطاب دوجلاس بشهور قليلة أثار سؤالاً مشابهاً هو" هل يمكننا، كأمة، أن نستمر للأبد ونصفنا من الأحرار ونصفنا الآخر من العبيد ؟" أن المشكلة أكبر مني كثيراً، فلعل الله برحمته يدبر لها حلاً. وسرعان ما اتفق مع دوجلاس.

هزم لنكولن – تقريباً– غريمه جيمس شيلدز،لأنه حاز المركز الأول في المرحلة الأولى من التصويت في مجلس الولاية الذى ينتخب (الشيوخ) بأربعة وأربعين صوتاً مقابل واحد وأربعين لشيلدز. لكن الفائز كان يجب أن يحوز الأغلبية العامة للأصوات (بديلاً عن الأغلبية البسيطة)، فأدرك لنكولن أنه لكي يمنع فوز أحد مؤيدي العبودية عليه أن ينقل أصواته لصالح عضو ديمقراطي آخر معارض للعبودية – كان قد حصل على خمسة أصوات فقط من الجولة الأولى. لذا قال:" كان من الصعب لمن حصل على ٤٤ صوتاً أن يضطر للتنازل لمن حصل على خمسة فقط، ولو كان هذا رجلاً أقل تبسطاً مني ربما ما وافق على ذلك . . . . . . .لكنني– على أية حال – ما

كنت لأترك النتائج السياسية برمتها تتعرض للضياع بسبب شخصي يعود مرجعه إليّ " .

ورغم ذلك خسر لنكولن الانتخابات، إلا أنه أنجز عدة أشياء . فقد ساعد ومعه فردريك دوجلاس في إفشال خطة الديمقراطيين مؤيدي العبودية، في إيلينوي. فحينذاك كانت خطب لنكولن أكثر حسماً عما مضى وبدأ قليل من الصحفيين المعارضين يعترفون به " خطيباً رائعاً وواحداً من أكفأ الجمهوريين .

كما بدأ ينال بعضاً من الانتشار القومي بسبب هجومه على القاضي دوجلاس. ولم تبدأ مناظرات دوجلاس – لنكولن الرسمية حتى عام ١٨٥٨ . لكنه في الحقيقة كان قد بدأ الجدل معه من خريف ١٨٥٤ بعد أشهر قليلة من اصدار قانون كانساس – نبراسكا .

كان القاضي دوجلاس منافساً خطيراً في انتخابات الرئاسة لعام ١٨٥٦، ففي اجتماع ترشيح ممثل الحزب الديمقراطي للرئاسة، وصل هو وجيمس بوكانان إلى موقف شديد التعقيد بعد المحاولة السادسة عشرة للتصويت ولم يحصل أي منهما لتأمين الأغلبية المطلوبة إلا أن بوكانان كان قد حاز أصواتاً أكثر، وكان أكثر رغبة في تمثيل الجنوب من دوجلاس، لذا فعل مثل ما فعله لنكولن قبل عام مضى ' فأصدر

تعليماته لمندوبيه بالتصويت لبوكانان بقوله" إن السيد بوكانان، في رأيي، يستحق الترشيح".

ارتحل لنكولن عبر الولاية كلها داعياً للمرشح الجمهوري جون فيرمونت. كانت إيلينوي ولاية متأرجحة، واعتقد معظم المثقفين أنه لو تحولت هذه الولاية ومعها بنسلفانيا لصالح الجمهوريين، سوف يفوز فيرمونت. وألقى لنكولن أكثر من خمسين خطاباً وسط جماهير تصل إلى خمسة وثلاثين ألفا في مدينة ألتون وإلى عشرة آلاف في برنستون مثلاً. (وكان له هو ودوجلاس حنجرة قوية)، وأكد أن الفارق بين فيرمونت و بوكانان، هو أن الأخير أراد أن يمد ظلال العبودية إلى الأراضي الجديدة " التي هي الآن حرة بالقانون " لكن فيرمونت لا يريد لها ذلك، " تلك هي الحقيقة المجردة بكل ما فيها". وبتحديد الحملة في ذلك الإطار أنكر أن الجمهوريين كانوا حزباً اقليمياً يعادي الجنوب.

حاول حقيقة أن يتجنب إثارة النعرات الاقليمية . فلم يذكر شيئاً عن الحرب الأهلية التي كانت تستعر – عندئذ – في كانساس وبرستون والتي صدمت مشاعر تشارلز سومنر. ودافع عن فيرمونت ضد اتهامه بأنه كان وغداً وكاثوليكياً خفياً ومتطرفا أراد إلغاء قانون العبد الهارب، وإلغاء العبودية في الولايات. فقد كان القاضي دوجلاس ومؤيدوه يسعون إلى استقطاب الناخبين بالقول أن

فيرمونت لو فاز فسوف يتفكك الاتحاد . إذ هددت بريستون بروكس، التي كانت تتصاعد ثقتها مع كل انتصار تحققه، بغزو واشنطون إذا نجح فيرمونت في الانتخابات وأن "تبسط اليد القوية لرجال الجنوب الأحرار على خزانة وسجلات الحكومة." وقد حذرت تقارير كثيرة من أن العبيد عبر بلدان الجنوب كانوا يخططون لثورة شاملة تتزامن مع الانتخابات. واعتقد الناس انه في حالة فوز فيرمونت، فإ ن العبيد سوف يعلنون " ثورة دموية " في الحال، كما قالت جريدة شمالية. وملأت هذه القصص قلوب الشماليين بالرعب لكنهم واصلوا منح الأصوات لفيرمونت أكثر من أي مرشح آخر، واكتسح بوكانان مناطق الجنوب كما فاز بأصوات الولايتين المتأرجحتين إيلينوي وبنسلفانيا .

وبينما كان لنكولن يدعو إلى مناصرة فيرمونت في مدينة جالينا ، أقسم أن يدعم الدستور وأن يحترم سلطات المحكمة العليا . ورداً على مقولة أن حظر العبودية أمر غير دستوري، قال: "أنني أؤكد لكم وأضمن ألا يصبح أي تصرف غير دستوري قانوناً" لكنه رفض قبول تفسير الديمقراطيين للدستور، مضيفاً "إن المحكمة العليا للولايات المتحدة هي جهة الاختصاص التي تقرر هذه المسألة، ولسوف نمتثل لقراراتها" .

بالطبع كان سيتمسك بالقانون الأعلى للبلاد. ولم يكن هناك أي سبب للظن أنه لن يفعل، حيث كرس مسيرة حياته للدفاع عن القوانين التي وضعها الإنسان، وكان يعارض "القانون الأعلى" الفوضوى الذي يطرحه دعاة تحرير العبيد. وما كان لينضم إلى الحزب الجمهوري لو أنه دعا " للقانون الأعلى" أو تنكر لقانون العبد الهارب. لأنه تربى على اعتقاد راسخ انه بدون المحكمة العليا " يصبح الدستور خطاباً ميتاً. وقضت المحكمة في القضايا القانونية الكبرى بتلك الفترة، حيث صرح قاضي القضاة جون مارشال سلف القاضي تاوني في قضية ماربورى ضد ماديسون عام ١٩٨١ أن أحكام المحكمة العليا تعد قانوناً أعلى" " يجب أن يعلو سلطة " الكونجرس والرئيس.

وقد قبل صناع القانون ذلك. وبالنسبة لأغلب الأمريكيين لا تعد أحكام المحكمة العليا مفسرة للدستور بقدر ما هي كاشفة له، وبدلاً من إعادة صياغة القانون، فإنها تحدد كنهه. لكنهم اعتمدوا أيضاً - وذلك ما لاحظه الفرنسي اليكسيس دوتو كوفيل - على الرأي العام مثلما لاحظ اليكسيس دوتو كوفيل الفرنسي بجلاء إذ لو أنهم تصرفوا دون حكمة " لأغرقوا البلاد في الفوضى أو الحرب الأهلية".

وهذا تماماً ما حدث. فبعد ثمانية أشهر من قَسَمِهِ أن يتمسك بقرارات المحكمة العليا، ناقض لنكولن نفسه. ففي مارس عام ١٨٥٧

أصدرت المحكمة قرارها في قضية دريد سكوت الذي أعلن بأن برنامج الحزب الجمهوري غير دستوري، وأخرج لنكولن ومعه الجمهوريون ألسنتهم للمحكمة، لأنهم ازادوا صخبا مطالبين - حتى - باستبعاد الرق من البلاد. وحينذاك طالب لنكولن بأن يُعد ذلك الحكم أمراً غير دستوري قانوناً. إذ كان يرى أن المحكمة لم تدرك أن العبودية تُعد شراً - يتعين احتوائه - وأنها لم تفهم بشكل سليم أيضاً- القانون الطبيعي الذي يقول أن "جميع البشر خلقوا أندادًا". فمؤسسو الدولة عنوا ما قالوه قصداً ولنكولن يؤمن بإخلاص أن الله يعتبر الرق خطيئة :" إن أبانا الطيب في السماء " جعل شرور العبودية "واضحة لدرجة أن "الجميع يشعر بها ويدركها، نزولاً حتى المتوحشين والحشرات الزاحفة. لكن المحكمة رددت آراء القاضي دوجلاس بتجاهلها عدم أخلاقية الرق، مدعية إن مبادئ ومثل إعلان الاستقلال هي " أكاذيب بديهية".

ورفض لنكولن المحكمة العليا كأعلى سلطة في البلاد.

وفجأة أخذ يعتمد على مبدأ القانون الطبيعي " أو الأعلى " واتبع الطريق الذي كان قد سلكه فردريك دوجلاس منذ زمن بعيد، وكان ذلك تحولاً مذهلاً عن ادعاءاته القديمة منذ عشرين عاماً خلت، في خطابه بقاعة محاضرات " الشباب "، عندما حرض الناس على الالتزام بالدستور واحترام القانون. لقد ظل يفكر دومًا

كمحام، وأظهر دائماً احترَاما للقانون وللسوابق القانونية، وكان يرتعد لمجرد فكرة تجاهل القانون ومقاومة الأحكام العليا في الوطن. لكنه الآن يتنكر للدستور وللسوابق القانونيـة، ويحدد أن وثيقة إعلان الاستقلال هي محور ارتكاز الحكومة. وقد اقتبس على نحو ملائم فقرات من الكتاب المقدس لتوضيح معتقده الجديد في مبدأ القانون الطبيعي، فإعلان الاستقلال يمثل تفاحة ذهبية داخل صورة الدستور الفضية، وفقاً لما كتبه مضيفاً :" أن الصورة صنعت للتفاحة ولم تصنع التفاحة من أجل الصورة".

ومن المفهوم طبعاً أن القاضي دوجلاس هاجم لنكولن وحزبه بسبب مقاومتهما الجريئة للمحكمة العليا. وأنكر لنكولن ذلك بقوله " أننا نؤمن مثل القاضي دوجلاس وربما أكثر بطاعة واحترام الهيئة القضائية بالحكومة "، في خطابه بسبرنجفيلد، الذي طبع ووزع توزيعاً كبيرا. غير أنه ظل يصف حكم دريد سكوت بأنه كان"مغالياً في الخطأ "، وأقسم أن يبذل ما في وسعه كي يجعل المحكمة تبطل حكمها ذلك فشجعه رفاق حزبه وصفقوا له على تحديه للمحكمة. بادر القاضي دوجلاس بالهجوم عندما أستشعر احتدام المعركة، وأخذ يسأل مشاهديه من الديمقراطيين ساخراً :" إن المحكمة العليا هي أعلى سلطة قضائية، وأسمى هيئة قانونية على الأرض، بينما نجد السيد لنكولن في طريقه لاستئناف حكمها ؟."

فتضاحكوا ولنكولن يبدو مرتبكاً .

ربما أراد لنكولن أن يجيبه "نعم أريد أن أستأنف إلى الله الأعلى قرار المحكمة العليا " لكن ذلك لم يكن مجدياً من الناحية السياسية، إذ كان يعرف أن مناداته بفرضية القانون الأعلى " ستؤدي باتهامه بالفوضوية، لأن المرء لا يعرف ما يريده الله؟ حيث يعتقد مزارعو الجنوب أن الله يدافع عن وجود العبودية كذلك يؤكد رجال الدين هناك بلباقة أن الكتاب المقدس يقره، بل وكما يقر لنكولن – بنفسه – أن العبودية كانت تعد مؤسسة لها جدارتها لآلاف السنين .

وبدلاً من اللجوء لقانون الله علانية، اعتمد على التاريخ في دفاعه. فحاج بأن الرئيس اندرو جاكسون – وهو بطل دوجلاس والراعي لكل الديمقراطيين – قد عارض المحكمة العليا، عندما أصدرت قرارها بدستورية تأسيس البنك الوطني، فنقض القانون لإعادة إصداره على أساس دستوري جزئي، واقتبس منه عبارة يقول فيها " أن كل موظف عام يجب عليه أن يؤيد الدستور وفقاً لما يفهمه"

ولم تكن كراهية لنكولن لجاكسون لأن جاكسون كان بالنسبة له وللحرس القديم من المحافظين طاغية يفضل القاتل بالسلاح والمبارزة على المناقشة، ولم يكن متهمًا أوكان ذلك موقفاً لا يعتد به لأن جاكسون – في حقيقة الأمر – لم ينتهك الدستور حينما اعترض

على مشروع البنك. فالمهم هو أن لنكولن استطاع التصريح بأن موقفه من المحكمة العليا كان مماثلاً لموقف بطل دوجلاس.

عندما رشح القاضي دوجلاس لإعادة انتخابه الانتخابات تحداه لنكولن رسمياً. فقد واتته الفرصه لأن يكون نفس الحلبة أمام خصمه ويصارعه رأساً برأس، واتخذ الحزب الجمهوري بولاية إيلينوي خطوة غير معتادة بترشيح لنكولن رسمياً لمجلس الشيوخ. (كانت خطوة غير عادية لأن نواب مجلس الشيوخ يتم انتخابهم بواسطة مجلس الولاية التشريعي) وكان خطاب لنكولن المسمى " البيت المنقسم " هو تحديه الرسمي للقاضي دوجلاس. ولم يكن الخطاب سوى حديثٌ ثوريًا، حيث صرح بأن الرئيس السابق للولايات المتحدة (فرانكلين بيرس) والحالي (جيمس بوكانان) ومعهما رئيس قضاة المحكمة العليا (روجرتاوني) بالإضافة لمهندس قانون كانساس- نبراسكا (القاضي ستيفن دوجلاس) كانوا يتآمرون ضد الوطن في طلبهم لتأميم العبودية ونشرها بكل الولايات والبلاد. وكان رجال الدولة الأقوياء على رأس " جماعة سياسة سرية " معروفة باسم "سلطة ملاك العبيد"، كانوا أشراراً، غير مخلصين لمبادئ الأمة وخونة لبلادهم". أن ستيفن وفرانكلين، وروجر وجيمس كانوا يتآمرون للقضاء على الحرية أينما كانت، وحتى فى الولايات الحرة.

وبالفعل قام لنكولن بالتحذير من صدور قرار آخر من المحكمة أشبه بقرار دريد سكوت، سيفتح أبواب كل الولايات للعبودية على مصراعيه. فعاجلاً سوف تمتلئ بوسطون ونيويورك وفيلادلفيا وشيكاغو بملاك العبيد وعبيدهم، وسيكون على العمال الأحرار أن يتنافسوا مع العبيد على الوظائف، في حين أن الأعمال الشاغرة نادرة بالفعل بسبب انهيار مالي آخر كان اجتاح ولايات الشمال منذ عام مضى. وقد ألقي العديد من رجال الشمال اللوم في ذلك على الجنوب الذي لم يعان كثيراً، وكان هناك قرار مقترح جديد بإصدار حكم وشيك مماثل لحكم دريد سكوت، وقال لنكولن "سوف نخلد للنوم بسرور نحلم أن شعب ميسوري على وشك أن يجعل ولايته حرة، ثم سنصحو على واقع بديل، هو أن المحكمة العليا قد جعلت إيلينوي ولاية العبيد،" فلا غرو أن يهوى فردريك دوجلاس الخطابة، لأن حديثه كان قوياً مدمراً ويجعل الأنفاس تتقطع.

وامتاز لنكولن بأنه كان على حق، إذ كان خطابه حول " البيت المنقسم دقيقاً تماما، فهو لم يكن بجرد استثاره لمخاوف الناس من "سلطة ملاك العبيد" ببساطة وحذر من دعاة الرق يحاولون جعله قانونياً في كل الولايات قديمها وجديدها وأكدت الصحافة المؤيدة للعبودية لماذا دافع لنكولن عن قوانين ظالمة تحمي بقاء العبودية؟ لأنه أراد التصالح مع ملاك العبيد لإنقاذ الاتحاد فقال في خطابه موجهاً

حديثه لأهل الجنوب: "إننا لسنا أعداء، بل نحن أصدقاء." لكنه عندما يسمي ملاك العبيد الخونة أصدقاء، فإنه يضحي بحقوق السود في المقابل. لم يكن أصدقاء الجنوب من الشماليين أكثر أخلاقاً من ستيفن دوجلاس أو جيمس بوكانان. فقبل ثلاث سنوات سابقة اتهمهم لنكولن بالتآمر لقلب الحكومة. ثم عند انتخابه فجأة رئيساً وأصبح أول رئيس عصري مناهض للعبودية– كما أسماه فريدريك دوجلاس– هاهو يتهادن مع ملاك العبيد بقدر ما فعل أولئك المتآمرون.

وجعلت النهاية الشعرية لخطاب لنكولن الأفتتاحي، دوجلاس يشعر بالغثيان، وفيه يقول لنكولن: "يجب ألا نكون أعداء، فرغم أن مشاعرنا قد تحمل أثراً مما سبق إلا أنها يجب ألا تقطع أواصر محبتنا. إن الروابط الروحية للذاكرة التي تستمد من كل ميدان معركة ومن كل مقبرة لوطني، كمستقر في كل قلب حي وكل قلب حجر فوق كل بقاع أرضنا. تلك الروابط ستكبر الصوت الجماعي للاتحاد عندما تلمسها اليد الملائكية الجميلة لطبيعتنا مرة ثانية. لكن تلك الروابط الروحية من الذاكرة بالنسبة لدوجلاس هي التي تجاهلت صرخات السود القابعين في الأصفاد. ومالم تتم محاكمة ومطاردة أولئك الخونة فإن أي اتحاد بين الشمال والجنوب سيترك السود غير أحرار للأبد. لقد دمر لنكولن في سعيه لإنقاذ الاتحاد كل مُثله.

***

كان دوجلاس يتوقع الكثير من لنكولن. كان يفهم مدى صعوبة الأمر أمام رئيس منتخب، فقد أعلنت ولاية ساوث كارولينا— بعد أيام من انتخاب لنكولن وقبل أربعة أشهر من تولي منصبه – خطتها للانشقاق عن الاتحاد، ومع أول فبراير كانت سبع ولايات أخرى قد هجرت الاتحاد. وبعد ذلك بواحد وعشرين يوما، وفي ذكرى ميلاد جورج واشنطون، تم تنصيب جيفرسون دافيز أول رئيس لكونفيدرالية الاتحاد الأمريكي للجنوب.

وخلال تلك الأزمة لم يكن الرئيس بوكانان قادراً على الرد بصورة مؤثرة، فقد كان هدفه الأساسي هو تجنب الحرب وفي حين كان يرى لانشقاق فعلاً غير دستوري، فإنه لم يفعل شيئاً لإيقافه بل شجعه نظرياً بالفعل عندما أكد للجنوب أن الحكومة الفيدرالية ليس لها حق استخدام القوة في ذلك الشأن. وألقى اللوم في حدوث حركات الانشقاق على عاتق حركة مناهضة العبيد، وقام بالدعوة لاجتماع دستوري يقدم تعديلات يمكن أن تحمي بقاء العبودية في الولايات والأراضي الجديدة وتمنع ولايات الشمال من التدخل في تفعيل قانون العبد الهارب.

كان دوجلاس يعتقد أن بوكانان تجنب محاكمته بتهمة الخيانة وكان يعلم أن لنكولن لا يستطيع اتخاذ خطوة في ذلك إلا بعد اعتلائه



كرسي الرئاسة، فقام بشحن "الصمت المهيب " للنكولن منتظراً استلامه مهام منصبه في الرابع من مارس ذلك العام، وقد ملأه الإعجاب "برفض لنكولن الصارم" للدعوة لأي برنامج توافقي قد ينتهك "الوعد الجمهوري" بمنع امتداد العبودية، واعتبركنية لنكولن "ابراهام العجوز" كنية صادقة وتعكس بدقة كلمات وأفعال الرئيس المنتخب.

في صباح يوم ١٨ فبراير انضم دوجلاس إلى آلاف من مواطنيه الرفاق للترحيب بقطار لنكولن الخاص وهو يتوقف لبرهة بمحطة نيويورك سنترال بروشيستر خلال رحلته المتعرجة من سبرنجفيلد حتى واشنطن. كانت هناك فرقة موسيقية تعزف، وظهر الرئيس المنتخب بالشرفة عند مؤخرة القطار وأخذ ينحني للحشود، وكانت انحناءاته متصلبة ومترددة. كانت ذقنه بارزة وبدا جسمه منكسراً إلى ضلعين عند وسطه، فبدا أشبه بكسارة بندق خشبية. كان دوجلاس يعرف بالفعل ما سوف يقوله لنكولن عاجلاً بالفعل، لأن خطبه خلال رحلة القطار كانت واحدة عند كل محطة توقف . وهكذا قال لنكولن: "أنا لست مغروراً لدرجة أعتقد معها أنكم جئتم هنا رغبة في رؤيتي كفرد، ولكن لأنني– الآن– أمثل الشعب الأمريكي . . . وأنا أظهر أمامكم لمجرد أن أراكم، وأن أدعكم تروْنني، ولكي أقول لكم إلى اللقاء ."

توقع دوجلاس، وهو يتذكر كيف تحدى لنكولن ستيفن دوجلاس بنبل وفروسية منذ سنوات سابقة، أن يواجه لنكولن الجنوب بنفس الأسلوب. إذ يجب عليه أن يأمر "سادة العبيد المتعالين" أن يضعوا أسلحتهم وأن يعودوا للاتحاد وإلا واجهوا اتهامات بالخيانة (وهي جريمة عظمى). وعليه أن يرد على تلك الأزمة بجزم وحسم مثلما فعل الرئيس أندرو جاكسون في أحداث مشابهة عام ١٨٣٢، عندما أبطلت ولاية ساوث كارولينا قانونا اتحاديا ورفضت سداد رسوم معينة، فبادر جاكسون من فوره باتخاذ إجراءاته الحاسمة، ووأعلن أن الخروج على الاتحاد خيانة وهدد بغزو تلك الولاية وشنق الخونة مما أدى بالمتمردين للتراجع.كان على لنكولن أن يفعل تلك الأمور "وإلا سيصبح ممثلاً محتقرا لحكومة رعديدة بائسة،" وواصل تحريضه للنكولن بقوله: "افعل الصواب، ودع الصراع ينشب، وسيوفق الله من هو على حق!".

كما راودت دوجلاس الآمال أن تؤدي أزمات الانفصال إلى إضفاء طابع راديكالي على لنكولن. وفوق ذلك كله، فقد دخل الرئيس المنتخب إلى عاصمة البلاد في ظل تهديد واضح له بالاغتيال.وقد أقنع آلان بنكرتون– وهو رجل ذو لحية كالفرشاة ومن دعاة التحرير ورئيس وكالة بنكرتون للتحريات– لنكولن كي يغادر بالتيمور متوجهاً لواشنطن متنكرا ليلاً، بعد اكتشاف دليل

مادي على وجود مؤامرة ضده. أصبح لنكولن فجأة "عبداً مسكيناً مطارداً وهارباً" . . . هكذا علق دوجلاس مضيفاً: "وهو يبحث عن مخبأ متجنباً المطاردين . . زاحفاً . . مضللاً من يسعون وراءه في جنح الليل." بالفعل، غادر الرئيس المنتخب بالتيمور في قطار بالطريقة نفسها التي فعلها الشاب فردريك بيلي منذ ثلاث وعشرين سنة فائتة، متنكرا ومطاردا كذلك. وقد تعاطف دوجلاس مع مافعله لنكولن بعكس العديد من الشماليين الذين سخروا منه فقال: "لقد فعل مافعله رجال أكثر شجاعة . . . ولاشك أن ذلك كان مؤلماً لروحه أن يضطر لتكييف نفسه مع أساليب حياة عبد هارب. ربما تدفعه تلك الأزمة إلى التعاطف مع السود والشعور بآلام العبيد أكثر مما كان عليه من قبل."

هكذا، صعد دوجلاس من آماله عالياً لكي تهبط محطمة تماماً، فخلال الشهر الأول من تولي لنكولن لمنصبه تصرف بطريقة أفضل قليلاً من الرئيس السابق بوكانان. لقد وعد– مثلما فعل بوكانان تماماً– ألا يهاجم الجنوب، فقد صرح: "إن الحكومة لن تهاجمكم." وخفف من قلقهم مؤكداً لهم أنهم "سوف يحصلون على الإحساس الكامل بالأمن المطلوب لتهدئة الفكر والتأمل." كما نادى بالتعديل الدستوري لحماية بقاء العبودية للأبد في الولايات. وكرر دعوة بوكانان

بالتعهد "فقط بالاستيلاء على القلاع الفيدرالية وترسانات الأسلحة في الجنوب واحتلالها وامتلاكها."

كانت قلعة سومتر من تلك القلاع. كانت قلعة غير مكتملة البناء من القرمي دتقع على صخرة من الجرانيت على بعد أميال قليلة من منتصف مدينة شارلستون بولاية ساوث كارولينا . ومن أوائل البرقيات التي تلقاها لنكولن فور استئناف واجباته الجديدة كانت برقية من الميجور روبيرت أندرسون قائد قوات الاتحاد بقلعة سومتر يقول فيها إن إمدادات تموين قواته آخذة في النفاد، وإنه خلال أسابيع قليلة لن يجد رجاله الطعام. وطوال الشهر التالي أصبح الشماليون مهمومين بتلك القلعة، منتظرين ما سيفعله لنكولن في ذلك. وبتمسكه بوعده ، أخبر لنكولن حاكم ساوث كارولينا فرانسيس بيكنز أنه سيقوم بإمداد القلعة بالطعام لا بالرجال أو السلاح. وكان– بهذه الخطوة– يضع الطُعم للجنوبيين ليستدرجهم لارتكاب اعتداء آخرعلى سلطة الاتحاد، وهذا مافعلوه. ففي يوم ١٢ أبريل، بمجرد وصول قوارب الإمداد، قام الكونفيدراليون بإطلاق النيران على قلعة سومتر، وقصفوها لمدة ٣٣ ساعة حتى استسلم الجنرال أندرسون وحاميته.٣٣ فقال دوجلاس: "الحمد لله . . لقد أتت الحرب أخيراً !"٣٤ هنا سنحت الفرصة لتدمير العبودية "دعوا ذلك العبد المسحوق ينهض، وفي تلك اللحظة المبشرة ينتزع حريته!" وصل

عداء ملاك العبيد حداً لايحتمل أخيراً، مما دفع بالحكومة الأمريكية إلى قمع ذلك التمرد. فقد أضفى قصف القلعة الثورية على الأمة، وقبل أن يتلاشى دخان القصف في الهواء أصدر لنكولن نداءاً يطلب فيه قواتاً عددها خمسة وسبعون ألفاً من الجنود لمدة تسعين يوماً لإخماد ذلك العصيان المسلح. وكانت الاستجابة لندائه شديدة لدرجة أنه حصل على خمسة أضعاف ماطلب، حتى إن دوجلاس اهتزت مشاعره فصرح بقوله: "إن الشمال الميت مازال على قيد الحياة، وشعبه المنقسم يعود للوحدة." واعتبر محاربة الشماليين للمتمردين الكونفيدراليين محاربة للعبودية كذلك في اعتقاده، فألغى رحلته إلى هايتي. لكن لنكولن خيب رجاءه مرة أخرى، لأنه عندما أعاد قراءة نداء لنكولن بدقة، أدرك دوجلاس أن الرئيس سوف ينحرف عن طريقه ويعود لحماية ملكيات الساد. فالنداء يقول: "يجب أن تولي القوات عناية شديدة لما تفعل... كي تتجنب أية أعمال تخريبية أو تدميرية أو تدخل في شئون الملكية". عندئذٍ انفجر دوجلاس ساخراً: "جميعنا يعلم أن ذلك يعني أنه لن تُبذل أية محاولات للقضاء على العبودية."

لم يحدث هذا، فقط بل أنه فور صدور النداء قامت إدارة لنكولن بإعادة آلاف من السود الذين كانوا شغوفين لقتال ملاك العبيد إلى حيث جاءوا، لأن دوجلاس وحده استطاع تجنيد عشرة آلاف



جندي أسود خلال ثلاثين يوماً؛ لقد صرح بذلك في افتخار وأكد أن كتيبة سوداء واحدة تطأ ارض الجنوب "ستكون نداً لكتيبتين كاملتين من البيض." فالسود حين يحملون السلاح سيرعبون رجال الجنوب. إن انتخاب لنكولن "جعل العديد من ربات المنازل عبر مناطق الجنوب يذهبن إلى النوم ليلاً وهن يتساءلن في رعب ماذا سيفعل عبيدهن، الذين امتلأوا أملاً بمبادئ الحرية حديثاً، بهن وبأطفالهن." كما جعل العديد من السادة يبقون متيقظين طوال الليل والسلاح بأيديهم، مستعدين لمواجهة أية انتفاضة، لم تحدث على أية حال. والمشكلة أن جموع المتعصبين من بيض الشمال كانوا تقريباً مرعوبين من أية انتفاضة للعبيد بنفس قدر الرعب الذي يملأهم من تمرد ملاك العبيد. حتى الجنرال بنجامين بتلر— ذلك الضخم المرعب لقوات الاتحاد— بدا خائفاً بعد سماعه بوجود مؤامرة بين عبيد ماري لاند للتمرد، خاصةً وأنه من مؤيدي العبيد وعضو بالحزب الديمقراطي في ماساتشوستس، ويميل لإطالة شعر رأسه في المناطق القليلة التي ينبت فيها ربما لإعطاء مظهره بعضاً من الصرامة، فتمركز بقواته عند أنابوليس، وباعتباره آمراً لقوات كتيبة الولاية كتب لحاكم ماري لاند توماس هيكس يوم ٢٣ أبريل وذلك بعد أسبوعين من واقعة قلعة سومتر ليؤكد له أن قواته لن تتدخل بأي صورة بأمور

ملكية العبيد، مضيفاً: "لذا، فأنا مستعد للتعاون مع فخامتكم في قمع أية محاولات لعصيان القانون فوراً وبكفاءة في ماري لاند."

أغضب ذلك الخطاب دوجلاس، ولكن ما زاد شعوره بالمرارة سماعه أن ضباط الاتحاد أعادوا العبيد الهاربين إلى أسيادهم بسعادة بالغة. وحتى قبل واقعة القلعة، كان العبيد قد أخذوا يهربون إلى قوات الإتحاد مقدمين خدماتهم مقابل الحماية والحرية. ففي مارس مثلاً هرب ثمانية عبيد من مزرعة قرب ميلتون بولاية فلوريدا بعدما سمعوا أن الحكومة تسعى لحماية قلاعها في الجنوب، وسافروا عبر المستنقعات والسبخات والأنهار عبر ثلاثين ميلاً دون راحة ووصلوا أخيراً بواسطة قوارب مسروقة إلى قلعة بيكنزعند فم خليج بنساكولا. وصلوا يتساقطون من الجوع لكنهم كانوا يشعرون بالارتياح. كانوا قد توصلوا إلى أن القوات سترحب بخدماتهم ستقبلها القوات بكل سرور نظير إرسالهم إلى الشمال أحراراً، وكانوا على حق في افتراضهم أن القلعة تحتاج إلى الدعم والمساعدة. لكن الملازم أ. سليمر آمر القلعة وضعهم في القيود "وأعادهم إلى عمدة المدينة لتسليمهم لمالكهم." ووفقاً لما ذكره أحد الشهود، قام مالكهم بجعلهم عبرة للآخرين فجلدهم بلا رحمة لساعات طوال ليحذر مئات الآخرين من أن يحذو حذوهم. البعض جُلد حتى الموت بالمعنى الحقيقي للكلمة، وأصيب الآخرون بجراح ظلوا يعانون منها طوال

أسبوعين. وقع ذلك التعذيب بسبب أن الحكومة الفيدرالية حكومة الاتحاد طبقت قانون العبد الهارب لصالح أناس كانوا قد ارتكبوا الخيانة ضد الاتحاد للتو. كان ذلك الموقف يعادل إعادة رجال الجنوب إلى الهاربين من قوات جيش جون براون، وهذا وضع غريب ولايمكن أن يحدث أبداً للرجال البيض. وعندما قرأت ليديا ماريا تشايلد– وهي من دعاة التحرير– أنباء قلعة بيكنز في جريدة دوجلاس شعرت بأنها تريد أن تطأ باقدامها العلم الوطني قائلة: "يعلم الله أنني أريد أن أحب وأن أكرّم علم بلادي، لكن كيف أفعل ذلك لعلم يُستخدم في تلك الأمور؟". وهذا ماشعر به دوجلاس تماماً، وإلى أن يقرر الاتحاد قراره "القضاء على العبودية "فالعلم" لايستحق دعم ذراع سمراء واحدة."

لكن عداء ملاك العبيد كان قد أخذ يزداد أيضاً ضد البيض، واغتالوا البعض منهم فثار غضب أهل الشمال عليهم. وخلال شهر من نداء لنكولن انضمت كل من فيرجينيا ونورث كارولينا وتنيسي وأركنصو إلى الكونفيدرالية الجديدة كذلك. وفي ٢٤ مايو– أي بعد يوم من انشقاق فرجينيا رسمياً– قاد ضابط من قوات الاتحاد اسمه إيلمر إيلزوورث كتيبته إلى مدينة الإسكندرية. لم يكن إيلزوورث أنيقاً لدرجة مذهلة فقط– إذ كان يشبه جون ويليكس بوث– لكنه كان صديقاً مقرباً للنكولن وكان يعامله كابن له

ومستشاره القانوني بل ودعاه للسفر معه في عربة الرئاسة الخاصة إلى واشنطن. وفي الإسكندرية، استولى إيلزوورث على مكتب البرق والتليغراف وهناك لاحظ أن علم الكونفيدرالية يرفرف على سطح فندق هاوس القريب وهو مبنى ذو ثلاثة طوابق من القرميد أشبه بالصندوق، فاندفع هائجاً نحو الفندق وارتقى الدرج إلى السطح ومزقه وألقاه أرضاً. وعند نزوله كان مالك الفندق بانتظاره يحمل سلاحاً وأطلقه عليه من مسافة قريبة جداً فمزقته إرباً. كما كانت هناك تقارير تفيد بقيام الكونفيدراليين بتسميم القوات المركزية الفيدرالية، وقيام بعض القراصنة بإرسال أسلحة الشمال إلى الجنوب. وأن بعض رجال الاتحاد تتم محاكمتهم رمزياً أو يهاجمهم الرعاع. فقال دوجلاس: "ربما بعد قتل بضعة من أمثال إيلزوورث قد تبدأ الحكومة في معاملة المتمردين كأعداء بدلاً من اعتبارهم أصدقاء، وربما تبدأ إدارة لنكولن عندئذ في معاملة السود على أنهم بشر."

بدأت الأمور تتغير بعد مقتل إيلزوورث، ففي ٢٤ مايو شعر بنجامين بتلر بتغير أحاسيسه تجاه السود بسبب تأنيب جون أندرو له– وجون هو حاكم ولاية ماساتشوستس ومن دعاة التحرير– لرغبة بتلر على قمع انتفاضات العبيد. كان بتلر معسكراً في قلعة مونرو بفرجينيا، وسمح لثلاثة من العبيد بدخول معسكره ويوشك

على إرسالهم إلى جيش التمرد لبناء التحصينات. وكان بتلر يحتاج إليهم فقام بتشغيلهم. لكن سرعان ما أرسل مالكهم وكيله الذي اعتمد في حديثه على قانون العبد الهارب وأن على بتلر التزامات دستورية بضرورة تسليم العبيد إليه.

فأجابه بتلر قائلاً: "إن فيرجينيا أقرت مرسوماً بانفصالها وأعلنت أنها بلد أجنبي . . . وليس عليّ أية التزامات تجاه بلد أجنبي."

فعارضه الوكيل قائلاً: "لكنك تقول إننا لايمكننا الانفصال عن الاتحاد ومن المنطقّ ألا تستمر في اعتقال أولئك الزنوج."

فرد عليه بتلر: "وأنتم أكدتم أنكم قد انفصلتم، وبالتالي فليس لكم حقّ عليهم." وواصل رغبته في الانتصار والفوز بتلك المحاجاة قائلاً: "ولسوف أعتقلهم باعتبارهم محظورات حرب."

استقر ذلك المصطلح في ذاكرة الشمال، وراجت كلمة "محظورات/ مهربات" فورا عبر مجتمعات العبيد بوسيلة التواصل السريعة وهى "جماعات قطاف العنب". وخلال ثلاثة أيام حصل بتلر على ماقيمته ٦٠٠٠٠ دولار "بحسابات اليوم" من أولئك العبيد المحظورين، وبحلول شهر أغسطس كان عنده ألف رجل وطفل وامرأة.

في ذلك الوقت، تحرك الكونجرس الذى كانت تسيطر عليه أغلبية جمهورية، وفي السادس من أغسطس وقع القانون الأول للمصادرة، مصرحا للجيش الاتحادي بمصادرة العبيد الذين ساعدوا الولايات الكونفيدرالية في الأعمال الحربية. فالتقارير التي ذكرت أن آلافاً من العبيد قد أرغموا على الخدمة لصالح الكونفيدرالية، وساهموا في تحقيق انتصارها في المعركة الأولى "موقعة بول ران" في يوليو، أقنعت الحكومة بحاجة الجيش لمصادرة العبيد. ووفقاً لما قاله دوجلاس فإن العبيد لم يقوموا فقط بتأدية المهام القذرة للمتمردين، وبناء التحصينات والعمل كحوذيين فحسب بل شاركوا في الحرب كجنود متمردين في وحدات الميليشيا بعد أن أرغمهم سادتهم على حمل السلاح ضد الشمال. واشتكى دوجلاس من أن هذا شيء يدعو للأسف والضيق ، فبينما كان جيش المتمردين يستغل الرجال السود "كجنود فعليين يحملون بنادقهم على أكتافهم والطلقات في جيوبهم مستعدين لإطلاق النار على القوات الحقيقية للوطن"، تغض إدارة لنكولن بصرها متظاهرة أن أربعة ملايين عبد ومعهم نصف مليون من الأحرار غير موجودين على أرض الوطن.

عندئذٍ وفي نهاية أغسطس راودت دوجلاس بارقة أمل أخرى، حيث تمركز جون فيرمونت– القائد العام الاتحادي للإدارة الغربية–

في منطقة ميسوري وهي ولاية حدودية تشهد بعضاً من أسوأ حروب العصابات. كان هناك حوالي ٦٥ ألف انفصالي يجوب كثيرون منهم الولاية في جماعات صغيرة ويقومون باغتيال المزارعين وسرقة الخيول وقطع خطوط البرق، ويدمرون في طريقهم خطوط السكك الحديدية والجسور. ونظراً للفوضى المنتشرة في ميسوري، اتخذ فيرمونت "إجراء حاسماً" وقد أصدر في الثلاثين من أغسطس أول اعلان بتحرير للعبيد في تاريخ الأمة معلناً قانون الطوارئ في الولاية، وأمر بمحاكمة الانفصاليين المسلحين محاكمات عسكرية، وإعدامهم حال ثبوت جريمتهم، وأن يصبح جميع العبيد المملوكين لأولئك المواطنين الخائنين أحرارا بهذا الأمر.

أدرك فيرمونت أن الطريق الوحيد لكسب تلك الحرب هو حرمان أولئك العصاة من أملاكهم للأبد. وقد وافق في ذلك مستشاروه من دعاة التحرير أوينلاف جوي وجون جيرلي وزوجته جيسي. وكما طرح الأمر له لاف جوي: "لماذا تتخذ طريقاً مكلفاً ومجهداً "لقمع التمرد" في حين يوجد أمامنا طريق رخيص وقصير؟ ... دع الرئيس بسلطاته كقائد عام للجيش يعلن ذلك التحرير وسوف تنتهي الحرب في ثلاثين يوماً !" ومنذ بداية الحرب وحتى ذلك الحين أراد فيرمونت أن يحول الصراع إلى ثورة إجتماعية بدلاً من إبقاء الوضع القائم على ماهو عليه. كانت الحرب بالنسبة إليه حرباً عسكرية



وأخلاقية من أجل حرية العالم، لاحرباً من أجل إنقاذ الاتحاد بإهمال مأساة السود .

هز اعلان فيرمونت كل الجمهوريين عبر كافة أنحاء البلاد ، فقد عقدت بلدان الشمال مسيرات وتجمعات حاشدة بالمشاعل لتكريمه، وأطلق أحد الصحفيين الجمهوريين على تلك اللحظات أنها أكثر أحداث الحرب إثارة حتى ذلك الوقت. كما أن الكاتبة هاريت بيتشرستو قالت نيابة عن الكثيرين: "إن الساعة قد حانت ورجلها كذلك." تأثر وزير الحرب سيمون كاميرون لدرجة أنه أرسل برقية لفيرمونت يهنئه على شجاعته.

وبعد إثني عشريوماً ألغى لنكولن اعلان فيرمونت بتحرير العبيد خشية أن يفقد ولايات الحدود وفقاً لما أخبر به فيرمونت في خطاب خاص. لذا، طلب منه أن يقوم بتعديل اعلانه كي يتوافق مع قانون المصادرة الذي لم يسهم في تحرير عبد واحد ، فرفض فيرمونت بشجاعة وأخبر لنكولن أنه لو سحب اعلانه "فسوف يتضمن ذلك أني أراه خطئاً ، وأنني تصرفت دون النظر لخطورة الموقف المطلوب، لكنني لم أفعل إذ تصرفت بدراسة عميقة وبناءً على قناعات معينة بأن ذلك إجراء صحيح وضروري ومازلت أعتقد أنه كذلك." وهكذا، اضطر لنكولن لسحب اعلان فيرمونت بتحرير العبيد



علانية، الأمر الذي سبب له كثيرا من الإحراج، وكنوع من الرد سرعان ما قام بإعفاء فيرمونت من منصبه.

أطلق دوجلاس على لنكولن أنه رئيس مؤصل في تأييد العبودية. وأكد أنه لايقصد أية إهانة بذلك، لكن سحب اعلان فيرمونت بعتق العبيد هو أكبر خطأ فادح في الحرب حتى اليوم، أسوأ حتى من خطاب لنكولن الافتتاحي الغادر. "وأعلن في صحيفته أن تصرف فيرمونت هو المفصل والمحور الذي كان يجب على أساسه أن تدور الحرب" كانت أمام لنكولن الفرصة كاملة لتشكيل الرأي العام لا مجرد الاستجابة الخانعة له. كان عليه أن يشكر فيرمونت لإتاحة الفرصة له لإعلان صدقه أمام العالم ورفضه التوافق مع الخونة. ولوهلة قصيرة ظن دوجلاس أن الحرب سوف يقوم بشنها "مقاتل حاسم" لا "محام ماكر".

وبالنسبة لدوجلاس كانت التضحية بفيرمونت هي عمل "لتهدئة مشاعر أنصار العبودية في ولايات الحدود." "كان ذلك عملاً محبطاً جديداً في حرب لم تثمر سوى إحباطات، إلا أن دوجلاس شعر أن كلمات فيرمونت الشجاعة سوف تنتفض عاجلاً مثل قيامة المسيح من المذبح لتدمر العبودية المتوحشة. لقد أكدت تضحية فيرمونت لدوجلاس النتيجة المحتمة في صراع ملحمي كان الوحي قد بيّنه لنا منذ زمن طويل عندما كان الملاك ميخائيل وباقي الملائكة يقاتلون



"الحشد الشيطاني للمشاعر السيئة" .ورغم الإحباطات الكثيرة التي سببها له لنكولن، لم يأسف دوجلاس يوماً على إلغاء رحلته إلى هايتي إذ آمن أن قوى الحق لابد أن تسود في النهاية.

لقد ألهم موقف فيرمونت دوجلاس كي يهاجم لنكولن بشدة أكبر. كان دوجلاس "صوتاً واحداً متواضعا" فقط . لكنه كان يعلم أن قول الحق بقوة يمكنه أن يغير العالم. وفي مقالة وراء أخرى أدان لنكولن داعيا إياه لتحرير العبيد والسماح بتجنيد قوات سوداء . فكتب: "إن الزنوج هم معدة التمرد" وكل عبد يهرب من ولاية متمردة "هو خسارة لقوى التمرد ومكسب لقضية الولاء" وإن رفض تسليح السود يماثل القتال "بذراع واحدة". كما أدرك أن أسرع وسيلة أمام السود للحصول على حرياتهم هي أن يصبحوا جنودا بقوات الاتحاد. كان عبيد الأمة البالغ عددهم أربعة ملايين ومعهم نصف مليون أسود حر يعادلون ربع تعداد سكان الشمال ويمثلون مصدراً لاينضب للقوة. حقيقة كان عدد نصف السود يمثل نصف البيض العصاة .وقد يفي استخدامهم باحتياجات البلد للقوات، ويمنع الحاجة للتجنيد الإجباري، وهو أكثر من تعويض لتراجع الجنود البيض الذين يرفضون الحرب من أجل حرية العبيد . وكاستراتيجي عسكري، فضل دوجلاس الديموجرافيا على الجغرافيا . كما فند دوجلاس افتراض لنكولن أن ولايات الحدود التي بها عبيد مثل ماري



لاند وكينتاكي وميسوري وديلاور ستنفصل عن الاتحاد إذا تم تحرير العبيد . كانت معضلة ولايات الحدود هذي تدور حول سؤال بسيط: هل مواطنو الاتحاد الذين يملكون عبيداً يقدرون وطنهم ويفضلونه على العبودية أم لا؟ ورأي دوجلاس أنهم يقدرون الوطن، مما يعني أن تلك الولايات لن تنفصل. ولو كان رأيه على خطأ ووضح أنها تفضل العبودية على الوطن فدعها تذهب! فهذا خلاص خير منها . لقد كانوا ذئاباً في ثياب حملان.

لا ريب أنه كان لا بد أن تنشب بعض حروب العصابات في ولايات الحدود حتى لو اختار رجال الاتحاد العبودية وفضلوها على الوطن. لكن ولايات ميسوري وكينتاكي وماري لاند كانت تشن حرب العصابات فعلاً. واعتقد دوجلاس أن لنكولن يستطيع التعامل مع الموقف. وعندما أثار انفصاليو ماري لاند الشغب وهددوا بالانفصال أواسط عام ١٨٦١، قام بإعلان قانون الطوارئ وأوقف العمل بقانون "ضرورة المثول أمام القضاء" واعتقل كل دعاة الانفصال قبل أن يتمكنوا من التصويت على قرار بالانفصال. كانت النتيجة "انتصاراً ساحقاً لمؤيدي الاتحاد ."وفي ميسوري أيد لنكولن قرار فيرمونت في إعلان الأحكام العرفية، وأخبره ألا يقتل أي سجين دون موافقته .



لم تكن النقطة الهامة في موضوع ولايات الحدود تكمن في الوضع الرسمي للولاية وإنما في قدرة الاتحاديين على السيطرة على طرق النقل، وافق الصناعة ، ومستودعات الأسلحة في خضم حروب العصابات. فإذا لم يستطع جيش الاتحاد السيطرة على تلك الموارد، فإنه سيواجه صعوبة في الدفاع عن واشنطن العاصمة ، وسوف يفقد مصانع هامة ومعها نهر أوهايو الإستراتيجي ليقع بيد المتمردين. وطالما بقى لنكولن آمراً قواده بسجن كل دعاة الانشقاق، فإن حرب العصابات في ولايات الحدود تبقى مشكلة قابلة للحل.

كانت تلك الأفعال دستورية كما ذكر دوجلاس، وبحلول شهر سبتمبر ١٨٦١ طبع من جديد في الصفحة الأولى من صحيفته ، تحت عنوان رئيسي يقول:

" حجة جون آدامز كوينسي بشأن سلطات الحرب: وهى أنه خلال الحرب الأهلية "تحل السلطات العسكرية– في هذه الأوقات– محل المؤسسات البلدية والعبودية بين باقي المؤسسات الأخرى" وفقاً لرأى واحدة من أكثر المؤسسات القانونية حكم في البلاد فإن إعلان قانون الطواري، وتعليق العمل بقانون الإجراءات الجنائية العادي، وتحرير جميع العبيد هى إجراءات دستورية تماماً خلال الحرب الأهلية. وليس فقط لرئيس الولايات المتحدة، ولكن لقائد الجيش– أيضاً– السلطة لأن يأمر بعتق جميع العبيد . "كان جون آدمز سيقر

اعلان فيرمونت وسأل دوجلاس لنكولن: "لماذا لاتستطيع أنت فعل ذلك؟."

لم تكن سياسة لنكولن بالتغاضي عن قضية العبودية حماية لولايات الحدود خاطئة أخلاقياً، وضالة عن طريق الدستور فقط، وإنما كانت كارثة من المنظور العسكري. ، وقد حدد دوجلاس أربع مشكلات رئيسية في سياسة لنكولن. أولها: أنه شجع إنجلترا وفرنسا على التدخل لصالح الكونفيدرالية "الولايات المنشقة"، فالحظر الذي وضعه الاتحاد منع المتمردين من إرسال القطن إلى أوربا وتسبب في انتشار البطالة في إنجلترا وفرنسا. وما كانت تلك الدول لتحمل حرباً طويلة الأمد تؤدي إلى تجويع آلاف من شعوبها، وذبح آلاف منا، وإغراق الملايين من الأموال." فلتجعلها إذن حرب تحرير "وستوحد العالم في الحال معك في مواجهة المتمردين، ولصالح الحكومة."

ثانياً: سيتوصل العبيد عاجلاً إلى نتيجة مفادها أنه لو كان عليهم أن يبقوا عبيداً، كما تملي سياسة الاتحاد، فلسوف يفضلون الحرب ضد الاتحاد بدلاً من الحرب معه، وسيكون عليهم حماية أنفسهم فقط، فاختيار سيد يعرفونه أفضل من اختيار طاغية لايعرفونه. إنهم مترددون الآن. لكن لو استمرت سياستنا تلك "سوف يقررون



أنه من الأفضل لهم أن يتحملوا شروراً يعرفونها فعلاً عن الذهاب لآخرين لايعرفون عنهم شيئاً."

ثالثا: "إن مشكلة سياسة لنكولن مع ولايات الحدود هي أنها مصدر إلهام للمتمردين حيث أمدتهم بالأساس الأخلاقي لما يفعلون بقولهم إن تلك الحرب تدور حول حقاً في حكم نفسها وليس حول العبيد، وبالطبع كان مبدأ الحكم الذاتي مبدأ طبيعياً له جذوره في فكر الثورة. لقد كان هو السبب الرئيسي الذي جعل الجماهير ترغب في القتال أو الموت دونه. إذن، فلتجعلها حرب تحرير للعبيد فيصبح قتال الاتحاد- فجأة على أية حال- من أجل الحرية بدلاً من الحرب للسيطرة على الجنوب، وليصبح قتال المتمردين من أجل ملكيتهم للعبيد لا من أجل الاستقلال."

وأخيراً، لقد تطلبت السياسة القائمة مزيداً من التهادن مع العبودية. فالجمهوريون مثل وليام سيوارد قدموا وعودا بالفعل بمنح الجنوب امتيازات عديدة ولم يكن هناك شك في استعدادهم لمنح المزيد من أجل إنهاء الحرب. إلا أنه كما لاحظ لنكولن نفسه: فإن "أمة منقسمة على نفسها لاتستطيع البقاء. فاستمرار مهادنة العبيد حتى تصبح الأمور كلها في وعاء واحد يجعل العبودية مشروعة في كل الولايات."



كاد دوجلاس يُعدم من غير محاكمة لانتقاده القاسي للنكولن.
ففي نوفمبر من عام ١٨٦١ ذهب إلى سيراكيوز لإلقاء محاضرة حول "التمرد ، أسبابه وعلاجه" . وعندما وصل إلى محطة نيويورك رأى "عند كل ناصية" إعلانات عن محاضرته إلى جانب بيانات توزع يدوياً تطالب بإخراسه مكتوب فيها الزنجي قادم، فهل سنتسامح مع مشاعره الدنيئة في مجتمعنا بحجة أننا شعب يحب الحرية الدستورية أم سوف نلاقيه باستقبال (حار) يلائم وقاحته كما يستحق؟"

اختار دهماء الاعدام بغير محاكمة المدينة الخطأ التي يقومون فيها بمهاجمة دوجلاس لأن سيراكوز كانت واحدة من أكثر المدن حباً لتحرير العبيد في البلاد .وقدم العمدة وقوة الشرطة والعديد من المواطنين حماية كافية له حال وصوله. وتقدم للترحيب به الدكتور فيتنج، الرجل الرقيق الهش صاحب المسرح الأنيق الذي سيتحدث فيه لنكولن. وقام بإدخاله المسرح بنفسه رغم تهديد الدهماء بتخريب المكان. وعندما سخر الرعاع من فيتنج بكلمة "عاشق الزنجي"، كان رده أن "مبادئه حول الحرية تنطبق على البشرية لاعلى اللون"، وبعدها تحدث دوجلاس للحاضرين الذين ملأوا المكان ونال تصفيقاً هائلاً.

أدت الحرب إلى توحيد دعاة التحرير ووفقت بينهم بصورة لم تحدث من قبل. ظل دوجلاس لفترة طويلة يجعل ساحات الخطابة



تملئ بكاملها بجمهورالمؤيدين. لكن مستمعيه الآن أصبحوا يضمون العديد من المحافظين والديمقراطيين الذين لم يستمتعوا بأدائه الساحر فقط ولكن أيضاً بالرسالة التي يحتويها .٧٨ ولأول مرة خلال خمسة عشر عاما ، لم يعد لون جاريسون ولا مجموعته الصغيرة تنظر لدوجلاس كعدو لمنهاجهم السياسي في تحرير العبيد . ذلك أنهم عندما نشبت الحرب هجروا فجأة دعواهم بشأن الخروج على الاتحاد وكراهية الدستور وأخذوا يتفقون مع دوجلاس على أن الحرية تحتاج للقتال من أجلها في إطار الاتحاد وليس خارجه. وقد تأثر دوجلاس بشدة لتغير موقف رفاقه السابقين وسرعان ما انضموا جميعاً تحت لواء عصبة العبيد الوطنية التي وحدت دعاة التحرير من كل المذاهب. كان يعرف جيداً أن الصوت الموحد هو أكثر الأسلحة فعالية في مواجهة عناد لنكولن.

في بدايات عام ١٨٦٢، ملأ دوجلاس قاعة اتحاد عمال البراميل في مدينة نيويورك بمستمعيه تماماً مثلما فعل لنكولن قبل عامين سابقين. ومثل خطاب لنكولن السابق ناقش هو أيضاً مصير أمريكيا وهنا تنتهي المشابهة. فقد أعلن دوجلاس محاربة سياسة لنكولن بشأن الاستعمار الأسود، مصرحاً بأن مصير الأفارقة الأمريكيين هو "مصير أمريكا" وشبه الأمة بكتاب مفتوح، حبره الأسود هو مايعطي



معنى لصفحاته البيضاء، وألقى دروساً في الحكمة والقوة والطيبة "وقداسة الأخوة الإنسانية."

تغلغلت روح العصر التغيرة هذه في مبنى الكابيتول. ، فأعضاء الكونجرس أخذوا حينذاك يتحدثون عن المشاعر بانتظام أو على الأقل بأسلوب ثوري أشبه بأسلوب دوجلاس، بل إن رئيس المجلس ثاديو ستيفنس الصارم كبير القدم فاق حتى تشارلز سومنر في حديثه في مجلس الشيوخ فارتفعت نبرته منادياً: "حرروا كل عبد .. اذبحوا كل خائن واحرقوا كل مأوى للمتمردين، لوكانت تلك الأفعال ضرورية لبقاء معبد الحرية هذا ... فلابد أن نعامل ... تلك الحرب كثورة جذرية ونعيد صياغة مؤسساتنا !"

أبدى راديكاليو أوروبا أيضاً اهتماماً صادقاً بالروح الأمريكية الجديدة نحو تحرير العبيد . فكتب كارل ماركس بإسهاب عن الحرب من مقره بفيينا، وربما يكون قد قرأ لدوجلاس في ترجمة ما، وأخذ يردد بعضاً من أفكاره بالتأكيد لأن ماركس كتب يقول إن الولايات الحدودية "قد شكلت حلقة الضعف الرئيسية للشمال ... إن النظر بعين العطف لمصالح حلفاء غامضين أصاب حكومة الاتحاد بضعف لا يمكن الشفاء منه وحمى للخصم أكثر نقاطه ضعفاً وهي جذور الشر ، متمثلة في العبودية ذاتها ."

بدا الأمر كما لو كان عتق العبيد عالمياً فكرة حان موعد تحققها أخيراً،كما لاحظ فيكتور هوجو، وهو معجب آخر بدوجلاس.

ظل دوجلاس ورفاقه عرضة للضرب والإهانة لعدة عقود، متهمين بأنهم يهددون استقرار الاتحاد. لكن بعد قيام المتمردين بإطلاق النار على قلعة سومتر، بدأت الجماهير فجأة تنظر إليهم كعرافين حاولوا طويلاً كشف شرور العبودية وإنقاذ وطنهم. وببطء شديد بدأ لنكولن ينصت.

***

في عام ١٨٦١ كرس دوجلاس نفسه تماماً للصحافة فكتب كثيراً من المقالات وألقى قليلاً من الخطب أكثر من أية فترة أخرى منذ عام ١٨٤٣. بدا الأمر كما لو كان يريد دوام انتقاداته للنكولن، فإذا لم يستطع أن يتحدث مع الرئيس مواجهة، فهو على الأقل يستطيع إرسال إصدارات جريدته إلى البيت الأبيض. ويلمح الشعار الجديد، المدون أسفل المانشيت الرئيسي والمقتبس من سفر الأمثال، إلى أن جريدته أصبحت أداة كلامه بدلاً من صوته: "افتح فمك، واقض بالعدل، وحام عن الفقير والمسكين[٢٢]!"

[22] الآية ٨: الإصحاح ٣١ من سفر الأمثال في طبعته العربية يقول: "افتح فمك لأجل الأخرس دعوى كل يتيم افتح فمك تقضي بالعدل في، وحام عن الفقير والمسكين!"

وقد عكس اسمها الجديد " شهرية دوجلاس" شكلها الجديد .
ومنذ عام ١٨٦٠ تحولت إلى جريدة شهرية من ست عشرة صفحة بدلاً من جريدة أسبوعية من أربع صفحات فقط، مما سمح له بتوفير بعض المال مع الاستمرار على إصدار العديد من الصفحات كل شهر. قام دوجلاس بترتيب مقالاته تتابعياً حتى يمكن للقارئ متابعة الأفكار على مدار الشهر. وكانت النتيجة نوعاً من الكتاب الشهري المسلسل ، وفي كل عدد ينتقد حالة الأمة.

كانت "شهرية دوجلاس" شكلاً ملائماً لأمة تمر بمرحلة جيشان اجتماعي وجذري. وكان الزمن الزمن يمر خلال الحرب الأهلية بصورة مختلفة. فينقضي الأسبوع أو الشهر كلمح البصر. أما عندئذٍ فكانت اللحظة تمر بطيئة متراخية كما لو كانت دهرا يتجمد فيها الزمن .كان الناس يتذكرون جيداً المكان الذي كانوا فيه عندما قرأوا خطاب لنكولن الافتتاحي. وكانوا عندما يتصفحون قائمة الضحايا في جريدتهم اليومية بعد موقعة ما، تبدو قائمة الموتى منسابة كالنهر "نحو أسفل الصفحة الشاحبة" حتى تصطدم فجأة أعينهم وعالمهم باسم عزيز لديهم .أضفت جريدته ثباتاً وتركيزاً على الأحداث المتابعة المتدافعة. فعملت كألبومٍ للصور يقوم بتجميد بعض اللحظات في حين يستثير الاندفاع المتقدم نحو الحرب عبر ترتيب تلك الروايات. وقد تمنى الكثيرون من أهل الشمال أن يمر

الزمن مسرعاً من أجل استعادة النظام، وتخفيف الحزن على الأبناء المفقودين. هنا يقول هيرمان ميلفيل في إحدى قصائده المثيرة للعواطف والذكريات : " يا الله . . . آمل أن يمر الوقت بسعادة، وأن يلقي بالنحيب والنصر معاً لضياع، وأن تنتهي الحرب!" لكن دوجلاس أراد الثورة الاجتماعية، فعالمه لم يكن يتغير بالسرعة المناسبة والكافية.

كان يقضي أغلب أوقاته في المنزل بروشيستر يكتب أو داخل مكتبه الذي مازال يحمل اسم "نورث ستار". وكان قبل سنوات قلائل مضت قد نقل عائلته إلى منزل أوسع رقم ١٠٢٣ شارع ساوث في بيناكل هيلز على بعد نصف ساعة من وسط المدينة. ٨٧ وبدا بيتهم الجديد أشبه بفيلا أوروبية الطراز محاطة– في وقتها– بحديقة متسعة مطلة على تلال مائلة بخلفية طبيعية تنتشر فيها أشجار الفاكهة، وقد وصفها أحد الأصدقاء بأنها تمتلك "مظهراً شعرياً فريداً، وتشبه بصورة أو بأخرى جزيرة ما في عالم صغير منعزل حيث يجد أولئك– الذين يملكون شجاعة تحدي أحكامهم المسبقة المشين– حياة ثقافية ثرية بالداخل واستقبالاً يمتلىء طيبة وكرماً، وقلباً دافئاً أمريكياً إلى حد ما. "كان منزله الجديد ينبيء على مستوى ما بأسرة برجوازية سوداء لأن دوجلاس أصبح آمناً من الناحية المالية أكثر من ذي قبل حيث حصل طوال العقد الفائت–

على أموال من إلقاء المحاضرات تعادل ما كان يتقاضاه أشهر الخطباء البيض في وقت كان المحاضرون فيه يعيشون جيداً .لكنه عندئذٍ، وكما لوكان يريد تعويض واجهت الأمن هذه ، قام بعزل نفسه من مجتمع البرجوازيين البيض، واكتسب مظهراً لمثقفٍ ثوري يترك شعره لينمو كثيفاً مع لحية صغيرةٍ مشذبة. لأن الشعر كان بالنسبة لكثير من المثقفين البيض تعبيراً عن الذات، أي مظهر خارجي للروح الداخلية للمرء . كما كانت "موضة" ترك جزء من الشعر على الخدين واللحية المدلاة ، ولحية الجدي الرفيعة والشوارب الممتدة تحت الذقن والشعر المنتصب تدل على عقل كهرباني يمتد تياره عبر البشرة فتنشق أطراف شعره. كانت كلها مظاهر شائعة في تلك الأيام، وبدا دوجلاس حتى بلحيته- الأشبه بلحية جدي- الجديدة رزيناً مقارنة بكثير من أصدقائه. فهو لم يُرِد أن يتطرف كثيراً في مظهره الجديد، ولم يرغب في جذب المزيد من الانتباه لنفسه والمخاطرة باعتباره خارجاً عن أعراف البورجوازية البيضا .

في عام ١٨٦٠، لم تكن آنّا في حالة جيدة. فابنتها الصغرى آني ماتت بعمر العاشرة، وكأن موت الطفلة أدى إلى انهيارها الجسماني والوجداني، فعانت كثيراً من الآلام العصبية (مرض شينجل) الذي أبقاها حبيسة المنزل بمزاج ممرور. كان دوجلاس قد كتب لأحد أصدقائه يقول: "إنني جدُّ حزين أن أخبرك أنها ليست بحالة جيدة

. . . . وإذا ماكان عليّ أن أذكر جميع شكاواها فلن أجد مساحة كافية بالورق كي أوقع في نهايتها باسمي رغم أن العالم سوف يدرك أنني أقع تحت ثقل هذا كله." كانت تمثل لدوجلاس فرساً هرماً يستخدم كل "قواه الكلامية بسهولة وطلاقة لإبراز أخطائي في حالاتي المزاجية ووضعي كزوج وأب، ورب أسرة."

كان لآنا أسبابها القوية للقلق منه. فرغم أن جوليا جريفيث لم تعد مصدر تهديد لها حيث كانت قد تزوجت من موظف بريطاني ورحلت إلى إنجلترا منذ سنوات قليلة مضت، فقد ظهرت امرأة بيضاء أخرى تتنافس بشراسة على استمالة عواطف دوجلاس. إنها أوتيلي آسنج التي أتت إلى أمريكا من ألمانيا عام ١٨٥٢ لتبدأ حياتها من جديد، وكانت أصغر من دوجلاس بعام واحد، وهي تشبهه في كونها غريبة اجتماعياً هجرت وطنها قاصدة نيويورك وأصبحت أديبة رومانسية. لكنها كانت تفتقر إلى إدراكه البراجماتي الواقعي.

نشأت أوتيلي في مدينة هامبورج، وهي ابنة لأب يهودي وأم وثنية. وكانا كلاهما بورجوازياً مثقفاً. وكانت ابنه مخلصة للرومانسية الألمانية وشملت دائرة أصدقائها ومعارفها في ألمانيا كُتّاباً وفنانين أو بدقة ممثلين، وحاولت أوتيلي ممارسة المهارات الثلاث. لكنها وصفت نفسها "تقريباً كممثلة". كان الفن حياتها، بما في ذلك

فن الغناء الرق وفي الواقع طبعتها تقاليد الرومانسية الألمانية نفسياً حتى إنها كفتاة بالغة رأت نفسها في بعض الشخصيات الروائية وتعاملت مع رواياتها المفضلة على أنها دليل هداية لما يجب أن تكون عليه حياتها.

حدثت أول هزة رئيسية لها ذات ليلة من عام ١٨٤٣ عندما كانت في عمر الرابعة والعشرين إذ مات والداها وانتقلت هي وأختها إلى برلين للعيش مع أحد أعمامها. واتفق العم والأخت جيداً بينما كرهته هي. وخلال جدل حاد بينهما صفعها العم فاندفعت تاركة المنزل وقررت أن يكون الرد الأمثل والشجاع على تلك الإهانة أن تتبع خطى بطل جوتة "فيرتر"[23]. فهربت إلى حدائق تيرجارتن في برلين– وهي أكبر منتزه عام بالمدينة– واختفت وسط الشجيرات ثم طعنت نفسها ثلاث مرات بسكين. لكنها عاشت إنما أكثر تمسكاً بإيمانها بأن الحياة لابد وأن تتبع خطى الأدب.

جاءت الهزة الثانية في حياتها عام ١٨٥٦ عندما قامت بالحج إلى روشيستر لمقابلة فردريك دوجلاس. كانت تقيم في هوبوكن وتعمل كمراسلة أمريكية للصحيفة الألمانية القدمية "ذا مورنينج جورنال للقراء المثقفين" وبعدما رسخت وجودها ضمن دائرة دعاة التحرير، رأت لوحات لدوجلاس وقرأت كتبه وعرفت مدى طلاقته

---

23 "آلام فيرتر" قصة حب يائس كتبها الأديب العالمي فولفجانج جوته ونشرت عام ١٧٧٤ ـ المترجم

وجاذبيته. كان الهدف من مقابلته بروشيستر أن تطلب منه التصريح لها بترجمة كتابه الثاني الأفضل مبيعاً عن سيرته الذاتية إلى الألمانية "عبوديتي وحريتي"، وعندما قابلته في منزله رقم ١٠٢٣ بشارع ساوث، ازدادت تأثراً بصوته ومظهره. وعندما رأت آنّا لأول مرة ظنتها الخادمة.

منذ بداية علاقتهما، أضفت عليه آسنج طابعاً مثالياً أمامها. في مقدمة ترجمتها لكتابه ذاك تصوره كتجسيد حي "لبطل خيالي" و"سيد كامل" لفن الخطابة، له صوت حاد مرن يقطر شهداً يصل للقلب كلما سمعته وتقول: "عندما يتكلم دوجلاس، ينداح مستمعوه مع كلماته .. كما لو كان حواريًا جديداً قد بدا لهم للمرة الأولى كحقيقة سكنت في صمت في سويداء قلب كل امرئ." ومثل القديس بولس استطاع دوجلاس أن يقلب إيمان الجماهير. ووفقاً لما ذكرته آسنج، كان ازدياد حركة مناهضة العبودية يرجع أساساً لإنجازاته وشخصيته، وعندما وصفته جسمانياً وصفته بانتشاء بأنه: "رفيع وطويل ذو سمرة خلاسية خفيفة وبنية قوية .. وجبهة منتصبة دائماً .. وعبقرية واضحة وأنف معقوف .. وشفاه ضيقة انحنت في جمال خلاب."

وقعت آسنج في هوى دوجلاس فها هي ترى الحياة تماثل الفن، لكن هذه المرة في قصة أخرى إذ ترى نفسها الآن البطلة الجميلة

الرائعة المستمدة صورتها من إحدى رواياتها المفضلة "أفرا بن" الصادرة عام ١٨٤٩ للكاتبة الألمانية كلارا موندت. وفي المشهد الرئيسي لرواية موندت تقع أفرا في حب رجل ثوري مهذب أسود. وفي الدراما التى خلقتها تقول آسنج لنفسها، تماماً كما حدث في أحداث موندت، فإن البطل الأسود متزوج بالفعل. وهذا لايهمها حيث أنه في الأدب العظيم- وهو يشبه الحياة المعاشة تماماً- يتعين على البطلة أن تتمم قصة حبها وتضحي بنفسها في سبيل من تحب. كانت تلك الحبكة الرئيسية الحقيقية الوحيدة، فلا عجب إذن أن تتجاهل آسنج ذكر آنّا في مقدمتها للكتاب. كما كتبت في تناقض غريب: "إن زوجة دوجلاس سوداء تماماً"، وفي تصريحاتها الخاصة كانت تشير لآنّا على أنها "ولاية حدودية " تحمل حجر رحىً حول عنقها". (تقصد دوجلاس)

بالفعل، ضحت آسنج بنفسها من أجل بطلها لأن شقتها هى التي اتخذها دوجلاس ملجأ في هوبوكن مع بدايات أحداث غارة جون براون وكان رجلاً مطلوباً تبحث عنه السلطات الفيدرالية من أول الرئيس حتى أدنى مسئول في كل مكان. وكانت آسنج هي التي هرعت إلى مركز البرق "التليغراف" لترسل إلى دوجلاس رسالة شفرية تخبره بضرورة تدمير أو إخفاء أية وثائق حساسة تتعلق

براون. ودون معونتها، ربما كان قد تم القبض عليه وإرساله الى فرجينيا حيث يحاكم ويعدم بالتأكيد.

لقد حققت آسنج قصة حبها لبطلها، في خيالها على الأقل، وأخبرت أختها في أحد الخطابات: "عندما ترتبطين بشكل حميمي برجل مثل ارتباطي بدوجلاس، فستعرفين رجالاً ... من منظور لا يمكن أن يتكشف لك بغير هذا." وفي خطاب آخر تفخر بأنها ودوجلاس "قد اتحدا في حب أعمق من حب الكثيرين ممن تزوجوا." كانت آسنج تمضي معظم أوقات كل صباح مع أسرة دوجلاس، وعندما تعود إلى هوبوكن في الخريف كانت تبقى متطلعة لإجازتها الأسبوعية "موعد خطابات دوجلاس لها." وعندما خطط دوجلاس رحلته إلى هايتي، قامت بترتيبات الذهاب معه. كان واضحاً أنهما سيكونان معاً فقط طالما كان على آنّا والأطفال البقاء في المنزل في روشيستر، وطمعت آسنج في قضاء بعض من الوقت مع دوجلاس في بلد بعيد بدون "ولاية الحدود" آنّا التي تتدخل في شئون حبهما.

لا ريب أن دوجلاس وآسنج كانا صديقين حميمين. لكن إلى أي مدى كانت علاقة حبهما عميقة وجنسية بشكل معروف؟ فالمصادر الوحيدة الباقية تفترض وجود علاقة جنسية حميمية بينهما تبدو من مجموعة الخطابات التي كتبتها أوبتلي لأختها لوديميلا بعد



الحرب. في ذهن آسنج أنها حققت ماتحب. لكنها كانت تكره أختها، ففي الحقيقة كانت آنّا "ودودة ومحببة مقارنة بلودميلا." إذ كانت أختها منافستها وغريمتها وكان واضحاً أن آسنج أخبرت لودميلا بعلاقتها بدوجلاس بعدما علمت بأنها تزوجت بأرستقراطي ألماني، ووصفها للحب بأنه أعمق من الزواج يعكس أماني بالزهو والفخر، فمع الخصوم والغرباء كانت تغطي عدم شعورها بالأمان وغيرتها بالتباهي الثقافي.في كتابات دوجلاس في تظهر آسنج كصديق غامض. وكان أكثر وضوحاً في مشاعره نحو أصدقائه المقربين الآخرين من أول جوليا جرنفيث وإيمي بوست حتى جيريت سميث. والواقع أنه نادراً ماذكر آسنج في كتاباته العامة أو الخاصة عدا في خطاباته إلى جيريث سميث الذي كان صديقاً لآسنج كذلك. قد نبع ذلك الصمت من شيء يريد دوجلاس إخفاءه. إذ أمكنه إقامة علاقات جنسية معها دون المخاطرة بأن تحمل منه وبالتالي تدمر مستقبله لأنها كانت في عام ١٨٦١ قد وصلت إلى الثانية والأربعين من عمرها.

كانت هناك عوامل أخرى عدا آنّا تمنعه من جعل ارتباطه بآسنج أبدياً وحميمياً. من هذه العوامل– على أية حال– أنها كانت نخبوية "متعالية" إذ كانت غير متعاطفة كلية مع فقراء أمريكا وطبقاتها الجاهلة خاصة المهاجرين. كما أطلقت على نيويورك "مأوى حثالة

الأمم بسبب الجماعات الأيرلندية الوقحة والجاهلة." وصرحت في أحد خطاباتها له: "أن تعليم قطة قواعد النحو أسهل من تعليم أحد سكان "ولايات الحدود." ظل دوجلاس يحمل مشاعر طيبة نحو زوجته رغم الضغوط الواقعة على زواجهما.

كما أن معتقداتهما النسبية أبقتهما متباعدين. فدوجلاس يؤمن بإله حي يستطيع تغيير أمور العالم فيقول: "كل الأمور ممكنة بيد الله، وأنا أؤمن بالعصر الألفي السعيد الذى يسود فيه المسيح." وكانت آسنج تفزع من تلك المشاعر لأنها كانت ملحدة في الصميم ولا تتعاطف كثيراً مع المعتقدات الدينية لأي شخص آخر حيث أحلت الحقيقة في الفن والخبرة الجمالية محل الدين، وأقرت بالفجوة الروحية الشاسعة التي تفصل بينهما فصرحت: "إن التعاطف الشخصي وتوافق العديد من القضايا الأساسية تجمعنا معاً. لكن هناك عقبة تقف أمام الصداقة الودودة والدائمة هي بالتحديد ... الإله المسيحي بشخصه."

ربما لم تكن صدفة أنه في الوقت ذاته الذي دخلت فيه آسنج حياة دوجلاس وشنت حربها الخاصة على آنا، كانت الأمة تنقسم على نفسها. فالكثير من الأمريكيين كانوا يؤمنون بأن أمتهم عائلة واحدة. كانت ماري تشيسنوت قد كتبت في مذكراتها بعد فترة - رغم أنها أرستقراطية من الجنوب- "لقد انقسمنا بسبب عدم توافق



طباعنا . . . لقد تم طلاقنا . . شمالاً وجنوباً لأننا كرهنا بعضنا البعض." في حين رأى دوجلاس أن هناك علاقة وثيقة بين العائلة والأمة وبين الطلاق والانفصال.

لو كان تدمير العبودية هو الطريق الأسرع لإنهاء الحرب، فإن إيقاف التمرد داخل الوطن أكثر صعوبة في تحقيقه ؛ فوسط ذلك الجو لم تعد قدرة دوجلاس على التمييز بين الصواب والخطأ قاطعة وواضحة. ففي حين كان يرفض المهادنة في معارضته للعبودية وتصميمه على أن يقوم الأمريكيون بالتفريق بين ولائهم للأمة وولائهم للعبودية، كان في علاقاته الشخصية يبحث عن التوافق والاعتدال. فقد أعاد وحدته مع ويليام لويد جاريسون خلال الحرب، مستبعداً صراعها الطويل المرير الذي امتد لعقد من الزمان. كما كتب خطابات ودودة لسيده السابق توماس أولد يخبره فيها أنه يحبه، بل ووزع عواطفه بين زوجته وأوبتلي آسبج طوال عشرين عاماً، واتخذ لنكولن صديقاً رغم انتقاده لسياساته.

***

أخذ المد يتحول ببطء، وبنهاية فبراير قام دوجلاس بتجميع قائمة انتصارات الاتحاد من جانب والكونفيدرالية من جانب آخر واستنتج من منظور عسكري بحت أن الاتحاد قد سحق المتمردين بفوزه بثلاث معارك مقابل كل معركة فاز بها العدو. كان الاتحاديون في كل

مكان يتهللون فرحاً بينما كان المتمردون يشملهم اليأس، وسوف تستمر مسيرة الإنتصار طالما امتلكت قوات الاتحاد قواتاً مدربة تعادل ثلاثة أضعاف قوات الكونفيدرالية. كان المتمردون يتباهون بأن رجلاً واحداً من الجنوب يكافيء خمسة من رجال الشمال، فأخذ ذلك الفخر يتلاشى من صفحات جرائدهم، وأبدلوه "بصرخة السخط" وبالتالي يكون المتمردون قد فشلوا عسكرياً، وهذا ماإستخلصه دوجلاس.

كان "قلب الشعب" في مكانه الصحيح لدى مواطني الشمال. ففي فبراير ١٨٦٢ انطلق دوجلاس في رحلة كالاعصار لمدة أسبوعين قطع فيهما آلاف الأميال. تحدث فيها لصالح رابطة تحرير العبيد وقابل عشرات الآلاف من الناس ، وتعامل مع تلك الرحلة على أنها حملة سياسية. وكبداية لكل حديث، كانت موضوعات الحرب والعبودية أكثر انتشاراً وشعبية من أخبار الطقس. وهكذا، كان من السهل اجتذاب الناس إليه رغم كونه أسوداً. كان يتحدث إلى المسافرين في محطات القطارات ومراسي الأنهار وفي العربات وعلى أسطح السفن، وأثناء تناوله طعامه بالمطاعم، بل مر بالموائد ليرى كيف يشعر الناس تجاه الحرب والعبودية. وفي المساء كان يذهب للناس في بيوتهم ويجلس حول النار للحديث حول مستقبل الأمة. كما اختلط بالناس في الكنائس وصالات الاستقبال بعد محاضراته

ليتوصل للرأي العام ومشاعره. ورغم الطبيعة القاسية للرحلة والطعام السيء والدخان الذي ملأ جو القطار ومرور بعض المخمورين من الديمقراطيين الذين تجاهلونه مغمغمين بكلمة "زنجي"، إلا أن تلك الرحلة ملأته بالشجاعة وخلص إلى : "أن الشعب جاهز تماماً لإزاحة العبودية من الوطن حالما تبدأ الحكومة في قيادة الطريق، أو تتنحى عنه." فالرأي العام كان إلى جانبه، وانتصارات الاتحاد ورابطة تحرير العبيد أخذوا يحولون الشمال ضد العبودية.

وبعندئذٍ، وفي أبريل من عام ١٨٦٢ أصدر الكونجرس قانوناً لإلغاء الرق في ولاية واشنطن وكانت تلك أول مرة منذ عام ١٨٤٦- عندما ألغت نيوجيرسي العبودية في تاريخ الأمة يصدر فيها قانون بشأن تحرير العبيد .منذ ذلك الوقت تزايدت أعداد العبيد بنسبة ٥ر١ مليون نسمة.

أرسل دوجلاس إلى تشارلز سومنر ليشكره على تقديم جهوده للدفاع عن القانون إذ كانا قد أصبحا صديقين مؤخراً، خاصةً وأن ضرب سومنر بالعصا قد أدى به للتواضع، وأزال الكثير من التعالي الذي وقف في طريق علاقته بالسود. تراسلا بانتظام وأرسلا لبعضهما مجموعة من كتاباتهما، وكما قال دوجلاس في مذكرته ،كان سومنر "أفضل تجسيد لمبدأ مناهضة العبودية الموجود الآن في مجالس الأمة." وأضاف : "فليحفظك الله!"



رغم تلك النجاحات الأخيرة ، نظر دوجلاس للنكولن على أنه مازال عائقاً، فمهما كانت نواياه، كانت أفعاله "تحسب في خانة حماية ووقاية النظام العبودي." ، كما قال دوجلاس لجماهير يفوق عددها ألفي شخص في الخلاء احتفالاً بيوم الرابع من يوليو في منطقة هيمرود بإقليم فنجر ليكس في نيويورك .فقد وقف كنبيّ وسط أشجار الصنوبر وهو يلقي خطابه خطابه، وتجمع الناس حوله في دائرة. كان يرتدي بزة زرقاء فاتحة اللون تباري لون السماء، بدت ترسل أشعة لامعة منعكسة من الشمس على فترات. وعلى مبعدة، كانت فرقة موسيقية تعزف بهدوء كما لو كانت ترافق ابتهالاته النثرية والمتنافرة مع سياسات الرئيس المضللة.

منذ بداية الحرب ولنكولن تقوده فكرة ولايات الحدود لا الولايات الحرة. إذ أراد "إعادة بناء الاتحاد على أساسه الفاسد القديم القائم على التوافق" وفيه يحتفظ ملاك العبيد بكل السلطات التي كانوا يملكونها دوماً .

لذلك، رفض تسليح العبيد كما رفض تحريرهم. كما ألغى اعلان الجنرال فيرمونت بتحرير العبيد، وبعد ذلك ألغى قرار الجنرال دافيد هينتر الذي أعلن في مايو ١٨٦٢ قانون الأحكام العرفية في ساوث كارولينا وجورجيا وفلوريدا وجاء فيه : عبيد تلك الولايات أحراراً للأبد . وفي ذات الوقت، منع الجنرالات الذين يناهضون العبودية من

التدخل في شئون نظام الرق، بل وسمح للقادة مؤيدي العبودية مثل الجنرال هنري هاليك وجورج ماكيلان "بانتهاك روح قانون المصادرة الذي اعتمده الكونجرس والذى يمنع جيش الاتحاد من إعادة العبيد الهاربين إلى سادتهم الخونة، وكأنما أراد أن يضيف الإهانة للظلم . في نفس يوم تعطيله لقرار الجنرال هنتر بعتق العبيد، صرح علانية أنه سوف يدافع بصرامة عن قانون العبد الهارب.

أضحت سياسات لنكولن أكثر مأساوية لأن الأمة أصبحت الآن أكثر قدرة عن ذي قبل على تحقيق مثلها العليا . ولاحظ دوجلاس : "هناك مباديء في وثيقة إعلان الاستقلال سوف تطلق سراح كل عبد في أرجاء المعمورة، وتعد الأرض لاستقبال ألفية الحق والسلام." لكن بالنسبة للنكولن "ياللحسرة!".

أخبر دوجلاس مستمعيه أن هذا الاتحاد لا يمكن إنقاذه حيث لايمكن إعادة بنائه كما كان قبلاً.قال: "عليكم أن تعرفوا تلك الحقيقة!" وقدم استراتيجيتين بسيطتين لتدمير الوحشين التوأمين: التمرد والرق. فأولاً، يتعين على " الكونجرس أن يقر قانوناً حاسماً للمصادرة يعلن أن كل عبيد السادة المتمردين أحرارا للأبد!"

وثانيا، يتعين على الرئيس– كقائد للأمة– أن يصدر قراره الخاص بتحرير العبيد ليمنح قانون المصادرة أسناناً .

أعلن كثيرون ممن حضروا احتفالات الرابع من يوليو، في بستان الصنوبر ، أن لنكولن كان نبيّاً ذلك أنه بعد ثلاث عشرة يوماً أي يوم ١٧ يوليو اعتمد الكونجرس قانون المصادرة الثاني الذي أعلن أن كل العبيد داخل حدود الاتحاد أحراراً للأبد . ودعا الرئيس لتحرير كل عبيد السادة المتمردين. طلب القانون من الرئيس أن يمنح المتمردين مهلة قدرها ٦٠ يوماً للعودة إلى الاتحاد أو مواجهة المطاردة واحتجاز أملاكهم. كما منح السلطة للرئيس لاستخدام وتسليح السود في الجيش وتوفير "توطن اختياري" في بعض "البلدان الأجنبية" للعبيد الذين تم تحريرهم أثناء الحرب.

كان قانون المصادرة الثاني ثورياً في محتواه، رغم مادته الخاصة بالمستعمرات. فتأثيره يعتمد على لنكولن ، ووفقاً لما لاحظه دوجلاس ف : "إن السلطة الوحيدة القادرة على نفخ الحياة في ذلك القانون مخوّلة للرئيس." فلو أمر لنكولن قواده بمصادرة جميع أملاك المتمردين، وأصدر تصريحاً بعتق العبيد وأمر الجيش والقوات البحرية بتشغيل السود، عندئذٍ سوف يؤدي القانون- مدعماً بتصرفات لنكولن المؤيدة- إلى تغيير الأمة. وإذا لم يفعل لنكولن شيئاً، فلن يزيد القانون كثيراً عن رسالة ميتة.

انتظر دوجلاس ماسيفعله الرئيس بقلق. وفي يوم ٢٥ يوليو أصدر لنكولن بياناً يحذر فيه الجنوبيين بإيقاف تمردهم وإعلان

عودتهم للولايات المتحدة وإلا ستتعرض أملاكهم للمصادرة. لم يرد دوجلاس أن ذلك التصريح قد وصل إلى المدى المطلوب لأنه لم يذكر شيئاً عن حالة العبيد، وصمت عن تشغيل وتسليح السود. ولايزال لنكولن كثير التردد شديد البطء في أفعاله.

كان مصدر واحد مشجع جاءه من تشارلز سومنر، الذي قال إنه يعرف الرئيس عن قرب وحثّ دعاة التحرير على الوثوق به حيث قال: "أتمنى أن تكونوا قد عرفتم الرئيس جيداً وسمعتم تعبيراته الصريحة عن قناعاته بشأن العبودية ولربما تمنيتم لو كان أقل حذراً. لكنكم ستحمدون له أنه خصم عنيد للعبودية في قرارة نفسه." ودعى لتقديم الدعم للنكولن: "... حتى لو كان عليكم أن تدفعوه قدماً." قام دوجلاس بنشر خطاب سومنر في صحيفته.

بعد أسابيع قلائل، فقد دوجلاس الثقة في لنكولن من جديد، ففي أغسطس التقى الرئيس بوفد من السود الأحرار من واشنطن وشجعهم على الهجرة. ربما شعر دوجلاس بأنه عومل بازدراء عندما لم تتم دعوته للقاء. وكان قد اشتعل غضباً برسالة لنكولن أن السود هم من تسببوا في الحرب وأنهم لا يمكن أن يتساووا بالبيض، وأنهم يجب أن يهاجروا إلى بلد مداري. كما خلص دوجلاس إلى أن استجابة لنكولن على أنها "إنني لاأحبكم. عليكم أن ترحلوا عن أرض الوطن!" لم يكن الرئيس يهتم بالإنصات لما يقوله السود. فكل

خطوة في مسيرته الرئاسية تتعلق بالعبودية تثبت أنه كان نشطاً في تدعيمها وسلبياً "نحو قضية تحرير الذين يدين لهم بانتخابه."

وفجأة في ٢٢ سبتمبر، ومثل انفجار جاء من السماء، أعلن الرئيس بيانه المبدئي بشأن تحرير العبيد. إذ أعلن أنه يوم ١ يناير عام ١٨٦٣ سيصبح كل عبيد الملاك المتمردين "أحرارا للأبد"، وأمر أفراد القوات المسلحة بالاعتراف بحريتهم، بل إنه مضى خطوة أبعد من خطوة قانون المصادرة فحث الكونجرس على تحرير العبيد في ولايات الحدود بتعويض سادتهم. وبعد يومين، علق العمل بقانون "المثول أمام القضاء" لكل المتمردين ومحرضيهم وأمر بمعاملتهم كأسرى حرب.

كانت اللحظة التي وردت فيها أنباء البيان التمهيدي لقرار تحرير العبيد أسعد لحظات حياة دوجلاس. كان يعمل بمنزله في روشيستر عندما سمع الإعلان وكتب رده على ذلك ونشره في الصفحة الأولى لجريدته. كاد لنكولن قد حطم فؤاده بسبب "بطء التشاور" وأغرقه ذلك في أعماق اليأس. لكن مثل شيء ضاع وتم استرداده، تجددت آماله فجأة من أجل الأمة فأعلن: "اننا نصرخ فرحاً لأننا عشنا لنسجل هذا القرارالصحيح." إذ كان قد كرس كل ساعة من ساعات يقظته منذ لحظات صباه لإنهاء العبودية. فحينما كان طفلاً على الشاطيء الشرقي لماري لاند، كان يتساءل لماذا السود هم

العبيد ؟ ومن تلك الساعة فصاعداً كانت "الصرخة التي وصلت إلى شغاف روحي وأكثرها سكوناً، ليلاً ونهاراً وهي إلى متى ؟ إلى متى . . رباه؟ أيتها القوة الأبدية للكون، إلى متى ستستمر تلك الأوضاع؟" الآن عرف. إن خلاص الملايين أوشك على التحقق.

لم يعد لدى دوجلاس أي شك في أن إعلان الرئيس بالتحرير مع قانون المصادرة الثاني سوف يؤديان سريعاً لنهاية الرق في جميع أرجاء أمريكا. "فالعبودية بمجرد إلغائها في ولايات التمرد سوف تصاب في مقتل في ولايات الحدود إذ عندما تتحول أركنصو إلى ولاية حرة، لن تستطيع ميسوري الاستمرار كولاية للعبيد." ومالم يكن دوجلاس متأكداً منه هو إلى أي مدى سيستطيع لنكولن الاستمرار في التمسك بقراره؟ لأنه خلال الأيام والأسابيع التي أعقبت ٢٢ سبتمبر نادراً ما ذكر الرئيس أي شيء عنه. الأكثر من ذلك أن دوافعه بدت نابعة من الضرورة العسكرية المجردة. كما أنه أبدى في كل تصرفاته السابقة افتقاراً واضحاً لمشاعر العداء الحيوي للعبودية. لكن دوجلاس عرف أنه لا لنكولن ولا أي إنسان آخر له السيطرة على حركة العتق. فهناك أحداث أعظم كثيراً من سلطات الرئيس "قد انتزعت ذلك القرار منه." هذا ماذكره دوجلاس مضيفاً أن نفس تلك الأحداث سوف تدفعه للمزيد: لتوقيع القرار النهائي بالخلاص. كان العبيد يفرون يومياً من سادتهم باتجاه حدود الاتحاد. وكان دعاة

التحرير يتحدثون بلغة واحدة وعمل الجمهوريون في الكونجرس على إلغاء العبودية، وقام جنود الاتحاد بقتل خونة الوطن. كان كل ذلك جزءاً من موجة العناية الإلهية المتقدمة لاكتساح الأرض. لذلك كان غريباً أن نفترض أن رجلاً واحداً بيده خلاص أربعة ملايين عبد. إذن، لن يتخذ أبراهام لنكولن أي خطوة للتراجع، وحتى لو حاول فسوف تخرسه وتكتسحه موجة التقدم.

ومع اقتراب يوم الخلاص، بدا دوجلاس غير قادر على الكلام. كان يوم ٢٨ ديسمبر، وهو الأحد السابق لتفعيل قرار التحرير، قد تحدث في كنيسة جبل صهيون الأمريكية بروشيستر وهي من الأماكن المفضلة لديه لأنه عرف شعبها وأحب حجارتها القوطية الطراز بزجاج نوافذها المتداخلة الألوان الذي يبدو- خاصة الآن- مترجرجاً. كانت السماء بلا سحب، "شمسها مشرقة والجو معتدل" وكان ديسمبر بهيجاً كما لو كان مايو. وكان اليوم "منسجماً مع صباح الحرية المجيد الذي على وشك أن يهل علينا." توقع المصلون ساعتين تقريباً من الوقت لأداء خطبة دوجلاس لكنهم بدلاً من ذلك تلقوا موعظة في عشر دقائق. كان ذلك أقصر خطاب في حياته لأنه بدأه بقوله: "ذلك يوم يصعب فيه الكلام نثراً . . . إنه يوم الشعر والغناء . . . أغنية جديدة." كان واحد من أعظم خطباء العالم، يبدأ كلامه بقوله إن ذلك ليس وقت الكلام! فالكلام لا يمكنه

أن يحمل العاطفة التي يريد نقلها للآخرين. إن الكلمات لايمكنها أن تصور العهد الجديد القادم على نحو كاف . لقد طغى أمله المستعاد من أجل الوطن على إيمانه بقوة تأثير "الحكي" .١٤١

في يوم رأس السنة الجديدة لعام ١٨٦٣ ألقى دوجلاس خطاباً قصيراً آخر. وقد استلهمت مئات الاحتفالات عبر بلدان الشمال روح العصر الجديد، ولم يكن دوجلاس وحيداً في تفضيله الموسيقى والشعر وصيحات الفرح على إلقاء المحاضرات. أما في بوسطون فقد شهد ثلاثة آلاف شخص من بينهم أغلب الطبقة المثقفة في نيو إنجلاند حفل الابتهاج الموسيقي بقاعة "ميوزيك هول" بينما فضل دوجلاس حضور احتفال أقل أناقة في تيرمونت تمبل القريبة وهي كنيسة معمدانية تقع على بعد مبنى واحد في مجلس العموم. كانت هذه الكنيسة من اللكنائس المتكاملة القليلة في بوسطون وكانت لها شهرة مثيرة بين الراديكاليين. فغالباً ما ألقى كل دعاة التحريرالرئيسيين خطبهم هناك، من ويليام لويد جاريسون ووينديل فيليبس حتى جون براون وجيريت سميث. حتى لنكولن ألقى محاضرة بها، ودوت رنات لكنته الغربية في أرجاء حوائطها عام ١٨٤٨ أثناء دعوته لانتخاب زاكري تايلور. كما خطب دوجلاس في هذا المبنى في عدة مناسبات، كان أقربها قبل عامين في ذكرى استشهاد جون براون، وقد حاولت جماعة من الدهماء منعه من الكلام. لكنه شق طريقه

بقوة للمنبر "مثل ملاكم مدرب" وألقى رثاءه. فإذا لم تستطع الكراهية أن تخرسه، حينذاك فالسعادة الآن تطير به فلا يقدر على الكلام.

تقابل أكثر من ثلاثة آلاف من السود والبيض ودعاة التحرير في الصباح عند الكنيسة ، وألقى المؤرخ الأسود ويليام كوبرنيل محاضرة حول معنى "عيد العام الجديد للعبيد" وكان الاحتفال تقليدياً علامة على نهاية أسبوع بكامله من الشراب والاحتفال والراحة في العمل. وكان معروفاً أيضاً "بيوم انكسار القلب" لأن كثيراً من العائلات كانت تباع فيه وينفصل أفرادها . لكنه من الآن فصاعداً سوف تتميز رأس السنة الجديدة "بالمجد الخالد في تقويم الزمن." وطوال اليوم، ألقيت عدة خطب وقطع الموسيقى، لكنلم يصدر أى إعلان عن قرار العتق النهائي. اختتم دوجلاس تلك الجلسة المسائية بقوله إن تلك اللحظة تمثل افتراقاً حاداً عن خطايا الماضي . "لقد مررنا بفترة من الظلام الحالك، لكننا الآن نرى ضوء الفجر ونلتقي الآن للاحتفال به." و في المساء، امتلأ المكان بالموسيقى والعروض وغيرها بينما كان ينتظر كل امرئ كلمة من واشنطن بقلق شديد. وفي الساعة ١١ مساء قال دوجلاس: "لن نعود لبيوتنا حتى الصباح." إذ شعر بالكآبة وبدأ يفقد الأمل كله من جديد. لماذا يتأخر لنكولن دائماً إلى هذا الحد ؟ . وفجأة اندفع رسول داخل القاعة وأعلن: "إنه قادم . . إنه على أسلاك البرق " وانفجرت قاعة الكنيسة بصيحات الفرح. قال

دوجلاس: "لم أر سعادة مثلها قبلاً . . . ولم أر حماسة مثل تلك من قبل. لقد صفقنا لأبراهام لنكولن ثلاث مرات ولكل امرىء آخر ثلاثاً." وعندئذٍ، بدأ دوجلاس يغني تلقائياً الأغنية البطيئة "فلتدوّ أيها البوق . . . دوّ!" وهي أنشودة جون براون المفضلة."

فلتدوّ أيها البوق . . . دوّ،
بذلك الصوت المبهج الجاد
ودع كل الأمم تعلم
إلى أبعد حدود الأرض،
أن يوبيل العتق آتٍ الآن،
ليعيدكم أيها المرتهنون بالخطيئة لوطنكم!

بصدور قرار التحرير، تغيرت اتجاهات دوجلاس نحو لنكولن فجأة بصورة درامية. ولم يعد ثانية لانتقاد الرئيس بقسوة رغم أنه واصل الاختلاف معه حول الكثير من الأمور. لقد عرف جيداً أن ذلك القرار يعد وثيقة ثورية حولت الحرب إلى "سباق حضاري ضد البربرية" بدلاً من القتال من أجل الأرض. وكان هذا يتطلب "طاقة وحياة أبعد كثيراً مما به من كلمات." كما أصبح وثيقة مقدسة أخرى أعادت إعلان الاستقلال لمكانه الصحيح وسط قوانين الأمة. وصرح أنه من الآن فصاعداً سيعد يوم الأول من يناير ومعه الرابع من يوليو عيدين توأمين لميلاد الحرية.

***

كان الزمن هو كل ماكان يحتاجه لنكولن. فكل شيء كان يحدث بصورة متسارعة يهتز ويدور خارج السيطرة حيث بدا عالمه كله في دوامة أبدية من الحركة. لقد أراد من كل فرد في الوطن- خاصة الجنوبيين- أن يسيطر على نفسه وأن يهدأ قليلاً. لقد ضرب مثالاً كرجل دولة يسيطر على الزمن وعلى عواطفه.

وخلال الأشهر الأربعة ما بين انتخابه ووصوله إلى واشنطن، تصرف كما لوكان يمتلك كل الوقت في العالم. وفي الواقع فقد قام هو وماري بالتعامل مع تلك الفترة كأنها شهرعسل رئاسي ، فذهبت ماري لنيويورك ثم إلى سانت لويس لشراء خزانة للثياب طالما سيتقاضى زوجها ٢٥٠٠٠ دولار في العام أي خمسة أضعاف متوسط راتبه السنوي السابق، ولن تقلق بعد ذلك بشأن الأسعار، خاصة وأنها تحب التسوق. ولفت ذلك أنظار التجار الذين كانوا يتلهفون على عرض بضاعتهم واقناعها بشراء ثوب آخر.

بقى لنكولن في سبرنجفيلد يمتع جحافل زواره بحكاياته الطويلة، ونكاته الرديئة مقتبساً الكثير من خرافات يسوب، واستمع إلي عدد لا يحصى من الساعين إلى مكتبه لقصته التي تنطوي على مفارقة في القول عن . فقد قال باترك: "لن ألبسه أبداً . . . حتى أرتديه يوماً أو إثنين فيتسع قليلاً. " وفي هذه اللحظة كان لنكولن يضرب فخذه



أو "يجذب ركبتيه لأعلى حتى يقتربا من وجهه" ويضحك بصوت كالزئير حيث تتردد أصداء ضحكته حادة النبرات في أرجاء مقر الولاية بسبرنجفيلد . بل لقد قام لنكولن باستقطاع جزء من وقته خارج العمل لزيارة زوجة أبيه سارة بوش جونستون لنكولن التي لم يرها منذ سنوات، وكانت تعيش بمقاطعة كولز في جنوب شرق الولاية. وكيما يصل إليها، كان عليه أن يسافر بقطار شحن بارد قذر ثم بواسطة عربة يجرها جواد ليصل إلى هناك. صرخت سارة عند رؤيته، فلم ترغب يوماً أن يرشح نفسه للرئاسة والآن يملؤها القلق "مما قد يحدث له في واشنطون." فأكد لها: "لا . . لا يا أمي! ثقي في الله وسيكون كل شيء على مايرام، وسوف يرى بعضنا البعض قريبا .

بدأ لنكولن يترك لحيته تنمو استجابة لمستشاريه من الجمهوريين والمحبين رغم أنها بدت كشعر العارضين المشوه حيث أنه كانت له سوالف خفيفة على جانبي خديه. كان ما أقنعه لتجربة ذلك الشكل الجديد خطاب تلقاه منذ أسابيع قليلة سابقة على الانتخابات من الفتاة جرس بيديل— ذات الأحد عشر عاماً— في وستفيلد بنيويورك بالقرب من بحيرة إيري. كانت جرس قد وعدته باحضار أخوتها لانتخابه إذا ماترك لحيته تنمو قائلة: "سوف تبدو أفضل كثيراً لأن وجهك رقيق جداً . . . فكل السيدات يحببن

سوالف الرجل وسوف يدفعن أزواجهن للتصويت لك. عندئذٍ، ستصبح رئيساً." تأثر لنكولن كثيراً باقتراحها وأجابها بملحوظة شخصية صغيرة، قال لها فيها إنه لسوء الحظ ليس لديه بنات وأن لديه ثلاثة أبناء "أكبرهم في السابعة عشر من عمره والثاني في التاسعة والأصغر في السابعة من عمره. أما بالنسبة لسوالفي، فلم أترك أياً منها تنمو من قبل. أفلا تظنين أن الناس سيقولون إنه شيء سخيف إذا مابدأته الآن؟". إلا أنه نفذ نصيحتها على كل حال ربما لاعتقاده أن السوالف ستضفي عليه مظهراً أكثر تبجيلاً، أو ربما وافقها لأن وجهه- فعلاً- رقيق جداً.

علق العديد من الناس على طيش لنكولن وخفته خلال الشهور بين الانتخابات وبين استلامه لمهامه. لم يفهم ذلك الكثير من الزوار، أو استنتجوا أنه غير صالح لحكم البلاد. لكن روح الدعابة كانت طريقته في التعامل مع الأزمات الخطيرة.

ذات ليلة خلال عشائه بأحد المطاعم، تقدم إليه أحد المعجبين ليخبره بأنه يأمل أن يسخر حياته لحمايته، فابتسم لنكولن واندفع يقص عليه قصة جندي نسجت له أخته حزاماً مكتوب عليه: "النصر أو الموت!" فقال الجندي "لا.. لاتكتبوا تلك الجملة بهذه الصراحة، بل اكتبوها هكذا "النصر أو الجراح البالغة!".



استخدم لنكولن روح المرح- أيضاً- مع السياسيين الذين كانوا يعارضونه. ذات مرة، سافر الحاكم السابق لولاية كينتاكي إلى سبرنجفيلد ليحثه على الاستجابة لمطالب الانفصاليين ويبتسم لنكولن- من جديد- ثم يروي له خرافة من يعسوب عن الأسد الذي يقع في حب ابنة الفلاح، فطلب الأسد يدها- وهو منهار تماماً- للزواج، ووافق الفلاح شريطة أن يقوم الأسد بخلع أنيابه ونزع مخالبه كيما يهدئ من روع ابنته فوافق الأسد، وحالما نزع أنيابه ومخالبه، ضربه الفلاح بهراوته وطرده بعيداً. أعجب المسئول من الكينتاكي بالحكاية، ولكن لم تعجبه المقارنة بين الفلاح صاحب العصا وبين ملاك العبيد.

نبع جزء من طيش لنكولن بسبب افتراضه أن الإنفصاليين كانوا يبلغون وأنهم سوف يعودون سراعاً للاتحاد. فمنذ اتفاق ميسوري لعام ١٨٢٠، كان ملاك العبيد وحلفاؤهم يتحايلون ويبلغون للالتفاف حول واشنطن حتى أصبحت العبودية مؤسسة قومية كاملة، وأصبحت الحرية- في المقابل- ترفاً فنوياً. وفي مواجهة العديد من خطط التوافق التي كانت تدور في قاعات الكونجرس، وتهديدات القتل التي تجاهلها لنكولن، التزم "صمتاً مطبقاً" وفقاً لصياغة دوجلاس عدا محاولته طمأنة الجنوب إلى أنه لن يتدخل في شئون العبودية بولايات العبيد. وفي خطاباته "الخاصة والسرية"، هجر

لنكولن نبرة الطيش والتهور أخذ يكرر قوله للجمهوريين عبر أرجاء البلاد: "لا تجعلوا هناك مجال للحل الوسط بشأن العبودية إذ لو تحقق لضاع كل عملنا هباءً، ولاستمر الخطأ طويلاً، وأصبح علينا أن نبدأ من جديد ... فلأن يأتي زورق القطر الآن أفضل كثيراً من أن يأتي فيما بعد." إن هدف كل الحلول الوسط هو "وضعنا مرة أخرى على الطريق السريع لإمبراطورية العبيد." وإذا لم نقم باحتواء مسألة العبيد بجذر، سيحاول الجنوبيون مرة أخرى غزو أراض جديدة أو الاستيلاء عليها لإشباع شهوتهم في الشر.

لم يجد لنكولن مشكلة في منح الجنوب المزيد من الإمتيازات، ووافق على إبطال قوانين الحرية الشخصية في ولايات الشمال التي تعوق تفعيل قانون العبد الهارب. كان ذلك تنازلاً هائلاً لأنه في حين يرفض التدخل في شئون العبودية بالجنوب، يريد أن يقلص حرية السود بولايات الشمال. كان يقول: "بالنسبة للعبيد الهاربين ... فأنا لا أهتم بهم قليلاً"، بل إنه وافق على جعل نيومكسيكو ولاية للعبيد إذا تم منع المزيد من امتداد الرق." كانت تلك المشروعات والمفاوضات تجرى في خطاباته السرية، أما في العلن فقد قدم نفسه كنموذج لرجل الدولة الواثق الذي ينتظر في صبر أن تهدأ أهواء الجنوب.

وصل لنكولن لأقرب مرحلة إلى فقدان السيطرة أثناء أزمة الانفصال التى حدثت وهو يعد نفسه لمغادرة سبرنجفيلد متجهاً

للبيت الأبيض، بل كان قد قام بحزم منقولات أسرته بنفسه مسجلاً عنوانه عليها (أ.لنكولن- البيت الأبيض- ولاية واشنطن) ناسياً أن كل مواطن يعرف بالضبط إلى أين هو ذاهب. كان قد قضى نصف عمره في سبرنجفيلد وفيها تحول من صبي فقير وحيد جاهل إلى أول رئيس عصامي. وعجلت تعبئته لمنقولاته بدفقة عاطفية بدا معها ماضيه وحاضره أشبه بدوامة من الفوضى فجأة مثل صور تلتقطها من ألبوم الأسرة وتنثرها في الهواء.

قبل المغادرة يوم ١١ فبراير، بعد عيد ميلاده الثاني والخمسين بيومين، ذهب ليودع شريكه القانوني ويليام هيرندون، فأشار للوحة الخشبية المعلقة خارج المكتب قائلاً: "اتركها معلقة هناك دون إزعاج!" ثم خفض صوته وأضاف: "واشرح لعملائنا أن انتخابي رئيساً لايغير من مؤسسة لنكولن وهيرندون للمحاماة في شيء. فلو عشت سأعود ذات يوم وعند ذاك سنمضي معاً في ممارسة أعمال المحاماة إذا لم يحدث شيء آخر."

ودع جيرانه بكلمة واختنق بالعبرات حتى أنه كان عليه أن يتوقف برهة ليجمع شتات نفسه ليقول: "إنني أدين لهذا المكان ولأولئك الناس بكل شيء... لقد عشت هنا ربع قرن، ومررت من الصبا إلى الكهولة، وولد أطفالي ومات واحد منهم ودفن هنا، وأنا أرحل الآن لا أعلم متى قد أعود، وما إذا كنت سأعود أم لا،

وأمـامي مهمـة أعظـم بكـثير مـن تلـك الملقـاة علـى عـاتق جـورج واشنطن. وبدون معونة الإله القوى القدير لا يمكننى أن أنجح فبتلك المعونة لن أفشل أبداً . . فعناية الله ترعاكم! وآمل في صلاتي لكم أن تقودوني، إنني أودعكم وداع المحبة." ثم صعد قطار الرئاسة ولم ير سبرنجفيلد ثانية مطلقا.

عكس خطاب الوداع الذى ألقاه لنكولن إيمانه المتزايد بالله باعتباره المصدر الأساسي للقيم، ولكن احترامه غير المشروط للقانون والدستور باعتبارهما "الدين السياسي للأمة" كما اعتاد الحديث عنهما منذ أمد طويل ، حطمته أفعال ستيفن دوجلاس وروجر تاوني وباقي قادة "سلطة ملاك العبيد". وحلت قوانين الطبيعة والقانون الإلهي حينذاك محل تلك القواعد العلمانية. لكنه بعكس فردريك دوجلاس لم ير في نفسه نبياً ينفذ إرادة الله، أو حتى يدعي علمه بما يريده الله تحديدا. فالله لا يحيط به شيء أكثر منه روحا كامنة. إن أقصى مايأمله المرء على الأرض هو أن يتعرف على علامات وجود الله ثم يعقد اتفاقاً (أو عهداً مقدساً) معه. وبالإيمان به، وهو الذي لم يتخلى مطلقاً عنّ هذه الأرض المفضلة سوف يبادله الله تلك الثقة وذلك الإيمان بإرشاد ذلك المؤمن به إلى طريق الحق.

أمل لنكولن في اتفاق مشابه بينه وبين ناخبيه. وخلال رحلته التي استغرقت إثني عشر يوماً حتى واشنطن توقف القطار الرئاسي عند كل مدينة وقرية، وخرج لنكولن من عربته إلى الشرفة ليلقي خطاباً موجزاً طلب فيه من الناس أن يساندوه طالما ساند هو الوطن ودعم قوانينه حسبما يفهمها.

كانت عربة لنكولن أفخم عربة نقل رآها هو أو أي شخص آخر في حياته؛ كانت عربة تحتل مساحة ٤٠× ٨ أقدام من الفخامة. وقد أصبحت هذه العربة نموذجاً لعربات سفر الدرجة الأولى لرجال الأعمال بعد الحرب الأهلية، وشابهت شقة طويلة ضيقة لها مدخل وصالة عند أحد أطرافها، وغرفة نوم رئيسية، وسرير ذو طوابق للطفلين ويلي وتاد، وأريكة نوم لروبيرت الذي كان طالباً في هارفارد، وحجرة جلوس ضخمة عند الطرف المقابل بباب يؤدي للشرفة حيث وقف لنكولن لتحية ناخبيه.

قضى لنكولن وقتاً أطول مع عائلته في القطار عما كان يفعل منذ زواجه، وأحب وروبيرت الذي شعر بهجر أبيه من قبل هذا الانتباه فضاع خجله وبدأ يثرثر مع الفتيات، ويشرب كثيراً من الخمر (دون أن يعرف والده) "بل وقاد القطار لفترة." وقد تجاهل الواجب الوحيد الذي كلفه به والده ربما لأنه شرب كثيراً مما أدى بأبراهام إلى أن يفقد أعصابه ويصرخ في وجهه.

كان قد طلب من روبيرت حراسة حقيبة تحوي أوراق خطابه الافتتاحي حيث انكب على إعداده بجدية أكثر من أي مقال آخر كتبه، وطبع منه نسخاً لتوزيعها بين الجمهوريين لتلقي الاقتراحات حوله. وخلال ليلة استراحوا فيها، سلم روبيرت الحقيبة بغباء لبواب الفندق الذي قذف بها وسط الحقائب التى لم يطلبها أحد، وجال لنكولن بين الحقائب بجنون بحثاً عنها، ولحسن الحظ وجد الحقيبة وكل النسخ سليمة.

في ١٦ فبراير توقف قطار الرئاسة عند وستفيلد بنيويورك فتذكر لنكولن أن الطفلة جرس بيديل من تلك البلدة، وعندما أطل من الشرفة أخبر الجماهير أنه تلقى خطاباً منها منذ ثلاثة أشهر فقال: "كان خطاباً رائعاً، وقد نصحتني فيه أن أترك سوالفي تنمو لكي تحسن مظهري . . . وقد عملت جزئياً باقتراحها . . وهاقد فعلت." ثم واصل حديثه: "إذا ما كانت موجودة بينكم ... فإنني أود رؤيتها." فقام صبي صغير يجلس على قمة أحد أعمدة السور فاغرًا فمه وعينيه على اتساعهم، وتفحص الجمهور وصاح فجأة: "هاهي ... ياسيد لنكولن." مشيراً نحو فتاة جميلة ذات عينين سوداوين تغشى وجهها الجميل حمرة الخجل.

فهبط لنكولن من العربة وشق طريقه إلى حيث تقف جرس يملؤها الخجل "وقبلها عدة قبلات صادقة، ثم ألقى عليها تحية الوداع



وسط صيحات الفرح الصادرة من المشاهدين المنفعلين .وبعدها واصل طريقه للمحطة التالية."

انتهى شهر العسل في بالتيمورعندما علم لنكولن بخطة وضعت لاغتياله، حيث خطط حلاق بالمدينة مع بعض من رفاقه لاصطياده خلال تغيير القطار على خط بالتيمور- أوهايو الذي يؤدي إلى واشنطن. وبناءً على نصيحة آلان بنكرتون والعديد من المستشارين الآخرين، تسلل الرئيس المنتخب للعاصمة كالمطارد لتضليل القتلة المحتملين، وعندما انتشرت الأنباء أنه دخل العاصمة ليلاً متنكراً، اتهمه الكثيرون من أبناء الشمال (عدا السود بشكل ملحوظ) بالجبن.

في ذات الأوقات، تم تنصيب جيفرسون دافيز رئيساً للكونفيدرالية المنشقة قبل أسبوع سابق على هذه الوقائع. وخلال الأشهر الثلاثة السابقة كان يقف نائب وراء آخر بالكونجرس بالعاصمة ليعلن أنه سيستقيل من منصبه، ويبدي نيته للانفصال دون أن يقوم أي فرد بالقبض عليه أو اعتقاله.

كان أمام لنكولن الآن عشرة أيام لينهي إعداد خطابه الإفتتاحي وينهي تشكيل الحكومة ويقابل المئات من البشر ويحدد كيف سيقوم بإغراء المتمردين للعودة إلى الاتحاد دون التضحية بعهده أن يمنع انتشار الرق وأن يسعى لإلغائه نهائياً . كانت أكثر عشرة أيام انشغالا



في حياته حتى الآن. كان ينام ساعات قليلة فقط كل ليلة، وهي عادة استمرت معه للسنوات الأربع التالية معجلة بتقدمه في العمر. وفي أول يوم له في واشنطن، تقابل لنكولن مع ستيفن دوجلاس ووفد من سياسيي ولاية إلينوي بفندق ويلارد، وهو مبنى ضخم من ستة طوابق بالقرب من البيت الأبيض حيث سكن لنكولن بعائلته إلى أن ينعقد حفل الافتتاح. كان لقاؤه بخصمه القديم "مبعث سرور خاص" كان لنكولن هو من طلب أن يرى دوجلاس حيث كان يأمل في الحصول على تأييده. كانت تلك المرة الأولى في مسيرته السياسية التي يتشاركان معاً في استراتيجية سياسية واحدة لإنقاذ الاتحاد في هذه الحالة. وفجأة لم يعد دوجلاس خصماً، وشعر لنكولن أنه إلى حد ما له قرار بعد كما لوكان مداره السياسي في السنوات السبع الماضية قد تناثر قطعاً فجأة.

وزع لنكولن خطابه الافتتاحي طلباً لاقتراحات، وكان غرضه أن يهدئ من فورة ولايات الجنوب الأعلى (فيرجينيا، وماري لاند، وديلاور، ونورث كارولينا، وتينيسي، وكينتاكي، وأركانساس، وميسوري). تلك الولايات التي بقيت ضمن الاتحاد حتى ذلك الحين. كما ملأه الأمل في "أن يهدئ الانفعالات وأن يكسب وقتاً." وفي النسخة الخطية، أقسم لنكولن أن يحمي الملكية الفيدرالية وأخبر المتمردين أن الاختيار بين الحرب والسلام في أيديهم. وإجمالاً،

كانت تلك النسخة المخوطة تعد أقل تهادناً من الخطاب الذي قام بإلقائه، إذ عارض جهود الكونجرس لتعديل الدستوربقوله: "(إنه) لم يتأثر كثيراً بآرائهم . . . وأنا أعمل من أجل السفينة القديمة ومع خريطة ربابنتها القدامى." مما يعني دستوراً لم تعبث به الترضيات الهيستيرية، وأقسم على استعادة القلاع الفيدرالية التي استولى عليها المتمردون وليس مجرد حماية القلاع التي مازالت تحت سيطرة الاتحاد كخطة نهائية للولايات. وأنهى خطابه بمقارنة واجباته المقدسة بواجبات المتمردين العلمانية قائلاً: "إنكم لاتملكون قسماً مسجلاً في السماء لتدمير الحكومة في حين أنني سأحوز قسماً أكثر قداسة للحفاظ على الحكومة وحمايتها والدفاع عنها، ويعود إليكم لا إلىّ ذلك السؤال الخطير حول "هل سيكون سلاماً أم لسيفاً ؟" كان لنكولن يعامل المتمردين بيد حازمة ولكن متفهمة، ولو كان لنكولن ألقى تلك المسوّدة لأصبح فردريك دوجلاس أكثرتعاطفاً معه ومع أزمته. قدم له قلة من الزملاء بعض الاقتراحات ومنهم فرانسيس بلير الكبير العضو الجمهوري عن ولاية ميسوري، وصديقه في سبرنجفيلد أوفيل براونج وكذلك ويليام سيوارد– الذي وافق على أن يعمل معه وزيراً للخارجية. أحب بلير وثيقة الخطاب لأنها تذكره بالقبضة الحاسمة لأندرو جاكسون حينما واجه دعاة أبطال القوانين الاتحادية في ساوث كارولينا قبل سنوات. بينما وجده براونج "كفئاً،

ومدروساً بشكل جيد، وملائماً." وطلب تغييراً واحداً فقط إذ حضّ لنكولن على إلغاء قسمه باستعادة القلاع الفيدرالية التي سيطر عليها المتمردون فكتب له على هامش الخطاب: "من حيث المبدأ، النص صحيح وسليم كما يبدو الآن . . . والأماكن المستولى عليها يجب أن يتم استردادها . . . ولكن، ألا يمكن تحقيق ذلك دون إذاعة أنبائه في خطابك الافتتاحي؟"

وكان سيوارد، الذي وجد عدة مشكلات جادة مع الوثيقة. فرغم أنه اعتبر حجتها الأساسية لجدلي "قوية وحاسمة"، فقد رأى أن نبرتها حادة أكثر من اللازم وأنه لو ألقى الخطاب بهذا الشكل سوف تعلن فيرجينيا وماري لاند انفصالهما على الفور وبذا تصبح واشنطن محاصرة لم يخجل سيوارد من إبداء رغبته في التفاهم، لأنه منذ هجوم جون براون على هاربرس فيري قد هجرمبادىء الجمهوريين بشأن احتواء مشكلة العبيد، ويريد الآن أن يسالم المتمردين ويحقق عودة الاتحاد في سلام وبساطة، وكان مستعداً للتضحية بكل قطعة من أملاك الاتحاد لهم. بل واقترح التهديد بشن حرب على إسبانيا وفرنسا لامتصاص حدة التوتر الحزبي.

وطلب سيوارد تغييراً في كل سطر تقريباً من سطور نسخة الخطاب، وكان عدوانياً في استخدام قلمه كما كان بريستون بروكس مع عصاه.



وبعد أن قال كل ما بدا له اقترح ٤٢ تغييراً تبدأ من إلغاء أو إضافة كلمة حتى إضافة فقرة كاملة. وطلب من لنكولن أن "يستبعد كل الجملة التي يعارض فيها إصلاحاً دستورياً يحمي نظام الرق وهذا مانفذه لنكولن بالفعل." كما أراد أن يلطف من الخاتمة واقترح فقرة نهائية هي: "إن الخيوط الروحية النابعة من الكثير من ميادين القتال ومن العديد من مقابر الشهداء سوف تتناغم من جديد في موسيقاها القديمة عندما ينفخ فيها الملاك الحارس للأمة." كانت للنكولن أذن أفضل كثيراً مما لدى سيوارد، فوافقه على النهاية الجديدة واستعاد كثيراً من كلماته لكنه أبدع التماساً أكثر طلاقة لاستعادة الاتحاد، الذي أهمل محنة السود، وأضاف لنكولن أنه مازالت "جوقة إنشاد الاتحاد للنكولن ناصعة البياض تماما." وكما لاحظ دوجلاس، فإن جمال اللغة أخفى على قبح الرسالة.

ألقى لنكولن خطابه الافتتاحي المتقح أسفل رواق مبنى الكابيتول، وكانت تطل من خلفه قبته التي لم يتمه ترميمها بعد، ويقف تمثال برونزي جديد للحرية وسط الحديقة في مواجهة الكابيتول، تمثال لامرأة تحمل سيفاً بيد وتحما الأخرى إكليلاً من الورود. تجمع الآلاف حول الرواق للاستماع للنكولن، وبدا عليهم تجاهل ذلك التمثال تماماً. كانت (المرأة التمثال) تقف وحيدة تحملق في ظهورهم كاليتيمة، كانت تنتظر إنهاء بناء القبة حين تجد عندئذٍ مأوى لها.

ترامت عشرات الإشاعات أن لنكولن قد يُقتل قبل توليه منصبه أو يُطلق عليه النار أثناء الاحتفال. وأجرى بعض الرجال مراهنات حول ما إذا كان سيبقى حياً حتى يُنصّب رئيساً أم لا، وقد سمع أحد الصحفيين المسافرين جنوباً في نيويورك بعض سيدات الجنوب يتحدثن عن الاغتيال. قالت واحدة:

- إنني سعيدة أن لنكولن لم يُقتل.

فسألتها الأخرى:

- ولماذا ؟

ردت:

- لو أنه قُتل، فلسوف يصبح هانيبال هاملين (وهو أسود البشرة) رئيساً، وسيكون عاراً علينا أن يكون على قمة حكومتنا رجل خلاسي ملون.

وفي الثاني من مارس، أي قبل ذلك بيومين، كان الكونجرس قد أصدر التعديل الثالث عشر الذي يضمن بقاء العبودية في الولايات للأبد. وشعر لنكولن بإمكان تأييده للقرار لأنه لم يسع أبداً للتدخل في شئون الرق في ولاياته. ورغم جهوده لتهدئة الجنوب في خطابه، فقد فسر المتمردون ذلك الخطاب على أنه إعلان بالحرب، فاستخدم أحد المحررين الصحفيين بساوث كارولينا مصطلحاً عنصرياً لوصفه فصرح: "إن قرد الأورانج- أوتانج في البيت الأبيض قد أطلق نفير



الحرب. . . التي هي أيضاً رمز حريتنا." وقال محرر آخر من ريتشموند أن رسالة لنكولن "تبدأ حرباً أهلية." وأخبر محرر ثالث أصدقاءه في فيرجينيا أنه عليهم الآن أن يختاروا بين "غزو يقوم به جيش لنكولن أو يقوم به جيش جيفرسون دافيز."

أسفر أمل سيوارد في إضافة مزيد من التساهل في خطاب لنكولن لمنع فيرجينيا وماري لاند عن الانفصال عن اخفاق تام إذ انفصلت فيرجينيا بعد أسبوع من قصف قلعة سومتر، وكانت ماري لاند على وشك أن تحذو حذوها لولا أن فرض لنكولن بجرأة الأحكام العرفية في الولاية لإخراس الانفصاليين" هنا استفاد درساً من الجنوب خلال الحرب الأهلية سواءً بين الشمال والجنوب أو بين السادة والعبيد؛ فإن الطريق الوحيد لاستتاب الأمن هو تعليق العمل بالحريات الأساسية.

***

أصبح ستيفن دوجلاس مؤيداً متحمساً للنكولن، فوقف بالقرب منه لحظة إلقاء خطابه وبينما كان لنكولن يرتبك "فيما يفعله بقبعته على نحو أخرق" قام بحملها عنه في أدب. وخلال الخطاب، كان يغمغم موافقاً: "حسناً ... حسناً إنه كذلك! دون إجبار... حسناً، مرة أخرى." وبعدما أنهى لنكولن خطابه سارع بتهنئته ثم

---

24 كان روجرتاوي قد اعلن أن تعليق لنكولن العمل بالقانون العادي يُعد أمراً غير دستوري، إلا أن لنكولن تجاهل ذلك.

دافع عن الخطاب بحماسة قائلاً لأحد الصحفيين: "إنه لا يعني القسر." ثم إلى مراسل آخر: "إنه جيد تماماً!" ورداً على اتهام المراسل للنكولن بأنه خان مبادئه بتأييد الإصلاح الدستوري أضاف دوجلاس: "حسناً، وماذا في ذلك؟ إنه يبين أن السيد لنكولن لديه الشجاعة ليقول الحق سواءً من البرنامج أو بدونه." وحث لنكولن على تأييد هذا التعديل بمجرد أن يعتمده الكونجرس.

رافق دوجلاس السيدة لنكولن إلى حفل التنصيب الذي أقيم في مبنى جديد عند ميدان جوديشاري، وتم تزيين قاعة الرقص بالأعلام من كل ولاية مع إضاءة وهاجة تصدر من خمس ثريات توقد بالغاز. وعند تمام الحادية عشرة مساءً بدأت فرقة مشاة البحرية عزفها لمقطوعة "المجد للرئيس" ومضى دوجلاس مع ماري "وذراعه في ذراعها"، وعند منتصف الليل رقصا الرقصة الرباعية، وكانت ماري ترتدي ثوباً أزرق مع ريشة زرقاء مشابهة وسط شعرها، وقام س. دوجلاس وزوجته بتقديم ماري لبعض نساء المجتمع في واشنطن.

وفي ١٤ أبريل وبينما كانت البرقيات تنهمر على واشنطن بأنباء تسليم قوات الاتحاد لقلعة سومتر، والتقى دوجلاس بلنكولن لمدة ساعتين. تميز لقاؤهما "بالشعور القلبي نحو هدف وطني موحد وودود." ومرة أخرى اقسم السيناتور أن يقف "بجوار الرئيس"، وأظهر له لنكولن قراراً بتجنيد ٧٥٠٠٠ متطوع، فقال دوجلاس: "لو

كنت مكانك لرفعتهم إلى ٢٠٠٠٠٠، لأنه كان بين القلة التي تؤمن أن الحرب قد تطول. لكنه لم يعرف أبداً إلى متى لأنه مات بعد شهر بسبب مضاعفات الإسراف في تدخين السيجار والشراب. كان عمره ٤٨ سنة.

عكست صداقة دوجلاس للنكولن خلال الشهور الأخيرة دعماً ضخماً من الحزبين الجمهوري والديمقراطي بين بيض الشمال الذين دعوا لقتال المتمردين وإنقاذ الاتحاد، كان في مقدور لنكولن أن يجمع ٢٠٠ألف من القوات .لكن المصالحة مع هؤلاء الخصوم السابقين عكست أيضاً سروطهما المشتركة لانقاذ الاتحاد. فالعبودية لن تتأثر ولن يؤدي السود دوراً في جيش الاتحاد كان دوجلاس لا يزال هو المتحدث باسم البيض العنصريين في أعماقهم الذين يعتبرون السود دون البشر ولايرون خطيئة في وجود الرق. أما لنكولن باعتباره من المحافظين المناهضين للعبودية فقد أرعبه احتمال قيام ثورة اجتماعية وملأه الأمل في الإبقاء على التراتب الإجتماعي القديم، وكما طرح الأمر في رسالته السنوية للكونجرس في ديسمبر ١٨٦١ فإنه: "بالنظر إلى السياسة التي يجب إتباعها لقمع التمرد، كنت قلقاً وحذراً من ألا يتحول ذلك الصراع، الحتمي لهذا الهدف، إلى قتال ثوري عنيف لايمكن غفرانه." لقد ركزت الحرب على البيض وعلى أمنهم فقط. ولم يستطع دوجلاس أن يوافق على ماهو أكثر من ذلك.

وهكذا،فإنهما بلقائهما معاً تجاهل الخصمان القضية الرئيسية وهي "العبودية والعنصر " التي تعاركا بسببها سنوات طوالاً.

فلا عجب إذن أن يبطل لنكولن قرار فيرمونت في سبتمبر ١٨٦١، ١٩١ لأنه يهدد رؤيته لإنقاذ الاتحاد .كان أغلب الجمهوريين قد أيدوا اعلان فيرمونت، حتى أورفيل براونبج صديق لنكولن الذي كان من المحافظين في إيلينوي. فقد أخبره براونبج:أن الأعلان "كان من الضروري وكان خيرا، وأنه حصل على تأييد كل المواطنين المخلصين من غرب وشمال غرب البلاد. ويبرره القانون الدولي وكذلك قوانين الحرب التي تقرها كل الأمم المتحضرة.وتوصل أغلب الجمهوريين بالفعل– من أمثال فردريك دوجلاس– إلى الاقتناع بأن إنقاذ الاتحاد يتطلب إقرار سياسة تحرير العبيد .

تأذى لنكولن من رد براونبج فقال: "إن اعلان فيرمونت كان غير دستوري، وقانون المصادرة الذي أصدره الكونجرس حديثاً يمكن الجنرالات من مصادرة العبيد، لاتحريرهم، وإذا كان فيرمونت في حاجة للعبيد، كان يمكنه القبض عليهم وتشغيلهم وعندما تنقضي حاجته فليس من شأنه أن يصلح ظروف مستقبلهم الدائم، فمبدأ عتق العبيد لا يقرره إلا صانعو القانون لا الجنرالات، والأكثر أهمية أن اعلان فيرمونت لن ينقذ الحكومة، بل على العكس هو ذاته تسليم الحكومة."



لقد آمن لنكولن أن أي سياسة لتحرير الرق ستهدد إخلاص ولايات الحدود، خاصة ولاية كنتاكي، ربما حظيَ اعلان فيرمونت بالشعبية في بعض الأماكن. لكن أهل كينتاكي كانوا على استعداد للانفصال بسببه. في الواقع، كان لنكولن قدسمع أن فرقة كاملة من متطوعي كنتاكي يصيحون: "أسقطوا أسلحتهم وشتوهم!" بعدما علموا باعلان فيرمونت. وما لم يبطل ذلك القرار لتوجهت بنادق كينتاكي نحو واشنطن، لا إلى الجنوب. فرد على براونبج بقوله: "أعتقد أن فقدان كنتاكي يعني أن نخسر اللعبة كلها... وبضياع كنتاكي لن نستطيع الاحتفاظ بميسوري ولا- فيما أظن- بماري لاند، فكلها ضدنا ومهمتنا التي تواجهنا تفوق طاقتنا، وسوف نسلم بالانفصال أيضاً بما في ذلك تسليم مبنى الكابيتول هذا."

كان لنكولن مرعوباً من فقدان كينتاكي وبدا خوفه من مؤامرة نظرية التداعى بين ولايات الحدود. فلو أن كينتاكي ذهبت فستلوها ميسوري ثم ماري لاند. وعندئذٍ، نكون قد خسرنا الحرب. لكنه لم يشرح أبداً وبالضبط كيف يسبب انفصال كينتاكي انفصال ميسوري ثم ماري لاند بعدها. ولم يذكر كيف يمكن للانفصال أن يؤثر في كينتاكي فير واقع الأمر، في ضوءحرب العصابات المتفجرة هناك، وأصبحت مخاوفه بشأن كينتاكي صارخة عندما قارنها بأغلبية رجال الدولة من الجمهوريين من أول المحافظين منهم حتى المتطرفين

الذين آمنوا- مثل براونتج- أن اعلان فريمونت "كان ضرورياً وفعل خيرا. " كانت حساسية لنكولن تجاه أهل كنتاكي نابعة من وجود أصدقاء مقربين له يعيشون هناك ويقدمون له النصح باستمرار، وليس منهم من هو أقرب أو أكثر تأثيراً من جوشوا سبيد.

كان سبيد قد أصبح حينذاك الآن من الأثرياء ملاك العبيد، وكان أحياناً يتاجر فيهم، وكان قد صوت ضد لنكولن. لكن علاقتهما الوثيقة لم تتأثر، وكان كل منهما كان يحمل قدراً كبيراً من الاحترام للآخر. وقد عرض لنكولن على سبيد مركزاً بالوزارة، لكنه رفضه لأنه يريد البقاء في كينتاكي، وعمل كمستشار متخصص للنكولن في شئون كبنتاكي للنكولن في ولايته وكان يكتب له بانتظام عن الوضع هناك، وأحياناً ماكان يأتي لواشنطن للتشاور معه.

غضب سبيد من اعلان فيرمونت وحث لنكولن فوراًعلى إلغائه، فلم يكن إعلاناغير دستوري فقط ، بل سوف يلهم العبيد للتمرد وقال له: "كلنا ممن يعيشون في ولايات العبيد سواءً المنضمة إلى الاتحاد أو المواتية له نشعر بخوف شديد من التمرد "فإعلان فريمونت سيستميل كل العبيد "لمحاولة تأكيد حريتهم" وبسبب المعاناة للسيدات سواءً كن على ولاء للاتحاد أم لا وللمجتمع كله. "كان سبيد هنا يلمح للاغتصاب وللنهب. وظل سبيد في حالة إحباط لدرجة أنه ظل أياماً لاياكل ولاينام، وكأن الأمر أن أحداً أخبره أن

عصابة من المغتصبين والقتلة قد أُطلقوا بحرية داخل مجتمعه، فقام بإطلاق تحذيره: "لوتمّ إقرار اعلان فريمونت، فسوف يحطم كل مكانة لحزب الاتحاد بالولاية. وسوف يبقى هو وحفنة من أصدقائه كرجال للاتحاد في الولاية كلها . . . ولسوف يمتد الشر والجريمة فيزداد التمرد على الأرض." باستثارة شبح انتفاضة العبيد والخوف من الاغتصاب والنهب في أذهان وخيال البيض، أوضح سبيد للنكولن أنه لا يوجد مواطن فاضل في كينتاكي أو أي ولاية أخرى للعبيد يمكنه أن يتسامح مع سياسة العتق هذي."

بذلت جيسي زوجة فريمونت جهدها لإقناع لنكولن أن يترك قرار زوجها نافذاً. كانت ابنة سيناتور ميسوري، السيناتور توماس هارت بنتون، وأكثر أمرأة ترتبط بالسياسة في البلد. كانت قد قابلت تسعة رؤساء سابقين للدولة بالبيت الأبيض ومنهم أندرو جاكسون الذي قام "بنعكشة" شعرها وهي صغيرة، وكانت "عيناً ومترجمة للرئيسين التاليين لجاكسون". قامت برحلة خاصة من سانت لويس حتى واشنطن آملة في إقناع لنكولن، وبعد إرسالها بطاقة تعريفها متساءلة متى يمكنها مقابلة الرئيس، كانت الإجابة: "الآن، وفوراً!" كانت الساعة التاسعة مساءً وكانت مرهقة لكنها استجابت، وعندما رآها لنكولن أحنى رأسه قليلاً في سكون ولم يقدم لها مقعداً، وكانت "تلك إهانة يفهمها الإثنان" فسلمت له

خطاباً من زوجها يشرح أسباب صدور قراره كضرورة عسكرية ودبلوماسية، وقالت– وهي تردد كلمات فردريك دوجلاس– إن حرباً من أجل تحرير العبيد سوف تمنع بريطانيا وفرنسا وإسبانيا من الاعتراف بالكونفيدرالية. قاطعها لنكولن قائلاً: "إنك امرأة سياسية تماماً." ثم قال إنه قد عقد العزم وأن على الجنرال فريمونت "ألا يجر الزنوج للحرب! إنها حرب لهدف قومي عظيم، والزنوج لا علاقة لهم بالأمر."

لكن كل يوم "والزنوج" يفرضون أنفسهم على الحرب ويطلبون أن يصبحوا جزءا من ذلك الهدف القومي، وكل يوم يأتي المحظورون إلى خطوط الاتحاد، وكل يوم يقر ضباط الاتحاد بالضرورة العسكرية لتحرير العبيد وتشغيل السود .وكل يوم يردد الجمهوريون، من أول المحافظين منهم حتى الراديكاليين فيهم، رأى براونسنج في حث لنكولن وإدارته على إنقاذ الاتحاد بعتق أولئك العبيد، وكل يوم يخطب فردريك دوجلاس وزعماء جماعات السود متحدين مع دعاة التحرير البيض ويمثلون شاهداً على حقيقة أن "الزنجي" لا يمكن فصله عن إنقاذ الاتحاد. وكما صاغ الأمر دوجلاس بعبارته "فإن مصير الأفريقي الأمريكي هو مصير أمريكا ذاته." كانت موجة التعاطف مع حركة تحرير العبيد تنمو ببطء.

وفوق كل ذلك، تم اعتماد قانون المصادرة يوم ٦أغسطس عام ١٨٦١ وكان غموضاً يحتاج إلى بعض التوضيح. كانت أوضاع المحظورين مبهمة فلم يعودوا عبيدا .لكن "هل هم أحرار؟ لم يبت القانون في ذلك."

وفي بدايات عام ١٨٦٢ أخذ لنكولن يغير من وجهات نظره أخيراً بشأن تحرير العبيد. وفي الواقع، فقد مر لنكولن بما يعادل التحول للهداية ربما بدأ ذلك مع وفاة ابنه ويلي في فبراير، ففي وسط الاحتفاء بتجديدات ماري الاستعراضية الغالية في البيت الأبيض، شعر ويلي فجأة بالحمى. ربما كانت إصابة بالتيفود بسبب نظام الصرف الصحي بالمدينة. كما أن ابنهما تاد أصابته الحمى لكنه شفي منها سريعاً في حين ازدادت حالة ويلي سوءاً ومكث لنكولن مع ابنه لمدة أسبوعين يضع الكمادات الباردة على جبهته ولايمارس– نظرياً– أي عمل آخر. وفي ٢٠ فبراير مات ويلي فأخبر لنكولن سكرتاريته بذلك قائلاً: "حسناً، إن نيكولاي ابني قد ذهب، لقد ذهب بالفعل ... ثم بكى صارخاً ... لقد كان صالحاً تماماً لهذه الأرض ... لكننا أحببناه كثيراً." وزاد انتحابه، وانهارت ماري لدرجة أن لنكولن بدأ يقلق على صحتها، ولزمت سريرها أسابيع ثلاثة. ولعدة شهور"كان مجرد ذكر اسم ويلي يلقي بها في طوفان من

الدموع." وارتدت ملابس الحداد السوداء وبدأت تدعو الروحانيين للبيت الأبيض علها تتصل بابنها الميت.

ربما أشعل موت ويلي تعاطف لنكولن مع الآباء الذين فقدوا أولاداً في كل أرجاء الشمال. ففي كل أسبوع كان يمر، كانت الحرب تصبح أكثر دموية، وتطول قوائم الموتى في الجرائد اليومية. كان لكل مواطن تقريباً من يعرفه بين القتلى أو الجرحى في الصراع إلا أن لنكولن كان يشن حرباً ساعياً "وراء" أدنى اضطراب في الحياة المدنية" كانت سياسة تهزم نفسها بنفسها، لأن الحرب الأهلية بطبيعتها تسبب الاضطراب في الحياة المدنية وشكلت الحاجة لتحرير العبيد من أجل إنقاذ الاتحاد عبئاً ثقيلاً على أكتافه." فاتجه نحو الله طالباً معونته معتمداً على "الذراع الإلهية" وباحثاً عن الهدي من السماء "أمل في أن يكون أداة بيد الله لتنجز عملاً عظيماً" كما قال لوفد من جماعة الكويكرز الدينية الذى كان يحثه على إصدار قرار عتق العبيد، وأخذ يقتبس كلمات من هاملت: "هناك قدرة إلهية تشكل مصائرنا، وتصبغها كما تريد." لم يصف لنكولن ذلك التحول بأنه تجربة في الهداية، وإنما قال إنه مر "بعملية بلورة" في معتقداته الدينية.

وفي مارس ١٨٦٢ وضع لنكولن مشروع قانون من أجل "إنهاء تدريجي للرق" وقد اتبعت خطته تقاليد حركة التحرير في ولايات الشمال التي تبنتها منذ حروب الثورة لأن تحرير العبيد يتطلب تأييد

الناخبين، وسوف يؤدي لتحرير الرقيق عبر جيل أو ما إلى ذلك وسوف يقوم بتعويض ملاك العبيد عن خسارة ما يملكون. لذا قال: "في رأيي أن تحرير العبيد تدريجيا، وليس فجأة، أفضل لجميع الأطراف." كما شكل اقتراحه سياسة عسكرية سليمة لأنه إذا قبلت ولايات الحدود ذلك، فلن يغريها شيء للانضمام للكونفيدرالية. كان يأمل في أن يتمكن من شراء ولاء تلك الولايات، وتكاليف تنفيذ ذلك ستكون أقل "من تكاليف ثلاثة أشهر من الحرب."

استدعى تشارلز سومنر إلى البيت الأبيض وأطلعه على الاقتراح وطلب منه في صوت متلهف قائلاً: " أريد أن تقرأ رسالتي، وأريد أن أعرف مدى قبولك لها لأنني بصدد إرسالها للكونجرس اليوم." انفعل سومنر لدرجة أنه قرأ الرسالة عدة مرات إلى أن قال له لنكولن: "حسناً ، لقد قرأتها بشكل كاف. هيا، عجّل! إذ لابد من إرسالها اليوم." واعتمدها الكونجرس في الحال.

وبالنسبة لفردريك دوجلاس كان مشروع لنكولن محافظاً للغاية وفرص اعتماده ضئيلة ، لذلك رفضه، فملاك العبيد كانوا ضد تحريرعبيدهم كلية حتى مع إغراء المال، وذلك لأن العبيد كانوا يدرّون معدلات ربح أعلى كثيرا من البضائع والسندات أو حتى إقطاعات الأراضي، ومن الصعب أن تشبع النهم الجنسي لإنسان

بشهادات البضائع. وكما توقع دوجلاس لم تقبل ولايات الحدود مشروع لنكولن.

وفي أبريل مضى الكونجرس الجمهوري الاتجاه، متأثراً بوضوح بخطة لنكولن حول الإلغاء التدريجي للرق، خطوة للأمام واعتمد قانونا لتحرير الرقيق في كولومبيا. ولم يكن لنكولن راضياً كلية عن القانون، لأنه يحرر ثلاثة آلاف عبد فوراً وليس بالتدريج. كما تم فرض القانون على المقاطعة دون قبول ناخبيها، لكنه كان قراراً يلتزم "بمبادىء لنكولن"– التي يعتز بها– وهي "التعويض والاستعمار" فهو ينص على دفع ٣٠٠ دولار عن كل عبد لمالكه وتخصيص ١٠٠٠٠٠ دولار لنقلهم بحراً إلى أمريكا الوسطى، ولذا وقع القانون.

وفي مايو ألغى لنكولن اعلان التحرير الذي كان قد أصدره الجنرال دافيد هنتر لأنه ينتهك مبادىء لنكولن بشأن العتق. فهو يحرر العبيد على الفور، ولم يقم بتعويض المالكين ولاسمح لهم بأن يقولوا رأيهم في ذلك، ولم يذكر ارتباط ذلك باستعمار أرض جديدة لهم. وعندما ألغى اعلان هنتر، ناشد لنكولن من مواطني ولايات الحدود أن يتبنوا اقتراحه بشأن تحرير العبيد، وبعمله ذلك قد يحفظ الاستقرار– كما قال– إذ قد نصل لنهاية سريعة للحرب وتقدم الحرية ببطء ولطف. فالسادة يمكنهم أن يتلقوا التعويضات والسود يمكن إرسالهم إلى أمريكا الجنوبية. وأكد أن ذلك التغييرالذي كانت تأمله

خطته قد "يأتي بلطف مثل الندى المتساقط من السماء لا يمزق ولايحطم أي شيء". ثم يتساءل: "هل من الممكن أن تقبلوا ذلك؟ إذا لم تقبلوه وكان ذلك يعنى ضمناً أنهم لم يفعلوا ، فلن يكون قادراً عل مد يد المساعدة في المستقبل. لكن الثورة الاجتماعية وتحرير العبيد العاجل كانا يثقلان أكتاف الأمة بينما كان هو وحزبه خارج السياق يبحثان عن التغيير التدريجي. وبعدئذ طلب الكونجرس في ٢٢ يوليو دعم لنكولن رسمياً مصادرة أملاك المتمردين وتحرير عبيدهم، فقانون المصادرة الثاني يطالب الرئيس بإصدار تحذيرعام للمتمردين يمنحهم ستين يوماً كفترة سماح للعودة تحت مظلة الاتحاد، ولو رفضوا، تتعرض كل أملاكهم للمصادرة ، وسيضطر الرئيس إلى مصادرتها بالفعل . في قسم منفصل يقول القانون إن العبيد المصادرين سيكونون "أحراراً للأبد". ولكنه لم يكن واضحاً ماإذا ماكان اعلان الرئيس مصادرة ملكيات المتمردين يتضمن في ثناياه مبدأ تحرير العبيد.

اعترض لنكولن على قانون المصادرة الثاني على أساس أنه غير دستوري. وكان أكثر ما أزعجه الحكم الخاص بتحرير العبيد . لكن اعتراضه نجم أساساً عن لغته المضطربة. وحقيقة أن القانون بأسره كان قد كتب بصورة مرعبة. وبعد مراجعته لغوياً مع سناتور لتنقيح بعضاً من سوء لغته، قام لنكولن باعتماده قانوناً . لكنه اتخذه خطوة

غير معتادة بإرساله انتقاداً مطولاً للكونجرس كنوع من المذكرة الرئاسية الوجيزة .

وبعد خمسة أيام أي يوم ٢٢ يوليو، وضع مشروع اعلان العتق .وإذ اتبع فيه أحكام قانون المصادرة الثاني ،فقد منح المتمردين ستين يوماً للعودة إلى الاتحاد، فإذا قبلوا سوف يقوم بتشجيعهم على تحرير عبيدهم بتقديم تعويضات والغاء الرق تدريجياً أسوة بما قدمه لولايات الحدود. لكن إذا أصر المتمردون على "عصيانهم" و"خيانتهم"، فسوف تتعرض كل أملاكهم للمصادرة ، وفي الأول من يناير عام ١٨٦٣ سوف يصبح عبيدهم "أحراراً للأبد" . بذلك يكون قد أمسك– بفاعلية– بغصن زيتون يمنح العتق التدريجي بيد، ويعلن بالأخرى الحرب والتحرير الفوري للعبيد، وطلب من المتمردين الاختيار تماماً كما فعل في مسودة خطابه الافتتاحي.

سأل لنكولن معاونيه رأيهم في إعلان العتق الذي يقدمه، فانقسم الأعضاء؛ بعضهم يحثه على إصداره فوراً، وآخرون أخذهم القلق من أن يفقدوا بعض أصوات الجمهوريين في انتخابات الخريف. ومرة أخرى اتبع لنكولن نصيحة ويليام سيوارد الذي طلب منه أن ينتظر نصراً عسكرياً حاسماً قبل إصداره، فتحرير العبيد يجب أن يعكس قوة دولة الاتحاد لا ضعفها .وهكذا أخفى لنكولن الوثيقة بأحد أدراج مكتبه.

وبدلاً من ذلك أصدر يوم ٢٥ يوليو "اعلان قمع العصيان المسلح"، وهو مرتبط بقانون المصادرة الثاني وفيه يمنح المتمردين ستين يوماً للعودة إلى دولة الاتحاد "وإلا تعرضوا لعقوبة المصادرة أو الاستيلاء على أملاكهم." لكن الوثيقة لم تذكر شيئاً عن تحرير العبيد، وكانت بالنسبة لفردريك دوجلاس ودعاة التحرير الآخرين قراراً يترك حالة العبيد في زاوية النسيان بنصف حرية ولم تقل شيئاً — كذلك — عن تشغيل السود بالجيش .واتفق لنكولن مع الكونجرس على أن السود يجب أن يتم تشغيلهم كعمال في الجيش، لكنه عارض بشدة تسليحهم كجنود، ولم تتغير آراؤه حول تلك القضية منذ بداية الحرب. كما حذر ثانية من تمرد الولايات الحدودية إذا تم التصريح للسود بإطلاق النار على البيض، فصرح في أغسطس عام ١٨٦٢ بأن "الأمة لايمكن أن تخاطر بفقدان كنتاكي في تلك الأزمة . . . إذ أن تسلح الزنوج، سيحول ٥٠٠٠٠ من الحراب من الولايات الحدودية نحو صدورنا تلك التي كانت تحارب من أجلنا ."وكان ما لم يقله هو أن تسليح السود ١٥٠ ألف حربة اضافية لصدور المتمردين.

قضى لنكولن صيف ١٨٦٢ ينتظر ويصلي من أجل انتصار للاتحاد سيمكنه من إعلان نيته لتحريرالعبيد أمام الجميع. وحث مراراً وتكراراً الجنرال المتفاخر جورج ماكلان للهجوم على قوات "لي"

وفرض حسم للنزاع. لكن ماكلان وهو منظم موسوس كان استراتيجيا سيئاً لأنه هول كثيراً في قوة عدوه، وأبدى كثيراً من الاحترام للمتمردين أكثر مما أبدى للجمهوريين. فعلى سبيل المثال، رفض مصادرة منزل السيدة روبيرت لي لاتخاذه كمستشفى ميداني مما حدا بطبيب القوات إلى أن يسأل لنكولن: "هل على جنودنا الشجعان أن يموتوا مثل الخراف المتعفنة لأن الجنرال ماكلان اختار أن يحمي أرضاً يملكها متمرد؟" بل إن ماكلان تجاهل بعضاً من أوامر لنكولن، فقواته تحبه ويعود ذلك– جزئياً– إلى أنه يحميهم من القتال ولأنه دائماً يخبرهم كم هم أبطال.

وفي الرابع عشر من أغسطس دعا لنكولن وفداً من سود ولاية واشنطن إلى البيت الأبيض للترويج لخطته عن التوطين والاستعمار. كانت هذه أول مرة تلتقي فيها مجموعة من السود بالرئيس لمناقشة قضية من "القضايا العامة". كان الكاهن المحترم جيمس ميتشيل هو الذي رتب اللقاء. وكان ميتشيل من إنديانا وكان هو ولنكولن من نشطاء جمعيات استعمار الغرب الأوسط. وقد عينه لنكولن حديثاً مسئولاً للهجرة والآن وقد أصبح العتق حقيقة واقعة، أمل لنكولن في إقناع السود بواشنطن بقبول عرض الحكومة بإرسالهم إلى أمريكا الوسطى. لم يضم للوفد أي زعيم أسود رغم أن الصحافة تجاهلت تلك النقطة. وفي الواقع، كان منهم أربعة أو خمسة أفراد

منهم من المحررين حديثاً، بل وربما كانوا أميين. كان ذلك الاختيار يتواءم مع هدف لنكولن إذ لم يكن يريد مناقشة الموضوع وإنما أراد فرصة للتحدث مع السود كمدرس يحاضر تلاميذ مطيعين ليعلمهم فضائل الاستعمار. وبالطبع كان فردريك دوجلاس آخر شخص يرغب في حضوره مثل ذلك اللقاء، لأنه سيتحدى لنكولن عند كل نقطة حوار.

كان كثير من السود يتبنون فكرة الهجرة ووافقوا لنكولن على أن ا السود والبيض في أمريكا لا يمكن أن يعيشوا في وئام. من هنا، دعم الزعيم الأسود هنري هاي لاند جارنيت رؤية لنكولن بشأن الاستعمار "كأفضل حركة إنسانية رحيمة اقترحتها تلك الإدارة أو غيرها لصالح المستعبدين." لكن، على النقيض من لنكولن، كان دعاة الهجرة السود قد هجروا في الأساس إيمانهم بأن أمريكا أمة ديمقراطية.

كان الاجتماع ناجحاً في إطار أن كلماته وزعت في أرجاء الوطن ونوقشت داخل مجتمع السود. وانقسمت ردود الأفعال حولها، لكن المعارضين "كانوا أكثر عدداً وأعلى صوتاً بالتأكيد" وعجلوا بعقد لقاءات للاعتراض في واشنطن وغيرها من مدن الشمال.

ربما أمل لنكولن أيضاً في أن يجعل ذلك اللقاء قضية عتق العبيد أكثر قبولاً لدى ولايات الحدود. وإذا كان ذلك كذلك، فهو يعلم أنه يقاتل في معركة عسيرة. فكل مرة كان يعرض فيها مشروع قرار بتحرير العبيد تدريجياً مع التعويض والنقل للمستعمرات، يهب ممثلو ولايات الحدود ومعهم ملاك العبيد لرفضها في الحال.

وفي ٢٢ أغسطس أصدر لنكولن أهم بيان بشأن تحرير العبد صدر حتى تاريخه. وجاء البيان استجابة لمقال كتبه العضو الجمهوري هوريس جريلي معنوناً باسم "صلوات العشرين مليون"، تحدث فيه هوريس بلسان الشماليين متهماً لنكولن "بإهمال مواد تحرير العبيد" في قانون المصادرة الثاني، والانحياز لسياسيي ولايات الحدود."

ورد لنكولن بتحديد مباشر وواضح لسياسته قائلاً إن "هدفي الأسمى في ذلك الصراع هو أن أنقذ الاتحاد، وليس إنقاذ العبيد أو تدميرهم، فكل ما أفعله بشأن العبودية والعنصر الملون، إنما أفعله لأنني أعتقد أنه يساعد على إنقاذ الاتحاد." كان خطاباً صادقاً، كما قال فيما بعد، ويتوافق مع كل تصرف فعله وكل كلمة قالها.

نشر فريدريك دوجلاس رد لنكولن على جريلي بعد صدور اعلان العتق، وحض قرّاءه على إعادة مطالعته من جديد قائلاً: "فبين سطوره ترون أكثر الكلمات دقة ووضوحاً التى تحدد سبب

صدور القرار متأخراً ." لقد أدرك لنكولن– في النهاية– أن إنقاذ الاتحاد يتطلب تحرير العبيد .

وفي أواسط سبتمبر حصل لنكولن على المعركة التي كان ينتظرها . إذ أجبر غزو الجنرال لى لأراضي ماري لاند ، ماكلان على الدخول في قتال لحسم الأمور. ظل لنكولن غير متأكد بشأن سلامة اصدار الاعلان ،وتمنى أن يعرف ما يريده الله ، "ففي الصراعات الكبري، يدعي كل من الطرفين أنه يتصرف وفقاً لمشيئة الله. ربما يظن كلاهما ذلك، لكن أحدهما لابد وأن يكون على خطأ، لأن الله لا يمكن أن يكون مع شيء وضده في نفس الوقت. ففي الحرب الأهلية القائمة يمكن تماماً أن يكون قصد الله شيئاً مختلفاً تماماً عن هدف أي من الطرفين."

كان يريد أن يعرف إرادة الله في مسألة عتق العبيد خاصة، لذا صرح بقوله: "لو أعلم ماهي إرادته لنفذتها فوراً !" لكن الله الاحاطة بما يريد ،حيث أن هذه الأيام "ليست أيام المعجزات" .وبحث لنكولن عن علامة تأتيه عن إرادة الله. ومن وقع أخبار غزو "لي" ظهرت علامة فجأة. وكما أخبر وزراءه فقد "أدلى بقسم وعهد أن لو منحنا الله النصر في المعركة القادمة سوف يعتبر ذلك إشارة من الإرادة الإلهية، وأن واجبه أن يتحرك قدماً في قضية تحرير الرقيق."

وفي ١٧ سبتمبر أعلن ماكلان عن انتصار جزئي على "لي" عند أنتيتاما وضع حداً لخطورة تهديدات الكونفيدرالية. وبعد خمسة أيام تالية في يوم ٢٢ سبتمبر ، جمع لنكولن مجلس وزرائه معاً وأعلن نيته في أن يصدر قرار العتق .

وقبل أن يطلع مجلسه على الوثيقة قرأ عليهم قصة جديدة من مجموعة أدبية للكتب الساخر أرتيموس وورد .وكان واضحاً أنه يريد إضافة قليل من الطيش إلى تلك اللحظة المشهودة. كانت الطرفة التي تلاها بعنوان "الغضب المستبد في أوتيكا" مكتوبة بضمير المتكلم وتقول أنه : "ذهب فنان بمعرضه إلى أوتيكا بمدينة نيويورك لعرض أعماله الشمعية التي تمثل شخصيات العشاء الأخير. وجاء شاب يافع بعد رؤية المعرض وأخذ يضرب شخص يهوذا الأسخريوطي.

قلت له:

– توقف ياحمار، دي تماثيل من الشمع... مجرد تماثيل لحواريي المسيح، صور مزيفة.

قال لي:

– كل ده جميل إنك تقوله ... بس سيبني أقولك ياراجل ياعجوز إن يهوذا الأسخريوطي مايقدرش أبداً يبين نفسه في أوتيكا . هو غير معفي من العقوبة في مكان ملعون زي ده، خصوصا لما نشوف الجروح المحفورة اللي هو السبب فيها في جبهة المسيح."



تجذب القصة الانتباه لشخص يتحدث بلهجة ريفية ويخلط بين الرموز المقدسة والأشياء الحقيقية. كان لنكولن يحذر مجلس وزرائه بأسلوب مرح، ويحذر نفسه من خطورة ادعاء معرفة إرادة الله.

وبعد أن روى تلك الحكاية الرمزية لوزرائه ،أطلعهم على اعلان تحرير العبيد التمهيدي .ويشجع الاعلان المؤرخ في ٢٢ سبتمبر، استعمار السود المحررين لأراض جديدة ويقوم بتعويض المضارين منه في ولايات الحدود، عاكساً في نفس الوقت توجهه المحافظ نحو قضية العتق. لكنه يعلن أيضاً أنه اعتباراً من الأول من يناير عام ١٨٦٣ "سيكون عبيد كل المتمردين من هذا التاريخ فصاعداً أحراراً للأبد." أضحت الستون يوماً التي يمنحها قانون المصادرة الثاني للمتمردين للعودة إلى صفوف الاتحاد ملغاة تماماً. ومما له دلالة رمزية ثرية أن الوثائق الثلاثة الهامة، التي كتبها لنكولن بشأن تحرير العبيد عام ١٨٦٢ صدرت جميعها في اليوم الثاني والعشرين من الشهر .فأول مسودة لاعلان العتق كانت مؤرخة ٢٢ يوليو، وكان رده على هوريس جريلي في يوم ٢٢ أغسطس، ثم يأتي اعلان العتق التمهيدي يوم ٢٢ سبتمبر.وكما يعرف الجميع فإن الرجل الذي قاد أول ثورة للأمة وقام بتحرير عبيده علانية في وصيته كإيحاء رمزي لتحرير العبيد تدريجيا وطواعيا كان جورج واشنطن وهو أيضاً ولد يوم ٢٢ من فبراير عام ١٧٣٢. ربما كان لنكولن يقدم الشكر لواشنطن في تلك الوثائق الثلاثة

وبتحويل الحرب– في النهاية– إلى ثورة ثانية ستقتفي الخطى والمثل التي أرستها مبادىء الثورة الأولى.

لم يكن فردريك دوجلاس الوحيد الذي خاف ألا يصدر لنكولن اعلان العتق النهائي. فالأديبة هاريت بيتشرستو لم تحضر احتفالات رأس السنة بسبب شكها في أن يقوم لنكولن بتأجيل أو تجنب إصدار الاعلان . كما أن ليديا ماريا تشايلد ظنت أن الرئيس واقع تحت تأثير سحر ويليام سيوارد الذي كانت تطلق عليه لقب "الحية" واسم "المنافق الأناني المحتال" الذي لايمكن الوثوق به. كما أن صامويل جريدلي ازداد قلقه وكانت زوجته جوليا وورد قد حولت أغنية جون براون إلى نشيد "أنشودة معركة الجمهورية" وقالت: "إن الرئيس قد حول وجهه تجاه الرب رغم أنه يشعر بالخجل نوعاً ما من ربه."

لكن لنكولن لم ينظر وراءه أبداً. كان يقول: "إنني قد أتقدم ببطء ... لكنني لا أسير للخلف." وفي نوفمبر أخبر بعض أهل كنتاكي أنه "يفضل الموت على أن يقوم بسحب كلمة من اعلان العتق." لقد عكس اعلان العتق النهائي التطور المستمر للنكولن في قضية تحرير العبيد، فلم تعد وثائقه تذكر الاستعمار واخذت تدعو صراحة لضم السود للخدمة في القوات المسلحة حتى وان لم يكونوا جنوداً. لم يهجر لنكولن فكرة الاستعمار كلية ولا إيمانه بالتدريجية ولا

بالتعويض أو العتق الإرادي. لكن لم يوجد بوثيقة القرار النهائي شيء من التدريجية ولا اللطف لأن هدفها كان سحق التمرد، وكانت نتيجتها غير المقصودة هي الثورة الاجتماعية، لأنها أعلنت أن العبيد في جميع أراضي المتمردين أحراراً في الحال وللأبد، ودافعت عن مواد العتق في قانون المصادرة الثاني. واعتمدت بصراحة على حكم سلطة الحرب بالدستور. كان تحرير العبيد "إجراءً سليماً وضرورياً لقمع التمرد المذكور." كان استخدامه كحكم "سلطات الحرب" يتسق مع فهمه لطبيعة التمرد، ولم يشرف المتمردين بتسميتهم كونفيدراليين أو حكومة. كان أقصى ما وصل إليه هو مصطلح "الكونفيدرالية المدعوة" حيث كان يعتبرهم فوضويين وخونة، وقد مكن اعلان العتق لنكولن وقادته العسكريين من محاربة العصاة بكلتا اليدين، وفقاً لتعريف دوجلاس، ومطاردتهم كخونة.

وفي رأس السنة، جاء كل مسئول بالحكومة- تقريباً- بمن فيهم أعضاء الهيئة الدبلوماسية في أزيائهم المزركشة والمذهبة إلى البيت الأبيض لحفل الاستقبال. وظل لنكولن يصافح القادمين بيده ثلاث ساعات متواصلة، وتيبست يده لدرجة أنها أخذت في الارتعاش عندما أمسك قلماً ليوقع به اعلان العتق الشهير. لكنه قال: "لم أشعر في حياتي باليقين أنني أقوم بالعمل الصحيح أكثر مما أشعر به الآن عند توقيع تلك الورقة." ثم أطلق مزحة: "إن الناس قد يرونه

بيد مرتعشة أثناء توقيعه ويفترضون أنه يشعر بوخز الضمير." بعد توقيعها، أعطى قلمه وعليه آثار أسنان خفيفة، للجمعية التاريخية بماساتشوسيتس لحفظه. وكان البيض والسود قد تجمعوا معاً في الخارج في حلقات متزاحمة على طول طريق بنسلفانيا وأخذوا يستمعون للوعاظ وهم يقرأون عليهم تفاصيل الاعلان. ووصف ذلك المشهد القس الأسود هنري تيرنر قائلاً: "صرخ الرجال وأصيبت النساء بالإغماء ونبحت الكلاب وتصافح الناس بيضاً وملونين، وارتفعت أصوات الغناء... لقد كان أزهى العصور وعصر الراحة أيضاً ولن تشهدشبيهاً بذلك في حياتنا أبداً." ورأى كثيرون أن المبادىء الوطنية والنبوءات المقدسة كلها قد تم الوفاء بها، وبدا أن الخط الفاصل بين الحاضر والمستقبل وبين السماء والأرض آخذاً—فجأة— في التلاشي.

وفي تلخيص تطور تفكيره بشأن تحرير العبيد، قال لنكولن إنه كان مناهضاً صارماً للعبودية دائماً وقال: "لو لم تكن العبودية خطأ، فلن يكون هناك شيء خطأ." لكنه على النقيض من جون كوينسي آدامز وفردريك دوجلاس وتشارلز سومنر وآخرين، لم يؤمن بأن الرئاسة تمنحه (الحق المطلق) ليتصرف بناءً على ذلك الاعتقاد، حتى أثناء الحرب الأهلية، لأن إعلان الحرية أصبح قانونياً عندما صار جزءاً لا ينفصل عن الإبقاء على الدستور." فقد ظل لمدة عام

بطل قرارات التحرير لأنه لم يكن يعتقد أنها أصبحت "ضرورات مطلقة" للحفاظ على الاتحاد، وقد أكد أنه لايملك السيطرة على الأحداث التي أدت إلى إصدار اعلان العتق بقوله: " أدعى عدم قدرتي على السيطرة على الأحداث، وأعترف بوضوح أن الأحداث قد سيطرت علي."ربما اقتبس من إدموند بيرك، الناقد الداهية للثورة، الذي قال إن زعيم الأمة "يتعين عليه في أغلب الأوقات أن يكون راضياً بأن يتبع خطى غيره ."

إنها مفارقة غنية وعجيبة أن يرأس جمهوري محافظ التحول الجذري الأكبر لتاريخ أمة. لم يكن فردريك دوجلاس الوحيد الذي أدرك هذا . فليس هناك حجة في الراديكالية أكثر من كارل ماركس الذي أكد الطبيعة الثورية لإعلان لنكولن بتحرير العبيد، فيكتب من فيينا عن ذلك القرار أنه "أهم وثيقة في التاريخ الأمريكي منذ تأسيس الاتحاد، وثيقة تفلت من إسار الدستور الأمريكي القديم. . .لم يسجل العالم الجديد انتصاراً أعظم من انتصار هذه اللحظة (عندما) . . . عندما يقوم أناس عاديون ذوو إرادة خيرة بتنفيذ مهام ما كان العالم القديم ليحققها إلا بوجود بطل يقوم بتحقيقها." إنه تقارب عجيب فيما بين ماركس ولنكولن، لكن تقارباً أكثر غرابة من ذلك شكل صداقة فيما بين الأجناس كان قد اقترب من التحقق."



الفصل الخامس

أصدقاء

" أتوسل إليك أن تصفح عن ذنب إخوتك وعن خطيتهم، فإنهم صنعوا بك شرا." (سفر التكوين: ٥٠/١٧)

في بدايات أغسطس من عام ١٨٦٤ بدا لنكولن كرجل لحقت به الهزيمة. كانت هناك نقطة مجهدة في عينيه، وكان هيكله الطويل النحيل على وشك التداعي تحت أعباء الحرب. إذ تدفقت الأنباء طوال الصيف وأخذ نجم جرانت يأفل بعد انتصاره المذهل في فيكسبرج، وأطلق العديد من الناس عليه "الجزار ملوث اليدين الغارق في حملة الصحراء" وقد أقسم "أن يقاتل في تلك المواجهة حتى لو استغرقه ذلك الصيف كله." لكنه فقد – حتى الآن – أربعة وثلاثين ألفاً من رجاله في أقل من شهر، وهو رقم مذهل صارخ أجبر الصحف إلى طبعات إضافية عن ضحايا الحرب.

أثناء حملة لجمع التمويل لتجنيد المواطنين في يونيو، حاول لنكولن حشد الأمة فقال: "إن الحرب على أفضل صورها مرعبة . . وتلك الحرب حربنا، وهي في حجمها ومدتها من أفظع الحروب. لقد حملت الحزن لكل بيت تقريباً حتى يمكننا القول أن السماء ترتدي السواد حزناً"، ووعد أن يقضي على العصاة حتى لو استغرق الأمر ثلاث سنوات قادمة." لكن ذلك لم يلهم الناس الثقة. فقد اهتزت ثقة الاتحاد بدرجة أكبر أمام هجوم جري، ففي يوليو عام ١٨٦٤ اقتربت قوات الجنرال الكونفيدرالي جوبال إيرلي حتى أصبحت تبعد خمسة أميال من البيت الأبيض، وأحرقت منزل الربيع "الفضي"

الخاص بمدير مكاتب البريد الجنرال موتجمري بلير. وخلال الغارة على واشنطن قام لنكولن بزيارة معسكر ستيفنز خارج المدينة ليرى ما تبدو عليه المعركة ، وتطلع وهو يرتدي قبعته المميزة عبر الحصن والطلقات تأز من حوله، وبدا كما لوكان يتودد للموت. واعتقد الجندي المتطوع أوليفر ويندل هولمز - الذي أصبح قاضي المحكمة العليا فيما بعد - أن لنكولن مدني ساذج فصرخ فيه: "انبطح أرضاً . . أيها الغبي الملعون قبل أن يصيبك الرصاص!"

امتلأت مستشفيات واشنطن بالموتى والمرضى لدرجة الاختناق، وتسبب تدفق عربات الإسعاف إلى المدينة في اضطراب حركة المرور. وفي شهر أغسطس ذلك حاول والت وايتمان أن يسجل "الوقائع المرعبة" في حياة المستشفيات بالتركيز على مصير شاب يافع من ويسكينسون ضئيل الحجم ذي لحية وهو جندي رائع يكاد يمثل النموذج الأمريكي. كان الشاب محارباً لمدة ثلاث سنوات وبقيت له أيام قليلة كي يخرج من الخدمة. وأثناء إحضاره لمقاتل برتبة رقيب جُرح بأحد المناوشات، فأصيب بطلقة في ركبته، وتم بتر ساقه إلا أن باقي الساق أصيب بالتلوث، فكتب في يومياته: "اليوم يقول الطبيب أنني سأموت حتماً ... لقد انتهى كل شيء بالنسبة لي... يا ه، صغير أنا على الموت!"

حتى مزاج لنكولن المرح أصبح كدراً في أغسطس هذا. وتذكر إحدى الحكايات أنه خرج لنزهة في حديقة لافاييت، ووقف عند التمثال البرونزي لأندرو جاكسون ممتطيا جواده النافر على قدميه الخلفيتين، فاقترب منه رجل نحيف بادي الجوع وسأله قليلاً من المال وهو لا يعرف أنه الرئيس. فسأله لنكولن لماذا لم يلتحق بالجيش فأجابه: "لم يسمحوا لي بذلك وسأكون مسروراً لو مت في سبيل بلادي! سيدي، لو منحوني فرصة لذلك!" فقال له لنكولن إنه يستطيع مساعدته، وسحب ورقة مما يحمل وكتب عليها: "حامل هذا في شوق للذهاب إلى الجبهة والموت من أجل الوطن، ألا تستطيعون منحه فرصته؟" ثم وضعه داخل مظروف وأغلقه وأخبر الرجل أن يذهب به إلى مكتب التجنيد واختفى الرجل ولم يسمع عنه لنكولن شيئاً بعد ذلك.

والقصة رغم تلفيقها تبرز حالة دولة الاتحاد في بدايات أغسطس ١٨٦٤، فالمتطوعون نقص عددهم رغم دعوة لنكولن لتجنيد ٥٠٠٠٠٠ رجل آخرين، اختفت الروح العسكرية من الأغاني الشعبية وحل محلها النواح والرثاء مثل "لقد تعبنا من الحرب على أرض المعسكر القديم/ فالكثيرون قد ماتوا وذهبوا." كما أن إدارة الخزانة قد أنفقت كل رصيدها الذهبي مما تسبب في تراجع قيمة الدولار إلى مايوازى ٤٠ سنتاً. أخذ الناس يصرخون طلبا

للسلام.٧ حتى رجاله المخلصون كان الاحتفاظ بإيمانهم بالقضية صعبا، ورأوا أنه سيخسر الترشيح في إعادة انتخابه في نوفمبر بسبب الهزائم العسكرية بالإضافة إلى إصراره على جعل قانون العتق "مادة أساسية في أية مفاوضات حول السلام". وقال أهل الشمال "ليته كان أبطأ أكثر من ذلك في اعتناق قرار تحرير العبيد خلال السبعة عشر شهراً الأولى من الحرب. إنه الآن مرتبط بشدة به." هكذا قال أهل الشمال. كما أن أحد مؤيديه كتب يقول: "يمكن الحفاظ على رباطة الجأش هذه الأيام بقوة الإيمان فقط. لكن ذلك أضحى كنقل جبل من مكانه." تأكد لنكولن من أنه سيخسر الانتخابات وقال: "سوف أهزم، ومالم يحدث تغير كبير، ستكون الهزيمة قوية." لقد كان يتلقى الهجوم من كلا الجانبين، فصفوف الديمقراطيين المعارضة للحرب المعروفين "بالرؤوس النحاسية" أخذت تنمو. وطالبوا بتحقيق السلام بأي ثمن في الحال، وذلك ماسوف يترك العبودية قائمة بالتأكيد، وكذلك سيمنح العفو للمتمردين. كما أخذت صحف ذوي الرؤوس النحاسية، وبعضها ممول من جواسيس المتمردين، تسعى خفية لاستثارة التعصب الأمريكي، وذلك في محاولاتها لإنهاء الحرب والإبقاء على العبودية. فقالت إحدى المقالات: "إن عشرات الآلاف من الرجال البيض يجب أن يلعقوا التراب كيما تهدأ حالة "الجنون الزنجي" لدى الرئيس."

أصبح العرق هو القضية المركزية في الحملة، فصاغ محررو الديمقراطيين مصطلح "التهجين" أي خلط الأجناس، واتهموا الجمهوريين بتشجيع الزواج المختلط والمعاشرة الجنسية المختلطة، وبذلك يلوثون الجنس الأبيض. وفي رسم كاريكاتوري سياسي انتشر وأعيد طبعه مرارا يظهر لنكولن وسط السود ومعه المتطرفون الآخرون في حديقة وهو ينحني بأدب لحبيبة تشارلز سومنر (أو خطيبته) السوداء قائلاً: "سوف أكون فخوراً أن أضم بين أصدقائي المخلصين أي عضو من أسرتكم الصديقة."

واتهم ذوو الرؤس النحاسية لنكولن وفردريك دوجلاس بأنهما صديقين حميمين. واستغل الديمقراطيون اجتماع لنكولن مع دوجلاس بالبيت الأبيض قبل عام ليطلقوا عليه حملتهم، فاقتبسوا عبارات مثل قول دوجلاس: "إن رئيس الولايات المتحدة قد استقبل رجلاً أسود بالبيت الأبيض. (مثلما يستقبل سيد مهذب سيدا آخر)". ولوكانوا يعلمون بعلاقته بأوتيلي آسنج، فلا ريب أنهم كانوا سيرسمون رسماً كاريكاتوريا بصفهما في سهرة بالبيت الأبيض. وبالمقارنة، يُعد سباق الاصطياد الذي كان يقوم به ستيفن دوجلاس للنكولن أمراً هيناً، ومع احتضار الموت الذي تعانيه العبودية حينذاك كانت العنصرية العرقية قد وصلت إلى مستويات جديدة من العنف للحفاظ على تفوق الجنس الأبيض. وبينما كان الديمقراطيون يقومون

بمهاجمة لنكولن من اليمين، كان بعض أعضاء حزبه يهجرونه من اليسار. وبنهاية مايو عام ١٨٦٤، شكل الراديكاليون الجمهوريون حزباً ديمقراطياً راديكالياً جديداً ورشحوا جون فريمونت رئيساً وتوماس كوشرين– وهو ابن أخت جيريت سميث– زميلاً له في حملته. ومما عجل بهذا الارتداد هو خطة لنكولن لإعادة البناء التي اعتبروها شديدة التساهل، فهي تعد بالعفو عن كل المتمردين عدا بعض القواد أصحاب المراكز العالية، وتسمح للولايات بالعودة للانضمام للاتحاد لو أقسم ١٠% من الناخبين بالولاء للحكومة. كانت تلك الشروط تتواءم مع رغبة لنكولن في تجنب اقتلاع المجتمع من جذوره. فإذا ماكان لابد من الثورة، يجبُ ألا تكون متطرفة ويتعين السيطرة عليها وإلا سوف تتلوها ثورة مضادة. ووفرت لويزيانا التي احتلتها قوات الاتحاد فرصة اختبار لسياسة إعادة البناء المتساهلة التي وضعها لنكولن .إذ أنه كان يرى هو وقائده ناثانيال بانكس أن مرحلة التحول من العبودية إلى العمل بأجر مضت في هدوء ونجاح.

لكن المتطرفين عارضوا ذلك وأطلقوا على بانكس أنه "السائق المولود عبداً" وأكدوا أن نموذج لنكولن لاعادة البناء في لويزيانا وضع "كل السلطات بيد جنسٍ أبيض لم يتغير (في مبادئه) ." وبينما كان يُعَد السود أحراراً اسمياً، كانت أحوالهم تقترب كثيراً من أحوال

"أقنان الأرض"؛ فهم مقيدون بالأرض ولايستطيعون مغادرة المزارع دون تصريح. كان عليهم أن يعملوا بالأجر من أجل البيض بأجور تقف عند ١٠ دولارات شهرياً في حين كان في إمكانهم اختيار من يعملون عنده، كانوا مكبلين بعقود سنوية تطلب منهم "العمل بإخلاص" و"بطاعة كاملة" لرؤسائهم بهذه الصورة تمنعهم القوانين من أن ينالوا بالجهد المتواصل من اقتطاع أربعين فداناً لأنفسهم ليعيشوا معتمدين على أنفسهم كمزارعين، وهو ماكان يشجعه بعض الراديكاليين.

وفي يوليو مرر الجمهوريون الراديكاليون بالكونجرس خطة بديلة لأعادة البناء وأسموها قانون ويد- دافيز وتتطلب أن يقسم أكثر من ٥٠% من الناخبين على "الولاء والإخلاص قبل عودة الولاية للاتحاد، ويحظر حق التصويت إلا على من يقسمون "بميثاق غليظ" على أنهم لم يساعدوا التمرد إطلاقاً، وأنكر حق التصويت على السود لإرضاء المعتدلين والمحافظين إلا أن لنكولن قد اعترض على الخطة.

أدت المناقشات حول قرار اعادة البناء إلى انقسام الحزب الجمهوري، وظل ذلك مصدراً للتنافس طوال الإثنتي عشرة سنة القادمة. فلم يستطيع الجمهوريون الاتفاق الا على مظهرين فقط في خطة اعادة البناء: إصلاح دستوري يلغي العبودية واستسلام غير

مشروط تنفذه ولايات الكونفيدرالية بينما أراد المحافظون من الرئيس السيطرة على عمليات إعادة الاتحاد بسلاسة وسرعة مع تحول بطيء إلى حرية السود وتقديم شروط كريمة للمتآمرين في حين كان الراديكاليون يريدون أن يهيمن الكونجرس على مستقبل الجنوب ضامنا للسود حرية فورية مع حرمان المتمردين من أي سلطة.

تقدم برنامج فريمونت خطوة أبعد من قانون ويد- دافيز في إطار تأمين حقوق السود. فقد سعى لضمان حق جميع البشر في المساواة المطلقة أمام القانون." كما نادى بإعادة توزيع الأرض على المحررين الذين كانوا ضمن أملاك العصاة، وانتقد إرادة لنكولن في تعليق العمل بحق المثول أمام القاضي بل وطالب بإلقاء الصحفيين المتعاطفين مع التمرد في السجن. وكان هذا البند الأخير من البرنامج تنمراً واستقواءً ،لأن فيرمونت ومعه باقي الراديكاليين لم يشعروا بالندم لإعلان قانون الطواريء بغية اسكات المتمردين ومؤيديهم.

تشابهت مباديْ برنامج فريمونت مع برنامج حزب التحرير الراديكالي عام ١٨٥٥ في مناداته بالمساواة. ويمكننا أن نتفهم تأييد فردريك دوجلاس لمباديء فريمونت رغم أنه لم يحضر اجتماع ترشيحه. فقد كان ناقداً حاداً لخطة لنكولن لإعادة البناء لأنها لا تتطلب سوى ١٠٪ فقط من البيض في ولايات التمرد لإعلان ولائها للاتحاد وحتى يمكن الاعتراف بحكوماتها. فذلك يناقض صلب

فكرة الديموقراطية ذاتها. وعلاوة على ذلك، يشير صمت لنكولن عن حق التصويت للسود إلى أن الرئيس يعارضه، فقال دوجلاس: "إن ذلك عار لأن السود كانوا رجالاً بما فيه الكفاية. فقد حاربوا وماتوا في سبيل وطنهم، ولكن ليس للتصويت فيه!!" كان متأثراً جداً ببرنامج فيرمونت بشأن "المساواة الكاملة" أمام القانون بما في ذلك حق التصويت للسود، والانتقام من المتمردين لقيامهم باستعباد وقتل أسرى الحرب.

هددت تلك الانقسامات الحادثة في الشمال جهود الحرب. فبعد ثلاث سنوات من حمامات الدم وموت ٢٠٠٠٠٠ من أبناء الشمال، اصبح النصر العسكري يتوقف حينذاك على الانتخابات. فالحزب الجمهوري قد انقسم فعلياً، والديمقراطيون سوف يعقدون اجتماعاً لتحديد مرشحهم مع نهاية أغسطس. ولو فاز مرشحهم- كما يعتقد لنكولن ومعه أغلب الجمهوريين الآن- سيكون المتمردون هم الذين فازوا بالحرب فعلاً.

ووسط تلك الانقسامات، أدرك لنكولن- بصورة غير مسبوقة- أن مصير الاتحاد يتوقف على دور السود في المجتمع. فأقرعلانية أن "سياسة تحرير العبيد واستخدام القوات "الملونة" أسهمت في تسديد أقسى ضربة وجهت للتمرد" فالانتصارات العسكرية الحاسمة ما كانت لتتحقق "لولا مساعدة الجنود السود." ربما كان السود

يستطيعون مساعدته على الخروج من مأزقه وإذا لم يستطيعوا إنقاذ الاتحاد، ربما يعاونوه في استمرار العتق. كان لنكولن مستعداً لتلقي خطط أخرى لإعادة التعمير كبدائل (رغم عدم وجود خطة راديكالية مثل خطة فريمونت) بهدف نزع فتيل الصراع بين الجمهوريين.

في العاشر من أغسطس تقابل لنكولن وذهنه يمتلىء بكل تلك القضايا مع جو إيتون وهو كاهن شاب مدرب جيدا من دارتموث متحمس لعمله وكان قد حقق نجاحاً مشهوداً في رعاية المحررين مؤخراً بمنطقة دافيز بند بولاية مسيسيبي وهي شبه جزيرة مساحتها ٤٠٠ ميل مربع جنوب فيكسبرج التي صادرها جرانت من أسرة جيفرسون دافيز. كان جرانت قد وضع ثقته الكبيرة في إيتون، وملأه الأمل في أن تصبح منطقة دافيز بند "جنة للزنوج"، وهو لم يخطىء في هذا لأن السود عملوا باجتهاد هناك يزرعون القمح والخضراوات والقطن لصالح قوات الاتحاد وقدم ذلك المجتمع بديلاً رائعاً للويزيانا كنموذج لإعادة البناء .

كان إيتون أساساً مهندساً واستطاع أن يؤمن وجود الأرض في منطقة بند للرجال المحررين. ثم شكل نظاماً للعمل والمشروعات يدار ذاتياً كما يسميه. وكان الرجال المحررون يسيطرون على مجتمعهم بأنفسهم بناءً على تصميم ابتدعه إيتون، فعملوا كمزارعين



مستقلين مع إشراف الأكثر خبرة على المبتدئين. كما كانوا مسئولين عن نظامهم القضائي ومحكمتهم، وبدأ إيتون في إنشاء المدارس.

كانت دافيز بند أكثرإنتاجاً من أي مزرعة أخرى في وادي المسيسبي. هذا ما قاله إيتون للنكولن وأضاف أن ويليام ويلز براون وهو من دعاة التحرير السود وصديق لدوجلاس قد زار ذلك المجتمع في يوليو وأطلق عليه "أنه نوع من جنة على الأرض للاجئين الملونين." كان الرجال المحررون في أنحاء المسيسبي بعد تأثرهم بالتجربة يأملون في أن ينشئوا مستعمرة جديدة تتبع نموذج دافيز بند.

انتعشت روح لنكولن بتقرير إيتون وخلال الأسبوع التالي تقابلا مراراً لمناقشة طبيعة ومصير السود المحررين. وافق إيتون لنكولن في إيمانه بأن "الزنوج" مثل باقي البشر، وأنه من الأفضل أن نسرع في التجربة كيما يساعدوا الاتحاد. سأل لنكولن إيتون إذا ما كانت هناك وسيلة لتوصيل رسالة للسود عبر "تجمعات قطاف العنب" لتحريضهم على ترك مزارع سادتهم و"اللجوء لحماية جيشنا".

ذلك أن مثل هذا التحرك سيقوي قوات الاتحاد ويدمر مصدر ثروة المتمردين، وربما يمنع التفاوض على اتفاق قد يُبقي أعداداً لاحصر لها من السود تحت نير العبودية.

لم يكن لدى إيتون أدنى فكرة عن استخدام هذا المصدر الفعال في اتصالات السود، لكنه اندهش لفهم لنكولن الدقيق "للموقف في

الجنوب" .

ثم ألمح لنكولن لغارة جون براون على هاربرس فيري مضيفاً أنه عارض أسلوب براون وتوقيته، حيث ربط الناس بينه وبين الجمهوريين كي يفقد الشعب ثقته فيهم، (وكان واضحاً أن لنكولن ليس لديه أدني فكرة بأن أسلوب وتوقيت براون معاً ساعدا على انتخابه) والآن بعدما أضحت الحرب تقع على عاتقهم، ربما يجدون طريقة للاقتداء ببراون لتحرير عدد أكبر من العبيد لمساعدة الاتحاد . لكنه لم يدقق في الفكرة.

وجاء ذكر دوجلاس في حديثهما فكرر لنكولن انتقاداته "بكل صراحة ممكنة" . ودفع ذلك إيتون إلى وصف حديث سمعه حالياً من دوجلاس بأنه نوع من الذم القاسي.

كان إيتون قد قابل دوجلاس قبل أسابيع في توليدو بأوهايو حيث توقف لزيارة أخيه في واشنطن، وعندما سمع أن هناك خطاباً سيلقيه دوجلاس، حضر إيتون الخطاب وبعدها "وجد الإثنان مايتحدثان عنه."

هاجم دوجلاس– في خطابه بتوليدو– خطة لنكولن لاعادة البناء لأنها شديدة التساهل وتتجاهل إصدار قرار بحق السود في الاقتراع . وأعلن دوجلاس غضبه العارم من الرئيس لعدم توقيعه قصاص العين بالعين على المتمردين الذين كانت سياستهم هي

استعباد واغتيال الجنود السود من الأسرى. وكان لنكولن عندما قابل دوجلاس في البيت الأبيض لأول مرة قبل ذلك بعام، قد وعده بتطبيق ذلك القصاص. لكنه أضحى متردداً في قتل البيض قصاصاً من قتلهم السود. وقد وافق إيتون دوجلاس على ذلك الانتقاد لأنه باعتباره مسئولاً في الاتحاد عن السود المحررين، أدرك أنه قد يواجه ذلك المصير كالسود إذا أسره المتمردون.

كان لدى دوجلاس وإيتون مبرراً كافياً ليشعرا بالقلق. فقبل أشهر قليلة من حديث توليدو حدث نموذج شنيع لبربرية المتمردين في قلعة بيلو على نهر المسيسبي على بعد أربعين ميلاً شمال ممفيس. كان للقائد المتمرد ناثان بيدفورد فوريست تاريخ طويل في تعذيب السود، وبعد الحرب ساعد في تأسيس جماعة الكوكلوكس كلان.

كان فوريست رجلاً عصامياً، وهو النقيض الجنوبي للنكولن. ولد فوريست في فاقة شديدة في كوخ خشبي على نهر تينيسي ولم يتلق تقريباً أي مستوى من التعليم، واكتسب عيشه كعامل تثقيب لقضبان السكك الحديدية، وفي العشرينيات من عمره عمل مع عمه بإحدى المزارع، وادخر مبلغاً يكفي لشراء أحد العبيد، وخلال سنوات قليلة أقام "فناء للزنوج في ممفيس". كما أسماه وكون ثروة من تجارة العبيد وامتلك ضيعة. وعند بداية الحرب، كان يكسب حوالي ٣٠٠٠٠ دولار في العام، أى ما يساوي اليوم ٢ر٢٥ مليون دولار.

وفي مذبحة قلعة بيلو، أحاطت قوات فوريست البالغ عددها ستة آلاف جندي بحوالي ستمائة جندي من جنود الاتحاد الذين لجأوا للقلعة ثم سرعان ما استسلموا، وكان السود يمثلون نصف الأسرى. لكن فوريست رأى أن أسراه السود وحلفاءهم مجرد عبيد متمردين، ولم تأخذه بهم رحمة .وهكذا ذبح رجاله حوالي ثلاثمائة رجل، أغلبهم من السود، وبينهم بعض المدنيين الذين كانوا بالقلعة، ووفقاً لشهادة بعض الأحياء فقد صرخ الجنوبيون: "اقتلوا كل الزنوج!" ودوت الصرخة بأرجاء القلعة. وقد تفاخر فوريست أمام قائده أن النهر المجاور للقلعة "اصطبغت مياهه بدماء القتلى وامتدت لمائتي ياردة . . . ومن المأمول أن تبين تلك الحقائق للشعب الجنوبي أن الزنوج لايمكنهم أن يصبحوا أنداداً للجنوبيين ."

أشار لنكولن لتلك المذبحة يوم ١٨ أبريل بعد ستة أيام من وقوعها في خطابه ببالتيمور بقوله: "بعدما قررنا تشغيل الزنجي كجندي، فلا مفر من منحه كل وسائل الحماية المتوفرة لأي جندي آخر." ووعد بتطبيق العقاب إذا تحققت التقارير عن اعداد القتلى . لكنه رفض إصدار قرار بالرد بالانتقام .

كان لنكولن يستمع حينذاك باهتمام وايتون يذكر انتقادات دوجلاس بالتفصيل .ويمكن للمرء أن يتخيل المرء هاتين "البقعتين الجهدتين" بعينيه تنموان بصورة أكثر بروزاً .ورداً على انتقاد خطة

اعادة البناء، سأله لنكولن هل يعلم دوجلاس شيئاً عن خطابه الحالي الموجه لحاكم لويزيانا ميشيل هان. فأجابه إيتون أن ذلك غير محتمل لأنه هو نفسه لا يعلم شيئاً عنه. قام لنكولن إلى مكتبه وسحب نسخة من خطابه إلى هان المؤرخ ١٣ مارس عام ١٨٦٤، وربما كان في غير حاجة إلى نظارته البيضاء ذات الإطار الصلب والتي بدت صغيرة على وجهه الضخم، لأنه كان خطاباً قصيراً وقرأه لإيتون: "بصراحة اقترح- تحت رعايتك الخاصة- ألا نترك بعضاً من الناس الملونين خارج الموضوع (يقصد السماح لهم بالتصويت)، على سبيل المثال ذوي الذكاء العالي، خاصة أولئك الذين حاربوا بشجاعة ضمن صفوفنا لأنهم قد يساعدون في أوقات صعبة قادمة، في صون جوهرة الحرية داخل أسرة الحرية.

أذهل ذلك الخبر إيتون، فحتى الراديكاليون في الكونجرس لايمكنهم تقديم مشروع لإعادة البناء يضمن للسود حق التصويت. قال لنكولن إنه إذا ما قدم عفواً عاماً فهو يحتاج- كذلك- لتوفير تصويت عام، أو على الأقل تصويت على أساس الذكاء والخدمة العسكرية. ثم وضع الخطاب جانباً وسأل إيتون- بتلك الصفة المتواضعة الغريبة فيه- عما إذا ماكان فردريك دوجلاس "يمكن إغراؤه للحضور لرؤيته".

فأجابه إيتون: "إنه يعتقد أنه يستطيع ذلك."

فأخبره لنكولن عن مقابلته لدوجلاس منذ عام مضى وقال إنه يعتبره "واحداً من أكثر الناس جدارة بالتقدير في أمريكا."

***

عندما هبط دوجلاس في محطة بالتيمور وأوهايو على شارع نيوجيرسي وشارع سي، كان هناك رسول من البيت الأبيض قادما للقائه. كان لنكولن قد طلب من المفوض الهندي ويليام دول أن يتأكد أن دوجلاس سيصل في أمان. وفي يوم ١٨ أغسطس أعلم دول الرئيس أن دوجلاس كان من المنتظر وصوله الساعة الحادية عشرة من اليوم السابق، لكنه لم يصل إلا أنه "من المنتظر أن يصل اليوم وسأقوم بتوصيله لكم فور وصوله."

اهتزت مشاعر دوجلاس عندما علم أن لنكولن يريد رؤيته، فأولى مقابلاته مع الرئيس كانت تمثل أعظم شرف حظي به في حياته. ان مجرد أن وجوده في البيت الأبيض أمر سحريّ، فهو يحب لنكولن بشكل شخصي ويعتبره صادقاً ويشعر بالراحة في حضوره. لقد عامله لنكولن كرجل، لا كرجل أسود. وفي الحقيقة أظهر له الرئيس احتراماً من رجل عصامي لرجل عصامي مثله.

لكن ذلك اللقاء لم يمنعه من انتقاد لنكولن بسبب سياساته الخاطئة، وكما يعلم دوجلاس جيداً فإن بعض المحافظين كانوا يؤمنون بسياسات عنصرية لكنهم يعاملون السود باحترام عندما يلتقون بهم،

كما أن بعض دعاة تحرير العبيد متعالون ويتفضلون على قضايا السود، فالمعتقدات السياسية لا ترتبط بالضرورة بالسلوك الشخصي.

كان هجوم دوجلاس على خطة لنكولن لاعادة البناء ولامبالاته البادية عقب كارثة قلعة بيلو هجوماً معتدلاً مقارنة بالوقائع. وفي خطابه حول أحداث الستة أشهر باسم "مهمة الحرب" الذي ألقاه على عشرات الآلاف من الناس، أطلق على افتقار لنكولن "لكل المشاعر الأخلاقية" أنه الخطر الأكبر على الاتحاد. على كل حال، كان لنكولن قد أخبر هوريس جريلي بأنه لا يهتم بالعبودية في حديث مشهور قال أشياء من هذا القبيل في رسالته السنوية للكونجرس. لكن عندما عبر منافسه الرئيسي ستيفن دوجلاس عن نفس اللامبالاة تجاه العبودية عام ١٨٥٨ "استنكر لنكولن ذلك الشعور وعدّه لا يستحق أن تلفظه شفاه سياسي أمريكي". كان ستيفن دوجلاس يريد السيادة للشعب ويقول: "إن السيد لنكولن يريد الاتحاد." كان هناك اختلاف قليل بينهما. وربما أضاف دوجلاس أنه ليس هناك موقف شخصي، فالمسألة مجرد لعبة السياسة.

وفي البيت الأبيض تقدم الرسول ليقود دوجلاس إلى غرفة الإستقبال، وكان لنكولن في لقاء آخر، فأخذ دوجلاس مقعدا في ركن الحجرة وبدأ القراءة. ثم شعر بجملقة مألوفة من إنسان أبيض

تتطلع إليه، وقد بدا عليه الغضب أن يشاركه نفس المكان إنسان أسود. فرفع دوجلاس عينيه البارقتين و(ضبطه) بهذه الفعلة . حاول "المذنب" القاضي جوزيف ميلز من ويسكينسون أن يتغلب على إحراجه بالسخرية من دوجلاس فسأله: "هل أنت الرئيس؟"

فأجابه بهدوء وكرامة: "كلا، أنا فردريك دوجلاس".

عندما قابل ميلز لنكولن أخبره بما حدث، ثم أخذته عزة العرق فسأله: "الآن، سيدي الرئيس، هل أنت متعاطف مع اختلاط الأجناس؟ هل هذا نموذج ديمقراطي حديث لإنتاج رجال أصحاء للاتحاد. أنا لاأقصد انتهاك براءة هذا الابتكار." تجاهل لنكولن تلك المزحة بشكل واضح.

وجد دوجلاس لنكولن "في حالة انزعاج". فمنذ لقائهما الأول قبل عام، صار كمن كبرعقدا كاملاً. امتلأ وجهه بالتجاعيد وغارت خدوده للداخل. ٥٥ كان الإحباط يملأه بسبب الاحتمالات الكئيبة لعملية إعادة الانتخابات، وذلك وفقاً لما قاله لدوجلاس، مضيفاً أن أغلب الناس شعروا أن سياسة مناهضة العبودية منعت ابرام تسوية سلمية مع المتمردين. وأشار إلى خطاب حديث أرسله إلى هوريس جريلي الذي كان يأمل في التفاوض حول تسوية ما. وقد أوضح لنكولن فيه أن أية اقتراحات للسلام يجب أن تبنى على "التخلي عن العبودية". أثارت تلك العبارة جلبة كبرى، واصبح الناس الآن

يتهمونه برفض التفاوض. الأكثر من ذلك، أن لنكولن خشي من أن يصبح أحد رجاله العسكريين السابقين وهو الجنرال جورج ماكلان المرشح الرئاسي في مؤتمر الحزب الديمقراطي القادم في شيكاغو، ولو حدث ذلك، فهو يشعر أن ماكلان سوف يفوز.

سعى لنكولن للحصول على نصيحة فردريك وأطلعه على خطاب كتبه ولم يرسله، دافع فيه عن نفسه ضد "ضجة السلام المثارة ضده،" وطالما لم تتقدم أية ولاية كونفيدرالية بمشروع سلام، فمن الخطأ القول أن لنكولن يرفض السلام. ذكر في الخطاب أنه لن يلغي قرار العتق ويعيد استعباد الذين خدموا قضية الاتحاد بإخلاص "وكمبدأ أخلاقي . . . هل يمكن لمثل تلك الخيانة . . أن تفلت من لعنة السماء؟ أو من لعنة أي إنسان طيب؟ وكمسألة سياسية، فإن إعلان اقتراح كهذا سيدمر قضية الاتحاد نفسها."

لكن ماذا لو لم يكن لدى لنكولن سلطة مواصلة حرب تحرير أخرى؟ هذا أساساً ما قاله وما أزعج دوجلاس. ففي الخطاب يتخلى لنكولن عن السيطرة على قضية إلغاء العبودية وبالتالي عن مسئوليته، وفي النهاية على الناس أن تقرر. انهم لم يوافقوا على محاربة الرق الا كوسيلة لإنقاذ الاتحاد. لكن ماذا لو أراد الناس السلام دون تحرير العبيد ووافق على ذلك المتمردون؟ عندئذٍ، لن يكون بمقدور لنكولن عمل أي شيئ لأنهم سوف يصوتون لإخراجه من

الرئاسة ولن يعضد الكونجرس موقفه، وهو لم يستطع أن يجعل تحرير العبيد شرطاً للسلام حتى لو أراد هو ذلك. كان خطابه طريقة عبقرية لاسترضاء دعاة السلام دون تنكر لسياساته. سأله لنكولن: "هل أرسل هذا الخطاب؟"

ردّ عليه دوجلاس: "بالتأكيد .. لا .. لأنه سيوحي بمعنى أوسع مما قصدت توصيله، وسيؤخذ على أنه استسلام كامل وتخلي عن سياستك المناهضة للعبودية، وإذا ماتكلمت عن "حاجتك إلى القوة، فسوف يُساء فهم ذلك." ولم يرسل لنكولن الخطاب أبداً.

وقد احتاج لنكولن مساعدة دوجلاس في أمر آخر حيث كانت لديه خطة لإحضار المزيد من العبيد داخل حدود الاتحاد، لكنه أراد أن يقوم دوجلاس بتنفيذها. شابهت خطته خطة براون في غزو الجنوب وتحرير العبيد هناك. أراد من دوجلاس تنظيم فرقة من الكشافة السود "لدخول ولايات المتمردين، فيما وراء خطوط قواتنا، لتحمل أنباء قرار العتق، ثم تحرض العبيد على المجيء داخل حدودنا." ذلك وفقاً لتلخيص دوجلاس لما حدث.

ولو نجحت الخطة، فلسوف تساعد على بقاء الاتحاد وإنهاء العبودية. استولت الدهشة على دوجلاس من تلك الخطة، لأنه كان يعرف جيداً أن لنكولن يعتبر جون براون مجرماً ومجنوناً إلا أنه الآن يقتبس من صديقه القديم، ويدبر خطة مشابهة للإغارة على الجنوب

وتحرير العبيد، وذلك يشابه أيضاً خطة طريق "الممر تحت الأرضي" الأصلية التي وضعها براون. تلك الخطة التي ظن دوجلاس أنها ستنجح.

أثارت خطة لنكولن المشابهة لخطة براون فزع دوجلاس، وأزعجته حيث تفترض أن اعلان العتق لن تكون له قوة فعالة بعد الحرب، وهزته لأنها كشفت أن لنكولن يكره العبودية أصلاً وأنه لم يصدر اعلان بعتق العبيد لمجرد أنه ضرورة عسكرية. لذا، لاعجب أن يطلب إصلاحاً دستورياً لإلغاء العبودية.

فجأة، رأى دوجلاس لنكولن تحت ضوء جديد، فالرئيس يرغب في الذهاب إلى أقصى مدى في قضية الحرية- أبعد مما ظنه دوجلاس ممكناً لأن خطته الشبيهة بخطة جون براون بينت اقتناعاً أخلاقياً أعمق بالغاء العبودية أكثر مما رأيته فيما كتبه أو قاله من قبل. ظل لنكولن طويلاً متباطئاً عن حزبه، لكنه غدا في مقدمته.

تحدث الرجلان ساعات طوالاً، وعند نهاية لقائهما اعتبر كل منهما الآخر صديقاً، وكان سكرتير الرئيس قد أعلن خلال حديثهما مرتين أن الحاكم ويليام باكينجهام من كونيكتيكت في الانتظار لرؤيته، فكان يقول له: "أخبر الحاكم باكينجهام أن ينتظر لأنني أريد محادثة صديقي دوجلاس مدة طويلة." في المرتين عرض دوجلاس الخروج، لكن لنكولن عارضه.



اعتبر دوجلاس ذلك اللقاء أول لقاء في تاريخ الجمهورية "يظهر(فيه) رئيس مثل هذه النزاهة نحو السود." وكان على حق لأنه لم يكن وحده الذي كان الرئيس نزيهاً تجاهه. كان لنكولن تقابل مع سود كثيرين بالبيت الأبيض (وبالطبع ليس من بينهم العبيد أو الخدم) أكثر من أي رئيس سابق. وفي عام ١٨٦٢ قدّم الأسقف دانييل بين اليه، فقام بالمقارنة بين كرم وسخاء لنكولن وتكبر واستعلاء الرئيس جون تيلرالذي قابله منذ سنوات عندما كان يلقي رثاء لأحد خدم تيلر. كما استطاع القس هنري هاي لاند أن يتعرف على لنكولن الذي طلب منه أن يلقى موعظة في الكونجرس في ذكرى صدور قرار العتق. كما أصبح شريك دوجلاس في إدارة الجريدة مارتن ديلاني أول عقيد في الجيش الأمريكي من السود بدولة الاتحاد، وتقابل مع لنكولن في بدايات عام ١٨٦٥ ليقترح عليه مشروعاً شبيهاً بخطة جون براون، كان دوجلاس ولنكولن قد ناقشاه.

وبالمثل، أكدت النساء السوداوات امتلاء قلب لنكولن بالرحمة، فإليزابيث كيكلي– خياطة ماري لنكولن– كانت تتردد على البيت الأبيض لأخذ المقاسات وكذلك للتشاور وأصبحت صديقة ماري الأمينة؛ وهي التي اطلقت عليها لقب "الروحانية" بعد موت ويلي. كما أطلقت على لنكولن "المبهدل". لكنها قالت عنه إنه كان طيباً

ومراعياً لمشاعرها "أكثر من أي شخص آخر بالبيت الأبيض."
وهناك سوجورنر تروث التي كانت مشوقة لمقابلة الرئيس حتى إنها أحضرت "أوتوجرافها" وطلبت منه التوقيع عليه وقالت إنها "لم تعامل بمثل تلك الطيبة والصدق القلبي إلا مع ذلك الرجل العظيم الرائع."

وبمجرد قيام البيض والسود بالعمل معاً لتحقيق أهدافهما المختلفة من أجل إنهاء العبودية وإنقاذ الاتحاد، ازدهرت العلاقات والتحالفات بين الجنسين. فقد كان معنى قتال المتمردين بكلتا اليدين، أن إحدى اليدين هم البيض والأخرى هم السود. أصبح تدفق السود جيئة وذهاباً مراراً إلى البيت الأبيض منتظماً مما دفع جريدة "الواشنطن كرونيكل" للتعليق عليه في بدايات عام ١٨٦٤ كالتالي: "منذ سنوات مضت، لو قدم رجل ملون نفسه للبيت الأبيض زمن الرئيس ليفي، طالباً مقابلة الحاكم الأعلى ، لكانوا عاملوه معاملة سيئة لوقاحته في جميع الأحوال".

وقدحدثت أقرب سابقة من ذلك النوع بالبيت الأبيض قبل إثنين وخمسين عاماً عندما تقابل مالك السفن الثري الأسود بول كوف بالرئيس جيمس ماديسون، وكان أحد أعضاء طائفة الكويكرز من ماساتشوستس وقاد حركة المستعمرات الجديدة كعلاج للعبودية الأمريكية والتعصب العنصري، وفي عام ١٨١٢ قام رجال الجمارك

باحتجاز سفينته الشراعية بصورة غير قانونية وهددوه بتدميرها. وكان رد كوف أن حمل مشكلته إلى الرئيس. وكان ماديسون من ملاك العبيد الذين- مثل أغلب مؤسسي الوطن- يسمون العبودية خطيئة ويسعون لإحداث تحرر تدريجي. وكان مثل كوف من دعاة المستعمرات، وفي لقائهما خاطب كوف على ما يتصور بلغة بسيطة غير مزخرفة نابعة من عقيدة الكويكرز فقال: "جيمس، لقد أوقعوني في مشكلات جمة، بل وأُهنت وجئت إلى هنا طالباً حمايتك." وقد استجاب ماديسون لطلب كوف المساعدة في استعادة سفينته جزئياً بسبب تماثل رؤيتهما بشأن ابعاد لأمريكيين الأفارقة.

كانت هذه أول مرة يقابل فيها أمريكي أفريقي رئيس الولايات المتحدة دون أن يكون خادماً أو عبداً .ومع ذلك ما مدى اختلاف لقاء كوف عن دوجلاس؟ بينما ماديسون وكوف .يتقاسمان رؤية واحدة للارتقاء بالسود تعتمد على نقلهم للمستعمرات، توحد دوجلاس ولنكولن بصدد قضية اقامة اتحاد متعدد الأجناس.

***

في نفس الوقت،فإنه بعدما علم جون إيتون بلقاء دوجلاس ولنكولن، قام إيتون بزيارته. كان دوجلاس يقطع أرضية بهو منزل أحد أصدقائه جيئة وذهاباً حيثما كان يقيم مشتت الفكر وواضح

الاهتياج .وكانت الأوراق ملقاة مع زجاجة حبر مفتوحة على طاولة الكتابة القريبة منه. وكان قد بدأ تحديد معالم خطة جون براون وأخذته الدهشة عندما رأى جون إيتون فأخبره بانفعال: "لقد أتيت تواً من عند الرئيس لنكولن." ثم مكملاً: "لقد عاملني كرجل، ولم يدعني أشعر ولو للحظة أن هناك أية اختلافات في لون بشرتينا ! إن الرئيس هو أكثر الرجال عظمة."

بعد أيام قليلة، وصل رسول من البيت الأبيض يدعو دوجلاس لتناول الشاي، وكانت بالخارج عربة تنتظره لتقله إلى دار الجنود. اضطر دوجلاس للاعتذار لأنه كان قد وافق من قبل على إلقاء محاضرة في ذلك اليوم، وتمنى أن يكون أمامه أكثر من فرصة لتناول الشاي مع الرئيس فيما بعد. وعند العودة لروشيستر، واصل عمله في خطة براون. استشار عدداً من الناس السود، وكانوا كلهم شغوفين بتدعيم الخطة. وأرسل تقريره النهائي يوم ٢٩ أغسطس إلى لنكولن. كانت الخطة من حيث المفهوم تماثل خطة "الممر تحت الأرضي" التي صاغها براون وتتطلع إلى تشكيل قوات خاصة للجيش كانت تقضي بأن يقوم عميل عام (سيكون دوجلاس بلاشك) بتعيين عملاء فرعيين لأماكن مختلفة في كل أرجاء الجنوب، على أن يكون كل واحد عارفاً بمنطقته ،لقيادة فرق العبيد إلى حدود الاتحاد. تقدم أولئك العملاء تقاريرهم مباشرة إلى جنرالات

الوزارة الذين سيساعدونهم "على متابعة مهمتهم دون عوائق". كما سيتم توفير الاحتياجات الضرورية للعبيد كاملة حتى يصبحوا مهيئين لأداء الخدمة وسيتقاضى العملاء رواتب غير مقيدة. وقد ذكر دوجلاس للنكولن أن "كل عبد يهرب من ولايات المتمردين يشكل خسارة للتمرد ومكسب لقضية الولاء."

وفي يوم ٢٩ أغسطس وهو نفس اليوم الذي أرسل فيه اقتراحه للنكولن، اجتمع مؤتمرالحزب الديمقراطي في شيكاغو ورشح ماكلان للرئاسة. وكتب أحد مؤيدي لنكولن له يخطره أن مرشحهم سيكون واحداً "لأن جيفرسون دافيز قد ينسحب."وحينذاك تبدت حاجة أكثر إلحاحاً لخطة براون.

حوّل دوجلاس دعمه إلى لنكولن وتخلى فريمونت عن ترشيح نفسه من أجل وحدة الجمهوريين. وأراد دوجلاس أن يجول في البلاد كي يحشد المصوتين من أجل لنكولن، لكن لجان الجمهوريين كانت شديدة الحساسية نحو تهمة "حزب الزنوج" كما لاحظ دوجلاس. لذا، ظل يعمل من وراء ستار.

لم يتم تنفيذ خطة براون أبداً، لأن الجنرال ويليام شيرمان استولى على أطلانطا يوم ٢ ديسمبر في أهم انتصار للاتحاد منذ فيكسبرج، وانطلقت كلماته الشهيرة: "أصبحت اطلانطا لنا، وكسبنا معركتها بالعدل." تتردد عبر أرجاء الشمال. أمر لنكولن بإطلاق مئة مدفع



تحيـة للنـصر في كـل واشـنطن ودعـا للاحتفـال بيـوم الـشكر والصلاة. وبمرور الوقت، بدأ شيرمان حملته نحو البحر، وانقضت الفرصة أمام جهود اصحاب "الرؤوس النحاسية" من أجل السلام. وبدا واضحاً أن لنكولن سيفوز في الانتخابات عاجلاً واعتبرت خطة "براون" غير ضرورية حيث آمن كل شمالي- تقريباً- أن الحرب ستنتهي قريباً.

عد جون إيتون صداقة لنكولن- دوجلاس اختباراً لدبلوماسية الرئيس المعتمدة على تعاون الحزبين إذ قال إن واحدة من مهارات الرئيس الكبرى "تبدو في تعامله مع الذين يميلون للتنقيب عن الأخطاء في سياساته." لم يكن لدى إيتون وسيلة لمعرفة أن لنكولن قد طور تلك المهارة على جبهة إيلينوي مع خصومه بدءاً من جاك أرمسترونج حتى ستيفن دوجلاس. لأنه أعلن من ٢٢ عاماً خلت: "لو أردت أن تكسب شخصاً لصفك، فأقنعه أولاً بأنك صديقه المخلص." وقد خدمته تلك العقيدة جيداً لأنه طبق تلك السياسة مع عدد لا يحصى من لسود بالفعل.

استطاع دوجلاس مصادقة لنكولن لأن الرئيس تحول أخيراً لصالح قضية العتق، وظل- أيضاً- مخلصاً لصداقته التي يعتمد مبدأها على المشاركة في قضية واحدة. فكلا الرجلان احتاج كل منهما الآخر. إذ احتاج لنكولن لدوجلاس لإنقاذ الاتحاد، وهو قد



خدم هدف دوجلاس بتحرير العبيد، وعند لقائهما في أغسطس ١٨٦٤ أدرك الرجلان أن هدفيهما توأمان يدعمان بعضهما بعضاً.

لكن صداقتهما ارتكنت أيضاً إلى قدرتهما على التسامح. وكرجلين عصاميين يقومان بتغيير نفسيهما باستمرار، أدركا أن عدو الأمس قد يصبح صديق الغد والعكس أيضاً صحيح، ورفضا أن ينظرا لنفسيهما باعتبارهما جامدين أو ساكنين. ولكي يحققا التحول، احتاجا للتسامح مع أعدائهما السابقين ونسيان سيئاتهم، والثقة في احتمال تغيرهم، وأدى بهما إيمانهما بقوة المغفرة إلى توفير الامكانيات للتقارب، ومنحهما القوة لمواصلة التطور.

***

عندما تقابل دوجلاس ولنكولن للمرة الثالثة في ٤ مارس ١٨٦٥، كان الجو العام مبهجاً. إذ جاء دوجلاس إلى واشنطن ليحضر التنصيب الثاني له، فالحرب أوشكت على الانتهاء وتم تجنيد ١٧٠٠٠٠ جندي أسود يزحفون منتصرين عبر الجنوب وقد مرر الكونجرس مؤخرا التعديل الثالث عشر لاغياً الرق في جميع أنحاء الولايات المتحدة.

كان اليوم بارداً ممطراً، وغطى الوحل الشوارع غير الممهدة "وتدفق الناس حول مبنى الكابيتول وهم في حالة ارهاق،" فالكثيرون منهم ظلوا متيقظين طوال الليل بعدما استقلوا قطارات خاصة للافتتاح الرئاسي تصل لواشنطن في الصباح وبين غبار

الرماد الجمر المتطاير من القطارات والوحل والأمطار، بدا الثلاثون ألف الحاضرين مرهقين تماماً ويغطيهم اللون الرمادي. "فقماش الكرينولين القطني "تكرمش"، والتنورات "تلطخت"، والملابس المموجة العتيقة والقطيفة وما إلى ذلك من ملابس جافة لونها الوحل من أطرافها لأطرافها."

وصل دوجلاس قبل أربعة أيام من موعد التنصيب، وفي ٣ مارس احتسى الشاي مع سالمون تشيز وزير الخزانة السابق والذى كان حينذاك قاضي قضاة المحكمة العليا. كان دوجلاس قد التقى تشيز أثناء سلسلة محاضرات عن تحرير العبيد قبل الحرب وأحبه، وقد فرح بإحلال تشيز محل تاوني الذي كان قراره في قضية دريد سكوت سبباً جزئياً في اشتعال الحرب، وقد خاطوا روباً جديداً لقاضي القضاة كي يتلو- وهو يرتديه- قسَمَ العمل بوظيفته وساعده دوجلاس على تجربة الروب.

كانت القبة الحديدية الجديدة قد استقرت حينذاك في خيلاء على قمة مبنى الكابيتول، وكانت عمليات التجديد قد توقفت لفترة وجيزة عام ١٨٦١. لكن لنكولن أمر باستمرار العمل في استكمال القبة، لأن في استكمالها رمز لعودة الاتحاد حسبما كان يعتقد. لكن بالنسبة للعديد من الديمقراطيين وبينهم هيرمان ملفيل، كانت القبة الحديدية الجديدة نذير شؤم . . . فكتب ملفيل:



قد تأتي القوة غير وهي لم تمسح بالزيت المقدس
والسلطان الذي لايسعى إليه الأحرار كذلك.
أما القبة الحديدية،
بكل قوتها على الإحتمال ومواجهة الاجهاد
فتلقى بظلها الهائل بطول الميادين،
بينما يهرب حلم المؤسسين منا ...

ثار قلق ملفيل من أن قد (تلقى بظلها الثقيل بطول وعرض "الميادين والشوارع في أمريكا وتفرض سلطاناً غير مسبوق على المجتمعات والمدن وبذلك تدمرحلم المؤسسين للدولة، حلمهم باتحاد فضفاض وواسع لولايات الوطن، وحكومة غير مركزية."

كان تمثال "سيدة الحرية" البرونزي يقف في فخار فوق قمة القبة، وبدت غريبة الشكل وهي ترتدي خوذة بدلاً من القلنسوة تماماً مثل إلهة الإغريق. لكن وزير الدفاع جيفرسون دافيز، الذي أشرف على نصب التمثال بحكم مركزه، كان يعلم أن وضع القلنسوة على رأس امرأة لدى الإغريق القدامى كان يعني علامة على أنها "عبد محرر". لذا، اقترح وضع خوذة بدلاً منها .

وقف دوجلاس بين الجماهير في انتظار بدء الاحتفال. ثم قام أحد الأصدقاء بالإشارة نحو أندرو وهو نائب لنكولن الجديد، وما أن لاحظ جونسون وجود دوجلاس حتى تحولت تعبيرات وجهه في



الحال إلى "حقد واحتقار ممرور" وعندما رأى دوجلاس يراقبه اتخذ مظهراً أكثر وداً وصداقة". أما بالنسبة لدوجلاس، فقد كانت تلك لحظة "تنفتح فيها أبواب الروح الإنسانية فتبدى شخصيته الحقيقية." فعاد إلى صديقه وقال: "مهما تكن طبيعة أندرو جاكسون، فهو بالتأكيد ليس صديقاً لنا ولا لجنسنا." ورغم أن سياسات لنكولن وجونسون بشأن إعادة البناء متشابهة، إلا أن سلوكهما الشخصي تجاه العبيد كان متناقضاً.

ومع مثل هذه الأعداد الكبيرة من الناس مجتمعة حول الكابيتول، انتاب دوجلاس القلق من أن تقع محاولة اغتيال. ولم يكن يشعر وحده بهذا القلق. فمنذ خريف ١٨٦٤ في الشمال انتشرت تقارير المراسلين تتحدث عن مؤامرات تحاك بالليل، وقد استأجر لنكولن مؤخراً حارساً شخصياً. وخلال إلقاء الخطاب وقف إلى جواره رجال شرطة في ملابس عادية مسلحين بمسدسات كولت ٣٨. وكان جونسون ويلكيس بوث أيضاً حاضراً يشاهد لنكولن من الشرفة اليمني للمبنى، ووقف دوجلاس أمامه مباشرة، وكان بذلك يحتل موقعاً ممتازاً للرؤية. ربما كان على دوجلاس أن يقلق على نفسه لأنه قبل عام حاول أحد الأشخاص اغتياله في بالتيمور.

وكما ثبت بعد ذلك، فقد كان الحفل "رائعاً تماماً، وشيقاً، وجاداً، وفلقاً لملاحظة دوجلاس." كما ساد "سكون ثقيل خيم

على الجماهير" وأثناء إلقاء لنكولن لخطابه شعر دوجلاس أن الحفل يبدو كموعظة لا كخطاب دولة.

أكد لنكولن في خطابه أن الله "لا يحيط به شيء"، فكلا الطرفين يقرأ نفس الكتاب المقدس ويصليان لنفس الإله، ويتوسلان طلباً لمساعدته ومعونته ضد الآخر، قال أنه يتخيل أن غضب الله ينزل الانتقام على ملاك العبيد. لكنه تجنب في حذر شديد ادعاء معرفته إرادة الله. فمثل ذلك الادعاء سيكون غطرسة "لأن الله القادر له- دائماً- مقاصده الخاصة. وإن الاتجاه الأمثل نحو الناس والأمم يجب تمثل في التواضع والتسامح والمغفرة. ينبغى عدم إضمار الشر نحو أي شخص، وتمني الخير للجميع."

وبعد الحفل، ذهب دوجلاس إلى حفل الاستقبال في البيت الأبيض، وبينما كان يهم بالدخول، جذبه إثنان من الشرطة بعيداً بوقاحة، وأخبراه أنه غير مسموح لأي شخص ملون بالدخول. فقال لابد أن خطأ ما قد حدث لأن مثل تلك الأوامر لا تصدرعن الرئيس. لكن الشرطيين رفضا الاقتناع إلى أن قام بإرسال "كلمة" للرئيس بأنه موقوف عند الباب.

وجد دوجلاس الرئيس لنكولن في الحجرة الشرقية الأنيقة واقفاً "مثل شجرة صنوبر جبلية ببساطته العميقة وبهائه المألوف." قال لنكولن: "ها هو صديقي يأتي إليّ." وأخذه من يده مضيفاً: "أنا

سعيد لرؤيتك. لقد شاهدتك بين الجمهور اليوم تستمع لخطابي الافتتاحي." ثم سأله عن مدى تقديره للخطاب وأكمل: "ليس هناك شخص في هذا البلد أقدر رأيه أكثر منك."

فأجابه دوجلاس: "سيد لنكولن، لقد كان ذلك جهداً مقدساً."

أصبح خطاب التنصيب الثاني بالنسبة لدوجلاس، واحداً من أعظم فرائد الأدب الأمريكي. وكان كثيراً ما يقوم بالاقتباس منه ولم ينتقده أبداً رغم حفل بنغمة تهادن مشابهة لما جاء بخطاب "لنكولن" في تنصيبه الأول.

أدرك دوجلاس الآن أن مهادنة المتمردين ليست في حدّ ذاتها سياسة مضللة. ربما كان ذلك الفهم يرجع لعلاقته الودودة مع لنكولن، فهو- مثل الرئيس- يؤمن إيماناً عميقاً بقوة المغفرة التي تؤدي للتصالح. لكن المغفرة لا تكون لها قوة أخلاقية الا عندما يعترف المتمردون بأخطائهم، وإلا فهي تزيدهم قوة وتسمح لهم بالاستمرار في الخطيئة وارتكاب الفظائع. فالمغفرة- عندئذٍ- سوف تؤدي لمسالمة البيض دون أي تغيير في سلوكهم تجاه السود، وفي النهاية كان ذلك بالطبع هو ماحدث.

في يوم ٩ أبريل، بعد شهر تال، استسلم "لي" للقائد جرانت عند أبوماتوكس. سمع لنكولن الأنباء مساءً وفي اليوم التالي أمر بإطلاق



خمسمائة مدفع تحية لإعلان النصر، وتجمع آلاف من الناس حول البيت الأبيض للاحتفال به. عزفت الفرق موسيقاها، ورفرفت الأعلام، وانطلق الناس في الغناء، والضحك، والصياح، ووصف ذلك أحد المحتفلين أن "كله... كله يهلل." وبدأت الجموع تغني للنكولن. وفيما بعد ظهر في نافذة من الطابق الثاني، وطلب من الفرقة الموسيقية أن تعزف لحن "ديكسي" وهو لحن مرح ارتبط بقضية المتمردين، وقال لنكولن للجماهير: "إنه واحد من أفضل الألحان التي سمعها في حياته. لقد حاول أعداؤنا مدة طويلة أن يخصّوا به أنفسهم، لكنني أصررت بالأمس على أننا (أسرناه) لدينا بشكل عادل." وهكذا عزفت الفرقة لحن "ديكسي" * ثم انتقلت إلى لحن "يانكي دودل". وفي يوم ١٤ أبريل، بعد خمسة أيام من إعلان النصر، أرسل جون ويلكيس بوث رسالة إلى جريدة "الناشيونال إنتلجنس" في واشنطن. فطوال الشهور القليلة الماضية كان بوث قد استطاع أن يجند فرقة صغيرة من جنود الكونفيدرالية لاختطاف لنكولن ليطلب مقابله إطلاق سراح ألف من سجناء الحرب المتمردين. كانت الخطة الأصلية أن يوقعوا لنكولن في كمين خلال انتقاله بالعربة إلى دار الجنود وخطفه ونقله إلى ولاية فيرجينيا الكونفيدرالية. كان بوث قد تقابل مع جواسيس كونفيدراليين في مونتريال بكندا وربما يكون قد تسلم منهم (أموالاً وتعليمات سرية) .

كما أن واحداً من رجاله قابل جودا بنجامين وزير خارجية الكونفيدرالية الذي كان يشرف على العمليات السرية. لكن بعد أن استسلم "لي" لجرانت، كان على بوث أن يغير خطته لأنه لم يعد يستطيع تطبيق عملية المقايضة، لكنه رفض أن يصدق أن الجنوب قد هُزم وأن العبودية انتهت تماماً، فكتب في يومياته: "إن قضيتنا أوشكت أن تضيع، ولابد من عمل حاسم وعظيم." كان خطاب بوث للجريدة دعوة لجمع السلاح من أجل المتمردين ." قال إن بلدنا أنشئ من أجل البيض لا السود، فالعبودية تنشط النمو الاقتصادي وترتقي بالسود، وتمثل الخير العميم الذي أضفاه الله على بلدنا المحبوب." وقال إن لنكولن يهدد بالقضاء على كل شيء ما هو فاضل في الجنوب، وشبه بوث لنكولن بيوليوس قيصر، وهي شخصية يعرفها كلا الرجلان من خلال عشقهما المشترك لشكسبير. وكان لنكولن قد شاهد عرضاً لمسرحية "يوليوس قيصر" في مارس ١٨٦٤ بطولة إدوين بوث أخي جون بوث. وفي نوفمبر من نفس العام مثل جون– نفسه– دور مارك أنطوني في عرض خيري لهذه المسرحية من أجل جمع أموال لعمل تمثال لشكسبير في سنترال بارك. لكن جون بوث فضل أن يقوم بدور بروتس في الحياة، وختم خطابه لجريدة "الناشيونال إنتلجنس" بقوله: "عندما انتصر قيصرعلى أعداء روما، وهددت قوته وسلطاته حريات الشعب، نهض بروتس وقتله، وكانت

طعنات خنجره تنطلق من حبه لروما . كان بروتس يوجه ضرباته لطموح وروح قيصر، وكان لا بد أن ينزف قيصر دماً لقاء أفعاله."

وصل أبراهام وماري ليلة ١٤ أبريل متأخرين عند مسرح فورد بواشنطون لمشاهدة مسرحية "ابن عمنا الأمريكي" وهي كوميديا من الدرجة الثالثة. كانا قد عزما الجنرال جرانت وزوجته جوليا . لكن عائلة جرانت كانت قد سافرت إلى نيوجيرسي لرؤية أولادهما . وفي صباح ذلك اليوم كانت ماري تشعر بصداع وقالت له إنها ترغب في البقاء بالبيت، لكن زوجها "كان مصرا على الترويح عن نفسه وارتبط ذلك بالمسرح" فذهبت عائلة لنكولن مع زوجين يحبان مرافقتهما: الميجور هنري راثبون وخطيبته كلارا هاريس ابنة نائب نيويورك. وبينما كانوا يدخلون مقصورة الرئاسة بالقرب من خشبة المسرح بدأت الأوركسترا تعزف لحن "المجد للرئيس" لإيقاف العرض قليلاً، فذهب لنكولن إلى سور المقصورة وانحنى مبتسماً والجمهور يحييه بجنون.

فجأة، بدا المسرح كعائلة متحابة ورمزاً مجسداً للأمة، على الأقل هذا ماشعرت به جوليا شيبرد التي جلست وسط المسرح تشاهد العرض وهي تشرح لوالدها ما ترى: "الرئيس هناك، في أعلى اليمين بالمقصورة الخاصة المزينة بالأعلام الحريرية في أناقة فوق صورة لجورج واشنطن، وابنة النائب هاريس الصغيرة الجميلة هي الوحيدة التي

نستطيع رؤيتها من بين رفقة الرئيس لأن الأعلام تخفي الباقين، لكننا نعرف أن الأب أبراهام موجود هناك، مثل الأب الذي يتابع مايهم أبناءه من أجل متعتهم وليس متعته، وكم يبدو المشهد اجتماعياً، مثل أسرة واحدة تجلس حول نار الرواق . كان الجميع سعداء للأيام التي ضحكوا فيها وتصايحوا لكل طرفة كوميدية. ذلك ما كان عليه الشعور العام ."

كان هناك واحد من أعضاء تلك الأسرة قد تهربَ من أداء مهامه ،فجون باركر ضابط الشرطة الذي تم تعيينه لحراسة مدخل مقصورة الرئيس ترك خدمته لمشاهدة المسرحية، وبعد ساعة من مشاهدته لها خرج ليتناول مشروباً . كان لباركر تاريخ سيء في العمل، فقد تم اتهامه عدة مرات بالسُكر. كما أهمل عمله لمدة أسبوع جرياً وراء متعته في بيوت العاهرات.

بعد العاشرة مساء بقليل أبرز جون ويلكيس بوث بطاقته لبواب المسرح أسفل السلالم المؤدية لمقصورة الرئيس، وتعرف عليه البواب جيداً وتركه يمر لأن بوث كان قد قام بالتمثيل في مسرح فورد عدة مرات. وفي صباح ذات اليوم كان بوث قد أحدث ثقباً في باب المقصورة يتلصص منه، ورأى وهو ينظر من خلال الثقب لنكولن من الخلف جالساً على مقعد متأرجح، ثم دخل بهدوء إلى المقصورة ورفع مسدسه نحو رأس لنكولن على بعد قدمين فقط. ثم أطلق

الزناد. كانت الساعة نحو العاشرة والنصف مساءً.

حاول العقيد روثبون إمساك بوث. لكن القاتل جرحه بخنجره وقفز من المقصورة إلى خشبة المسرح. لكن مهماز بوث علق بشراشف العلم المدلى من المقصورة للزينة، وسقط فوق قدم واحدة وانكسر عقبه، فلوح بخنجره الدامي صائحاً: "هذه نهاية كل طاغية!" وهذه الجملة هي شعار ولاية فيرجينيا. ثم هرب من خلفية المسرح. عندئذٍ، وفي المقصورة، سمع الجميع نحيب وعويل ماري: "لقد قتلوا الرئيس .. لقد قتلوا الرئيس. ياإلهي! لقد أسلمت زوجي للموت."

كان اليوم هو يوم الجمعة الطيبة. حالما أدرك الأطباء أن لنكولن لن يموت لحظتها، نقلوه إلى منزل خاص يملكه ويليام بيترسون بجوار المسرح، وهو تاجر وترزي. كانت توجد في خلفية الدور الأول غرفة ضيقة بها سرير صغير. وحيث كان السرير صغيراً جداً بالنسبة لطول لنكولن فقد وضعوه بشكل مائل. ورغم علمهم أن طلقة بوث كانت مميتة لكنهم لم يريدوا للرئيس الموت داخل مسرح فهو مكان غير ملائم إن لم يكن مكان للكفر في رأي الكثير من الأمريكيين.

وخلال التسع ساعات التالية انتظرت ماري أن تسمع خبر وفاة زوجها، وظلت لساعات قلائل جالسة بجواره، ومن بين زفراتها



المستمرة كانت تناديه بأسماء محببة وتطلب منه أن يقول لها بضع كلمات. لكن لنكولن لم يستعد وعيه ثانية أبداً.

وعندما وصل روبيرت تود لنكولن ورأى حالة أمه، أرسل في طلب إليزابيث ديكسون أقرب صديقات ماري من واشنطن، التي ساعدتها خلال الأزمة وأقنعتها أن تستريح في غرفة ملحقة حيث أمكنها أن ترتاح وأن تطل على زوجها كل ساعة، وأرادت ماري أن يحضروا لها ابنها تود ذا الإثنتي عشرة سنة للمنزل ليحضر وفاة والده، لكن الأطباء رفضوا ذلك بسبب أن ماري كانت تقع في نوبة إغماء كلما صعب تنفس زوجها. ووجد إدوين ستانتون وزير الحرب الذي تولى مسئولية الإجراءات التالية للحادث أن في وجودها خطر عليها، فأمر رجاله: "خذوا هذه السيدة للخارج ولا تدعوها تأتي هنا مرة ثانية!"

اكتظت الحجرة برجال الدولة، وكان كل وزراء لنكولن حاضرين عدا ويليام سيوارد الذي تعرض للهجوم وكاد يُقتل على يد لويس بن شريك بوث. كما أن بوث كان قد أمر شريكاً ثالثاً هو جورج آتزيروت باغتيال أندرو جاكسون نائب الرئيس. لكن آتزيروت تجاهل الأمر وتجول بلا هدى "خلال شوارع المدينة". وكان ستانتون عالي الكفاءة لدرجة أن كل متآمري بوث تم اعتقالهم خلال ساعات قليلة،



حتى بوث نفسه تم تعقبه وقتله يوم ٢٦ أبريل في مزرعة بشمال فيرجينيا.

ألقت ماري نظرة أخيرة على زوجها عند ظهور ضوء الفجر الممطر القادم من النوافذ مثل "شموع خافتة". وبسماع صوت غرغرة الموت أدرك الأطباء أنها بداية النهاية فاندفعت ماري في العويل: "ياالله، هل أسلمت زوجي للموت؟" ثم انهارت فجذبها ابنها روبيرت بعيداً.

عند الساعة ٢٢ ر٧ صباح يوم ١٥ أبريل التقط لنكولن آخر أنفاسه، فطلب ستانتون من الطبيب فينياس جورلي، كاهن أسرة لنكولن وراعي كنيسة شارع نيويورك البريسبتارية بواشنطن، تلاوة صلاته. فانهار روبيرت لنكولن فجأة ومال على تشارلز سومنر مستنداً، وعندما انتهت الصلاة انهالت دموع ستانتون فوق خديه، ثم رفع ذراعه اليمنى قائلاً: "إنه الآن في ذمة التاريخ."

عندما علم دوجلاس بنبأ موت لنكولن غلبه الحزن. كان في منزله في روشيستر وشعر بأن ذلك النبأ "مأساة شخصية وقومية". وفي ١٥ أبريل بعد ذلك، ألقى خطاباً مرتجلاً في سيتي هول حيث اجتمع عدد من المواطنين لرثاء موت الرئيس. لم يكن ذلك وقت الخطب وإنما وقت الصمت والصلاة هكذا قال دوجلاس وكان ذلك ترداداً لمشاعره حول عدم قدرة الخطابة على التعبيرعن مواقف

معينة عشية ذكرى الانعتاق وتحرير العبيد . وهكذا ألقى خطاباً رائعاً مرة أخرى. وبعد اقتباسه كلمات من خطاب لنكولن في حفل تنصيبه ، سعى دوجلاس لإبراز معنى مأساة موته "رغم أن أبراهام لنكولن يموت إلا أن الجمهورية تحيا ." وحد موت الرئيس فجأة بين السود والبيض في الشمال "وجعلت منا ذوي قربى" كان استشهاده رمزاً للمغفرة والتصالح العرقي ولسلام دائم لايحمل شراً لأحد ويحمل الخير للجميع. وشبه دوجلاس لنكولن بمسيح أمريكا: "ربما يكون في دم رئيسنا الشهيد المحبوب خلاص وطننا ." فالناس سوف يتحدون، ويصبحون كالأقارب بفضل ولائهم للأمة بدلاً من ولائهم للون بشرتهم."

وإذا كان موت جون براون قد بدأ الحرب التي أنهت العبودية– كما يعتقد دوجلاس– فإن موت لنكولن يمكنه أن يبدأ طريق التصالح بين السود والبيض. بيد أن أغلب البيض تعاملوا مع وفاة لنكولن بأسلوب مختلف. فاستشهاده يؤدي لخلاص الأمة، ويمهد لعملية إعادة الوحدة بين بيض الشمال وبيض الجنوب، وأصبح يمثل مسيحاً أمريكياً غفر للمتمردين خطاياهم وسمح لهم بالعودة للاتحاد . قال أحد الكهنة يوم الأحد التالي لوفاة لنكولن: "إن المسيح عيسى مات من أجل العالم، وأبراهام مات من أجل وطنه."

وأصبحت مشاعره الودودة لازمة شعبية يكررها الناس. وبالتالي أصبح جون ويلكيس بوث يمثل يهوذا الأسخريوطي الأمريكي. كما قال بعض الناس أنه "الأسوأ من سميّه" لأنه قام بالاغتيال في حين كان يهوذا الأول مجرد خائن يجمع الذهب ويترك الآخرين "ليقوموا بأعمال القتل".

قاد بيض الشمال عملية المصالحة، فضمنوا العفو لكل المتمردين تقريبا وأعادوا الأملاك المصادرة لهم بدلاً من توزيعها على السود الذين ساعدوهم في الفوز بالحرب. وعكست تلك السياسة رسالة لنكولن في التسامح في خطابيه الافتتاحين، وبالتأكيد خطته في إعادة البناء كذلك.

والمشكلة في هذا الشكل من أشكال المغفرة هى أن الجنوبيين لم يعتقدوا أنهم أخطأوا، وأنهم آمنوا بأن العبودية ليست خطأً ، وأن الشمال هو المعتدي فلا عجب أنه في العام الأخير للحرب لم يتمنى المتمردون أكثر من رؤية لنكولن ميتاً (أو معزولاً من منصبه) .والواقع أن الكونفيدراليين خططوا لتفجيرالبيت الأبيض. وعقب اغتيال لنكولن، ابتهج المتمردون عبر أرجاء الجنوب .بيد أن ابتهاجهم توقف بسرعة لأنه بعد انتهاء الحرب وفقدان قضيتهم أراد الجنوبيون أن يعودوا للاتحاد فقبلوا سياسة لنكولن بالتسامح دون إبداء أي ندم. وبدأ قادة التمرد ذو التفكير المتزن وكذلك الشماليون المتعاطفون

معهم في التعامل مع موت لنكولن باعتباره مأساة قومية. فأعلنت افتتاحية إحدى الصحف الديمقراطية أنه " بوفاة مستر لنكولن، فقد شعب الجنوب أفضل أصدقائه." كما كرر الجنرال جوزيف جونستون قائد التمرد نفس المشاعر بقوله إن موت لنكولن "كان أعظم مأساة ممكنة للجنوب،" بسبب سياسته في التسامح. كما قال أليكساندر ستيفينس نائب رئيس الكونفيدرالية أنه انتابته "أحلام مزعجة" غداة اغتيال لنكولن، وخصص يوماً للصوم وللعزاء لتكريم صديقه السابق. وتحولت مأساة موت لنكولن في الحال إلى عملية استرداد للمتمردين السابقين.

***

= خاتمة =

في الرابع عشر من أبريل لعام ١٨٧٦، في الذكرى الحادية عشرة لاغتيال لنكولن، ألقى دوجلاس الخطاب الرئيسي في حفل رفع الستار عن "نصب الرجال المحررين" في حديقة لنكولن في واشنطون العاصمة. وخلف منصة المتحدث، جلس رئيس الولايات المتحدة جرانت ومجلس وزراؤه، وقضاة المحكمة العليا، وأعضاء الكونجرس، ورجال الدين والدبلوماسيون وقليل من قادة السود. وعلى اليمين كانت الفرقة الموسيقية التي افتتحت الحفل بلحن "المجد لكولومبيا" وأمامهم النصب الذي كان محاطاً بالأعلام الأمريكية واحتشدت في نصف دائرة حول النصب جماهيرعددها خمسة وعشرون ألفاً، أغلبهم من السود.

نشأت فكرة النصب لدى امرأة محررة اسمها لوت سكوت، كانت قد انتقلت إلى أوهايو عام ١٨٦٤ بعد اغتيال لنكولن بأسابيع قليلة، ووهبت خمسة دولارات لعمل تمثال لتخليد ذكراه. وتراكمت الأموال عبر السنين في دفعات صغيرة أتي أغلبها من السود المحررين حديثاً أو من قدامى المحاربين السود. وفي النهاية تم سداد التكلفة

النهائية للتمثال البرونزي من تبرعات السود وصلت إلى ١٧٠٠٠ دولار. وقام الكونجرس بسداد ٣٠٠٠ دولار لقاعدة التمثال.

صمم التمثال الفنان توماس بول وهو نحات من بوسطون كان قد انتقل إلى فلورنسا بإيطاليا أثناء الحرب، وألهمته أخبار اغتيال لنكولن بإبداع نصب عن الحرية من الرخام الإيطالي.، وكانت اللجنة المسئولة عن اختيار التصميم والمشكلة كلها من الرجال البيض قد سمعت عن نموذج بول، وكلفته بصناعة واحد من البرونز.

تقدم جرانت إلى أمام منصة الخطابة لكشف الستار عن النصب ، وبعد لحظة صمت شد الحبال لترتفع الأعلام، وعزفت الفرقة "المجد للرئيس" وهتفت الجموع، ولم يبد واضحاً هل كانوا يهتفون لجرانت أم للنصب . كان التمثال يبين لنكولن واقفاً ويده اليمنى على منصة رفيعة تمسك بإعلان تحرير العبيد بينما يده اليسرى تلوح مرتبةً فوق رأس عبدٍ راكع، وعند القاعدة كلمة وحيدة تعلن "العتق".

كانت هيئة العبد الراكع أيقونة بين دعاة التحرير منذ بداية الحركة، ومع الحرب الأهلية أصبحت واحدة من أشهر (أو حتى أغرب) الصور في أمريكا ولأن الصورة الأيقونة ابتدعها البيض فهي ، ترى الصورة الأيقونية تصف العبد راكعاً وحيداً تماماً متوسلاً في صلاة ومتسائلاً: "ألستُ إنساناً وأخاً؟" وبالنسبة لمعظم البيض،

كانت الصورة الرمزية توحي بالتسليم لله وللبيض من أجل الخلاص. تمنى دوجلاس أن يعيدوا تصميم تلك الصورة الأبوية لنمطية، وأصدر تكليفاً باعداد نحت يمثل المسيح واقفاً وأمامه العبد الراكع وقام بتوزيع تلك الصورة كواجهة لكتاب هدايا لشعبي. لكن في تمثال فريدمان تحول لنكولن إلى مسيح أمريكا.

ومع تقدم دوجلاس نحو منصة الخطابة لإلقاء كلمته، نظر إليه بعض ممن في وسط الجمهور ليرى إذا ما كان يسيرمتكأً على عصا حيث أن ماري بعد وفاة زوجها أهدت دوجلاس بعضاً من أفضل عصي زوجها كتذكار لصداقتهما. ولما كان دوجلاس يعتبرها "رمزاً لعلاقة مقدسة" فربما تركها في المنزل.

لم يحب دوجلاس ذلك النصب حيث أخبر أحد أصدقائه لاحقا: "كان إضفاء لمسة أكثررجولة للتمثال سيوحي بالحرية." لكنه حينذاك تجنب انتقاده وبدلاً من ذلك أشار إليه "كشيء مثير للاهتمام بصورة سامية" و"عطاء متواضع". وملأه الأمل في أن يوفر خطابه علاجاً لتلك الصورة الأبوية لعبد راكع أمام مخلصه الأبيض.

كان دوجلاس يعرف أن تلك الكلمات قد تشعر بعض الناس بعدم الارتياح. واستطرد قائلاً: "إن الحقيقة تجبرني أن أصرح- حتى هنا وبحضور ذلك النصب الذي نصبناه في ذكراه- أن أبراهام لنكولن لم يكن، بكل معني الكلمة، لارجلنا ولانموذجاً لنا، فقد كان

أساساً رئيساً للناس البيض، وكرّس نفسه كلية لرفاهية البيض وشارك أبناء وطنه الاحكام المسبقة تجاه السود . "وبعدئذ خاطب دوجلاس كبار الشخصيات من البيض في المنصة خلفه قائلاً: "أنتم أبناء أبراهام لنكولن. أما نحن فعلى أفضل تقدير فأبناء زوجته."

لاشك أن كثيراً من كبار الشخصيات البيض قد اعتبروا كلمات دوجلاس وقحة وأن مذاقها سيء . لكن أولئك الذين تتبعوا مسيرته كانوا يعرفون ميله إلى تغيير مجرى حديثه ومفاجأة الجمهور، وهو أسلوب التقطه منذ زمن طويل من كتاب "الخطيب الكولومبي" الذي كان يستخدمه الآن.

واعترف دوجلاس "أنه بإعطاء الأولوية للاتحاد على مأساة السود، نجح لنكولن في تنظيم الشعب الأمريكي المخلص من أجل الصراع الهائل الماثل أمامه ثم اخرجته بأمان من ذلك الصراع ... ولو وضع تحرير العبيد قبل إنقاذ الاتحاد لكان خسر عددا كبيرا من مؤيديه، ولوجد أن مقاومة التمرد مستحيلة، وعندما ننظر للسيد لنكولن من أرضية دعاة تحرير العبيد نراه متردداً، وبارداً، وكئيباً بل وغير مبال. وعندما ننظر إليه بمقياس مشاعر أمته، وهي المشاعر التي ارتبط باستشعارها كرجل دولة، فهو سريع وغيور وثوري وحاسم أيضاً."

أجمل الخطاب على نحو مذهل خصائص رئاسة لنكولن،لقد قاد ذلك الجمهوري المحافظ " الأمة خلال الثورة. "والرئيس الأبيض الذي عامل السود كأبناء لزوجته تبناهم كأبنائه تماماً ، وكجزء من الاسرة الوطنية.وهكذا فإنه بتكريم لنكولن يكرم السود أنفسهم" هكذا قال دوجلاس.

والمفارقة الكبرى في خطاب دوجلاس هى أن ذلك النصب وبه ذلك العبد الراكع أمام لنكولن الواقف أمامه كشخص المسيح كان أكثر دقة مما أراد دوجلاس أن يصرح به، لأن العبيد في عام١٨٧٦ بدلاً من التقدم في طريق الحرية "كانوا يغرقون ركوعاً على ركبهم بعدما وقفوا لبرهة قصيرة تحت الشمس."

لقد ساعد رمز لنكولن كمسيح أمريكي علىاستعادة الكونفيدرالية، إذ استرد قادة التمرد السيطرة على إقليمهم، واسقطوا الإصلاحات الدستورية التي أنهت العبودية ومنحت حق التصويت للسود وحق المواطنة لكل إنسان ولد على الأرض الأمريكية. كما ترك أغلب القوات الفيدرالية "المركزية" الجنوب، وخلال أقل من سنة تلت الانتخابات المتنازع عليها لروزرفورد هايس تم إخلاء البقية الباقية من القوات، مما أنهى إعادة البناء وترك الرجال والنساء المحررين لمصيرهم أمام المتمردين غير التائبين ،وتحققت

مخاوف دوجلاس من الحرب الأهلية، لكنه بقي- رغم ذلك- صامتاً. فلماذا كان هكذا؟

مثل معظم السود الآخرين والبيض من دعاة التحرير، اعتبر دوجلاس نهاية الحرب كخاتمة للعصر وخاتمة لعمل حياته. كما وسمتْ نهاية لصناعته المتواصلة لنفسه. إذ اعترف بقوله بعد الحرب: "لقد سيطر عليّ شعور غريب وربما شعور خاطئ." كما أن السعادة الكبرى التي شعر بها في مساعدته لإنهاء العبودية "شابها بصورة طفيفة شعور من الحزن، لقد شعرت بأنني قد وصلت لنهاية أفضل وأنبل جزء في حياتي، فمدرستي انهارت، وكنيستي تمزقت، وجماعة المصلين المحبوبين تشتتوا، ولم نجتمع معاً ثانية." وأصبح إنجاز حياته الآن "بين طيات الذاكرة".

كان ذلك اعترافاً مدهشاً. في خطابه المعنون "ماذا يعني الرابع من يوليو للعبيد؟" عام ١٨٥٢، لخص دوجلاس فوائد التاريخ بقوله: "يجب أن لا نتعامل مع الماضي الا بقدر مايمكننا الاستفادة به في الحاضر والمستقبل." لكن الماضي أصبح حينذاك هو الموضوع الرئيسي. وتجاهل خطابه يوم نصب الرجال المحررين ما كان يحدث عندئذ للسود في الحاضر. إذ كانوا يغتالون بصورة تكاد تكون منظمة. ويتم إرهابهم من قبل الكونفيدراليين السابقين الذين حاولوا إعادة العبودية دون تسميتها كذلك. ومع ذلك، فقد رفض الرئيس

جرانت ورجال الكونجرس وقضاة المحكمة العليا- الذين أيدوا دوجلاس من قبل- أن يقاتلوا في هذه المرحلة الجديدة من الحرب الأهلية. لقد أعلنوا الانتصار، لكنهم تحولوا إلى عميان لا يرون مايحدث. هكذا أيضاً فعل دوجلاس. ففي خطابه تجاهل الانتهاكات المرتكبة في حق السود .وهو في ذلك الإطار يشبه رياضياً معتزلاً أو قائداً سياسياً اصبحت أعمال حياته وإنجازاته العظيمة وراء ظهره، ولم يعد قادراً على العودة لدخول المعركة بنفس الحماسة ونفس الأسلوب.

مثل نُصُب الرجال المحررين لدوجلاس ولدعاة التحرير الآخرين الوصول للذروة المرتجاة بدلاً من أن يكون بداية لنضال جديد . فقرار تحرير العبيد كان "المفتاح للجنة الموعودة" . ومثل باقي رفاقه، كان دوجلاس قد حدد الحرب بمفهوم عصر سيادة المسيح كحرب رهيبة مزلزلة تتم بمجيء الملاك ميخائيل مع ملائكته لمحاربة الشيطان. لكن الحلم أسفر عن كابوس مرعب، فالعصر الجديد ليس على مرمى البصر. وفي مواجهة تزايد الشكوك كمصدر الإحباط ، استدار دوجلاس ومعظم رفاقه الدعاة إلى الماضي مصدراً للعزاء ، وبالطبع استمرت الحياة، ودوجلاس كان في السابعة والأربعين عندما انتهت الحرب، كان قوياً من الناحية الجسمانية والصحية وقد يعيش ثلاثين عاماً قادمة. لكنه خلال تلك الفترة تغيرّ أكثرمن أي فترة أخرى في

حياته. ومنذ عام ١٨٧٠ حتى عام ١٨٩٥ أصبح قيادياً في الحزب الجمهوري ورجل دولة عجوز إذ آمن أن الجمهوريين قدموا آخر فضل للسود، ونبع ولاؤه الراسخ لحزبه- جزئياً- من ذكرياته عن ثوريته السابقة.

وفي عام ١٨٧٠ انتقل دوجلاس إلى واشنطن "العاصمة" واشترى جريدة "نيو ناشيونال إيرا" من جرائد الحزب الجمهوري. بيد أنه بدا معتدل الاهتمام بها. فلم يخصص لها أوقاتاً كثيرة سواءً كناشر أو كمحرر. لذا، افتقرت إلى الأسلوب الأدبي والعاطفة والشعور بالهدف الذي كانت عليه جريدة "نورث ستار" وحلفاؤها وبدت أحياناً أكثر اهتماماً بالقضايا الاقتصادية منها بقضايا السود وذلك ما عكس تحولاً للحزب الجمهوري من الحقوق المدنية إلى مصالح العصر الذهبي للرأسماليين. وبعد أربعة أعوام فقط من شرائه "نيو ناشيونال إيرا" وفي أعقاب اضطرابات عام ١٨٧٣، أخذت الجريدة في الهبوط وفي آخر سنة لها كانت "تُقرأ كجريدة يصدرها "لوبي" كبار رجال الأعمال."

كان دوجلاس أكثر تأثيراً في الدعاية لمرشحي الحزب الجمهوري. ففي عام ١٨٧٢ ساعد في إعادة انتخاب جرانت، وأقنع السود بالبقاء مخلصين للحزب رغم الفساد الكبير والعيوب الخطيرة التي تسبب فيها كبار زعمائه مثل تشارلز سومنر لأن جرانت والجمهوريين

شكلوا لدوجلاس "الأمل المرئي الوحيد للجنس الملون في الولايات المتحدة، فخارج هؤلاء لا نرى أية قوة يحتمل أن تقف بين الزنجي والقتل"، فقبل عام أرسل جرانت القوات الاتحادية لقتال جماعة الكوكلوكس كلان وبقية الجماعات الداعية لتفوق الجنس الأبيض. لكن طالما كان الجمهوريون الأثرياء يسعون للتحالفات الاقتصادية مع المزارعين بالجنوب فقد أصبحت تلك الحملات نادرة."

إن حزب لنكولن، الموجود به الآن جرانت ودوجلاس الذي شجع كثيراً من البيض على صناعة أنفسهم ووفر الحرية والمواطنة لكل مواطن أمريكي والتصويت لكل الناس، يمضي متسارعاً ليصبح حزب رجال الصناعة الأثرياء الذين أغلقوا أبواب الحزب دون أولئك الذين كانوا يناضلون من أجل الوطن.

عندما احترق منزل دوجلاس بروشيستر عام ١٨٧٢ اعتبر ذلك علامة على العصر. فبمجرد علمه بنبأ الحريق استقل أول قطار إلى روشيستر، وعندما وصل هناك ذهب إلى فندق لكنهم طردوه لأنه كان أسود. وياله من تغيير أحدثته الحرب! ففي العقد السادس من القرن التاسع عشر كانت روشيستر واحدة من أكثر المدن مناداة بالمساواة بين الأجناس في الوطن والآن لم يعد يستطيع حتى تأجيرغرفة، مما دفع به إلى الشك مع أن شخصاً ما قد أحرق منزله عمداً. هذا ما استنتجه قائلاً: "تلك الروح التي طردتني من الفندق

هي التي أحرقت منزلي." فانتقل بآنّا والأطفال- بعد ما خرجوا من الحريق دون أذى في روشيستر- إلى واشنطن.

كان للإخلاص الحزبي والولاء للحياة السياسية في واشنطن مقابل من الإكراميات، ففي عام ١٨٧٤ تم تعيين دوجلاس رئيساً لبنك فريدمان رغم عدم امتلاكه أية خبرة بنكية. وكان البنك بعد أن أنشأته الحكومة الفيدرالية عام ١٨٦٥ قد عمل كمؤسسة مستقلة لمساعدة العبيد المحررين على ادخار أموالهم، ولكن حالما استقر دوجلاس بمكتبه الوثير الجديد، اكتشف أن البنك على وشك الإفلاس إذ كان مديروه البيض فاسدين أو غير أكفاء، حيث أقرضوا ٥٠٠٠٠ دولار للبارون اللص جاي كوك بفائدة قدرها ٥% (أقل من نصف الفائدة السائدة) وكان ذلك وسط أقاويل أن إمبراطورية كوك المالية في طريقها للانهيار. أدرك دوجلاس في الحال أن مديري البنك أرادوا استغلال اسمه الموثوق به في استعادة ثقة العملاء، وحاول بصورة مبدئية إنقاذ البنك مودعاً ١٠٠٠٠ دولار من أمواله الخاصة، وأرسل برقيات إلى العبيد المحررين بالجنوب يحثهم على عدم سحب أموالهم في فروع البنك. لكن بعد ثلاثة أشهر على توليه الرئاسة، أغلق البنك أبوابه للأبد وقال مجملاً ما حدث: "لقد كان بقرة الرجل الأسود. لكنه كان "حليب" الرجل الأبيض." ورغم أنه

حصل على ١٠% فقط من رصيده، فإن السود المحررين فقدوا نصف إيداعاتهم.

تسلم دوجلاس أخيراً في عام ١٨٧٧ منصباً جمهورياً يحسد عليه ،كان قدشارك في حملة الترشيح للرئاسة التي قام بها الحزب لمرشحه راذرفورد هايس العام الماضي، وهي الانتخابات التي جرى التنازع عليها مع المرشح الديمقراطي صامويل تيلدين. ثم منحت لجنة انتخابات الرئاسة لراذرفورد هايس، معتمدة على التأييد— غير المسبوق— لأعضاء الكونجرس. ولتهدئة ديمقراطيي الجنوب وافق هايس على سحب باقي القوات الفيدرالية من الجنوب وهكذا أنهى مشروع إعادة البناء .ولتغطية خيانته للسود عين دوجلاس مارشالاً لمقاطعة كولومبيا، فكانت تلك هي المرة الأولى التي يحصل فيهارجل أسود على وظيفة فيدرالية تحتاج إلى موافقة مجلس الشيوخ وكان منصباً مرموقاً لأن هذه الوظيفة تستلزم قيادة الأعيان في موكب يدور حول المدينة. كان دوجلاس متباطئاً في الهجوم على هايس مما حدا بالنقاد إلى القول بأن "وظيفة سمينة أخرسته ."

وأحيانا ما أدى إخلاص دوجلاس الحزبي إلى عماه عن الصراع الطبقي الذي بدأ يشعل الانقسام العرقي من جديد . فالكثيرون من أثرياء الحزب الجمهوري أظهروا اهتماماً بالسود كوسيلة للحصول على الأصوات والسلطة السياسية. ولكن بمجرد ادراكهم أنهم لم يعودوا

في حاجة لأصوات السود يهملونهم ويعودون لصياغة تحالفات مع النخبة الجنوبية التي لم تندم على مافعلت بعد .

ان حالة دوجلاس الاقتصادية أعمته عن أحوال جموع السود . فخلال العصر الذهبي أصبح جمهورياً ثرياً . وكان يتقاضي من خمسائة إلى ستمائة دولارا لكل محاضرتين، وفي فترة قدرها ٣ أشهر، تلقى ٣٧٠٠ دولار لإلقائه محاضرات على النخبة البيضاء حول موضوعات متنوعة مثل الصحافة والتراث الشعبي. وفي عام١٨٧٧ اشترى ضيعة في أناكوستيا المعروفة بتل التفاح بها بيت من الطوب و ١٦ فداناً تطل على مبنى الكابيتول. وبين الأتعاب التى يتلقاها عن الكلام والاستثمار ودخله الحكومي، كون ثروة صغيرة مقدارها ٣٠٠٠٠٠ دولار.

وبالنظر إلى وضعه الحالي كرجل دولة كبير، ربما يصبح مفهوماً أن دوجلاس لم يعد يسعى لتغيير ثوري في عالمه أو يستمر في إعادة صنع نفسه، وقد حاجّ بعد مشروع إعادة البناء بأن "الحكومة أفضل من الفوضى وأن الإصلاح الهادئ الصبور أفضل من الثورة العنيفة." كان ذلك انقلاباً عميقاً على موقفه كأحد دعاة التحرير الثوريين. وفي الحقيقة أصبح حينذاك يقلل من جوانب ماضيه المتطرفة. ففي كتاب سيرته الذاتية أعاد نشر كتاباته عن غارة جون براون لكنه ألغى

الجملة التي يقول فيها "أنه كان مستعداً دوماً للتنظيم والحشد، بل والتآمر ضد العبودية."

عندما كان هناك "أول معقول للنجاح" . لقد أصبح حينذاك شبيها بلنكولن في منهجه التدريجي والمحافظ نسبياً تجاه الاصلاح.

لم يكن تحول دوجلاس إلى ماضيه بعد الحرب أمراً فريداً. فهو يتوازي مع تراجع أغلب دعاة الإصلاح مثلهم حول العصر الذى يسوده المسيح، إذ أصبح أكثر علمانية في رؤيته للعالم ولم يعد يؤمن أن الله يمكنه التأثير في شئون العالم، وبالتالي فوجود جنة على الأرض تبدو له وهماً خطيراً. فالحقائق المادية وقوانين الطبيعة قهرت كل "صلواته المسيحية". وبعد معاينة أربع سنوات من الحرب المرعبة، أصبح أكثر اتساماً بالطابع البراجماتي وأدرك تكلفة تحقيق المثل الوطنية.

ظلت ذكرى صداقته للنكولن تؤثر على حياته ومثله وسعى على نحو متزايد إلى متزايد ، فتزايد لتشكيل نفسه على صورة لنكولن .كان ولاؤه للحزب الجمهوري يشبه ولاء لنكولن ، ومثل صديقه السابق فقد اعترض في حدود القانون وحزبه. ولم يؤيد دوجلاس بعد الحرب ولا لمرة واحدة الوسائل غير القانونية لانتهاء القمع .

وكثيراً ما أشار دوجلاس في خطبته بعد الحرب إلى لنكولن وصداقتهما ، وبحلول العقد التاسع من القرن التاسع عشر استطاع

أن يتجاهل حقيقة أنه كان من أقسى نقاد لنكولن وأصبح حينذاك "اعظم رجل دولة"

في أغلب الوقت، لم يذكر دوجلاس تكلفة حرية السود على أنفسهم، فرغم أنه الآن أصبح أكثر براجماتية، وقادرا على الموازنة بين مثله ووقائع عالمه، إلا أنه ظل ناشطاً اجتماعياً لبقية حياته وكان يقول: "عندما كان العبد عبداً طلبت تحريره؛ وعندما أصبح حراً، طالبت بحريته الكاملة: كل أركان الحرية. ربما فشلت في أمور أخرى إلا هذا فلم أفشل فيه." فقد طالب بحرية العبيد بعدة وسائل منها الاعتراض ضد المحاكمات الرمزية والاعدام دون محاكمة ، وإرهاب عصابات الكوكلوكس كلان، وقوانين المستأجرين، وأساليب المزارعة، والحث على إجراء إصلاح داخل الحزب الجمهوري وغالباً ما تم استعادة ذكريات العبودية، وتحرير العبيد، بل ولنكولن.

وقع دوجلاس في هوى بيته الجديد بتل التفاح في أنا كوستيا، وكان يمشي خمسة أميال كل صباح يحملق بالكابيتول، وجرب الرياضة باستخدام "الدمبل" بانتظام. وكان أطفاله وأحفاده يزورونه غالباً ويظلون عدة شهور في بعض الأحيان .كان أباً محباً خيّراً وكان يدللهم بالرعاية والمال. واشترك في نادي اتحاد المدينة لشكسبير وتم تعيينه مسجلاً لسندات الملكية في مقاطعة كولومبيا التي تتطلب عملاً أقل عبئاً من مهام منصب المارشال .



ماتت آنا عام ١٨٨٢ في سن السبعين من عمرها، وكان دوجلاس في الرابعة والستين. ظلت تعاني آلام الروماتيزم الحادة التي أبقتها بلا حراك، بل ومشلولة أحياناً. وفي شهورها الأخيرة، قدمت لها الممرضات "رعاية صادقة ومستمرة" وماتت في هدوء. يذكرها دوجلاس بأنها "كانت عمود المنزل الذى جمعنا معا."

وبعد ثمانية عشر شهراً تزوج دوجلاس من هيلين بيتس، وهى امرأة بيضاء حاصلة على درجة جامعية وتصغره بعشرين سنة وعملت كسكرتيرة له. أغضب خبر زواجه الكثيرين من البيض والسود، ومن بينهم بعض أعضاء الأسرة لأنه لم يشرح ظروف ذلك الزواج جيداً وقال: "بينما تمثل آنّا لون أمي، كانت هيلين تمثل لون أبي." مما أوحى لبعض الناس أنه انحاز حينذاك للجانب الأبيض من هويته. وقد أصر – أيضاً – على أن النساء والرجال "بغض النظر عن الجنس أو لون البشرة" يجب أن "يسمح لهم بالاستمتاع بالحقوق الطبيعية العامة... (فاللون) كان قضية مصنوعة لتبرير الحط من شأن السود."

كان زواجهما رائعاً. وبينما كان بينه وبين آنّا القليل مما يتشاركان فيه بعد مغادرتهم بالتيمور، كان هناك الكثير من الاهتمامات المشتركة مع هيلين من أول الأنشطة الاجتماعية إلى عشقهما للموسيقى والأدب والسفر. في عام ١٨٨٨ ذهب في رحلة

كبرى إلى أوروبا وسط "موضة" الطبقة المتوسطة الأمريكية. وفي إنجلترا أقاما مع جوليا جريفيث كروفتس التي لم يرها دوجلاس منذ ست وعشرين سنة. وزارا روما وباريس واليونان ومصر وجلسا معاً لالتقاط العديد من الصور. مثلت الرحلة تناقضاً صارخاً بالنسبة لزواجه من آنّا التي لم تكن تهوى السفر ولم تظهر معه في أية صورة.

كانت أوتيلي آسنج تعيش في باريس عندما سمعت بزواج دوجلاس من هيلين بيتس. كانت منذ سنوات طويلة مضت، عندما هرب دوجلاس من أمريكا بعد غارة براون، قد ملأها الأمل في أن يقابلها في باريس– لكنه لم يفعل– والآن تأتيها الأنباء كالصاعقة فهيلين امرأة أصغر كثيراً منها وقد تزوجت بفردريك أمام الكاهن بالكنيسة.

وذات يوم مشمس، بعد الظهر، بعد زواج دوجلاس وهيلين بشهور قليلة تمشت أوتيلي آسنج نحو غابة بولونيا على الجانب الغربي لباريس وجلست على مقعد كان مختفياً إلى حد ما عن أعين المارة على ممر المتنزه وأخرجت قنينة صغيرة من حقيبة يدها وفتحت غطاء الزجاجة. ربما كانت تفكر في "فيرتر" بطل رواية جوتة "آلام فيرتر" ثم جرعت كمية سيانيد البوتاسيوم الموجودة داخلها. تم اكتشاف جثتها فيما بعد تلك الليلة، وعندما وجدت الشرطة تلك



الزجاجة حددت سبب الوفاة بأنه الانتحار. عاش دوجلاس وهيلين كزوجين متحابين لمدة إحدى عشرة سنة حتى وفاة دوجلاس عام ١٨٩٥، وقد استمتعا بضيوف مميزين وطلبة من جامعة هاوارد، وتليا أشعار بول لورنس دنبار والشعراء الآخرين، وأحياناً ماكانا يغنيان معاً، ويعزف دوجلاس على الكمان وهيلين على البيانو. لكنهما غالباً ما كانا يناقشان الحقوق المدنية ويحضران اجتماعات الإصلاح والمؤتمرات.

قبل أسابيع قليلة من وفاة دوجلاس بالأزمة القلبية في فبراير ١٨٩٥ سافر طالب أسود شاب إلى بروفنس في رود أيلاند حث كان يزورها دوجلاس، وأراد أن يعرف ما النصيحة التي يمكن لدوجلاس أن يقدمها لشاب مثله. كان يفكر في احتراف مهنة ما وكان سؤاله: "ماذا يمكنك قوله لشاب زنجي يريد أن يبدأ حياته؟ وماذا يجب أن يفعل؟" هب دوجلاس واقفاً بأقصى طوله ونظر إلى الشاب ثم إلى السماء وأجاب بصوته الأجش العميق: "حرّض .. حرّض.. حرّض !"

تقدير

بدأ هذا الكتاب كجزء من مشروع أكبر يدور حول الصداقة فيما بين الأجناس، وقد نشرت عام ٢٠٠٥ مقالة عن دوجلاس ولنكولن في مجلة "التايم" وأدين بالشكر لمحرريها كرسر فارلي وبرسلا بنّون وأندريا دورفمان لمساعدتي في صقل المقالة وأفكاري عن دوجلاس ولنكولن.

وكنت محظوظاً للغاية أن أمكنني العمل مع جون كارب في مركز توبلف. وهو محرر وناشر لامع وسعيد من يعمل معه وشخص مثالي في التفكير وله عين وأذن مثالية في تذوق النثر. كانت رؤاه سواء حين تناول الخطوط العامة أو الحبكة أو خطوات الدراما واختيار الكلمات والنهايات مدهشة ودائماً ما كانت في موضعها . وكان نات جراي في مركز توبلف أيضاً متعاوناً جداً ومشجعاً، وقد أتيحت لي منذ خمسة أعوام مضت فرصة الإشراف على رسالة نات في جامعة هارفارد حول "جون براون في المخيلة الأمريكية" وظلت واحدة من أفضل ماقرأت، وكانت حساسيته للغة غير عادية . كما أود أن أشكر– أيضاً– المراجع رولاند أوتو ويل وهو صائغ آخر للكلمات، حذر وتفصيلي لدرجة وجدت نفسي شديد التواضع عند مراجعة ذلك الكتاب. والشكر واجب أيضاً للمحرر الإداري للمشروع

روبيرت كاسيّللو لاقتراحاته الحكيمة ومرونته وصبره. كما قام عدد منه الأساتذة بقراءة بعض أو كل المخطوطات الاولى وأمدوني بملاحظات وتغذية حاسمة . كما أولت زو ترود المخطوطة عناية كبرى في القراءة، وقدمت لي اقتراحات مفصلة مفيدة لدرجة أنني وجدت نفسي في هلع من كثرة تقاريرها الجيدة المنتظمة. كما قرأ دان آرون المخطوطة كاملة وكانت انتقاداته النفاذة لا تقدّر. وقدم دافيد بلايت اقتراحات دورية وهامة وساعدني في توضيح حججي، وكانت جيمي جونز متعاونة عظيمة أخرى وقارئة مدققة، واقتراحاتها لايمكن الاستغناء عنها. وقام جاري روس بتشكيل رؤيتي للنكولن وتقنيات الحكي بأساليب تصل لما وراء هذين الموضوعين. وجعلت اقتراحات سالي جنكنز ومحادثاتها وأمثلتها للاقتراب وتفسير الماضي مني كاتباً أفضل. وواصل دافيد بريون دافيز تشجيعه ليلهمني كل أنواع السبل . كما أن أسئلة ستيف مينتز العميقة أجبرتني على إعادة التفكيرأو إيضاح مظاهر مختلفة في المشروع. وساعدني عدد آخر من الناس في أجزاء متعددة من الكتاب منهم لاري بويل ، دافيد دونالد ، ليلاند دولا ديورانتي ، ستانلي إنجرمان ، جيف فيرجسون ، بول فينكلمان ، سكيب جيتس ، والتر جونسون ، راندال كيدي ، موريس لي ، روبيرت ليفين ، تيم ماكارثي ، لوك ميناند ، ريتش نيومان ، بيتر نورنبرج ،

سوزان أو دونوفان ، تشارلز أوجليتري ، روبيرت باكيت ، مانيشا سينا ، بن سوسكيس ، جيمس بروورستيوارت ، روبيرت والاس ، وجون دود .

ومع ذلك هناك أساتذة لم أكن لأستطيع الحديث معهم مباشرة إلا أن أصواتهم مازالت ترن في سمعي خلال البحث والتدوين وهم روبيرت آبزوج، وبول آنجل، وجين بيكر، ورووي باسلر، وجون بلاسنجام، وجابور بوريت، وميشيل بيرلنجام، وريتشار كاروادين، وجيمس كالايكو، وسالي دينتون، وماريا ديتريتش، وإيريك فونر، وفيليب فونر، ووليام فري لينج، وإيرنست فيرجسون، ودوريس كيرتس جودوين، وجون هاي، وهارولد هولتز، ومارجريت ليتش، ووليام ماك فيلي، وجيمس ماكفرسون، وجون نيكولاي، وجيمس أوكس، وستيفن أوتس، ولويد أوستندوف، وبنجامين كوارلز، ودافيد رينولدز، وكارل ساند بيرج، وجيمس سيمون، وميتشيل فورنبرج، ورونالد هوايت، وجوجلاس ويلسون، وجاي وينيك. وحيث أنني كنت أعتمد بشدة على الأصول الأولى للمراجع فإنني مدين بالشكر والعرفان لسجلات المخفوظات التالية شاملة الناس الذين جعلوا مادتها متاحة: مكتبة بوسطون العامة، ومكتبة الكونجرس، وسجلات المحفوظات القومية، ومكتبة جامعة سيراكوزا، والجمعية التاريخية ببنسلفانيا. ومكتبة جامعة روشيستر، ومكتبات

كورنيل الجامعية ببوسطون، ومكتبة نيويورك التاريخية، وجمعية فيلسون التاريخية، ومكتبة جامعة إلينوي في أوربانا- شامبين، ومكتبات جامعة هارفارد ومكتبات جامعة ييل.

كما أود أن أقر بالجميل لأعضاء عائلتي الذين خرجوا عن مساراتهم لمساعدتي في إنهاء هذا المشروع: بيل وجين ستوفر، وراشيل ستوفر وجيم لوسون، ومارك وبيكي وكونور لافافر، وبريان وجين كانينجهام، وكريستين كانينجهام، وجيم وكاثرين هوردكين. وقد جعلت ديبورا كانينجهام، وإيريك إيسايا ستوفر اللذين أهديهما هذا الكتاب وجعلا كتابته أمراً ممكناً؛ الأولى لتحريرها الرائع للكتاب ودعمها ونصحها عند كل مرحلة، والأخير لفضوله وتساؤله اللامحدود، ولكليهما لحبهما لي.

جون ستوفر

كامبردج - ماساتشوستس



المحتويات